

أنور الجندي

الثقافة العربية

إسلامية أصولها وانتماؤها



المَوْسُوعَةُ الإِسْلاَمِيَّةُ العَرَبِيَّةُ

٩

الثقافة العربيّة

إسْلاميّة أُصُولِهَا وانْتِمائِهَا

بقلم

أنور الجندي

دار الكتاب اللبناني — مكتبة المدرسة

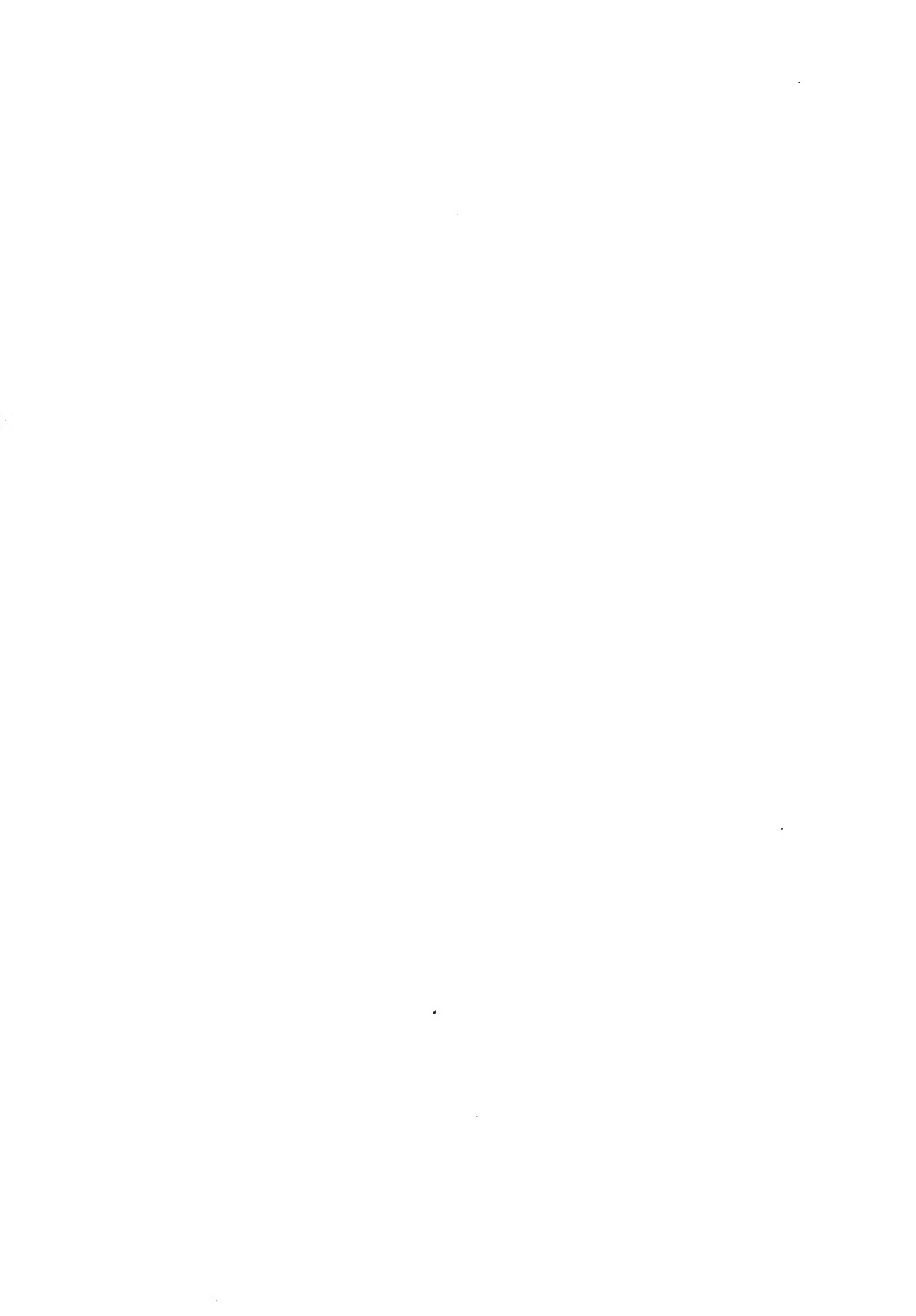
بيروت - لبنان

دار الكتاب اللبناني
ومكتبة المدرسة
بيروت - لبنان
ص.ب ٣١٧٦ - برقيا (كتالبنان)
هاتف - ٢٥٧٤٧٠ - ٢٣٧٥٣٧
TELEX No 22865 K.T.L
LE BEIRUT

الطبعة الأولى
١٩٨٢

الثقافة العربية

إسلامية أصولها وانتماؤها



بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

(١)

إن أكبر حاجة أمتنا في مجال الفكر والثقافة أن نستكشف ذاتنا ونسبر شخصيتنا ، ونصحح مفاهيم قيمنا ، ونعيد النظر في المصطلحات والكلمات في ضوء الحقائق التي كشفت عنها السنوات الاخيرة ، والوثائق التي رفع عنها الستار ، والتي تدعو العرب والمسلمين إلى التعرف على أبعاد حملة الغزو والتغريب والحرب النفسية التي تشنها القوى الاستعمارية والصهيونية من أجل القضاء على ذاتية العرب والمسلمين ، ومقومات فكرهم المستمدة من الفكر العربي الإسلامي .

إن الوثائق الكثيرة التي ظهرت في السنوات الأخيرة (وخاصة ما كشفت عنه بروتوكولات صهيون ، وموقفها من الثقافات والنظريات الفكرية والاجتماعية المطروحة) كل هذا قد أوضح مدى خطورة المخطط التي يحاول الأعداء إغراق العرب والمسلمين فيه رغبة في تدمير كيانهم ، وتحطيم معنوياتهم وشخصيتهم حتى لا يستطيعوا مواجهة حركة الغزو التي تنشب أظفارها بقوة في فلسطين ، وتتخذها رأس جسر إلى محنة كبرى للأمة العربية والعالم الإسلامي .

من هذا المنطلق تجيء الدعوة إلى محاولة تصحيح القيم والمصطلحات وتحريرها من الزيف الخطير الذي يراد صبغها به حتى يتحقق هدف الاستعمار والصهيونية من داخل دائرة الفكر الإسلامي والثقافة العربية .

وهذا هو أخطر ما يحفز الهمم نحو إعادة صياغة المفاهيم الأساسية في ضوء الأصول الأصيلة لها المستمدة أساسا من الإسلام والقرآن الكريم

إن حركة الغزو الفكري والتغريب تقوم على اساس تزييف الحقائق، وتمويهها، وإفساد مضامينها. ولقد تنبه المفكرون المسلمون منذ وقت بعيد إلى هذه المحاولة، وعملوا على الكشف عن الحقائق. ولقد أصيبت هذه الموجة بضربات متعددة، ولكنها ما زالت تضيف وقوداً جديداً، وتتحرك في أساليب جديدة، وأعتقد أنها هي كبرى قضايانا التي لا ينفد الجهد في العمل لها مهما اتسع وتشعب، واستمر جيلا بعد جيل.

وإذا لم يكن من اليسير القضاء على هذه الموجة، فلا أقل من العمل الدائب للوقوف في وجهها، وتصحيح ما تزيفه، ورفع الأغشية عما تموه به، ودحض الشبهات عما تحاول إسباغ صفة الطابع العلمي عليه.

إن الغزو الثقافي هو قضية هذا الجيل وهذا العصر، لأنه المحاولة الباقية للقضاء على قوة المقاومة النفسية القادرة دوماً على إعلان الحذر واليقظة إزاء مخططات الاستعمار والصهيونية.

إن آية الجهاد أن لا تجد موجة التغريب العاصفة الكاسحة، استسلاماً أو قبولاً. ولكن تجد دوماً معارضة ومقاومة ومواجهة وكشفا عن خططها.

وإذا كان الفكر والثقافة هما أخطر مجالات الغزو. فإن هذا الميدان وحده هو أكبر ميادين المقاومة والصمود فهذه هي خطوط المواجهة الواسعة، والثغور العديدة التي تحشد لها القوى، وتجند لها الأقلام بالمرابطة، وهذا هو خط الدفاع الفكري الذي يوازي تماماً خط الدفاع العسكري الصامد.

(٢)

من المعتقد أن مرحلة التبعية الفكرية القائمة على عقدة الأجنبي، أو الجري وراء بريق الفكر الغربي وتقليده والإعجاب به، والدعوة إلى نقله كاملاً قد انتهت، وأن مرحلة من الرشد الفكري والاستقلالية، وبروز

الذاتية والقدرة على التماس قاعدة أساسية مستمدة من الأصول والقيم الأساسية التي عرفها العرب والمسلمون منذ وقت بعيد. وأقاموا عليها كيانهم وحضارتهم، هذه المرحلة قد بدأت فعلاً.

لقد بلغنا مرحلة التشبع والامتصاص، ومضى دور التقليد والمتابعة، وبدأ دور الوضوح، والرشد، واكتشاف المزاج النفسي الاجتماعي الأصيل

ولقد كشفت حركة اليقظة العربية الإسلامية المتصلة عن مخططات الاستعمار والتغريب والتبشير والغزو الثقافي وعملت على ردها، ودحض زيفها، وإبراز ذاتية الفكر الإسلامي، والثقافة العربية القادرة على إمداد العرب والمسلمين بأسباب القوة والحركة والتقدم.

وإذا كان الاستعمار والتغريب قد حرصا على تشويه الفكر الإسلامي، والثقافة العربية كوسيلة للحط من شأن العرب والمسلمين، فإن ظاهرة واضحة قد أثبتت وجودها وأكدت ظهورها هي: بروز طابع اليقظة والحيطة والحذر من هذه التيارات المسمومة، بعد أن انكشف أمرها، وعرفت الدوافع الخفية والخلفيات التي تدفع إليها، فقد كان للصيحات المتوالية أثرها العميق في العقل العربي الإسلامي، والنفس العربية الإسلامية للتعرف إلى هذا الخطر الكامن من وراء نظريات كثيرة ومذاهب متعددة ما تزال تطرح في أفق العالم العربي الإسلامي، وكلها تحاول تدميره والقضاء على مقوماته.

ومن خلال مظاهر الثقافة والأدب، والقومية، والفلسفة، والحضارة، واللغة. وفي مجالات الاجتماع والاقتصاد والقانون، والتربية، والسياسة، تطرح مفاهيم متعددة متضاربة لتصارع المفهوم الأصيل الذي يستمده العرب والمسلمون من قيم فكرهم الأساسية.

ولقد طرحت نظريات وافدة في هذه المحاولات جميعا، جرت معها الثقافة العربية شوطا حتى استوعبتها، ثم كشفت عن زيفها ومعارضتها للقيم الأصيلة التي بنيت عليها أسس الفكر الإسلامي والثقافة العربية منذ أربعة عشر قرنا. ومن هنا فقد كان من الضروري إعادة تقييم هذ

المصطلحات والمفاهيم، والنظر فيها من جديد في ضوء أصولها الأصيلة، وفي مواجهة هذه التحديات التي فرضها الغزو الثقافي والتغريب. وذلك لوضعها في الصيغة المحررة بعيداً عن تشويهات التبشير والاستشراق، أو مغالطات التغريب والشعوبية.

هذا التحرر من مفاهيم الغرب والشرق، والتماس المنابع الأصيلة لفكرنا في مختلف هذه القضايا هو الطريق الوحيد لنهضة العرب والمسلمين ويقظتهم، وأمامنا كل الحقائق التاريخية تؤكد أن الأمم لم تنهض نهضة البناء إلا بالتميز والتفرد عن غيرها. ذلك هو الطريق الذي يشكل للأمم وجودها وحضارتها.

أما التشبه والتبعية والغرق في أتون الأمم، والتماس مفاهيم الثقافات والحضارات، فإنه هو العامل الأساسي للبقاء في مرحلة الانتقال التي لا تنتهي، والتي تحول دون أن يصل العرب والمسلمون إلى مكانهم الحق الذي أقامتهم فيه قيمهم، أو أن يستأنفوا دورهم التاريخي في مجال الحضارة.

(٣)

وأولى الحقائق التي تكشف ذاتية الفكر الإسلامي والثقافة العربية. هي ذلك التباين الواضح بين العوالم والأمم، فهنا عالمان منفصلان لكل منهما قيمه ومقدراته وفلسفته وذاتيته. قام عالم الغرب على مفاهيم الفلسفة اليونانية، والحضارة الرومانية في إطار المسيحية الغربية، وقام عالم العرب والإسلام على مفاهيم القرآن الكريم وحدها. وعندما نقل الغرب الفكر الإسلامي رفض أن يقبله كاملاً، وصاغه في قوالبه الأصيلة المستمدة من اليونان والرومان.

فقد أخذ عصارة العلم الإسلامي متمثلا في المنهج التجريبي، ولكنه رفض أن يأخذ إطار الإسلام القائم على التوحيد والأخلاق، وظل أكثر من أربعمائة عام وهو ينكر هذا الأثر، وهذه الصلة، ولا يرى أن في العالم حضارة غير حضارة الرومان التي انطفأت منارتها في القرن الرابع،

وحضارة اوروبا التي أوقدت أضواءها في القرن الخامس عشر، في تجاهل عنيد متعصب للدور الضخم الذي قدمه الإسلام للحضارة والعلم حتى جاء في السنوات الأخيرة من يعترف بالفضل، ويحاول أن يكشف هذه الصفحة الفاخرة. ومن حقنا أن نعرف دورنا في الحضارة والعلم والفكر الإنساني كله ليكون ذلك قوة لنا على مواجهة التحديات في محاولة إقامة أساس وطيد للثقافة العربية.

ومن الحقائق التي لا سبيل إلى تجاوزها، أن الإسلام ليس دينا على مفهوم الأديان أو على مفهوم اصطلاح كلمة «دين» التي يعرفها الفكر الغربي بأنها تمثل اللاهوت أو العلاقة بين الله والإنسان. والإسلام بهذا المفهوم ليس دينا، ولكنه دين ومنهج حياة ومجتمع وحضارة. والثقافة العربية لا تنفصل عن الإسلام. كما أن مفاهيم الإسلام مترابطة بأصول الثقافة العربية. وقد جاء الإسلام بنظام كامل، ولم يقتصر على التوحيد والعبادات.

ومن الحقائق الهامة أن طريقتنا في النظر إلى الأمور، وأسلوبنا في الفكر تختلف في مجال الأدب والتاريخ جميعا. فإن النظرة العربية الإسلامية هي: نظرة جامعة شاملة لا ينفصل فيها المجتمع عن العقيدة، ولا السياسة عن الأخلاق، ولا الروح عن المادة، ولا القلب عن العقل، ولا الدنيا عن الآخرة.

ومن هذا المنطلق تختلف طريقتنا في النظر إلى الأمور عن أسلوب الغرب القائم على الفصل بين القيم، وصاحب النظرة المادية الخالصة إلى التاريخ والإنسان والحياة. والطابع الأخلاقي هو القاسم المشترك الأعظم لمختلف القيم والمقومات يستمد وجوده من التوحيد، ولا ينفصل عنه. وهذا عامل آخر يوسع شقة الخلاف والنظر بين الفكر الغربي والفكر العربي.

وليس في الثقافة العربية كلها لغة دينية، أو نظرة دينية، أو حركة دينية. فالنظرة الإسلامية تتسم بالشمول بين ما هو ديني، وما هو

دنيوي، ولا تنفك عنه.

ويقوم الفكر في الإسلام على الحرية ذات الضوابط. ومن ناحية العقيدة، فإن الإسلام يقرر أنه «لا إكراه في الدين». ولحرية الفكر والرأي مناطق لا يجوز اختراقها محافظة على كيان الأمة ووجودها. ومحافظة على الشخصية الإنسانية وتماسكها.

(٤)

ولعل أخطر ما واجه الفكر الإسلامي والثقافة العربية في ظل النفوذ الاستعماري هو عدم القدرة على امتلاك الإرادة الحرة في الاقتباس والنظر في الثقافات والحضارات، وانعدام فرصة الحرية الكاملة للإذاعة بأيديولوجية الفكر الاسلامي،وكشف جوهره، وإبراز حقائقه، ومدافعة الشبهات عنه، أو تطبيقه. وذلك إزاء مزاحمة الفكر الغربي له، وفرض المناهج الغربية في السياسة والاجتماع والاقتصاد والتربية. فقد كانت قوى التغريب في مراكز القوة والنفوذ، وكانت قادرة على مهاجمة كل صيحة صدق. غير أن تراخي الزمن قد كشف عن زيف المعطيات الاستعمارية الغربية، وعجزها عن أن تقدم العطاء الصادق للنفس العربية الإسلامية. ثم كان رفض المزاج العربي الإسلامي لها شهادة دامغة لها، ومن هنا فقد بدأت عودة الفكر الإسلامي إلى التماس قيمه. لقد حال التغريب دون قيام امتزاج فكري شامل، تذوب فيه الخلافات، ويلتقي العرب والمسلمون على «وحدة فكر» تصهر العناصر المختلفة، وتعيدها إلى فطرتها الصادقة النقية. ولكن ضوءاً جديداً يبدو اليوم من وراء الأفق يؤذن بقرب انهدام الفواصل الفكرية والروحية. وذلك في مواجهة التحديات الاستعمارية والصهيونية.

إن الطريق الوحيد أمام العرب والمسلمين هو طريقهم الأصيل (وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) إنه هو المنطلق الوحيد الذي عرفه العرب والمسلمون صادقا لهم كلما مروا

بالأزمات، ومراحل الضعف، وواجهوا التحديات والغزو، لا طريق ولا سبيل سواه.

إننا في الواقع لسنا في حاجة إلى أن يصرعنا هذا الفكر الغربي، وليس من مصلحتنا أن نذوب فيه، وأن نتمزق مع ألوانه وتياراته المختلفة، بل إن علينا أن نستمد من قيمنا أساساً، ونتفتح لكل وسيلة، والوسائل مواد خام تشكل وتسبك في قالب ذاتيتنا وشخصيتنا. ولقد كان الفكر العربي الإسلامي دوماً ثابت الجوهر، متغير الصورة، قابلاً لكل المعطيات التي تزيده قوة دون أن تفقده كيانه وقيمه الأساسية. وإذا كنا قد قطعنا مرحلة في طريق اليقظة إلى النهضة، فإذا ما أريد لها أن تستكمل الطريق وتؤتي ثمارها، فلا بد من بناء الأساس على القواعد التي صمدت أربعة عشر قرنا دون أن تهتز للأحداث والأزمات.

إن الفكر الإسلامي هو الذي صنع هذا المجتمع العربي الإسلامي وبدأه من نقطة أولية. ولذلك فقد كان امتزاج الروح والمادة فيه من نسيج البناء الذي لا سبيل إلى عزله، إلا إذا أعيد البناء من جديد، وهو في حد ذاته أكبر عوامل التباين بين الثقافة العربية والثقافات الشرقية والغربية جميعا.

الباب الأول

مقوّمات الثقافة العربيّة

الفصل الأول

مدخل إلى مفهوم الثقافة

مَدخَل إلى مَفْهُوم الثقَـافَـة

- ١ -

من أعظم القضايا وأخطرها في تاريخ الأمم قضية « الثقافة » من حيث أصالتها واحتفاظها بمقوماتها في مواجهة التحدي بغزو ثقافة أمة أخرى لها في ظل ظرف من ظروف الضعف أو التخلـف التي قد تفرض فيه الأمة الغازية ثقافتها وسيطرتها الفكرية.

والأمة العربية قد وقعت تحت النفوذ الأجنبي قبل منتصف القرن الماضي ، ثم أخذت تتحرر من هذا النفوذ منذ منتصف هذا القرن. ومن هنا فإن بقايا هذا النفوذ وآثاره ما تزال لم تنحسر بعد، لا سيما وقد ترك الاستعمار جذوراً وقواعد ومؤسسات ما تزال تعمل تابعة له في محاولة لاستمرار نفوذه، بعد أن تخفى عن هدفه الأصيل، وتحول من الغزو العسكري والسياسي إلى الغزو الثقافي والفكري.

وفي مرحلة ما بعد الاحتلال الأجنبي وانحسار النفوذ الاستعماري، وفي مطالع مراحل التحرر والاستقلال يبدو من أهم الأمور وأجلهـا خطـراً العمل على تحقيق التحرر الثقافي والاستقلال الفكري من نفوذ الاستعمار المنسحب. فإذا عرفنا أن الأمة العربية ما زالت تواجه بالرغم من تحررها السياسي خطرا استعماريا جاثما هو (الصهيونية وإسرائيل واحتلال فلسطين والقدس) كان من الأهمية بمكان أن تظل على يقظة كاملة، وهي في مرحلة المواجهة والمقاومة، لما تروجه الدعايات المغرضة وما تكتبه الأقلام المسمومة، مما يدخل تحت اسم « الحرب النفسية » التي

أعلنها العدو، والتي ما زالت معلنة على الأمة العربية كلها بعد النكسة في محاولة لتشكيكها في مقدرتها على الصمود ضد هذا الخطر الذي تواجهه الأمة العربية ممثلا في الاستعمار الثقافي والحرب النفسية جميعا. إذن فقد تحتم علينا إعادة النظر في أمور كثيرة، وأصبح بالضرورة أن ننتقل إلى مرحلة جديدة لا شك فيها ولا سبيل إلى الفكاك منها. تلك هي مرحلة: «تحرير الثقافة من كل محاولات الغزو الثقافي الغربي ممثلة في أكاذيب المبشرين وأباطيل الصهيونية وتحريفات الماسونية وترّهات التغريب، ومفاسد الشعوبية بالإضافة إلى وثنيات اليونان والمجوسية ودعوات الإلحاد والإباحة».

فمن حق الأمة العربية، شأن كل أمة، أن يكون استقلالها الثقافي عن الثقافات الأجنبية أكيداً. وأصبح عليها أن تستمد ثقافتها من كيانها ومواريثها وإيمانها وأمجادها. ولا بد لكل أمة تحررت من الاستعمار العسكري والسياسي أن تتحرر من الاستعمار العقلي والثقافي، وأن تكون لها ثقافة قومية مستقلة تستمدها من آدابها وتراثها العقلي والفكري.

ومن هنا تتجدد الدعوة إلى اليقظة إزاء محاولة الاستعمار التي ترمي إلى إضعافنا بتقديم آراء منحرفة مضللة في ثوب علمي وتحت أسماء براقة وهي آراء لا تخرج عند الفحص الدقيق، والمراجعة العلمية عن الشبهات والأكاذيب التي هوجمت بها الثقافة العربية والفكر الإسلامي دوما، وفي مراحل مختلفة متعددة من تاريخنا. فقد كانت أهداف الغزو الذي حاول الاستعمار فرضها في سبيل تأكيد وجوده وتثبيت بقائه، العمل على تقديم مفاهيم تتعارض مع مفاهيمنا، وقيم تتعارض مع قيمنا عن طريق النفوذ الذي يفرضه بأسم المدرسة والصحيفة والكتاب. حيث أخذ الاستعمار يقذف الأمة العربية بفيض غلمر لا نهاية له من هذه المذاهب والنظريات والدعوات في محاولة للقضاء على وحدة الأمة العربية والفكرية، ودفعها خارج نطاق قيمها ووجودها وذاتيتها. وفي مقدمة هذه المحاولات:

بدع الإلحاد في العقيدة، والعامية في اللغة، والتبذل في علاقات المجتمع. هذا بالإضافة إلى حملات الهجوم والتشكيك الزاحفة على ثقافتنا وعقائدنا ونظمنا بالهدم وإثارة الشبهات، حتى لا يكون هناك سدّ يقف داخل نفوسنا يحول دون احتوائنا في مناطق النفوذ.

إن سلامتنا من النفوذ الاستعماري ليس لها إلا وسيلة واحدة هي: تحررنا الثقافي، وصمود عقائدنا وقيمنا.

من هنا فإن من حق كل ثقافة أن تعرف مقوماتها وخصائصها المستمدة من وجودها وكيانها وشخصيتها ومصادرها الأصيلة، وأن تحافظ عليها في وجه الغزو الذي يحاول تذويبها أو احتواءَها، أو إزالة معالمها، أو التأثير عليها بحيث تفقد جانبا من مقوماتها لتنصهر في الثقافة الغازية المسيطرة.

هذه هي أخطر قضايا الثقافة العربية اليوم؛ هذه الثقافة ذات الأصالة الواضحة في طوابعها المميزة.

- ٢ -

اشتق اسم الثقافة من «ثقف».وهو لفظ قرآني أساسا لم يكن من اشتقاق أحد ممن يدعون اشتقاقه من غير القرآن. والثقافة كلمة عريقة في لغتنا بمعنى صقل النفس، والمنطق، والفطانة. وهو بمعنى تثقيف الرمح أي تسويته وتقويمه[(١)].

ثم استعمل للدلالة على الرقي الفكري والأدبي والاجتماعي للأفراد والجماعات. ولكي يكون معنى الثقافة متميزاً يجب التفريق بينها وبين الحضارة والعلم والتربية والتعليم، فهي ليست مجموعة من الأفكار، ولكنها نظرية في السلوك، وبها هي طريق الحياة إجمالا فيما يتمثل عليه الطابع العام الذي ينطبع عليه شعب من الشعوب. أو هي الوجود المميز

---

(١) في القاموس المحيط للفيروزابادي: ثقف ككرم وفرح، وثقف ثقفا وثقافة: صار حاذقاً خفيفاً فطناً، وثقفه تثقيفاً سواه.

لمقومات الأمة، أو هي الإيديولوجية التي تميز جماعة من الناس عن الجماعات الأخرى بما تقوم به من العقائد واللغة والقيم والمبادىء والسلوك والمقدسات والقوانين والتجارب. ومن هنا فلكل مجتمع ثقافته التي يتسم بها، ولكل ثقافة مميزاتها وخصائصها التي تحدد شخصيتها. وبالجملة فإن الثقافة طريقة خاصة تميز أمة معينة عن أمم أخرى وتتمثل في العقائد والنظم، وكل ما هو اجتماعي وخلقي[٢].

ويخلق الإنسان شبيهاً بكل إنسان في شكله وتركيبه البيولوجي، ولكن يختلف إنسان عن إنسان بما يؤمن به كل منهم من عقيدة، وما يتكلم من لغة، وما يعتنق من مبادىء وقيم. فالثقافة القومية موقف فكري وعملي. هو تحقيق للقيم الثابتة في أمة معينة. ويمكن القول انه قد تركزت في ضمير الأمة العربية أصول ثقافة قومية واحدة تتفتح على مشكلات الإنسان.

(٢) ـ لا بد من التمييز بين عنصرين في المدنية:

(أ) العلوم والمعارف والاختراعات والصناعات والوسائل المادية. وهذه هي «الحضارة».

(ب) العقائد والآداب والتقاليد واللغة والقوانين والنظم «أو ما يطلق عليه الجوانب الخلقية والاجتماعية والفكرية» وهذه هي «الثقافة».

فالعنصر الأول عالمي لا يختص به قوم دون قوم، أو أمة دون أمة،

---

(٢) يعرف هنري لاوست (الثقافة) بأنها مجموعة الأفكار والعادات والموروثات التي يتكون منها مبدأ خلقي لأمة ما، ويؤمن أصحابها بصحتها، وتنشأ منها عقلية خاصة بتلك الأمة تمتاز عن سواها. وجميع الثقافات تتكون وتتطور بعوامل داخلية، وتتأثر ببعض المؤثرات الأجنبية. ويعرف أرنست باركر (الثقافة) بانها «ذخيرة مشتركة من الأفكار والمشاعر لأمة تجمعت لها وانتقلت من جيل إلى جيل خلال تاريخ مشترك، وتغلب عليها بوجه عام عقيدة دينية مشتركة هي جزء من تلك الذخيرة المشتركة من الأفكار والمشاعر والعقيدة الدينية واللغة هي من العناصر الأساسية للثقافة» ويقول (تايلو) إن الثقافة هي الكل المركب الذي يتضمن المعارف والعقائد والأخلاق والقوانين والعادات والفنون.

بل هو ميراث الإنسان بوصفه إنسانا. أما العنصر الثاني فهو قومي خاص، لأنه يختلف باختلاف الشعوب والأمم.

(٣) - لما كانت «الثقافة» تنحصر في الأمور الذهنية والمعنوية وحدها فإنها تختلف عن «الحضارة» التي لها طابع الانتشار والانتقال بين الأمم، بينما تبقى الثقافة خاصة بكل أمة على حدة. وإن أثرت ثقافات الأمم المختلفة بعضها في بعض قليلا او كثيرا.

(٤) - ومن هنا يبدو الفارق الواضح بين الثقافة والعلم.

«فالعلم» بطبيعته عالمي، تتعاون فيه جميع الأمم بدون تحفظ. أما «الثقافة» فليست من الأمور التي يمكن اقتباسها ونقلها من الخارج نقلا، بل هي من الأمور التي لا بد من تكوينها في النفوس تكوينا.

(٥) - وكذلك «المعرفة» لا تختص قوما دون قوم، ولا أمة دون أمة، لأنها كالعلم إنسانية أسهمت جميع الأمم والشعوب على مر التاريخ في تشكيلها، فهي ميراث الإنسان بوصفه إنسانا. وذلك بخلاف النظم الاجتماعية التي هي «قومية» خاصة لأنها تختلف باختلاف الشعوب والأمم، والتي هي من صنع ظروف كل أمة، ولأنها نتيجة للعملية التاريخية التي اجتازها كل شعب، وما يصلح منها لقوم لا يصلح للآخرين، وما يكون منه شفاء لناس يكون سما زعافا لغيرهم.

(٦) - وكذلك «الحضارة» فهي تتمثل في العلوم والصنائع بوجه عام. حين تنحصر الثقافة في الأمور الذهنية والمعنوية وحدها.

(٧) - والثقافة أيضا من الأمور المعنوية فهي لا تتبع الروابط الجغرافية، ولا تتقيد بقيود المسافات. ومن هنا فمن الخطأ أن يقال إن هناك ثقافة تسمى باسم «البحر المتوسط» مثلا.

ومن الحق أن يقال: إن هذه المنطقة التي نبتت فيها الأديان على ترابط واضح بين الروح والمادة قد انتظمتها فطرة واحدة كونتها العقيدة واللغة والقيم المشتركة. وهي من أجل هذا تجتمع على مثل عليا للحياة موحدة.

(٨) - ومن هنا كان لكل ثقافة مزاجها الخاص الذي يختلف باختلاف الأمم. «فالثقافة» اللاتينية مثلا لها ذوق ولون ومنحى يختلف عن السكسونية والجرمانية والصقلية. بل إن الثقافة اللاتينية تختلف في البلاد اللاتينية نفسها، فتراها في إيطاليا ذات ملامح تفترق عن الثقافة الفرنسية والبلجيكية والسويسرية والإسبانية. بل إن انجلترا وأميركا مع أن أساس ثقافتها لغة واحدة، وآدابها متقاربة، فإن ثقافة هذه تختلف عن ثقافة الأخرى. وهكذا تختلف الثقافات والأساليب الفكرية، ومناهج التعليم في ألوانها ومقاصدها وتوجيهاتها باختلاف الأمم الصادرة عنها.

ولكن ربما تتلاقى ثقافات فرنسا وانجلترا وإيطاليا وألمانيا لوحدة غالبة في أصولها. ولكن هذه الثقافات بمجموعها تختلف عن الثقافة العربية التي كونتها عوامل خاصة تختلف. ولا شك أن هذه العوامل قد أعطت للفلسفة والفن والأخلاق طوابع خاصة مميزة.

وبالجملة فإن الثقافة تشمل كل نواحي النشاط والاهتمام التي تميز شعبا عن شعب. وأمة عن أمة.

(٩) - والثقافة العربية: عربية اللسان، إسلامية المضمون والتاريخ. وهي كائن حي يضم العناصر الثلاثة: الوطنية والقومية والإسلامية. وهي في جملتها واقعية، عملية، متحررة، تقدمية، إنسانية.

ويمكن القول مع القائلين بأن الثقافة العربية ليست ثقافة غربية، ولا ثقافة شرقية، وليست مركّبا لهاتين الثقافتين، بل هي ثقافة متميزة واضحة الذاتية لها طابعها الخاص [١] المختلف عن ثقافات الشرق والغرب جميعاً.

---

(١) أشار إلى ذلك تشارلر مالك في كتابه: (tne near east and the great poners) ويقول الدكتور عبد القادر يوسف في كتابه «مستقبل التربية في العالم العربي»: إذا أردنا تصنيف الفلسفة الأساسية للثقافات نستطيع أن نضع الثقافة العربية في الموقع الذي يمثل الموقع الوسط بين ثقافة الغرب وثقافة الشرق، فهي لا شرقية ولا غربية كما انها ليست مركباً للثقافتين وليست حلقة اتصال تربط بينهما، بل هي ثقافة تسمى ما بين الثقافتين.

هل تكون ثقافة الأمة مغلقة أمام الثقافات الأخرى أم متفتحة؟

من الحق أن يقال إن تحديد مقومات ثقافة الأمة ضرورة. وإن حماية هذه المقومات أمر لا سبيل إلى تجاوزه. ولكن هذا لا يمنع أية ثقافة عالمية كالثقافة العربية من الانفتاح على الثقافات الأخرى على النحو الذي تقوم الأمم في استيراد فسائل النباتات الغريبة وتجريب زراعتها في تربتها. فإن صلحت وتأقلمت وانصهرت في بيئة هذه الأمم فقد نجحت وإلا فقد رفضتها البيئة حيث لم تستطع جذورها أن تمتد إلى أعماق التربة، ومن هنا فلا تكون ثقافة أية أمة مغلقة أمام الثقافات الأخرى إلا بقدر ما تحتفظ بجذورها وأصولها. هذه الجذور التي يجب أن تكون ثابتة أمام الوافد بحيث لا يستطيع هذا الوافد اقتلاعها.

وليس معنى اختصاص الثقافة للأمة أن تظل جامدة أو أن تنغلق دون أن تتطور. ولكن معناه أن أسسها وقيمها هي أنسب شيء لها. والقاعدة هي عدم انعزال الثقافة أية ثقافة، فهي تأخذ وتعطي، ولكن عليها أولا أن تحتفظ بمقوماتها الأساسية.



الفصل الثاني

مَا هِيَ مُقوِّمَات الثقَافَة العَربيَّة ؟

إن الثقافة العربية ـ شأن كل ثقافة ـ تتكون من مقومات أساسية قوامها :

(١) العقيدة : فكرية وروحية هي : « الإسلام »
(٢) اللغة العربية وآدابها
(٣) التاريخ العربي الإسلامي
(٤) التراث
(٥) القومية (الأمة) والوطن (الأرض)
(٦) وحدة العقلية والمزاج النفسي



١ - العَقيـــدَة

«لكل ثقافة جذور من فكر إنساني، أو دين له جذوره الأصيلة في الأمة بما يرسم من أسلوب العيش عند المؤمنين به» والعقيدة التي تمثل أهم مقومات الثقافة العربية هي «الإسلام» والإسلام دين وزيادة. أي أنه يقوم مقام اللاهوت في الثقافات الأجنبية، ويضيف جانبا آخر واسع المدى في مجال الفكر والحياة والمجتمع والحضارة وهذا الجانب ليس موجودا في الأديان الأخرى.

فالإسلام ليس دينا فحسب، ولكنه دين ونظام مجتمع له منهج كامل في الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية.

١ - قد تأكد أنه لا يمكن لأية ثقافة من الثقافات أن تظهر أو تنمو إلا إذا كانت ذات صلة بدين من الأديان. فالدين وحده هو الذي يكسب الحياة الاجتماعية معناها ويمدها بالإطار الذي تصوغ فيه اتجاهاتها وآمالها، ويحمي الجماهير البشرية من اليأس والملل. ولما كانت حياة الإنسان إنما تحكمها القوى الروحية، والقوى المادية معاً، ولا سبيل إلى الفصل بينهما فإن الإيمان الديني السليم لا يتعارض مع الفكر الإنساني الحر. بل إن الدين في مفهوم الإسلام يدفع الإنسان إلى التفكير الحر ويصده عن الجمود الفكري والتعصب [١].

كما أن الدين هو الذي يضع القيمة الخلقية للمجتمع.

٢ - أبرز ما يمثله الإسلام: التوحيد وكون الإسلام ديناً ومجتمعاً.

---

(١) بتصرف - عن محمد محمود «وحدة الثقافة العربية».

هاتان المزيتان تمثلان أعمق الفوارق بين الثقافة العربية والثقافات الغربية. وتكشفان عن التباين الواضح بين وجهة نظريها بما يصل إلى التعارض أحياناً بين الثقافتين في كثير من المواقف والقضايا.

٣ - يتمثل «التوجيه» في أمرين:

(١) الإيمان بأن الله واحد لا شريك له، وتنزيه الله عن كل صفة يتصف بها خلقه، فلا ينسب إلى خلقه شيء من صفاته (إلا مع التأويل الصحيح).

(٢) الإيمان بالرسل والكتب والبعث والجزاء.

٤ - «القرآن» هو مصدر القيم الأساسية للإسلام. وهو النص الموثق، والكتاب المعجز بمبادئه وأسلوبه. فليس في التاريخ كتاب بقي كيوم نزل معنى ونصاً، ثم كان له من الأثر في جميع ميادين الحياة كالقرآن. فقد دعا القرآن الى المعرفة عن طريق العقل والفكر والاستنباط.

والإسلام دين دعوة ودين أمة (عبادات ومعاملات وأخلاق) وهو لا يفرق بين الدين والأخلاق، والنظام الاجتماعي جزء من الإسلام.

وقد نظم الإسلام صلة الإنسان بربه، وصلة الانسان بالبشر. وأقر نظام الأسرة بالزواج وحقوق الجماعة، ورفع مكانة المرأة، وأبطل الرق، فكل رقيق يصبح بالإسلام حرّاً كما يصبح حرّا بالعتق. ونظم الإسلام كذلك الجانب الاقتصادي بالزكاة، وجعل السياسة شورى، وحث على العلم وكرم العقل والفكر.

«والسنة» هي تفصيل ما جاء مجملاً في القرآن، وهي التطبيق العملي للإسلام ممثلا في تصرف الرسول وقوله.

٥ - وقد استمدت الثقافة العربية مقوماتها من الإسلام وتشريعه، قاعدة وأساساً لحياة المجتمع الأخلاقية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية. وتقوم هذه الثقافة على فلسفة في الحياة والاجتماع تتميز بتوفيقها بين

سلطة الحاكم وحرية المحكوم، واحترامها للملكية الفردية، وتوجيهها للتعاون بين الغني والفقير، وعدم تفريقها بين الألوان والأجناس، وإصرارها على إقرار قسط معين من الأخلاق والآداب في حياة الجنسين (الرجل والمرأة) والتسوية بينهما إلا في حالات معدودة.

٦ ـ أكد الباحثون المنصفون حقيقة واقعة هي: أن في الأمة العربية والعالم الإسلامي ما يثبت أن الدين ينفذ إلى كل نشاط اجتماعي وعقلي للشعوب. بل إنه ـ أي الدين ـ في الواقع: العامل على حياة الشرق ونسائه[1].

وقد أخطأ الغربيون الذين حاولوا دراسة الإسلام، على أنه «دين فقط» والذين حاولوا أن يتعرفوا إليه كما يتعرفون على أديانهم، وجهلوا أو حاولوا تجاهل الحقيقة الواقعة من أن الإسلام حركة اجتماعية كان الدين جانبا من جوانبها، فهو عقيدة وعبادة وإصلاح اجتماعي، ومبدأ أخلاقي وحكومة.

٧ ـ من أبرز معالم الإسلام ذات الأثر في الثقافة العربية أنه يجمع بين المثالية والواقعية، وأنه يحتفظ بالعمل في صميم الحياة العامة وهو لا يطلب من أتباعه أن يعرضوا عن الدنيا أملا في الحصول على الآخرة، بل على أن يحسنوا العمل في الدنيا أملا في الفوز في الآخرة.

٨ ـ طبع الإسلام حياة العرب في الماضي ولا يزال يطبعها وسيظل يطبعها إلى مئات السنين. لذلك فإن كل حركة فكرية واجتماعية في العالم العربي تتجاهل هذا الواقع البديهي، فهي تتجاهل الإطار الطبيعي الذي يجب أن تنشأ ضمنه، والأساس العملي الذي يجب أن تستند إليه.

فهي إذن يجب أن تكون في داخل الإسلام[1]. ويرجع ذلك إلى

---

(١) يراجع ما كتبه الدكتور عبد القادر يوسف في كتابه «مستقبل التربية في العالم العربي» الحقيقة أن الإسلام كان ولا يزال القوة المكونة، والعنصر الفعال الأساسي في الثقافة العربية.

(٢) جورج طعمة.

الحقيقة التي لا مرية فيها. وهي أن الإسلام كان أكثر من مجرد دين فقد كان طريقة في الحياة، ومنهاجاً واضحاً عني بكل ناحية من حياة الفرد ليحدد سلوكه الاجتماعي والخلقي والديني [٢].

٩ - اتسمت الثقافة العربية باستعدادها الدائم للنمو، عن طريق الثورة أو التطور، وقدرتها على تمثل ما تأخذ بحيث يصبح هذا المأخوذ جزءاً أصيلاً من حياتها. فقد تمثل العرب فكر الأقوام التي اتصلوا بها، ولكنهم فرضوا فكرهم بلغتهم وروحهم، وكان الإسلام هو الإطار الأساسي لكل ما تقبلوه من الفكر البشري، ورفضوا كل ما يتعارض مع التوحيد من الفكر اليوناني والفارسي والهندي القديم.

١٠ - إن موقف الإسلام من الأقليات ومن الأديان يكشف عن حقيقة واضحة، هي توفير حرية الفرد كي يختار الدين الذي يرتضيه لنفسه، وتقدير الإسلام للأديان جميعاً، وإفساح المجال لها في حرية، وإعطاء أصحاب الأديان المختلفة حقوقهم الاجتماعية، وحماية الحرية الدينية. وقد أثبت التاريخ الطويل مدى تكريم الإسلام للأديان السماوية الموحدة وإعطائها حق المواطنة وحق الحماية. وقد انطبع هذا المفهوم على الثقافة العربية، فأتاح الفرصة لبقاء وحرية أقليات كثيرة في الوطن العربي منها: الصابئة، والطائفة السامرية في الأردن، والأرمن في سوريا ولبنان، والمسيحيين.

١١ - كان الإسلام روح جميع حركات النهضة واليقظة، والمقاومة تحت اي اسم سواء أكانت حركات إسلامية صريحة، أم وطنية أو قومية. وقد اعترف بهذه النظرة (هاملتون چب) حين قال: «لم تقم في بلادهم أية حركة وطنية إلا كانت الروح الإسلامية أساسها» ويردد كانتول سميث هذا المعنى حين يقول مثل هذا.

١٢ - إن أساس كيان المجتمع العربي الذي تكون في أحضان الأديان

---

(٢) الدكتور عبد القادر يوسف «مستقبل التربية في العالم العربي».

يقوم على اعتقاد يبعث في النفوس الإيمان بالله والنبوات والروح والحياة الآخرة، وبالجزاء فيها على الأعمال. يعتقدون هذا في نفس الوقت الذي يطلقون لعقولهم العناية لتتعلم وتعرف وتخترع وتكتشف وتسخر هذه المادة الصمّاء وتنتفع بما في الموجودات من خيرات وميزات. والمجتمع العربي في هذا يختلف عن المجتمع الغربي الذي يعيش حياة مادية النزعة لا تعترف بغير المادة، ولا تحس بوجود غيرها على نحو ضعفت في نفوس أبنائه عواطف الرحمة الإنسانية.

١٣ - مفهوم الإسلام في الثقافة العربية يقوم على أساس أن الإسلام ليس عقيدة صوفية، ولا فلسفة لاهوتية ولكنه نهج في الحياة وفق قوانين الطبيعة التي سنّها الله لخلقه، وأبرز معالمه: التوفيق التام بين الوجهتين الروحية والمادية في الحياة الإنسانية. الالتقاء بينهما على نحو يحول دون وقوع أي تناقض أساسي في حياة الإنسان الجسدية وحياته الأدبية، والإسلام يؤكد تلازم الوجهتين وعدم افتراقهما. ويرى ذلك أساساً طبيعياً للحياة. وفي هذا تختلف الثقافة العربية عن الثقافات الغربية التي تقوم على أساس الفصل بين اللاهوت والحياة، وبين الأمور الروحية والأمور الجسدية (كما يفعل اللبّان حينما يمخض الحليب ليستخرج زبدته) وهم لا يفهمون بسهولة أن الحليب الصريح في الإسلام يجمع العنصرين، مع انهما متميزان ويعيشان معاً متجانسين[1].

وإن مبدا التوحيد في الثقافة العربية هو الذي يحول دون التمزق والتشطير والانقسام بين الشرق والغرب، والمادة والروح، والأبيض والأسود، والمثالية والطبيعية، وبين الحرية والانضباط. هذه الحواجز التي تقيمها هذه الانقسامات هي مصدر الأزمة النفسية والروحية التي تعانيها البشرية اليوم، وهي أزمة غير موجودة في الثقافة العربية والفكر الإسلامي.

---

(١) بتصرف عن ليوبولد فانابس «الإسلام على مفترق الطرق».

١٤ - تقوم الثقافة العربية على أساس الإيمان بأن الأصل في الإنسان: «الخير» وذلك على خلاف ما تقول به الثقافات الغربية التي تستمد من الأديان المختلفة، من أن الإنسان خلق خاطئاً أو ما تراه التعاليم الهندوكية من أن الإنسان كان أول أمره دنساً فهو من أجل ذلك محمول على أن يتخبط في سلسلة من التقمص نحو هدفه الأقصى من الكمال. بينما يقرر القرآن أن الانسان خلق طاهراً وخلق كاملاً. وأن ليس على الإنسان مسؤولية خطأ أي فرد سبقه،وأن آدم قد تلقى من ربه كلمات فتاب عليه.

١٥ - التوحيد في الثقافة العربية هو الفكرة. فإذا غربت الفكرة بزغ الصنم وسيطر مفهوم الوثنية.

١٦ - اتسمت الثقافة العربية بالحركة والتشكيل والمواءمة مع العصور المختلفة والبيئات المتشابهة. وهي تستمد هذه الميزة من الفكر الإسلامي الذي يؤمن بقاعدة الاجتهاد. ولما كانت النصوص متناهية والوقائع غير متناهية، ولما كان ما لا يتناهى لا يضبطه ما يتناهى، فإن الاجتهاد هنا يصبح واجب الاعتبار.

١٧ - منح الإسلام الثقافة العربية عامل الإيجابية والتحرر والطلاقة. حيث لم يكن الدين معوقاً ولا مصدراً من مصادر الجمود أو التخلف أو الحرمان، أو فرض الوساطة بين الله والعبد، أو القسر بالتوجه إلى الرهبانية، أو الانقطاع عن الدنيا أو السلبية أو الجبرية، بل كان دائماً في جوهر مفهومه قادراً على دفع الإنسان كإنسان وكجزء من المجتمع إلى العمل والحركة، ومنحها القوة والحيوية. وكان وفق مفاهيمه تقدمياً متلاقياً مع العصور المتوالية، والبيئات المختلفة وبذلك لم ينشأ في الثقافة العربية ما تعرضت له الثقافات الغربية من كون الدين يتعارض مع العقلانية نتيجة للنظم الكهنوتية، والإسلام لم يعرف الكهانة.

١٨ - منح الإسلام الثقافة العربية الانفتاح على الثقافات ذات

الأصل الإسلامي، فلم يعمل على فرض قومية على قومية، بل نشر صيغة إنسانية للحضارة.

وكانت معتقداته عاملا هاما في إقرار حرية الأمم والأقوام والمساواة بينها، واتساع المجال للغاتها وإنتاجها على أساس التعارف والتعاون.

بل إن التراث الحضاري والفكري والإسلامي كله ليس تراثاً عربياً من حيث اللغة، ولكن شاركت فيه كل العناصر والأجناس.

وكان هذا الانفتاح على الثقافات الإسلامية عاملاً هاماً. فإن الثقافة العربية هي أمّ هـذه الثقافات، لأن القرآن الكريم - حجر الأساس في بناء الفكر الإسلامي - نزل بالعربية، وأثره واضح في مختلف جوانب هذه الثقافات.

يقول الفيلسوف محمد إقبال:

أنا أعجمي الدن ولكن خمرتي صنع الحجاز وروضها الفينان
إن كان لي نغم الهنود ولحنهم لكن هذا الصوت من عدنان

فاللغة العربية بشعرها ونثرها وقواعدها ومفرداتها أثرت في جميع لغات الشعوب الإسلامية على تفاوت بينها، فهي الأصل الذي استمدت منه ما تحتاج إليه من ألفاظ للتعبير عن المعاني الجديدة التي انتقلت إلى الأوردية والفارسية والتركية بمفهومها العربي، كما اتخذت بعض الشعوب الحروف العربية لكتابة لغاتهم، وما تزال اللغة العربية هي اللغة الثقافية في تركيا وباكستان وأندونيسيا وأفغانستان وإيران.

١٩ - استطاع الإسلام أن يمد الثقافة العربية بكل علامات القوة والحيوية، وكذب بذلك كل دعاوى التغريبيين والشعوبيين من اتهامها بالجمود وعجزها عن متابعة الحضارات والنهضات.

٢٠ - من خلال دراسة ابن خلدون العميقة للتاريخ العربي الإسلامي، يبين أن هناك قوة واحدة لا توجد غيرها. هي القادرة وحدها على مقاومة الانحلال الناتج عن مختلف أسباب الضعف هي قوة

الإسلام. فقد نجح الإسلام بالفعل في ربط الناس في مجتمع واسع، ساوى بين أفراده، فلم يبق أي تميز على أساس العرق أو اللون أو على أساس القدم والحداثة في اعتناق الإسلام والإيمان به. وأصبح المسلم يشعر بأن الأمة الإسلامية وحدة لا تتجزأ. وأنه أينما حل في ديارها، فهو في بيئته وبين اهله. وقد استطاعت الشريعة الإسلامية المستندة إلى القرآن الكريم والسنة أن توجد نظاما في الحقوق والواجبات فيه مكان لكل مسلم، ومتسع لليهود والمسيحيين الذين تركوا احراراً في العيش تحت سلطة شرائعهم وزعمائهم.

٢ - اللغـــة

١ـ «اللغة العربية» مقوم أساسي من مقومات الثقافة العربية. فاللغة العربية ليست «لغة أداة» ولكنها لغة أداة ولغة فكر أساساً. ولقد كانت اللغة رابطة بين المسلمين قوامها «القرآن» ثم هي رابطة بين العرب عن طريق الثقافة.

فاللغة العربية لغة قومية ولغة فكر إنساني عالمي هو الإسلام.

والواقع أن كل اللغات هي أداة لنقل الأفكار، بينما تتميز اللغة العربية بأنها إلى ذلك «لغة فكر» من حيث هي لغة القرآن الكريم الذي ألقى إلى اللغة العربية وإلى الفكر الإنساني كله أضخم شحنة من القيم والمبادىء ولذلك فإن محاولات تقريب اللغة من العامية إنما تفصل بينها وبين القرآن الكريم، وتقضي على مهمة خطيرة من مهمتيها الرئيسيتين. والمعروف أنه بفضل القرآن الكريم بلغت العربية من الاتساع مدى لا تكاد تعرفه أية لغة من لغات الدنيا[1] وبفضل القرآن عاشت خمسة عشر قرناً حيث لم تعرف أية لغة في العالم مثل هذا العمر المديد.

٢ ـ ولقد كانت اللغة العربية عاملاً هاما في مقاومة الاستعمار. وقد كشف التاريخ عن مدى أهمية اللغة العربية في الحفاظ على كيان الأمة

---

(١) راجع بروكلمان.

العربية وعلى مقومات الثقافة العربية . وفي الجزائر حيث تعرضت العربية لمحنة استعمارية خطيرة ، فقد استطاعت اللغة العربية الكلاسيكية « الفصحى » بالذات أن تحول دون ذوبان المغرب العربي في فرنسا . وفي ذلك يقول « جاك بيرك » إن الكلاسيكية العربية هي التي بلورت الأصالة الجزائرية . وقد كانت هذه الكلاسيكية العربية عاملاً قوياً في بقاء الشعوب العربية .

٣ ـ امتازت اللغة العربية بخصائص أكفل بحاجة العلوم . وقد كانت قادرة دائماً ومتسقة دائماً لتقبل كل حاجات الفكر والحضارة ، ومثالاً لذلك أن كلمات اللغة الفرنسية (٢٥ الفاً) وكلمات اللغة الإنجليزية (١٠٠ ألف) أما العربية فعدد موادها لا كلماتها (٤٠٠ ألف مادة) ومعجم لسان العرب يحتوي على (٨٠ ألف مادة) لا كلمة ، ومواد اللغة العربية تتفرع إلى كلمات . فإذا فرضنا أن نصف مواد المعجم منصرفة ، بلغ عدد ما يشتق منها نصف مليون كلمة ، وليس في الدنيا لغة اشتقاقية أخرى غنية بكلماتها إلى هذا الحد .

٤ ـ لقد كان للغة العربية أثرها البعيد المدى في عمق الثقافة العربية وثرائها . ويرجع ذلك إلى عدة عوامل هامة ، منها أنها أضخم اللغات ثروة ومقاطع وحروفا وتعبيرات . فهي أكثر اللغات العالمية أصواتاً . وإذا أردنا مقارنتها باللغة الإنجليزية التي يتحدث بها معظم سكان العالم ، فإننا نجد تفوقها في الأصوات وفي الألفاظ . ففيها ٢٨ حرفاً في حين أن اللغة الإنجليزية ٢٦ حرفاً . وليس في هذه الحروف الثمانية والعشرين حرف يدل على أصوات مكررة بخلاف حروف الأصوات في الإنجليزية ، وهناك في اللغة العربية حروفاً لأصوات لا توجد في كثير من اللغات الأخرى مثل الحاء والخاء والضاد والطاء والظاء والعين والغين والقاف . أما غنى اللغة العربية بالألفاظ فلا جدال فيه . فقد استطاع الأوائل أن يشتقوا منها مترادفات متعددة ، وتنوع الأساليب والعبارات في اللغة العربية هو خير دليل على ذلك . فالمعنى الواحد يمكن أن يؤَدى

بتعبيرات مختلفة: كالحقيقة والمجاز والتصريح والكناية الخ[١].

بل إن الإسناد في اللغة العربية يكفي فيه إنشاء علاقة ذهنية بين الموضوع والمحمول، والمسند إليه، والمسند دون حاجة إلى التصريح بهذه العلاقة نطقاً وكتابةً في حين أن هذا الإسناد الذهني لا يكفي في اللغات الأجنبية إلا بوجود لفظ صريح يشير إلى هذه العلاقة:

فنقول «فلان شجاع» دون حاجة إلى أن نقول (فلان موجود شجاعاً) ولا تحتاج العربية في طبيعة تركيب الجمل الجذرية فيها إلى أن تثبت ما يسمى في اللغات الغربية فعل الكينونة (to be).

٥ـ اللغة العربية هي لغة أمة واحدة تحمل فكراً ما يزال حياً متفاعلاً لم يتوقف أو يتجمد، وإن هذه الأمة تمتد من المغرب الأقصى إلى حدود إيران، وهي في هذا الزمن الطويل قد ارتبطت بالتاريخ والقيم أوثق ارتباط، وقد أثمرت ذلك التراث الذي تضمه ألوف الكتب والمجلدات والمخطوطات المنثورة في مختلف مكتبات العالم. وإن هذا الفكر الذي هو قوام حياتنا وثقافتنا وتاريخنا إنما يقوم على «القرآن» الذي هو الرابطة الكبرى، وإن الدعوة إلى تغليب اللهجات الإقليمية من شأنها أن تقضي على هذا التراث الحي كله، وأن تفرق هذه الأمة. وبذلك يضيع تاريخ متصل امتد خمسة عشر قرناً.

٦ ـ تعرف مدى أهمية اللغة في حياة الأمم بأنها هي علامة الحياة، وأن الحرمان من اللغة هو علامة الموت «وأن الأمة التي تدخل تحت حكم دولة أجنبية تفقد استقلالها وحريتها، وتصبح مستعبدة لها، ولكنها لا تفقد حياتها ما دامت محافظة على لغتها. أما إذا فقدت اللغة فتكون قد فقدت الحياة وتكون اندمجت في الأمة المستولية عليها.»

٧ ـ استطاعت اللغة العربية في خلال تاريخها الطويل أن تحقق عنصر الحياة والاستمرار، ولم تعجز عن التعبير والاستيعاب للنهضات

---

(١) بتصرف عن بحث للأستاذ عبد الستار دياب.

والحضارات، ولم تكن لغة دينية بالمعنى الذي عرفت به اللغة اللاتينية، فهي ليست لغة دين كهنوتي محدود بدور العبادة، ولكنها لغة دين هو في ذات الوقت دين، وحياة، ومجتمع، وحضارة. ولم تعجز في عصر من العصور عن الوفاء بحاجات عصرها وبيئتها.

٨ - كشفت اللغة العربية عن فارق كبير بينها وبين اللغات الأخرى كاللغة اللاتينية مثلا التي ماتت وسكنت المتاحف، وتفرعت منها لغات أخرى، بحيث إن أي فرنسي أو إنجليزي أو ألماني لا يستطيع اليوم أن يتابع تراث لغته لأكثر من ثلاثة أو أربعة قرون، بينما يستطيع العربي أن يتابع تراثاً يمتد إلى خمسة عشر قرناً أو يزيد. ذلك أن اللغة العربية قد حماها «القرآن» من التفكك إلى لهجات ونماها وهي لغة أمة واحدة هي الأمة العربية التي تمتد من المغرب الأقصى إلى العراق، وبوجود القرآن فليس لهذه اللهجات استطاعة في أن تكون لغات مستقلة لهذه الأقاليم. إذ ارتبط التاريخ كله بالتراث الفكري كما ارتبطت القيم الثقافية باللغة العربية بأوثق اتصال، ومن وراء ذلك الفكر الإسلامي الذي تضمه ملايين الكتب والمجلدات المكتوبة باللغة العربية - هذا الفكر وهو قوام حياتنا وثقافتنا وتاريخنا، إنما هو يقوم في أساسه على القرآن الكريم الذي يعد بمثابة الرابطة الكبرى فضلاً عن أنه ليس هناك من شبه بين اللغات المشتقة من اللاتينية الميتة وبين اللغات العربية الفصيحة التي هي لغة حية منذ خمسة عشر قرناً والتي لم يستطع شيوع اللهجات العامية الكثيرة من عزلها عن مكانتها.

فاللغة العربية هي مركز فكر العالم الإسلامي، وإن حال الاستعمار دون انتشارها في السنوات المائة الأخيرة وأوقف نموّها[1].

٩ - «إن القرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الذي احتفظ بلغته

(١) راجع كتابنا «اللغة العربية بين حُماتها وخصومها».

الأصلية وحفظها على قيد الحياة، وسيحفظها على مرّ الدهور، وستموت اللغات الحية المنتشرة اليوم في العالم كما ماتت لغات حية كثيرة في سالف العصور إلا العربية، فستبقى بمنجاة من الموت، وستبقى حية في كل زمان مخالفة النواميس الطبيعية التي تسري على سائر لغات البشر، ولا غرو فهي متصلة بالمعجزة القرآنية الأبدية، فالكتاب العربي المقدس هو الحصن الحصين الذي تحتمي به اللغة العربية وتقاوم أعاصير الزمن وعواصف السياسة المعادية ودسائسها الهدامة».

١٠ - تتسم اللغة العربية في تقدير كثير من الباحثين بظاهرة عجيبة لا تتحقق لكثير من اللغات. ذلك هو استمرار تطورها منذ ظهور اللسان العربي من عصر القرآن الكريم إلى عصرنا الحاضر. هذا التطور الذي لم يغير منها أي شيء من وحدتها، بل بقيت على صيغتها الأولى، وهي صيغة لغة تكونت على الوحدة. بينما إذا درسنا اللغة الفرنسية لاحظنا أنها قد تطورت عبر العصور بحيث نجد لها أطواراً، فإذا ما قارنا حالة اللغة الفرنسية في العصور الوسطى نجد أنها مغايرة كل المغايرة للغة المستعملة في القرن السابع عشر وهي مختلفة أيضاً عن اللغة المستعملة اليوم. أما وحدة اللغة العربية فهي تتضح للقارىء ولو كان أجنبياً لأول وهلة. أما وحدة اللسان الفرنسي فلا تتضح إلا بالبحث. لغة القرآن لا تزال هي لغة اليوم. وهذا ما تتميز به العربية عن اللغات الأخرى[٢].

١١ - إن أهمية اللغة العربية أنها الوجه الاخر للفكر، ومن هنا أهميتها في الثقافة، فالفكر واللغة شيء واحد كما يقول (ماكس مولار) وهو يشبهها بقطعة النقد، ويقول ان ما نسميه بالفكر ليس إلاّ وجهاً من وجهي النقد، والآخر هو الصوت المسموع.

١٢ - تنحصر خاصية اللغة العربية في:

---

(٢) بلاشير.

(١) إظهار الأفكار بطريقة موجزة دون استدراج السامع إليها.

(٢) في الاستناد إلى المقابلة لتوضيح الغرض المقصود كاستعمال الاستثناء أو التعارض الجدلي.

(٣) في إضافة الحوادث إلى الفعل أكثر من إسنادها إلى الفاعل بخلاف اللغات الأوروبية.

(٤) في أن الألفاظ العربية تعود غالباً إلى أصل ثلاثي (لويس ماسينيون).

وتتميز اللغة العربية بوفرة المفردات وبالفرق الدقيق في المعنى بين كلمة وكلمة. وإلى غناها بالمفردات، فهي غنية أيضاً بالصيغ النحوية، وتهتم العربية بربط الجمل بعضها ببعض. وهي تمتاز - فضلاً عن ثلاثية الحروف الصوتية - بكثرة الحروف الساكنة، وأصالة الحروف المتحركة، ولها خاصيتها العجيبة في تعريب الكلمات الأجنبية.

١٣ - بقيت اللغة العربية لغة عقيدة ولغة ثقافة ولغة خطاب بين المتعلمين من ابنائها. ولم تترك لغة من اللغات الأوروبية إلا ولها فيها أثر. وهي قد امتدت في رقعة من ملتقى ثلاث قارات. أصهرت إلى لغات آسيا وأفريقيا، فأنشأت بذلك أسرة من أسر أول اللغات. تلك أسرة اللغات الإسلامية. ولذلك فهي لم تسقط كما سقطت اليونانية واللاتينية وأبعدت. وكان الإسلام سنداً هاماً أبقى على روعتها وخلودها. فلم تنل منها الأجيال المتعاقبة والعصور المتباينة، واللهجات المختلفة على نقيض ما حدث أول اللغات القديمة المماثلة كاللاتينية حيث انزوت تماماً بين جدران المعابد.

٣ - التاريخ

التاريخ العربي الإسلامي مقوم أساسي من مقومات الثقافة فهو الذي يعطي الرؤيا الواضحة، ويسجل الصفحات الخالدة للأمة ونضالها من أجل

أداء رسالتها الخالدة وهي إسداء الضياء الإسلامي إلى العالمين.

ومفهوم الثقافة العربية للتاريخ مفهوم إيجابي وبناء. قوامه الطابع الإنساني الداعي إلى الإخاء بين البشر، القائم على الإيمان، والثقة بالله. وتقوم روح الثقافة العربية في فهم التاريخ على أساس وحدة الكون، وانسجام قوى الطبيعة واتساقها مستمدة ذلك من مفهوم الإسلام الذي يجمع بين الروح والجسد في نظام الإنسان، والعبادة والعمل في نظام الحياة، والدنيا والآخرة في نظام الدين، والسماء والأرض في نظام الكون[1].

والثقافة العربية في هذا تختلف في مفاهيمها عن الثقافات الغربية التي تقوم على تجزئة الكون والطبيعة، والفصل بين العلم والدين.

وهناك خلاف آخر بين الثقافة العربية والثقافات الغربية هو: إيمان الثقافة العربية بوجود عناصر التطور، في كل مجالاتها من الفكر والحياة. بينما تقوم الثقافات الغربية على الإيمان بالتطور إيماناً مطلقاً، ونفي فكرة الثبات على الإطلاق. وهنا يقع خلاف بعيد المدى بين الثقافتين. فالثقافة العربية استمداداً من الفكر الإسلامي لا تقر فكرة التطور المطلق لكل الأوضاع ولكل القيم، وترى أن هناك قيماً أساسية ثابتة، وأن هناك فروعاً متطورة، أو متغيرة حسبما تجري حركة الزمن أو اختلاف البيئات.

وفي الثقافة العربية ضابط من فكرة ثابتة وعقيدة أساسية يفسر التاريخ على أساسها وهو في نظرها أمر ضروري لضبط الحركة البشرية، ووجود مقوم للفكر الإنساني.

وفي مجال التاريخ من المستحيل إمكان دراسة المجتمع العربي دون ربطه بالعقيدة الإسلامية إيماناً بأن التاريخ العربي الإسلامي قد انبعث من هذه العقيدة.

---

(١) عن بحث لأحمد نصيف الجنابي.

هذا فضلاً عن أن العرب قد ارتبط تاريخهم بالإسلام ارتباطاً عضوياً، وأن صفحات تاريخهم مندمجة في الإسلام اندماجاً كاملاً بحيث يصبح من العسير الفصل بينهما.

ومن هنا فإن التاريخ لا يمكن تفسيره في الثقافة العربية إلاّ على أساس النظرة الإسلامية للحضارة الإنسانية. وكذلك فإن كل محاولة لتفسير التاريخ وفق منهج غربي وافد، إنما يوقع الباحث في أخطاء أصيلة ناتجة عن التباين العميق بين مناهج البحث بين الثقافة العربية والثقافات الغربية.

١ - كانَ المؤرخون والباحثون الذين ألَّفوا في الملل والنحل من أصدق الناس وأشدهم إنصافاً في دراسة عقائد الأمم والشعوب «كانوا - علي صديقين، مستر چب - واسعي الصدر تجاه العقائد الأخرى، فقد حاولوا أن يفهموها، وقد حصنوا آراءهم بالحجة والبرهان»

٢ - يمثل «التاريخ» في الثقافة العربية عنصراً هاماً من عناصر القوة والبناء، فقد حفل التاريخ العربي الإسلامي بصفحات مشرفة، ومواقف خالدة في مجالات متعددة أهمها:

(١) نشر كلمة الله وإذاعتها في الآفاق.
(٢) نشر رواق العدل والكرامة والإنصاف.
(٣) اتخاذ أسلوب كريم في معاملة الحرب وفي محاورة السلام.
(٤) المقاومة والدفاع والاستشهاد في سبيل حماية الذمار والعقيدة.
(٥) لا يحارب المسلمون والعرب إلا اضطراراً للدفاع، أو في سبيل فتح الطريق أمام رسالتهم إلى الآفاق.

٣ - إن الثقافة العربية تجد في معرفة الماضي وتقصّي حوادثه ضوءاً كاشفاً يهدي في الحاضر والمستقبل، باعتبار أن حياتنا العقلية امتداد لذلك الماضي. والتاريخ يعلمنا أن نستخلص المميزات الخاصة التي تشكل منها كل أمة ثقافتها.

وعلينا: أن نحلل تاريخنا وفق أهدافنا ومثلنا العليا، في أصالة وذاتية

واضحتين، دون أن نعتمد على تفسير دخيل أو غريب، وأن يكون لتاريخنا المكان الأول من ثقافتنا لا أن يكون تاريخ الأمم ذات النفوذ الاستعماري مفروضاً علينا مؤثراً في طبيعة فكرنا.

٤ - إن تاريخنا - كتاريخ كل الأمم - بعيد الأثر في ثقافتنا ومجتمعنا الذي يربط بين الجانبين الروحي والمادي في توافق وتكامل، باعتبارهما يؤلفان وحدة الحياة الإنسانية، وإيماناً منه بأن الأمجاد والأعمال الخالدة، والصفحات الباهرة للأمم في تاريخنا قادرة على أن تمنحها أعظم القوى الدافقة، والحوافز القادرة على إعطاء خطط التقدم أنبل المثل وأشرف الغايات.

٥ - لم يكن التاريخ في مفهوم الثقافة العربية هو تاريخ الملوك والأمراء، ولكنه كان تاريخ المجتمع كله. بمختلف عناصره وقواه، وأبطاله وعناصره (طبقات الأطباء، وأخبار الحكماء، والنحاة والأدباء، ورجال المذاهب، وأعيان كل عصر، وطبقات الشافعية والحنابلة والمالكية والحنفية) فالتاريخ بصفة عامة هو تاريخ العقول والأفكار، وجماع السياسة والدين والاقتصاد، وحصيلة الحركة العقلية والأدبية. والمعنى الوطني مرتبط بالمعنى القومي. وكلاهما مرتبط بالدائرة الفكرية الأوسع المستمدة من الإسلام والقرآن.

٦ - نظرة الثقافة العربية إلى التاريخ أنه قوة دافعة، بل هو نقطة بدء في الاتجاه إلى الأمام، ومن هنا يستطيع التاريخ أن يعطي الثقافة العربية الإيمان بحيوية هذه الأمة، وبحصولها على مجد جديد لتلعب دورها الحيوي في العالم البشري.

٧ - ليس تاريخنا دوائر منفصلة، ولا حلقات مستقلة، ولكنه نسيج كامل. والثقافة العربية تنكر قصور النظرة والزاوية الواحدة، المحدودة، إيماناً منها باستحالة فهم أي حدث إلا بإدراك تفاعله مع الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية، فالخيوط كلها لا بد أن تتجمع لتمثل وحدة كاملة.

٨ - لا سبيل لفصل تاريخ العرب عن تاريخ الإسلام منذ فجر الإسلام وإلى اليوم. فمنذ بزوغ الإسلام فقد ارتبط بتاريخ العرب أوثق رباط. لقد ظهر في الأمة العربية أولاً في حياة الرسول نفسه فدانت الجزيرة به، ومنها امتدت روافده وفروعه، كما انبعثت منها الموجات المتوالية المختلفة التي تحركت شرقاً وغرباً وشمالاً. والأمة العربية هي التي حملته إلى العالم أجمع، وكانت اللغة العربية أداة فكره وثقافته وحضارته. فالفكر الذي كونته الأمة العربية من خلال جوهر الإسلام كان حصيلة مشتركة للمسلمين والعرب جميعاً، بحيث لا يمكن أن يوصف بأنه فكر عربي خالص أو فكر إسلامي. وكذلك الحضارة فهو فكر عربي إسلامي وحضارة عربية إسلامية شارك فيها الجميع وانصهرت فيها مختلف الثقافات الإنسانية. فارسية ومصرية ويونانية ورومانية وهندية، وتبلورت في (إطار الإسلام) وفق مفهومه ومضمونه. وقد شارك في هذا التشكيل الأساسي: العرب وغير العرب. شاركوا في الحضارة والفكر وبناء الثقافة والمجتمع جميعاً. وقد رسم الإسلام مفهوم الوحدة بين معتنقيه والمرتبطين به على أساس الفكر لا على أساس العرق. ووسع دائرة الإخاء الإنساني وأسقط العصبية والتفرقة العنصرية، وجعل أساس التبرير والتفوق والتفاضل قائماً ومستمداً من العمل لا من اللون، ومن الشخصية لا من الوراثة.

٩ - إن فلسفة التاريخ في مفهوم الثقافة العربية لا ترضى مذهباً من مذاهب التفسير التاريخي منفصلاً سواء التفسير المادي، أو التفسير الروحي، أو التفسير الجغرافي أو التفسير المناخي، فكل هذه النظرات مستقلة لا تستطيع أن تعطي تفسيراً صحيحاً للتاريخ. فقد قام التاريخ في الثقافة العربية على أساس التكامل والترابط والشمول وحدة واحدة بين المادة والروح، والماضي والحاضر، والدنيا والآخرة، على قاعدة التوحيد والإيمان بالإنسان سيداً للكون تحت حكم الله، وهي تحذر أيضاً من النظر إلى علة واحدة دون العلل الأخرى.

للثقافة العربية جذور بعيدة من التراث، وهو تراث حي متفاعل ما زال يعمل ويؤثر في الحاضر بصورة حقيقية. وليس مفهوم التراث في الثقافة العربية رجوعاً إلى الحاضر أو استدارة للحياة، وإنما هو إحساس صادق بأنه قاعدة عريضة لفكرنا تشكل الجانب الثابت منه. ونحن في مواجهة النقل والاقتباس والانفتاح على الثقافات الحديثة المعاصرة والعلوم والمعارف الإنسانية. إن هذا التراث هو الضوء الكاشف أمام حركة ثقافتنا فهو يمثل (الأصالة) إزاء طوابع التقدمية والعصرية التي تتسم بالحركة السريعة بما يؤمنها العثار، ويحفظ لها قاعدة أصيلة من النظرة العميقة، ومن المستحيل أن تستطيع الثقافة العربية القدرة على الحركة دون هذا الترابط الحقيقي بين الأصالة والتجدد، الذي يحول دون التميع والانحراف.

(١) - ولقد أحيا الأوروبيون تراث اليونان والرومان الميت الذي انفصلوا عنه ألف عام، وأقاموا عليه أساس نهضتهم بينما يقف تراث الثقافة العربية حياً متفاعلاً لم ينفصل عن الحاضر. ولقد أحيا اليهود لغتهم وثقافتهم القديمة، وجعلوها أساس الصهيونية، وفكر إسرائيل بعد قرون متعددة من التوقف والانفصال.

(٢) - إن الثقافة العربية تؤمن ببعث القديم وصياغته من جديد في قوالب عصرية. وهي ترى أن ذلك البعث عنصر هام من عناصر وجودها. فقد مضى وقت طويل على هذه الكنوز مدفونة تحت الرماد. وقد آن لها أن ترى النور وأن تعمل لخير الإنسانية غير أن الثقافة العربية لها مقاييسها في إحياء التراث وبعثه، وهي تختلف عن مقاييس الغرب وأساليبه التي يحاول بها التركيز على جانب مضطرب من تراثنا، يراد بإحيائه وبعثه إفساد مقومات فكرنا. وذلك حين يركز على الجوانب المضطربة من التراث التي ارتبطت بمراحل الضعف والتخلف والتي تنحرف أساساً عن مقومات التوحيد، وخاصة ما يتعلق بالزيوف التي دخلت إلى

الثقافة العربية نتيجة استيلاء تراث اليونان وفلسفة الهنود، ووثنيات الفرس القديمة.

(٣) ـ لقد تأكد الارتباط بين الماضي والحاضر على نحو لا سبيل إلى التشكيك فيه. وقد أشار المستشرق (هاملتون جب.) إلى هذا المعنى حين قال: «ليس في وسع العرب أن يتجردوا من ماضيهم الحافل كما تجرد الأتراك وسيظل الإسلام أهم صفحة في هذا السجل الماضي إلى درجة لا يمكن أن يغفل عنها الساعون إلى إنشاء مثل عليا». وقال كامفيار: «لن ينفصل العرب عن الماضي المجيد في التاريخ الإسلامي. وإن استعارة هذا الماضي وتجدد الحديث عنه هو أحد العوامل القوية في حركة البعث الوطني والديني، وإن حركة بعث الإسلام لا يمكن أن تنقطع أو تتوقف، لأن الناس في حاجة إليها. فهي إحدى مقومات نهضتهم الوطنية» ولنا عبرة فيما يقرره أهل الثقافات المختلفة لتراثهم، وأمامي نص لنهرو يقول فيه: «إن علينا أن نتطلع إلى المستقبل، وأن نعمل له جاهدين عن قصد يحدونا الإيمان القوي، وأن نحتفظ في الوقت عينه بتراثنا الماضي أمامنا لكي نستمد منه القوة والعزيمة. إن التغيير أمر لا بد منه ولكن استمرار الحياة من غير اضطراب أو تقطع أمر لا يقل عن ذلك أهمية، وخير مستقبل هو ما كان قائماً على الحاضر والماضي على السواء. أما أن نتنكر للماضي وننزع أنفسنا منه فمعناه اقتلاع أنفسنا من تربتنا، فيخرج منا، وقد ييبس عودنا وجف ما فيه من عصارة الحياة الحقة».

ويقول سيمون وايل في كتابه الحاجة الى الجذور (The Sead For Roots) «ان تراث الماضي في عنق الحاضر مسؤولية قدسية، فإذا انهزم الماضي فإن عودته ضرب من المحال، وإن أعظم الجرائم قسوة أن يهدم الناس ما ورثوه عن أسلافهم من تراث، فما علينا إلا أن نجعل هذا الاحتفاظ الأكبر بما تبقى لنا من تراث الماضي.»

إن الدور المهم الذي يمارسه التراث الروحي (وهو الجزء الأهم من

تراث الماضي) في سلوك الناس ومبلغ الإيحاء والقوة الدافعة التي توفرها الذخيرة الروحية للذين يتسلحون بفنون العلم.

ويقول باسكال: كل نسل لا بد أن يستعين أولا من الكنز الذي تركه من سبقوه. ثم يزيده إن كان عنده استعداداً لذلك.

(٤) - يقول قسطنطين زريق: لا يعرف أحد منكم ما يريده البعض من أن الثقافة العربية قد ماتت واندثرت، وأنه لا سبيل لإحيائها. فالثقافة العربية التي سادت على العالم عصوراً طويلة، التي لم تمحها أجيال من الإرهاق والاضطهاد لها من القوة والحيوية ما يضمن لها البقاء، ولن يضيرها أن تتصل بالثقافة الغربية وتأخذ عنها. والغريب أن هؤلاء الداعين إلى نبذ التراث العربي أو إهماله، إنما يردّدون ذلك في عصر نرى الأمم النازعة إلى حياة جديدة تعمد إلى ثقافتها القديمة فتحييها، وتجعلها عنوان مجدها وقبلة آمالها، ففي الوقت الذي تسعى كل أمة نشيطة من أمم الشرق والغرب إلى تقديس تقاليدها، وتمجيد حضارتها، لا يسع الأمة العربية إلا أن تعمل على بعث تراثها القديم وروحها التي ولدت تمدنها التالد، فكل من لا ماضي له لا حاضر له، ولا مستقبل. والأمة التي لا تعنى بروحها لا يمكنها أن تؤدي رسالتها إلى التمدن البشري.

(٥) - يقوم مفهوم الثقافة العربية للتراث على أن الماضي هو المبدأ أو القاعدة والأرضية - والماضي يعين على فهم الحاضر وتهيئة المستقبل، وليس معنى هذا هو إعادة الماضي أو تقليده، وليست صورة الماضي هي صورتنا الآن. فإن المثل الأعلى يتطور، ولكن على قاعدة من القيم الأساسية الثابتة.

إن في الماضي بطولات ومواقف وقيم حاضرة للإبداع، والتماس العبرة، وعلينا أن نؤمن بأنفسنا وتراثنا، حتى لا نحس بالقصور أمام الخصوم والغزاة. ونحن نستفيد من التراث ما يزيدنا قوة، وما يدفع عنا أخطاء السابقين، وذلك حين نعيد النظر فيه، ونفسره تفسيراً جديداً.

وفي هذا يقول عمر فروخ: إن حياة الأمة رهينة بحياة تراثها، فإن

الأمة التي لا تراث لها لا تاريخ لها. وإن الأمة التي لا تاريخ لها ليست إلا كتلاً بشرية لا وزن لها في ميزان الأمم، ولم نعلم في تاريخ الإنسانية أن ثقافة ما هوجمت تمثل العنف الذي هوجمت به الثقافة العربية.

(٦) - قلما تجد أمة من الأمم لها ما للأمة العربية من تراث خالد، فقد خلّفت آثاراً مجيدة في ميادين العلم المتعددة. ولولا نتاج القرائح العربية لتأخر سير المدنية عدة قرون. فقد أقاموا وجهة نظر للكون والحياة تختلف عن وجهات نظر الثقافات الأخرى قوامها التوحيد هادفة إلى الوحدة الإنسانية والعدل والإخاء.

(٧) - إن الثقافة العربية تؤمن بأن شجرة ضخمة لا يمكن أن تقوم بغير جذور، وإنه لا بناء ضخم يقوم دون أساس راسخ ذاهب في أعماق الأرض مدعم بالصلب والإسمنت على قدر ما يحتاج له من الارتفاع في السماء. كذلك ثقافتنا العريقة ذات الأصالة التي عاشت العصور لم تكن في مقدرتها هذا البقاء الطويل وهذا التأثير البعيد في الثقافات المختلفة دون تلك الجذور.

وفي هذا يقول علال الفاسي: إن الذي ينظر في تاريخ الحركات العامة في الدنيا كلها يجد أنه لم تعم ثورة معينة في بلد ما، إلاّ وسبقتها دعوة للرجوع للماضي البعيد، ذلك أن هذا الرجوع الذي يظهر في شكل تقهقر إلى الوراء، هو نفسه تحرر كبير من أشياء كثيرة وضعتها الأجيال العديدة، والعصور المختلفة، والتحرر منها، هو تخفيف يسهل السير إلى الأمام بخطى واسعة، وإزالتها من الطريق يفتح أفقاً عالياً يهدي السائرين للغاية الصحيحة التي يجب أن يوجهوا أنفسهم إليها.

٥ - الأمـــة

من أهم مقومات الثقافة العربية أنها «ثقافة أمة».

١- أمة لها خصائص ومميزات أصيلة واضحة المعالم. وهي أمة عريقة بعيدة الجذور في التاريخ، كانت قبل الإسلام موجودة وقائمة على نحو من الأنحاء،

تجمعها اللغة العربية ذات الجذور العميقة، ثم كان الإسلام عامل وحدتها وتجمعها، وهي أمة صانعة للتاريخ، مؤثرة فيه، أتاح لها الإسلام أن تنطلق إلى أوسع مدى في العالم القديم من حدود الصين إلى حدود فرنسا، وهي أمة موجودة اليوم كما كانت قبلاً بفعل الإرث الطبيعي والاجتماعي، وإذا كان الإسلام قد وحدها فإنه قد دعم كيانها، وحفظ ماهيتها، وأبقى على وجودها.

وهي أمة لها إستعداد فطري للتمسك بالعقيدة والدين والروحية، ولها إيمان بالمثل العليا الجامعة التي كانت موجودة فيها. ثم جاء الإسلام فصقلها ونماها ووجهها وجهة خالصة لله، ورفعها من الأهداف القريبة إلى الأهداف البعيدة، ودفعها من الأغراض الذاتية إلى الأغراض الإنسانية.

فقد عـرف العرب الصبر والجرأة والعزم والقوة والحمية والمروءة، وكانوا مثلاً عالياً قبل الإسلام، فلما جاء الإسلام ربط بين قيم العقائد والشرائع والأخلاق، وبين هذه المظاهر فامتزجت به ونماها ودعَّمها، وحول أهدافها إلى الخير والحق، ورفعها من الأغراض والأهواء إلى الإنسانية والعدل الاجتماعي.

وللأمة العربية خصائص أساسية أهَّلتها لتلقي رسالة الإسلام التي كانت مصدر قوتها ونموها. ومن هنا تكونت لها ثقافة ذات طابع واضح عميق مميز، تختلف به عن الثقافات الشرقية والغربية، وتلتقي به مع الثقافات ذات المصدر الإسلامي في جوانب كثيرة بحسبان أن الإسلام هو العنصر الأقوى لها، وهو العامل المؤثر، والجامع بينها جميعاً.

(٢) ـ والامة العربية «تعلم أن لا حياة لها إلا بالإسلام الذي بوأها مكانتها في التاريخ، وهو الذي أعاد إلى بلاد العرب وحدتها القومية واللغوية، فكان منها هذا الوطن العربي الممتد من البحر الهندي جنوباً إلى جبال الكرد في الشمال ومن فارس شرقاً إلى بحر الظلمات في أقصى الغرب. وبالإسلام أوجد العرب أعظم نهضة وأرحم إرادة، وأعدل تشريع، وبالإسلام صدّ العرب طغيان الصليبية وردوها. فالأمة العربية: أمة ذات

شخصية تاريخية مستقلة، ولون واضح، ومزاج خاص، وروح متميز، لا حياة إلا به. وقد واجه هذا التشكيل تحديات خطيرة وأزمات متعددة، وغزو متعدد المراحل من قوى مختلفة كالتتار والصليبيين والفرنجة في بغداد ودمشق وفلسطين وشواطىء مصر والمغرب جميعاً. ولكن هذه القوة الذاتية القائمة وراء شخصية هذه الأمة كانت قادرة على دحر الغزو، وتأكيد الكيان والحفاظ عليه دون أن يدمر أو يباع أو تحتويه القوى الأخرى. ولا تزال هذه المعركة هي معركة الأمة العربية.

(٣) - وفي العصر الحديث وفي مواجهة الغزو الغربي الاستعماري، فقد تشكلت حركات المقاومة على مستويات متعددة: إسلامية خالصة. وطنية خالصة، وقومية خالصة.

ولكنها جميعاً كانت تستمد من المصدر الأول: «شخصية الأمة» الجامعة بين المروءة العربية والتوحيد الإسلامي، ولم تكن الحركات الوطنية أو القومية مجافية لهذا المعنى، بل كانت مطابقة له على حد تصوير كثير من المنصفين لها، يقول كانتول سميث: هذه الحركات القومية تهدف إلى التخلص من النفوذ الأجنبي، ولم تكن هذه الحركات مطابقة للإسلام فحسب. بل هي جزء لا يتجزأ من فكرة بعث الإسلام. فنضال الأندونيسيين المسلمين للتخلص من الهولنديين، وكفاح السوريين ومسلمي المغرب للتخلص من الفرنسيين، ونضال مسلمي الهند ضد البريطانيين. كل ذلك كان جزءاً من حركة المسلمين لبناء مجتمع إسلامي في العصر الحاضر، ومن هذا القبيل قيام الأتراك بطرد اليونانيين عام ١٩٢٢، والإيرانيين للقضاء على منطقة النفوذ الروسية الإنجليزية، فكانت جميعها خطوات نحو إحياء الإسلام. فكل المسلمين مسلمون اجتماعياً وسياسياً. وإن كان ثمة اختلاف بين الزعماء الوطنيين والزعماء الدينيين فهو خلاف لم يتخذ مظهر النضال والكفاح.

(٤) - وإذا كانت الأمة العربية قد قاومت على كل المستويات. فإن النفوذ الأجنبي كان يواجه جميع هذه المستويات. يقول محمد علي

العنتيت: إن أهداف الغرب التي عمل من أجلها منذ الحروب الصليبية هي القضاء على البعث العربي، والحيلولة دون بعث القومية العربية على أية صورة من صورها. باعتبار أن ذلك رأي الغرب بالإضافة إلى أنه يشكل خطراً جسيماً على سياسته، فإنه متى تحقق كان المقدمة التي تجر وراءها حتماً وتلقائياً البعث الإسلامي. فإن بعث القومية العربية في نظر ساسة الغرب هي الطاقة القوية التي متى انبعثت كان من المحتم أن تدفع المسلمين أمامها إلى التجمع من جديد على الصورة القومية التي لا يمكن أن تتحقق في ظل القومية العربية دون سواها من مختلف الحركات الإسلامية، ولم يحد الغرب عن هذه العقيدة منذ الحروب الصليبية الى الآن. بل إنه يجد فارقاً بين القومية العربية وبين التجمع الإسلامي، أو بين العروبة والإسلام، والغرب دائماً يتهيب خط التجمع الإسلامي، ويراه كامناً في العروبة حيث كانت لا في الإسلام حيث كان. فقوة القومية في البلاد الإسلامية غير العربية لا يرى فيها الغزب إلا مجرد حركة قومية فحسب، لا تتصل إطلاقاً بالتجمع الإسلامي الذي يخيفه، والحركات التي يقوم بها المسلمون غير العرب لا تعدو أن تكون في نظر الغرب حركات سياسية في حين أن مثل هذه الحركات في البلاد العربية حيثما كانت حركات منطوية على البعث القومي والديني الذي عرفه الغرب بالتعصب. وحرصوا على تزويد هذا التفكير كلما واجه الغرب هذه الحركات في الشرق العربي.

(٥) ـ الوحدة العربية تمثل عودة إلى واقع، وهي على فطرتها الأصيلة، وقبل تعقيدات أصحاب المذاهب الفلسفية والنظريات المستوردة كانت مفتوحة على الإسلام فكراً وأساساً، وعلى العالم الإسلامي شعوباً وأمماً، انفتاح النواة أو البؤرة والقلب الذي كان واسطة العقد للعالم الإسلامي كله منذ بزوغ فجر الإسلام إلى اليوم. ولم يكن هدف تجمع الأجزاء العربية في وحدة عربية يعني أي مفهوم من مفاهيم التعصب الجنسي أو التفرقة العنصرية أو الاستعلاء بالدم أو العرق

(الجنس) على الأجناس المختلفة، ولم تكن وحدة مغلقة مخاصمة أو معارضة على نحو ما عرفنا في الوحدات الأوروبية بل كانت الأمة العربية وحدة «أمة» تسعى إلى التجمع لتكون منطلقاً إلى وحدة فكر.

وإن الإسلام وإن كان عربي اللغة فهو داعية تفاهم ومساواة بين الداخلين فيه عرباً وعجماً. ولقد كان العرب يذكرون عروبتهم، ولكنهم لم يكونوا يستعلون بها على الأجناس، بل كانوا يعلّون من شأن الأخوة التي تجمعها وحدة الفكر.

ولقد كانت وحدة الفكر التي أقامها الإسلام وبناها القرآن مصدر الالتقاء والتجمع والتكامل، دون أن تفقد الأمم عناصر حيويتها كأمم. وقد اختلط تاريخ العرب بتاريخ الإسلام والمسلمين، وامتزجت ثقافتهم بالثقافات الإسلامية المختلفة، وارتبطت اللغة العربية باللغات الإسلامية، وكانت حروفها عاملاً مشتركاً بين الكثير منها.

وبذلك كانت «وحدة الفكر» أعظم قوة من عصبية العرق وقوته.

(٦) - مفهوم «العروبة» في الثقافة العربية مفهوم سمح كريم، عبر عنه عمر بن الخطاب حين قال «إنما العربية باللسان فمن تكلم بالعربية فهو عربي» ومن هذا المنطق يمضي الإمام ابن تيمية فيقول:

إذا تقرر بأن من تكلم بالعربية فهو عربي، وبأن من دان بالإسلام فهو عربي، وبأن من تحلى بأخلاق العرب الذين خوطبوا: «كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله» كان عربياً. يقول: اجتمع للعرب الكمال بالقوة المخلوقة منهم، والكمال الذي أنزل الله إليهم، وأن فضل الجنس لا يستلزم فضل الشخص، وليس سبب فضل العرب عند ابن تيمية لما ورد فيهم من نصوص في القرآن والحديث قط، أو خصوا به من أحكام في الفقه، بل هم ذوو فضل في ذلك لما اختصوا به من فطرة ومعدن في عقولهم وألسنتهم وأخلاقهم

وأعمالهم[1] وابن تيمية يجعل معرفة الإسلام متوقفة على معرفة لسان العرب فلا سبيل إلى ضبط الإسلام إلا بضبط العربية. فاللسان شعار الإسلام وأهله. يقول: «واعلم أن اعتياد اللغة يؤثر في العقل والخلق والدين تأثيراً قوياً بيناً.»

والقرآن لا يجوز عنده أن يقرأه أحد بغير العربية. فالعروبة عند ابن تيمية تثبت باللغة وبالنسب وبالوطن فمن تكلم بالعربية فهو عربي. والفقه العربي لا يتعلم إلا بلسان العرب والتعايش مع العرب والتخلق بأخلاقهم، وعنده أن اللغات أعظم شعائر الأمم، واللغة العربية للإسلام ليست لغة فحسب، ولكنها عقل وخلق ودين - واعتياد لغة ما يؤثر في عقل المتحدث بها وفي خلقه ودينه، وكل لغة لا تنقل إلى عارفها ألفاظها، وصيغ الكلام بها، ولكنها تنقل إليه عادات أهلها وأخلاقهم وعقليتهم وطرائق تفكيرهم ودينهم مع كل ذلك».

ونستطيع أن نضيف إلى ذلك مفهوم الإمام الشافعي الذي خلص من بيان أن القرآن عربي إلى حكم فقهي. هو فرض تعلم اللغة العربية وجوباً على كل مسلم ليشهد الشهادتين، ويتلو الكتاب العزيز وينطق بالذكر. وقال: «إنما خاطب الله بكتابه العرب بلسانها على ما تعرف من معانيها» ورتب على ذلك ما يربط الشريعة الإسلامية كلها باللغة العربية. وقد وجهه الإدراك العميق لأسرار اللغة والفقه الشامل إلى أن ينظر النظرة الأصيلة فيرفع معرفة اللغة إلى مستوى الدين ويصيرها واجباً على المسلمين، وعلى اللغة وعلى العرب وعند المسلمين: أن جعل الإسلام عربي اللسان مهما تعددت أجناس المسلمين. يقول: وأولى الناس بالفضل من اللسان من لسانه لسان النبي. ولا يجوز - والله أعلم - أن يكون أهل لسانه أتباعاً لأهل غير لسانه في حرف واحد بل كل لسان يتبع لسانه، وكل أهل دين قبله، فعليهم اتباع دينه، وكان مما عرف الله نبيه من

---

(1) من بحث عن ابن تيمية بقلم محمد المنتصر الكتاني - حضارة الإسلام - حزيران ١٩٦١.

إنعامه أن قال: «وإنه لذكر لك ولقومك» فخص قومه بالذكر معه في كتابه وقال «لتنذر أم القرى ومن حولها» وأم القرى مكة، وهي بلده وبلد قومه، فجعلهم في كتابه خاصة، وأدخلهم مع المنذرين عامة، وقضى أن ينذر بلسانهم العربي. لسان قومه منهم خاصة، فعلى كل مسلم أن يتعلم من لسان العرب ما بلغه جهده حتى يشهد به أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، ويتلو كتاب الله وينطق بالذكر فيما افترض عليه من التكبير وأمر به من التسبيح والتشهد وغير ذلك [1] وهكذا نرى أن «الأمة» في الثقافة العربية، والأمة العربية بالذات تحمل معنىً مختلفاً عن مفاهيم «الأمة» في الثقافات الأخرى.

(٧) ـ يرى الباحثون أن أية يقظة في العالم الإسلامي تبدأ من نقطة يقظة الأمة العربية، وأن وحدة العرب إنما هي مقدمة لعملين: أحدهما: وحدة الفكر الإسلامي، والثاني وحدة العالم الإسلامي، وهذا خلاف جذري في تكوين القومية العربية والقوميات الأوروبية هذه القوميات التي تشكلت من أجل القضاء على سلطان الوحدة البابوية.

(٨) ـ تبين ان الأمم والشعوب بعد مرحلة الغزو الاستعماري تمر في مراحل ثلاث: الوحدة الوطنية وهي (وحدة الأرض)، والوحدة القومية وهي (وحدة الأمة)، ثم الوحدة الفكرية وهي (وحدة الجماعة) التي تربطها قيم أساسية إنسانية تعلو على الجنس والعنصر. ولقد كان المسلمون يشكلون «وحدة الفكر الإنسانية» غير أن هذه الوحدة لم تقض على وجود الأمم والشعوب. وإنما كانت هذه الأمم والشعوب تتعامل على أساس اللقاء والإخاء والتكامل والتضامن النفسي والاجتماعي والسياسي، فكانت محاولة النفوذ الاستعماري هي القضاء على هذه الوحدة كمقدمة لتعميق مفاهيم الأقلية والدعوات الجنسية والعنصرية حتى تتضارب الأمم والشعوب وتتصارع. غير أن وحدة الجذور الفكرية

---

(١) من بحث للأستاذ عبد الحليم الجندي عن «الامام الشافعي ناصر السنة وواضع الأصول»

والروحية والاجتماعية بين الشعوب الإسلامية، قد حالت إلى حد كبير دون قيام قوميات عنصرية تقف موقف العدوان مع العناصر والأجناس الأخرى. وكان مفهوم العرب للوحدة هو مفهوم استئناف يقظة إسلامية عن طريق يقظة العرب. وكان مفهوم المسلمين في كل مكان أن وحدة العرب ويقظتهم هي ضرورة ومقدمة لكل يقظة شاملة. وقد رفض المفكرون العرب والمسلمون الشبهة التي تقول بأن الإسلام عقيدة لا تساعد على نمو القومية، والحقيقة أن الإسلام عقيدة لا تساعد على نمو العصبية الجنسية أو الإقليمية الضيقة العدوانية.

(٩) - لم تكن فكرة العروبة واضحة طوال التاريخ المشترك (الإسلامي العربي) في المراحل الماضية، على النحو الذي ظهرت به في التاريخ الحديث. وذلك يرجع إلى أن التحدي الاستعماري الزاحف قد استطاع أن يزيل أكبر وحدة تجمع حولها العرب وغيرهم لمواجهة خطر الغزو الخارجي وهي (الخلافة العثمانية). ومن هنا فقد ظهرت (الوحدة العربية) بهذه الصورة كبديل في محاولة لتجميع قوة أعمق ترابطاً وأقل اتساعاً لنفس الهدف وهو المواجهة للاستعمار والمقاومة للنفوذ الأجنبي. ومن هنا نرى أن دعوة الوحدة لم تكن صدى لحركات قومية أخرى. بل إنها تعبير عن حاجة أساسية وتحد خارجي واضح.

(١٠) - كل محاولة تصور وحدة الأمة العربية على أنها وحدة عنصرية مستقلة مناهضة للشعوب التي تجمعها معها وحدة الفكر، هي محاولة مغلوطة. وكذلك كل محاولة لتطور الحضارة العربية الإسلامية على أنها حضارة دينية أو تطور الثقافة العربية على أنها ثقافة دينية، أو النظر إلى الفكر العربي الإسلامي على أنه فكر ديني أو إلى لغة العرب على أنها لغة دينية. كل هذه التصورات مغلوطة وخاطئة ومصدرها قصور في فهم مضمون الفكر الإسلامي ومقوماته الإنسانية التي هي أصل أصيل للثقافة العربية. لذلك فإن هذا الفكر يقوم على نظرة متكاملة شاملة: قوامها الدين واللغة والتاريخ والاجتماع والاقتصاد والتربية والسياسة في وحدة واحدة، ولا سبيل إلى تطور حضارة أو ثقافة أو

فكر عربي منفصل عن الإسلام. فالإسلام هو الذي حقق وحدة العرب. والقرآن هو الذي حقق وحدة اللغة، وثبت هذا الأساس الجذري لتكوين الأمة[1] (إنّا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون ـ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ـ لو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته ـ) ولقد تعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين. الفرق بين الأمة العربية والأمة الإسلامية يختلف من حيث أساس الوحدة، فوحدة الأمة العربية وحدة جنس وعرق، ووحدة الأمة الإسلامية هي وحدة فكر وقيم، ولقد انطلق الإسلام فوسع دائرته بينما توقفت اللغة.

ولم تكن الشعوب تميز في البدء بين العروبة والإسلام، بل بقي المفهومان مترادفين حتى أن الداخلين في الإسلام من الشعوب الأخرى اعتبروا عرباً.

(١١) ـ ما تزال فكرة القومية العربية على النحو الذي عرف في مؤلفات الباحثين المتأخرين: فكرة أكاديمية جامدة أخذناها من الغرب، حاول أصحابها إملاءها بمفاهيم وقوالب فكرية. وجاءوا بهذه المفاهيم الغربية فأقحموها إقحاماً على الواقع العربي لتطبيقها، وكان ذلك خطوة في طريق طويل منذ الاحتلال الأجنبي أخذت فيه البلاد العربية النظم السياسية الأوروبية تقليداً أو إملاء دون البحث عن تناسبها أو نفعها. وقد أثبتت هذه الأنظمة فعلاً فشلها في التطبيق على الأمة العربية.

(١٢) ـ تردد كثيراً القول: «بأن الرابطة الدينية» وحدها لا تكفي لتكوين القومية. وهذا حق إلى حد ما، ولكن هل الإسلام دين ينطبق عليه هذا القول كما هو بالنسبة للأديان الأخرى؟

من الحق أن الإسلام نظام اجتماعي كامل، وأنه مصدر من مصادر

---

(١) عبد العزيز الدوري: الجذور التاريخية للقومية العربية.

الوحدة والالتقاء والتقارب والتجمع وأنه حين يعترف بالأجناس والشعوب (يا أيها الناس إنّا جعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا. إن أكرمكم عند الله أتقاكم) يجعل هذا اللون من القومية مفتوحاً، مرناً، لا يعرف التعصب الجنسي أو التفرقة العنصرية، بل يجعل للأساس الأكبر الأعمق وهو الوحدة الفكرية أكبر عوامل وجوده فإن الوحدة في مفهوم الثقافة العربية هي مفهوم التماثل النفسي والعقلي الذي يتجلى في وحدة الثقافة.

(١٣) - أصدر الفقهاء للعروبة شروط تفضيل: قوامها منزلة القيادة والإمامة يعطيها المسلم غير العربي لأخيه المسلم العربي عن طيب نفس. فالعربي في نظر إخوانه المسلمين غير العرب أقوى وأعمق وأقدر وذلك إيماناً بقول عمر: «إذا ذل العرب ذل الإسلام».

(١٤) - يقول اشبنجلر: إن فكرة الأمة عند العرب تقوم على أساس من الروابط الروحية المجردة. ولذلك فالشعوب العربية في وحدتها تريد من زعيمها أن يتمتع بصفات النبي ومؤهلاته. لأن الأمة العربية ذات وجود روحي يكاد يكون مطلقاً. فإذا أردت أن تستفز العربي فعليك أن تتوجه إلى وجدانه لا إلى معدته. ولذا تلعب النخوة والمروءة والبطولة أدواراً هامة في السلوك الأخلاقي للفرد العربي، كما أن للإيمان لا للعقل المركز الأول والممتاز لديهم.

(١٥) - لا تقر الثقافة العربية هذا اللون من المبالغة الضبابية المحملة بالظلال والأضواء عن مفهوم الأمة العربية كأن يقال: إن الأمة تجربة رحمانية، أو إن الأمة عقيدة، أو محاولة إعطاء المعنى القومي طابعاً فلسفياً لاهوتياً صوفياً على نحو رحماني ومثالي. أو من نحو قول القائلين «ظهور الأمة على مسرح التاريخ كظهور الإلهام في مسرح الوجدان».

ذلك أن الثقافة العربية في جوهرها: عقلانية وجدانية معاً. فهي واضحة الرؤية لكل المفاهيم، وإيمانها بوجود الأمة هو في مفهومه داخل إطار الفكر الإسلامي أقوى وجوداً وأعمق أثراً من هذا التصور المهموم

الخيالي الذي يحاول أن يسبغ على القومية قداسة الدين، في محاولة لإحلالها محله، أو في سبيل اتخاذ هذا التصور الفلسفي عقيدة كبديل لعقائد الأمة العربية ذات الجذور العميقة في وجدانه وروحه ومزاجه. وقد تبين أن القائمين بهذه الدعوة إنما يحاولون عزل الأمة العربية عن مضامين قيمها الإنسانية، وخلق مضامين جديدة بدا أنها مرفوضة أصلاً. ومن العجب أن الذين حملوا لواء الدعوات العازلة لمفهوم القومية العربية عن الإسلام، أو محاولة اتخاذ القومية بديلاً عن الإسلام (هؤلاء) إما ليسوا على عقيدة غالبية هذه الأمة، أو من الفرق الإسلامية ذات المفاهيم المنحرفة، أو من توابع المذاهب السياسية التي نمت في أواخر أيام الإمبراطورية العثمانية وكان لها دورها في القضاء على الوحدة العربية التركية، أو تأريث الخلاف بين العرب والترك كالاتحاديين مثلاً.

ومفهوم الثقافة العربية الأصيل لا يقبل قول بعضهم إن نهضة العرب لا تتم إلا إذا أصبحت العروبة ديانة لهم يتعصبون لها تعصب الصليبيين لدعوة بطرس الناسك [1] ذلك أن للعرب ديانة أعمق وهي لا ترفض الوجود القومي والاتحاد إلا إذا تجاوز مفهومه في الانفتاح على الأمم والشعوب والثقافات، وإلا إذا حمل لواء التعصب والاستعلاء.

(١٦) ـ وتحاول بعض هذه الدعوات أن ترسم للأمة العربية صورة ماض قبل الإسلام له طابع من القداسة، ونحن نعترف بأن للعرب ماضياً قبل الإسلام، ولهم قيم وشمائل. ولكن صورة إمامة العربية ذات القوة الذاتية الموحدة لم تقم ولم تتشكل إلا بالإسلام نفسه، ولم تكتمل في صورتها العملية إلا بعد الإسلام. ومن خلال تاريخ الإسلام حيث اللغة هي لغة القرآن، والعرب هم القوة التي تحمل اللواء، وحيث خضعت شمائل العرب وقيمهم إلى هدف، وتحررت من الوثنية والجاهلية، وانطبعت بطابع الإنسانية والإيثار وإخلاص العمل له، وبالجملة فإن

---

(١) عمر الفاخوري: كيف ينهض العرب.

(التوحيد) هو عقدة الوحدة العربية الأولى، ولا يزال عقدتها. فالتوحيد والوحدة هما شقا ثمرة واحدة.

(١٧) - ومن هنا فإن أسس الأساس في تكوين وبناء القومية العربية ليست وحدة اللغة والتاريخ، ولكنها « وحدة الثقافة » التي هي أساس لوحدات اللغة والتاريخ، والمشاعر والمزاج العقلي والنفسي. ولقد كانت وحدة الفكر هي أساس المجتمع الإسلامي، ولم تكن الأجناس (الرسوس) لقد بقيت الشعوب والأجناس، ولكنها لم تكن ذات طابع يحمل الاستعلاء أو العدوان للأجناس والشعوب الأخرى، بل كانت الوحدات القومية إنما تمثل طبقة ومرحلة مهيئة إلى التقاء أكثر عمقاً وأوسع مجالاً. أما في الغرب فإن فكرة القومية قد ارتبطت بالعنصرية وتغليب الجنس.

ففي إيطاليا مثلا حين ظهرت الدعوة إلى الفاشية أو النازية في ألمانيا اعتمدت أساساً على العنصرية وتغليب الآرية وعبادة الفرد مع تمكين فكرة السيادة والتوسع الاستعماري.

(١٨) - وكذلك يخطىء الذين يتصورون أن أثر الإسلام في الأمة العربية، إنما يمثل مرحلة تاريخية انطوت. فإن الإسلام بالنسبة للأمة العربية عامل جذري عضوي لا ينفك عن الأمة العربية، ولا تنفك عنه عصراً بعد عصر وجيلاً بعد جيل.

وليس صحيحاً ما يحاول تصوره دعاة الغالية عن أثر العروبة في الإسلام أو أثر الإسلام في العروبة. كل منفصل عن الآخر. فالإسلام منهج وفكر ومجتمع، وليس ديناً لاهوتياً فقط. ومن هنا فلا تنطبق عليه مطلقاً النظريات الغربية التي ترى تعارضاً بين الدين والقومية، وهو إلى ذلك الأرضية الفكرية، والإطار العقلي والروحي للأمة العربية صاغ لها وجودها وكيانها ووحدتها منذ أربعة عشر قرناً، فهي لا تنفك عنه ولا ينفك عنها.

ومن هنا فإن علاقة الأصل بالفرع هنا واضحة « الإسلام فكر،

والعروبة أمة » ولكل أمة مقومات فكر تستمدها من العناصر المختلفة منها: اللغة والدين والتاريخ والتراث، فإذا ذهبنا ننظر في اللغة أو الدين أو التاريخ أو التراث جميعاً لرأينا كلمة واحدة جامعة تربط هذه العناصر هي الإسلام بطابعه وأثره في اللغة والتاريخ والتراث.

(١٩) - يختلف مفهوم « الأمة » في الثقافة العربية عن مفهومه في الثقافات الغربية وغيرها بظاهرة الارتباط بالتراث والدين والتاريخ دون أن ينفصل عنها - ويعبر هذا (زيفلين وسيلوفكس) في كتابهما (الشرق الأوسط المعاصر) فيقولان:

إن أول ركائز الاجتماع والثقافة في الشرق الأوسط هو « الدين » الذي يحدد العلاقات بين أفراد المجتمع. ففي مجتمعات الشرق الأوسط خلافاً للمعهود في المجتمعات الغربية وحدة وثيقة بين الدين والمجتمع، ولا انفصال بين ما هو دنيوي وما هو أخروي. والروح الدينية منبثّة في جوانب الحياة كلها، وفي مواصفاتها ولغاتها ولهجاتها.

(٢٠) - ليس هناك تعارض بين الوحدة العربية أو العروبة، أو بين الدعوة الإسلامية، فتكتل العرب هو أمر طبيعي لهم كأمة، بشرط ألا يفقد مقوماته في الاتصال الجذري والعضوي بالفكر الإسلامي، ودون أن ينزع منها قيم الثقافة العربية الأصيلة، تحت ضغط النفوذ الأجنبي وعوامل الغزو الثقافي التي تريد أن تجعل مفهوم القومية غربياً مستورداً علمانياً منفصلاً عن الإسلام.

وتكتل العرب أيضاً هو غاية من غايات الدعوة الإسلامية، وقد نوه القرآن بشأن العرب ومكانتهم في نهوض المسلمين، وتكريم اللغة العربية أيضاً بنزول القرآن الكريم بها. فالإسلام هو الباعث الرئيسي إلى توحيد العرب وانسياحهم في الأرض. ولم يعد لفظ العرب يطلق على الجنس، وإنما يطلق على الجماعة التي وحدتها الثقافة العربية، وأركان العروبة في رأي الدكتور إسحاق الحسيني هي عروبة اللسان، وعروبة العقل، وعروبة القلب. وإن إسقاط ركن من هذه الأركان يخل بالعروبة

ويفسدها. وعنده أن عروبة اللغة مصدرها اللغة التي كانت في أول نشأتها وسيلة التفاهم لقضاء الحاجات. ثم أصبحت وسيلة للتعبير عن النتاج العقلي والروحي والأدبي والحضارات، فهي اليوم جماع الأدب والعلوم والنظر الفلسفي والروحي. واللغة إلى ذلك صورة مرئية لتاريخ حافل بالأحداث.

وفي مجال القول بأن العروبة هي عروبة اللسان والعقل والقلب، يقف على قمتها مثل شوقي الكردي الأصل، المصري الجنسية، كما يقف في التاريخ القديم كثيرون.

الغزالي، وابن سينا، والفارابي. ويطابق هذا المنطق عبارة الرسول: «إنما العربية اللسان، فمن تكلم العربية فهو عربي»[1].

لقد جمعت الثقافة العربية (اللسان، التاريخ، الدين، التراث) بين جماعة أكبر من العرب بمفهوم العرق وحده، وبجماعة أكبر من المسلمين بمفهوم الدين.

٦ - وحدة العقلية والمزاج النفسي

إن الأمة العربية بتكوينها الجامع بين الوجود العربي والعقل الإسلامي قد صنعت بناءً ضخماً لا سبيل إلى انتقاضه يمكن أن ينطلق عليه.

فالعرب مسلمون ومسيحيون، وعديد من العناصر التي تتكلم العربية وتعيش داخل الأمة العربية، إنما تلتقي في وحدة عقلية، ووحدة نفسية تتمثل في تشابه العرب في النظرة إلى مختلف أمور الحياة وفي الاستجابة للمؤثرات الخارجية. وهم مسلمون وغير مسلمين متشابهون في نظرتهم إلى قيمة الشخصية الإنسانية وإلى العمل الإنساني، وإلى الوقت وإلى المرأة

---

(١) راجعنا في هذه الدراسة بحثاً للأستاذ نبيه أمين فارس تحت عنوان (هذا العالم العربي).

وإلى مفاهيم الشرف والشهامة، وقضية العرض والوفاء والكرم والضيافة وحماية الجار وما إلى ذلك من القيم والعادات.

وكذلك النفسية العربية لها طابع واحد، وإن كانت تتكيف وتتشكل بأشكال مختلفة، وتكتسب صفات إضافية تحت الظروف المختلفة.

وترجع هذه الوحدة العقلية والنفسية إلى تشابه مصدر الثقافة العربية وترابط شمائل الأمة العربية واقترابها بمفهوم «القيم الإسلامية» كما رسمها القرآن(عقلياً ونفسياً، مادياً وروحياً، دنيوياً وأخروياً) ويرجع هذا إلى أن الأرض العربية كانت مصدراً للديانات السماوية الكبرى الثلاث.

يضاف إلى هذا عمل اللغة العربية بآثارها من شعر وقصص وأمثال وحكم وبأساليبها في التعبير. وأثرها في تكوين القالب الفكري للعرب، وتوجيه أذواقهم. والأدب العربي ثمرة اللغة العربية مشبع بالروح الإسلامي.

ولا شك أن تشابه نفسية العرب تجعلهم متشابهين في خصائصهم الأصلية، والإنسان دائماً يعيش في لغة وتاريخ أمته. ولا شك أن ترابط الأفراد في عقلية واحدة تسود أفراده، هو أرقى أنواع الوحدة وأعمقها وأبعدها أثراً. ولما كانت الأمة العربية قد اشتقت قيمها العقلية والروحية من العقيدة الإسلامية، فإن الوحدة العربية إذا جاءت منفصلة عن التجربة الإسلامية في الحكم وأسلوب العيش والقيم الأخلاقية، وعن التاريخ الإسلامي العربي إنما تمثل مفهوماً مبتوراً، فثورة الإسلام على الأصنام باسم التوحيد هي تجسيد لإرادة الله في تحرير النفس البشرية من الأوهام والعبودية. والأصنام في مفهوم الإسلام هي التماثيل التي تعبد، والطبقة الغنية التي تستعبد الإنسان. وقد قاوم الإسلام البداوة، وحارب الرذيلة والظلم الاجتماعي والتفرقة. فكان بذلك ثورة تقدمية ضد كل رجعية تريد إفساد المجتمع أو الرجوع به إلى أخلاق البداوة وسلوكها في العيش، هذا مع الدعوة إلى العدل وحث الأفراد

على طلب العلم وفتح الأبواب للإبداع، ولا يمكن التحدث عن العربي إلا ويذكر معه تراثه وثقافته وحضارته. ومن هنا فإن وحدة العقلية والمزاج النفسي للأمة العربية هما أكبر مظهر من مظاهر شخصيتها وذاتها المتميزة عن غيرها. ومن حق هذه الأمة أن تذود عن طمس معالمها وعن محاولة تمييع مقوماتها أو تذويب ذاتها في أتون العالمية والأممية. ولا شك أن رأس مال العروبة الفكري هو الإسلام وتعاليمه التي تدعو إلى التحرر من التعصب والتبعية والتقليد، والتي تستطيع أن تواجه موجات الإلحاد والإباحة والتفسخ الخلقي والمفاخرة بالرذيلة [1]. ومن هذه العوامل يتكشف الفارق الواضح بين العقلية العربية والعقلية الغربية وهي التي تحاول اليوم السيطرة بالغزو والتغريب للقضاء على مقومات الذات العربية (عقلاً ونفساً).

فالعقلية العربية واضحة في تشكلها الإسلامي الجامع بين المادة والروح والدين والدنيا والعقل والقلب. وهو تشكل متكامل ملتزم، عميق الجذور، مخالف كل المخالفة للطابع الذي تتسم به العقلية العربية التي تقوم على إعلاء مفاهيم المادة والعلم والتكنولوجيا إعلاءً مباشراً تفسر به مختلف ظواهر الحياة والكون، وتقف به عند حدود معينة لا تتعداها حين تنكر الغيبيات وتتجافى عن طوابع الروح والإيمان، وكل ما ليس حسياً ملموساً.

والثقافة العربية بتركيبها الإسلامي الجامع بين الروح والمادة لا ترى في منجزات التكنولوجيا العلمية مانعاً من الترابط بين حقائق العلم وحقائق الروح، ولا تغالي في الانحياز إلى الروحيات وحدها، أو الماديات مما يخلق ذلك التمزق الواضح في الحضارة الغربية، والثقافات الغربية وما وجد ما أطلقوا عليه أزمة الإنسان المعاصر، فالثقافة العربية لا تسجل تناقضاً بين الإيمان والعلم، ولا بين العقل والقلب، بل تمزج بينهما في توازن وتكامل، ولا ترى في ذلك ازدواجية أو تعارضاً، وهي في نفس

---

(١) الدكتور يس خليل (الأيديولوجية العربية).

الوقت تطبع هذه النظرة الجامعة بالطابع الأخلاقي الذي ينتظم كل جوانب الفكر والثقافة: اجتماعية وسياسية ودينية وعلمية واقتصادية حيث يقدم قانون أخلاقي ثابت يحكم كل هذه الجوانب. يميز بين الحق والباطل، والحلال والحرام، والخير والشر، ويرفع من شأن العقل الإنساني إلى مكان الكرامة، ويعلي من شأن النفس الإنسانية إلى مجال الثقة بالله.



الفصل الثالث

مَعَالمُ الثقَافَة العَربيَّة وَخصَائِصهَا

من حيث إن الثقافة العربية ثقافة متميزة، تختلف عن ثقافات الغرب والشرق، وتتسم باتصالها بالفكر الإسلامي والقرآن، وتقوم على أساس «اللغة العربية الفصحى» وميراثها، وتستمد من التاريخ العربي الإسلامي، فإن معالمها وخصائصها مما لا يقع تحت حصر. ويمكن أن نستوعب أبرز خطوطها في نقاط رئيسية:

(١) التوحيد
(٢) التكامل
(٣) الأخلاقية
(٤) استقلال الطابع
(٥) التوازن بين الروحي والمادي
(٦) الترابط بين الماضي والحاضر
(٧) النظرة العقلية المؤمنة
(٨) الجمع بين الدنيا والآخرة
(٩) الحرية المنضبطة
(١٠) القدرة على التطور
(١١) القدرة على التصحيح
(١٢) الطابع الإنساني
(١٣) مفهوم التقدم
(١٤) الوسطية

١ - التوحيد

يعد التوحيد من أبرز العناصر المميزة للثقافة العربية، ومن أعمق العوامل المخالفة للثقافات الغربية، ولذلك فهو عامل أساسي في وجود الفوارق وعوامل التباين في كثير من وجهات النظر لعديد من القضايا الكبرى.

فالعرب يعتقدون أن الله واحد لا أول لوجوده، ولا آخر لأبديته. ومن هذه النقطة نشأ الإيمان بوحدة المعرفة والحقيقة ووحدة الدين والفلسفة، فالمعرفة والحقيقة متفقتان لأن العقل واحد، والحكمة والشريعة متفقتان لأن الحقيقة واحدة [١] وقد تختلف صورة الحقيقة من عصر إلى عصر، ولكن جوهرها يظل واحداً لا يتغير.

وهم حين نقلوا الفلسفة اليونانية، حاولوا أن يخضعوها للتوحيد، وأجروها في إطاره. وتظهر تلك المحاولات واضحة في كتابات ابن سينا والفارابي، فقد رفضا منها ما خالف التوحيد، وبالأخص رفضا الثنائية وقدم العالم.

وحاول الفارابي الجمع بين رأي افلاطون ورأي أرسطو حتى لا يناقض التوحيد. وقد ظل «التوحيد» هو العامل الجوهري في الثقافة العربية، شأنه في ذلك شأنه في الفكر الإسلامي إيماناً بوحدة العقل ووحدة النفس، والثقة بأن الطبيعة الإنسانية واحدة في جميع الناس، ومن الإيمان بالوحدة انطلق الإيمان بالمساواة والحرية والعدل الاجتماعي.

---

(١) انتفعنا في هذا الفصل ببحث للدكتور جميل صليبا (منازع الفكر العربي)

وكان هذا مصدر انفساح العالم الإسلامي أمام العناصر المختلفة وطناً واحداً أمام القادم من المغرب إلى المشرق أو الذاهب من المشرق إلى المغرب.

يقول أرنست رينان: إن الصفة الأساسية التي تميز العرب عن غيرهم هي: الإيمان بالتوحيد. وكان «التوحيد» منطلقاً للثقافة العربية إلى «الوحدة»: وحدة اللغة، وحدة المنازع، وحدة المشاعر، وحدة التاريخ، وحدة المثل العليا.

ولقد كان مفهوم الوحدة العربية منبعثاً من الثقافة العربية كمصدر من مصادر القوة والمقاومة في مراحل الغزو الاستعماري وكان مفهوم الوحدة العربية بعيداً عن التعصب والتمييز العنصري، وكان دوماً مفتوحاً مع العالم الإسلامي انفتاح الثقافة العربية على الفكر الإسلامي أصلاً واستمداداً منه. وقد عجزت محاولات الاستعمار المختلفة عن فصل وحدات الأمة العربية عن إيمانها بوحدتها.

ولقد كانت الثقافة العربية قادرة دوماً على أن تعطي الأمة العربية القدرة والعمق والوضوح في مجالات المقاومة باللغة والشعر والفن على نحو جعلها قادرة على التغلب على أشد النكبات.

وما يزال عامل وحدة الثقافة مصدراً لوحدة الأمة، وسيظل.

٢ - التكامل

أبرز ما يميز الثقافة العربية هو «التكامل»: الذي يجمع بين الروح والمادة، والقلب والعقل، والدنيا والآخرة. بينما تتسم الثقافات الغربية بالتقسيم والتوسيع. ولا تستطيع أن تقتنع بهذا المزيج بسهولة.

وعندنا أن مميزات «الثقافة العربية» وأبرز الفوارق بينها وبين العلاقات المختلفة هي الوحدة والتكامل. ولقد نرى بعض الباحثين الغربيين حين يعرض لهذه الميزة لا يستطيع أن يهضمها هضماً كاملاً،

فيقول (جوته) : إن العقل العربي يحب الجمع بين الأضداد والأشباه فيضعها بعضاً إلى جانب بعض في نظام بسيط ، وينتقل فجأة من ضد إلى آخر .

ومن الحق أن يقال عن الثقافة العربية إن هذا التكامل ليس من قبيل تقريب الأضداد ، ولكنه إيمان بأن الشخصية الإنسانية لا تتكامل إلا بالجمع بين جوانبها المختلفة الدينية والعلمية والعقلية والروحية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية ، فما دام الإنسان نفسه (مادة وروح) فكذلك ثقافته لا تفرق بين العقلي والوجداني ، وإنما تجمع بينهما .

والتكامل طابع من التوحيد ينسحب على مجالات كثيرة ، فوحدة الثقافة العربية من شأنها أن توحد الأمة والمجتمع ، وتقيم بين المواطنين أخوة عميقة . ومن صور التكامل ذلك الانسجام بين المسجد والقصر والبيت على حد تعبير بعض الكتاب . وقد أعطى هذا الإيمان بالكامل طابعاً خاصاً للعلماء العرب والمسلمين هو تبريزهم في مختلف العلوم ، فلسفية واجتماعية وقانونية وطبيعية ، فكان منهم من جمع بين الفلسفة والعلم والرياضيات والكيمياء والأدب والفن ، بينما لم يعرف ذلك في تاريخ الرومانيين أو الغربيين المحدثين .

ولم يكن ذلك موضع الغرابة في الثقافة العربية بينما هو موضع الغرابة في الثقافة الغربية ، فكان أحدهم كالجاحظ عالماً وأديباً . وكانت ظاهرة التوفيق في الفلسفة والدين ، أو بين الحكمة والشريعة من أبرز ظواهر التكامل في سبيل تحقيق الانسجام بين معطيات العقل ، ومعطيات العقيدة .

٣ - الأخلاقية

طبعت الثقافة العربية سمة أخلاقية عميقة ، انتظمت مختلف فروعها وخصائصها ، ولم تنفك عنها ، وكانت في الحق عاملاً جذرياً ، وطابعاً عضوياً . قوامها التماس أساليب الصدق والرحمة والحب والوفاء وإنكار

أساليب الغدر والكذب. فإذا كان التعامل في المجال السياسي كان تعاملاً شريفاً كريماً، واضح المعالم، قوامه مفهوم الإسلام: «وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء».

وفي المجال الاجتماعي تبدو علامات التجمل والحياء والبعد عن الجهر والكشف مع ضبط الرغبات الحسية، فالشاعر إذا عبر عن كوامن حبه لم يذكر اسم محبوبته جهراً، مفرقاً بين الجواري والحرائر.

وتفرض الثقافة العربية على أهلها قدراً من السلامة في السلوك والعاطفة والتحرك داخل الضوابط التي ما تزال قائمة تكريماً وحماية للشخصية الإنسانية وبعيداً عن الحيوانية والانهيار والتحلل والرخاوة.

«وسيظل العنصر الأخلاقي ثابتاً، باقياً لا يأتيه التحول ويعتريه التطور». وستظل الشهامة والنجدة والمروءة أصولاً ثابتة وقيماً باقية مهما تغيرت مظاهرها، فهي طوابع عربية أمدها الإسلام بالأصالة، فعمق معانيها وحرر اتجاهاتها فجعلها خالصة لله بعد أن كانت في سبيل الفخر والمباهاة.

ولقد كانت السمة البارزة للثقافة العربية في هذا المجال، والمخالفة للثقافات العربية هي: «أولية الخلقي على الجمالي» فالأخلاق عامل جامع وقاسم مشترك أعظم على مختلف القيم، والأخلاقية فيه مقدمة على الجمالية، وحيث جعل الإغريق الجماليات مقدمة، أولى العرب بالإسلام الأخلاق أولية مطلقة، ولقد سارت الثقافات الغربية وراء مفاهيم الإغريق في تقديم الجماليات على الأخلاقيات، فأطلقوا الجسم الإنساني للعري وعبدوا الجمال على حساب الخير.

ومن هنا يجيء الخلاف في كثير من المواقف بين الثقافة العربية والثقافات الغربية، فالثقافة العربية تجعل السيادة الكاملة لقيم الأخلاق والخير، وتجعل لها الانتصار النهائي في كل صراع.

٤ - استقلالية الطابع

اتسمت الثقافة العربية باستقلالها وتميزها وبروز ذاتيتها الخاصة، ويظهر هذا المعنى في أوضح منهج في حركة الترجمة التي عرفها الفكر الإسلامي والثقافة العربية حين نقلت آثار اليونان وفلسفات الرومان والفرس والهنود. وقد استطاعت الاحتفاظ بذاتيتها، ووقفت وقفة صارمة أمام ما يخالف عقائدها وقيمها. فقد أغضت الثقافة العربية عما صدر عن اليونان من شعر غنائي مسرحي وملحمي قوامه معتقدات دينية وثنية، وخرافات ميثولوجية. وفي نفس الوقت الذي صدرت فيه عن ما يخالف عقيدة التوحيد، سمحت للفلسفات والعلوم، وإن وقفت من بعض مفاهيم الفلسفة موقف النقد، وعارضت ما خالف قيمها.

وفي مجال العلم لم تقبل كل ما ترجم ولم تجعله أساساً تبني عليه. ولكنها راجعته ونقدته وكشفت عن زيف الزائف منه، وقبلت العناصر الصالحة منه ليس على علاتها، بل اعادت صياغتها من جديد وفق منهج الفكر الإسلامي المنطلق أساساً من مفهوم القرآن فاستطاعت بذلك أن تحرر العلوم من شبهات كثيرة وأخطاء كثيرة وقع فيها اليونان، واستطاعت أن تقيم أساس المنهج العلمي التجريبي الذي صدرت عنه النهضة العلمية الحديثة.

٥ - التوازن بين الروحي والمادي

تجمع الثقافة العربية بين (الروحي والمادي) كما يجمع بينهما الإنسان نفسه فهما متلاقيان ممتزجان، فليست الثقافة العربية روحانية خالصة تغرق في الغيبيات والتهاويم اللامحدودة، ذات الغيبيات والظلال، ولا هي مادية خالصة تؤمن بكثافة المادة وجفاف المحسوس، وإنما هي جماع الروحي والمادي في توازن ومواءمة واتساق «أبداً ما حجب ما وراء الوجود عنا الوجود، ولا محا عالم الغيب عالم الشهادة، وما منعتنا جنات عدن تصيير نعيم من مثلها على الأرض، فنحن روحيون روحية إيجابية،

وماديون ما كانت المادة إنسانية خلاقة [١] » .

٦ - الترابط بين الحاضر والماضي

وميزة أخرى في مجال « التكامل » هي جمع الثقافة العربية بين الماضي والحاضر ، وليس في ذلك تعارض أو جمع للأضداد ، ذلك أن الحاضر إنما هو حلقة تالية للماضي ، ووليد طبيعي له ، وليس في الاستطاعة فصل الحاضر عن الماضي ، وليس في الإمكان أن تخطو الأمم خطواتها إلى الأمام من فراغ ، منفصلة عن المراحل السابقة لها ، خاصة إذا كانت من مثل الأمة العربية ذات الماضي العريق والتاريخ الحافل .

« إننا لا ننظر في الماضي إلا لننشر منه دعائم قوية تصلح لبناء مجتمعنا الجديد ، ولا نعتز بأمجادنا القديمة إلا في سبيل إصلاح حاضرنا وبناء مستقبلنا » .

والتراث في الثقافة العربية تراث حي والارتباط بالماضي إنما هو امتداد زمني ، وليس اتصال تكرار وتشابه ، والمستقبل ليس ثمرة الحاضر ولكنه تتمة له ، والتتمة لا تنفصل عن ما قبلها ولا تنقطع عما بعدها ، بمعنى أن هناك تلازماً بين الماضي والحاضر والمستقبل ، يلتقي فيه طرفا الزمن الماضي والمستقبل في بؤرة الحاضر والواقع .

٧ - النظرة العقلية المؤمنة

تتسم الثقافة العربية بظاهرة واضحة هي : الإيمان بقدرة الإنسان في الكشف عن الحقيقة عن طريق العقل المؤيد بالإيمان . فقد دعا الإسلام العقل البشري إلى النظر والتأمل فيما حواه الكون من موجودات ، واختلاف الليل والنهار ، وتحريك الرياح ، وإثارة السحاب لإنزال المياه وإحياء الأرض ، وإنبات النبات ، والوصول من هذه النظرات إلى الإيمان بأن للكون صانعاً عالماً حكيماً قادراً . ولقد قدم

---

(١) حق بحث للدكتور شاكر مصطفى

القرآن آيات بينات تحث على التفكير، وتدعو إلى استعمال العقل وإقامة هذه النظرة العقلية المؤمنة «واعتبروا يا أولي الأبصار» وتقدم الشريعة الإسلامية على اعتبار أن العقل للدين أصلاً وللدنيا عماداً، فعلقت الدين الصحيح على كمال العقل، وجعلت الدنيا مدبرة بأحكامه، وألفت به بين خلقه مع تباين أغراضهم ومقاصدهم. وفي أحاديث الرسول أمثلة كثيرة لهذا المعنى في مقدمتها قوله: «لا دين لمن لا عقل له» وتقديم الرسول لفضل العلم على فضل العبادة. وتضم آثار المفكرين المسلمين أقوالاً كثيرة تدل على شرف العقل وعلوّ منزلته.

«كل عز لا يوطده علم مذلة، وكل علم لا يؤيده عقل مضلة»

ومن خلال النظرة العقلية نشأ المنهج العلمي التجريبي، وجاء دعاة كالمعتزلة ذهبوا إلى القول بأن العقل نور في القلب يعرف الحق من الباطل، والخير من الشر، والحسن من القبيح. وجاء الفلاسفة الذين قالوا: إن سعادة الدنيا والآخرة لا تنال إلا بالعقل. وعندما ذهب العقليون في الإسراف بالعقل وحده جاء من صحَّح هذه النظرة كالحسن الأشعري الذي وضع العقل في رابطة واحدة مع الإيمان، ووضع ابن حزم مفهوم المعرفة في الثقافة العربية جامعاً بين العقل والقلب.

وكان مفهوم الثقافة العربية دوماً قائماً على التجربة والمشاهدة والبرهان لم يجنح إلى الغيبيات أو يتوقف عند الأوهام. وفي مجال العلوم نقلتهم النظرة العقلية المؤمنة إلى الحس والتجريب فاتسعت آفاقه وقامت أبحاث الطبيعة والكيمياء والطب والفلك على الملاحظة والتجربة، وقام الأطباء بالتجارب عن طريق العمليات الجراحية وعلماء الطبيعة والكيمياء قاموا بالتجارب وعلماء الفلك صنعوا الزيجات، وقاسوا أبعاد الكواكب في المراصد، وقام علماء الجغرافيا بالرحلات والأسفار.

كما عرفت لهم آثار واضحة في مجال الأغذية والأدوية والتوليد والعدوى ودورة الدم وأمراض العين، وأضاف الرازي وابن سينا وابن

النفيس إضافات جادة في هذه المجالات على أساس الملاحظة والتجريب. ووصل (البتاني) إلى معرفة الكشوف، وحدد طول السنة كما حدد (البيروني) خطوط الطول والعرض، وبحث في دوران الأرض حول محورها.

وأوصلتهم هذه النظرة إلى نتائج إيجابية في مجال الفكر أيضاً، فاعتمد الجاحظ وابن خلدون على الملاحظة والاستقراء، فنشأ النظر العقلي، والدليل البرهاني في تمحيص الأخبار. وكان علماء الفقه قد مهدوا السبيل في هذا المجال بتعليل الأحكام الشرعية، ووضع علماء الحديث قواعد التعديل والتخريج، وكانت النظرة العقلية المؤمنة في مجال العلم وفي مجال الفكر مقدمة للنتائج التي حققت قيام المنهج العلمي التجريبي، والتي ورثتها أوروبا، واتخذت منها قاعدة بناء الحضارة، وستظل الثقافة العربية مؤمنة بفضل العلم على العبادة، والعلم على إطلاقه.

٨ - الجمع بين الدنيا والآخرة

والثقافة العربية ترى ترابطاً عضوياً بين الحاضر والمستقبل، وترى الدنيا طريقاً إلى الآخرة، وتؤمن بأن تعمل للدنيا كأنك تعيش أبداً، وتعمل للآخرة كأنك تموت غداً، فلا يصرفها الإقبال عن الدنيا عن حق الآخرة، ولا تنصرف إلى الآخرة انصرافاً يمنعها من أداء حق الدنيا. بل يجمع بينهما في موازنة واتساق (ليس خيركم من ترك الدنيا للآخرة ولا الآخرة للدنيا، ولكن خيركم من أخذ من هذه وهذه).

وقد أباح الإسلام زينة الحياة الدنيا، ومتعها في نظام دقيق، ووفق تحوطات تحمي من الانهيار والإسراف. وأقامها على الاعتدال والاقتصاد والتوسط، وبذلك ربط الفكر الإسلامي بين الروحي المثالي والحيوي الدنيوي، وكذلك طلب العلم في نظر الفكر الإسلامي والثقافة العربية بمفهوم العلم الدنيوي والأخروي معاً، وليس الأخروي وحده، وذلك في اتساق واضح قوامه: علم وذوق، وعقل وقلب، وفكر ووجدان.

٩ - الحريّة المنضبطة

اعتبرت الثقافة العربية (الحرية) أساساً من أسسها وقاعدة من قواعدها، وجعلت طابع الحرية مشوباً بالتسامح، كما أفسح الإسلام للناس فرصة الدفاع عن عقائدهم، وأباح لهم حرية الاعتقاد والفكر إيماناً بسلامة قيمه وأسسه وقدرتها على مواجهة المساجلة والنقد والمناظرة، وكان أعلامهم يناظرون المسلمين واليهود والمجوس على السواء.

والحرية في الثقافة العربية لها ضوابط تمنعها من الاعتداء على حقوق الغير، أو التماس ما ليس بالحق. وستظل الثقافة العربية متحررة من استعباد العقل والجسم والروح، ومن عبودية المال والآلة، وعبودية الفرد للفرد، ومن العبودية لغير الله وهي في نفس الوقت تحرير الإنسان من الخوف والقلق والجوع والعور. وفي الثقافة العربية لا تقضي حرية الفكر أن يكون الإنسان غير متدين إذ إن الإسلام بمعنى الدين لا يقف حائلا أمام الحركة والفهم والبحث والإبتكار.

ولا شك أن أكبر التحرير للفكر هو تحريره من قيود المادة،وتجريده من قيود الوثنية، وعبادة غير الله. ولقد شهد بهذا المعنى كثير من المنصفين حين قال أحدهم: «العرب أول من علم العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين. والعقيدة الإسلامية أساس الثقافة العربية ومصدرها لا تقف عقبة في سبيل حرية الفكر بل هي عون لها وسندها الكبير».

١٠ - القدرة على التطوّر

تؤمن الثقافة العربية بضرورة التطور، وتتمثل هذه القاعدة دوماً فهي منفتحة أبداً على الثقافات المختلفة تأخذ منها وتترك، وتتدرج إلى الرقي والعمق، وتسعى دوماً نحو تحقيق الكمال وتمضي في طريقها الصاعد، مؤمنة بالتقدم والنمو، وتعميق حركتها في أصالة وحيوية.

فهي لا تعيش في عصر بمزاج عصر سابق، ولا تتقبل مزاجاً أجنبياً تنصهر فيه ولكنها تجعل من جذورها مرآة لاندفاعها نحو الكمال ونحو الأمام.

وتؤمن الثقافة العربية بناموس التطور، وأن التوقف والتجمد ضد طبيعة الحياة. وتملك الثقافة العربية القدرة على التطور دون أن تفقد عامل الوحدة والارتباط بالماضي، وستظل الثقافة العربية قادرة على تشكيل نفسها حسب حاجات العصر، واختلاف البيئات دون أن تتخلى عن قيمها ومقوماتها الأساسية.

وسوف تصل الثقافة العربية إلى غاية الغايات في مجال العلم والتكنولوجيا ويظل مجرى العقل العربي مع ذلك كله قائماً على أساس الترابط بين العلم والروح والمادة.

١١ - القدرة على التصحيح

وتؤمن الثقافة العربية بقانون التصحيح إلى جانب قانون التطور، فهي حيث تنفتح على الثقافات المختلفة تأخذ منها ما يزيدها قوة وترفض ما يتناقض مع روحها وذاتها ومزاجها وهي تؤمن بأصولها الأصيلة وتحرص على ألا تنصهر في الثقافات الأخرى.

وهي حين تؤمن بقانون التطور تؤمن بأن كل مسار هو إلى أفق جديد. وذلك أمر طبيعي لا بد أن تصحبه ضوابط تحول بينه وبين الانحراف. فالتحرر من الانحراف والحاجة إلى تعديل المسار لا يخرج عن القيم والهدف وإنما هو قانون مواز تماماً لقانون التطور. ذلك هو قانون تصحيح المفاهيم. ولقد كان الفكر الإسلامي والثقافة العربية قادرين دائماً على التحرز من الانحراف بعد الكشف عنه، والعودة إلى التماس المفاهيم الأساسية والقيم الأصيلة.

١٢ ـ الطابع الإنساني

يتمثل في الثقافة العربية: «الطابع الإنساني» الأصيل. ومن حيث إن الثقافة العربية تستمد من الفكر الإسلامي، فإن الإسلام يبني العدالة الاجتماعية على ثلاثة أسس:

١ ـ الحرية الكاملة في العبادة

٢ ـ المساواة التامة بين جميع الناس.

٣ ـ المسؤولية الدائمة والمتبادلة للمجتمع.

والإسلام يؤكد أهمية الإنسان وقيمة الإنسان بصرف النظر عن لونه وعنصره وديانته. وقد طبق الإسلام المعنى بأنه أتاح للملونين ورجال الطبقات المختلفة والأديان المختلفة أن يصلوا إلى المراكز العليا، والخطيرة في مجالات السياسة والعلم والثقافة.

ومن هنا بدأ في وضوح، مفهوم الإسلام في تأكيد كرامة الإنسان، فالإنسان في الثقافة العربية ليس حيواناً ولا هو سيد فوق الكون كله، ولكنه سيد تحت حكم الله.

وإنسانية الثقافة العربية تعني أنها تتسم بالكرامة والرحمة والإخاء. والثقافة العربية في هذا المعنى تختلف اختلافاً عميقاً عن الثقافات الغربية، هذه الثقافات التي تطبق على الإنسانية مفاهيم الحيوان والحشرات، أما نحن فالإنسان ما هو بحيوان في ثقافتنا.

ويتمثل الطابع الإنساني في الثقافة العربية إيماناً بكرامة الإنسان وحريته، ومقاومة الاسترقاق والعنصرية وإنكار استعباد الجسم أو الفكر أو الروح.

١٣ ـ مفهوم التقدم

تتمثل الثقافة العربية في أعماقها مفهوم التقدم، على أنه تقدم مادي ومعنوي معاً في وقت لا ينفصل فيه التقدم المادي عن التقدم المعنوي.

وهي في هذا تختلف في النظرة إلى مفهوم التقدم عن الثقافات الغربية التي تقوم على أساس النظرة المادية وحدها. وترى الثقافة العربية أن التقدم المادي وحده تقدم قاصر، وأن حتمية نجاح التقدم هو أن يرتبط بالضمير الأخلاقي فالتقدم المادي لا ينفصل عن التقدم الروحي، وبدونه لا يصل إلى الكمال.

و«النظرة المادية» إلى التقدم قد فشلت لأن فيها افتئاتاً على الحق. ويقوم مفهوم التقدم في الثقافة العربية على أنه كل ما يوصل إلى الحق والعدل، وليس ما يرضي الغايات الفردية لبعض النفوس.

وتقاس فكرة التقدم في الثقافة العربية بمقاييس إنسانية أساساً فالتقدم ارتقاء نحو الكمال واقتراب من الحرية دون أن ينفصل عن الأخلاقية [1].

ومفهوم الثقافة العربية دوما فيه تطلع إلى مستقبل أكثر حيوية وقوة.

١٤ - الوسطيّة

تتمثل الوسطية في الثقافة العربية من حيث يبدو منطلق النظرة أي تكون بعيدة عن التطرف ناحية الجمود أو الانطلاق غير المنتظم.

فالثقافة العربية تؤمن بالحركة، وتؤمن في الوقت نفسه بالقواعد الثابتة، والقيم المستقرة التي تتحرك في داخلها. فهي تطور وثبات في نفس الوقت، وهي في هذا تختلف عن الثقافات الغربية التي تؤمن بالتطور والحركة والتغير إلى غير مدى. فالتطور بمفهوم الانفصال عن القواعد والأصول الثابتة لا تقره الثقافة العربية التي تتحرك في نطاق واسع.

---

(١) بتصرف عن الدكتور عادل العوا.

الفصل الرابع

مُعطيات الثقافة العربيّة



مُعطيَات الثقـافَة العَربّـيَة

إن أصدق ما تمثله « الثقافة العربية » أنها كيان مستقل، وأنها تشكل « أنموذجاً » له طابعه ومعالمه، وأن القيم التي تنطوي عليها تتسم بالوضوح والتكامل والوسطية والقدرة على الحركة والتجاوب مع مختلف البيئات والعصور وأنها لا تتوقف عن العطاء ولا تنغلق عن التلقي والاقتباس من مختلف الثقافات والمعارف شرقية وغربية، قديمة وحديثة، فهي تنتفع بمختلف المفاهيم الإيجابية البناءة، وهي تصوغ هذه المفاهيم في بوتقتها وتبلورها في كيانها دون أن تتحول معها أو تفقد ذاتيتها أو تتحول عن أسسها ومناهجها الثانية، فهي ثقافة تؤمن بثبات الإطار وتطور العناصر. وهي تقدمية في نظرتها، مرنة في حركتها، متقبلة معطية، واضحة صريحة، وهي في مختلف أدوارها يقظة كل اليقظة، قادرة على مواجهة الأخطار والغزو، وحركات التغريب التي تحاول أن تخرجها عن ذاتيتها ومضامينها وقيمها. وهي في كل معركة من هذه المعارك تصل إلى نتيجة أكيدة، هي أنها تأخذ كل ما يزيدها قوة وترفض ما يحول دون ثباتها وحركتها، وما يخرجها عن وسطيتها وتكاملها.

وفي هذه النماذج السريعة القليلة التي نقدمها عن معطيات الثقافة العربية التي تستمد كيانها أساساً من الإسلام واللغة العربية والقرآن. نجد ذلك الطابع الواضح الصريح المختلف كل الاختلاف عن ثقافات الشرق وثقافات الغرب، والذي يتسم بميسم التوحيد، وتحرير الإنسان وتكريمه، والقائم على المسؤولية الفردية، والجزاء والبعث، والذي تنظمه القيمة الأخلاقية، وتحوطه مفاهيم التقوى والعدل والمساواة والإخاء في

مختلف ميادينه السياسية والإجتماعية والقانونية والإقتصادية[1].

١ - في مجال الاجتماع

تتمثل في «المجتمع» البوتقة التي ينصهر فيها «الإنسان والفكر» وتتشكل الأسرة والجماعة (من القبيلة إلى الأمة) حيث تنصهر فيها كل مقومات الثقافة المختلفة: السياسة والقانون والدين والاقتصاد.

* * *

ثم هي «البيئة» التي تتشكل فيها «الحضارة» منبثقة من الثقافة والعلم معاً. ومن هنا كان «الاجتماع» مقوماً من المقومات الهامة في العلاقة بين الإنسان والثقافة من ناحية، وبين المجتمع والحضارة من ناحية أخرى.

* * *

ومن هنا تبرز أهمية لا حد لها للترابط والتكامل والتوازن القائم بين مقومات الثقافة كلها وفق مفهوم الثقافة العربية المستمد من الفكر الإسلامي بحيث لا يمكن الفصل بين وحداتها، أو الاستقلال بمقوم منها لينمو نمواً خالصاً منفصلاً عن الثقافة ككل. وبحيث يستحيل عرض قضية من القضايا والفصل فيها من وجهة نظر مقوم من هذه المقومات وحده دون ارتباطه بالمقومات الأخرى ككل. ومن شأن هذا الانحراف أن يفقد كل من المجتمع الإنساني والثقافة طابعه في التكامل والتوازن.
ومن خلال المجتمع (حيث يرتبط الفرد بالجماعة) تبرز أضخم قضايا المجتمع والاجتماع، حيث تتلاقى نظريتان تتجاوران منذ أقدم العصور هما: «الفردية والجماعية».

---

(١) هناك تفصيلات واسعة لهذه المعطيات: راجع كتابنا القيم الأساسية للفكر الإسلامي.

وفي مفهوم الثقافة العربية: يتكون المجتمع من الأفراد. فالأفراد لهم كيانهم الخاص ولهم كيانهم كمجموعة وهم مؤثرون في المجتمع، متأثرون به. الفرد في خدمة المجتمع، والمجتمع في خدمة الفرد، ففي دائرة (الفرد) هناك روابط الأخوة والزمالة والصداقة والعداوة، وفي دائرة (الجماعة) هناك النظم الاجتماعية، والاستجابات العامة للتطورات والأحداث.

ليس هناك تنافس وتصارع بين الأفراد بعضهم مع بعض، ولا بينهم وبين المجتمع، ولكن هناك تعاون ومواءمة وتكيف بين الحقوق الخاصة والحقوق العامة، وبين حدود حق الفرد بالنسبة للفرد وبين حقوقه بالنسبة للمجتمع.

فلا يغنى الفرد في المجتمع ولا يغنى المجتمع في الفرد، ولكنها أخوة بين الأفراد وتماسك لبناء المجتمع بأفراده.

ومن شأن الثقافة أن توحد تصور الأفراد أو تقربه وفق مفاهيم لها قيمها الأساسية. ومن هنا تكون الاستجابة بطريقة واحدة، وتكون المصلحة المشتركة هي القاسم المشترك الأعظم للجماعة.

ومن مقومات الثقافة العربية في علاقات الفرد «الإيثار» وفي علاقة الأفراد بالجماعة: «التضحية بالحقوق الفردية من أجل استمرار ونماء المجتمع».

والثقافة العربية تذهب إلى اعتبار أن المجتمع «كائن حي» الأفراد خلاياه، والنظم والروابط والجماعات أعضاؤه. هذا الكائن له عقل، هذا العقل بقيمه ومقوماته يتمثل في عقول الأفراد.

ولا شك أن الثقافة السائدة في المجتمع هي العامل الأكبر والأول في تشكيل النظم الاجتماعية، وهي في مدى تأثيرها أبعد أثراً من عوامل السلالة والوراثة. فهي القادرة على أن تصوغ أفراد المجتمع بوحدة فكرية تعلو على فوارق السلالات والوراثات.

ولا يمنع أثر الثقافة في وحدة الفكر، من عمليات التنافس والتمايز والخلاف في الفرعيات والمسائل الجزئية حيث لا ترى الثقافة العربية «صياغة قوالب صماء متشابهة» بل إن الاختلاف في الفروع لا بأس به. لأنه في تـوسع وحيوية ما دامت المقومات الأساسية سالمة ثابتة.

* * *

وتؤكد الثقافة العربية اهتمامها بالفرد، وإطلاق حرية إرادته إطلاقاً لا يجعله خاضعاً إلا لعقله وإرادته في مختلف تصوراته وتصرفاته. ومن هنا كانت قدرته دائماً على الإبداع والتجويد، وإحداث التقدم للمجتمع. فليست روابطه الدينية والروحية بمقيدة إياه أو معطلة له، بل هي عامل قوة وعامل حرية، ذلك أن الإختيار والإرادة - دون عامل القهر والجبرية - هو العامل الأساسي للثقافة العربية. فإذا فرض عامل القهر والجبرية نفسه في مرحلة من مراحل التاريخ فإن ذلك لم يكن صادراً بالتأكيد عن جوهر الثقافة العربية، وإنما كان دخيلاً عليها من جملة مفاهيم تسربت إليها.

وليس في الثقافة العربية ما في الثقافات الأخرى (شرقية أو غربية) ذلك الخضوع لمفاهيم جبرية أو لمؤسسات خاصة أو لطبقة معينة من ذوي النفوذ الفكري المتسلط.

وحين كانت هذه المفاهيم واضحة، استطاعت الثقافة العربية أن تبدع وأن تبتكر وأن تضيف إضافات إيجابية في حقل الفكر الإنساني.

* * *

ولا شك أن للثقافة أثرها في استقلالية المجتمع وبروز طوابعه الخاصة المختلفة عن المجتمعات الأخرى، نتيجة للقيم والمقومات التي تتحرك بها في عقول أفراده، وفي كيانه العام.

وفي مفهوم الثقافة العربية أن المجتمعات في حركة دائمة، حركة

تطور. لكنها ـ وفق نواميس الكون التي لا تتبدل ولا تتغير ـ ليست دائماً حركة إلى الأمام، أو في طريق التقدم، وإنما هي بين تقدم وركود وتأخر ثم تقدم تجري في دوامات متعاقبة وترتبط بعوامل مختلفة، أهمها ارتباطها بالقيم الأساسية للثقافة أو انفصالها عنها، أو غلبة قيم أخرى ومفاهيم غريبة عليها. ولقد كانت الثقافة العربية قادرة دائماً أن تتمثل جوهرها، وتنفض عنها غبار الدخائل والبدع والإضافات التي قد تصل إليها من الثقافات الأخرى، وتكون في نفس الوقت متعارضة مع القيم الأساسية لها، رغبة في القضاء عليها أو تحويرها. وكانت تعتمد في مقاومة ذلك على النوابغ من المجددين والمصلحين، الواسعي الأفق، الذين يكشفون هذا الخطر ويزيلون هذا الغشاء، ويردون الأمم والمجتمعات إلى الجوهر الأصيل للمقومات الأساسية.

ولا تؤمن الثقافة العربية بالعامل الواحد في تفسير المجتمعات: سياسياً أو اقتصادياً أو مناخياً أو سلالياً، ولكنها ترى أن هذه العوامل كلها مجتمعة في صورة (الثقافة) هي التي تحدث الأثر قوة وضعفاً، وبها ككل (شمولاً وتكاملاً) تفسير الأحداث والوقائع.

* * *

وفي مفهوم الثقافة العربية أن المجتمعات تمر بدورة مضطردة تبدأ من اليقظة إلى القوة إلى الانحلال والضعف، ثم تعود سيرتها الأولى، وتكون الثقافة هي العامل المؤثر في هذه المراحل قرباً أو بعداً من قيمها الأساسية. وقد تنهار الحضارة ولكن الثقافة لا تموت بل تذبل ثم تتجدد مرة أخرى لتحدث أثرها مستأنفاً في سبيل إعادة بناء المجتمع والحضارة.

غير أنها في مجموعها هي حركة إلى الأمام وإلى التقدم فلا يعود التاريخ القهقرى أو يرجع إلى الخلف، ولا تؤمن الثقافة العربية بتقديس الماضي في نظرة المجتمع إلى التطور. بل ترى الارتباط الذي لا ينفصم

بين الماضي والحاضر والمستقبل كحلقات طبيعية للتاريخ الطويل المضطرد .

* * *

والدين ظاهرة اجتماعية ضرورية لحياة المجتمع ، لا يستطيع المجتمع الحياة بدونها ، وهي تتصل بالأخلاق اتصالاً وثيقاً ، كما تتصل بالتربية والتعليم والفن .

وفي الثقافة العربية يكون الدين مقوِّماً أساسياً للجماعة ، والأخلاق جزء منه . والدين مقوِّم لا يمكن إغفاله ، أو تخطيه في تطور الجماعة وحركتها ومختلف قضاياها ، وهو دعامة أكيدة من دعائم الاجتماع الإنساني . فالإنسان في نظر الثقافة العربية هو سيد الكون تحت حكم الله ، لا ينفصل فيه العقل عن الروح ، ولا الفكر عن البصيرة .

فالإيمان بالله والخلق (الضمير الديني) هو عامل أساسي في بقاء المجتمع وتماسكه وتعاونه . والإيمان بالجزاء والآخرة عامل هام في إعطاء الخلفية الدينية وظيفتها وعامل حيوي في إيمان الإنسان وعمله . والأخلاق من شأنها أن تدفع الإنسان إلى حسن السلوك والاستقامة والتعاون والتآخي بين الأفراد .

والمجتمع القائم على مفهوم الثقافة العربية يجد دائماً قوة ذاتية دافعة في أفراده قوامها الخلق ، تتمثل في سلطان الضمير ، هذه القوة من شأنها أن تعين على تنفيذ سلطان القانون . أو تكفي دونه ، ومن شأن هذا المجتمع أن لا يخشى سلطان القانون المفروض من الخارج على أساس المحاسبة عن ظواهر الأمور إذ انه يرضى بما هو أكبر وأوسع وأعمق وهو سلطان الضمير .

ومن ثم يتوازن عامل الخلق مع حركة المجتمع وتطوره وبنائه عن رغبة ذاتية وتقبل طبيعي .

وسلطان الضمير في الفرد يستمد قوته من الإيمان بالله ويتسامى إلى

الغيرة والكرامة، بينما يقوم سلطان القانون على الخوف من السلطة التي تملك العقاب.

٢ - *في مجال الأخلاق*

في مفهوم الثقافة العربية يقوم بناء المجتمع وتكوين الإنسان على الأخلاق. فالأخلاق قاسم مشترك لمقومات السياسة والتربية والاجتماع والأدب والفن.

والأخلاق غير منفصلة عن الدين، وهي في نفس الوقت متكاملة مع قيم التوحيد والحرية والعدل، ولا يتم مفهوم الأخلاق إلا حين يقوم على أساس الإيمان بالله، وخلود النفس، والإيمان بالجزاء.

والأخلاق في مفهوم الثقافة العربية «عملية» وليست «مثالية» وهي من صميم واقع الإنسان باعتباره أحد أفراد المجتمع.

وتقوم الأخلاق على حرية الإنسان وإرادته في الاختيار، وتحمل المسؤولية. فالفرد مسؤول عن عمله، وإذا كان القانون للأعمال المادية، فالأخلاق لكل ما غير ذلك. ولا بد للأخلاق من تربية وتطبيق، وبدون ذلك تصبح مجرد كلمات ومثل. ويستهدف التطبيق تحقيق النفع العام للمجتمع بأسره.

والأخلاق في مجال التطبيق ترتبط بالمجتمع والسياسة والقانون كمقومات للمجتمع، وترتبط بالتوحيد والعدل والحرية. ومفهوم الأخلاق في الثقافة العربية: يقتضي تعميم تطبيقها على الإنسان والمجتمع، فيكون الإنسان فردياً في الفكر، اجتماعياً في العدل.

وتفرق الثقافة العربية بين التقوى والرهبنة. فهي تدعو إلى العمل، وتجعل العمل في دائرة الخلق، ولا تقبل الزهد والنسك المنفصلين عن المجتمع والعمل. والتقوى هي اجتناب الحرام: وهي غير الرهبنة والتقشف.

وهدف الأخلاق في مفهوم الثقافة العربية هو السمو بالغرائز وترويضها

وتصعيدها وتزكيتها وليس القضاء عليها. والأخلاق «ضوابط» منظمة وليست قيوداً. والثقافة العربية لا تدعو إلى مجتمع الغرائز والشهوات، ولكنها تنظمها في وسطية وتعادل تحفظ للجسد والعقل والروح قواها وحيويتها وهي لا تحرم متع الحياة، ولكن تدعو إلى تناولها في اعتدال. والنفس الإنسانية: تحمل الخير والشر. والأخلاق المستمدة من الدين وسيلة لتزكيتها والسمو بها.

وصدق الله العظيم: «ونفس وما سواها. فألهمها فجورها وتقواها. قد أفلح من زكاها. وقد خاب من دساها».

والأخلاق العربية المستمدة من الإسلام: أخلاق تقوى، وليست تستهدف ما تطلق عليه الفلسفة اليونانية «السعادة أو اللذة» ولا تقر الثقافة العربية مفهوم الوسطية الأخلاقية فهذا ليس أصيلاً في مصادر الإسلام، بل هي من الفكر اليوناني الوافد الذي جرى العرب شوطاً في الخضوع له ثم تحرروا منه بعد. والتقوى هي تجنب الحرام والإقبال على الحلال.

والأخلاق في مفهوم الثقافة العربية عملية تطبيقية وليست نظرية، وتشمل التكوين الفردي (الذي يعنى بالفرد في نفسه وعلاقته بربه) والتكوين الاجتماعي (الذي يعنى بمعاملات الأفراد مع بعضهم البعض). وتتصل الأخلاق بالعقيدة ولا تنفصل عنها.

وفي مفهوم الثقافة العربية أن الخير عام للجميع. ولذلك فإنه أقرب إلى منازعها من السعادة التي هي حال خاصة بالفرد فعلى الإنسان أن يفعل الخير للخير لا لينال به أجراً، ولا يتم الخير للناس إلا بتعاونهم.

وتقر الثقافة العربية نوعين من الأخلاق: أخلاق إيجاب، وأخلاق سلب.

ومن أخلاق الإيجاب الوفاء بالعهود، وأداء الأمانة، والقوامة بالقسط ولو على النفس والوالدين أو الآخرين، والإعراض عن اللغو، وبالوالدين إحساناً، وبذي القربى واليتامى والمساكين، والجار ذي

القربى، والجار الجنب، والصاحب بالجنب، وابن السبيل، وما ملكت أيمانكم.

ومن أخلاق السلب: تحريم القتل والزنا والربا وتحريم شهادة الزور والخمر والميسر وتحريم الرشوة والفساد واللغو، وتحريم تزكية النفس والتفاخر وتحريم السخرية بالناس والمنابزة بالألقاب.

* * *

والقرآن هو مصدر الأخلاق التي تصدر عن الثقافة العربية.

ومجموع مفاهيم القرآن: تمثل أخلاقاً إجماعية لا أخلاقاً فردية، فالقرآن «ينظر إلى الفرد في ضوء مصلحة المجتمع، فإذا تضاربت المصلحتان: يؤثر الفرد مصلحة المجتمع، ويضحي بنفسه في سبيله».

وصورة التطبيق لهذا المنهج القرآني إنما تتمثل في سلوك الرسول وشمائله، وترسم الثقافة العربية للحرية مفهوماً عميقاً فهي تحيطها بقدر كبير من الحماية، قوامها التبعة والمسؤولية الاجتماعية،فحرية الإنسان تنتهي عندما تصبح اعتداءً على حرية الآخرين. فالإنسان كفرد إنما هو جزء من المجتمع، وإطارات الأخلاق في مفهوم الثقافة العربية: رحبة متسعة، وليست مغلقة أو ضيقة. قوامها الحرية الشخصية وتحقيق الجهود الفردية.

وتقيم الأخلاق في مفهوم الثقافة العربية: حواجز متينة ضد الفوضى والظلم والشر عامة. وتبقى هذه الحواجز مرنة لكي تحقق للأجيال المتعاقبة اختيار الأساليب التي توفق فيها بين المثل القرآنية الثابتة، وبين تطور عصورها واختلاف بيئتها.

٣ - في مجال القانون

هدف القانون في مفهوم الثقافة العربية: تحقيق العدل والمساواة بين أفراد المجتمع وتنظيم الروابط الاجتماعية بما يحقق المساواة والعدالة.

ويعمل القانون «التشريع» كقطاع من قطاعات الثقافة العربية متكاملاً معها في سبيل بناء مجتمع سليم متقدم قادر على الحياة والتطور وفق مفهوم الأخلاق وبطبعه أساساً بطابع إنساني.

وترسم الثقافة العربية مهمة القاضي في مجال القضاء على نحو واضح بيِّن فالقاضي:

(١) يفهم إذا أدلي إليه فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له.

(٢) يواسي بين الناس في وجهه وعدله ومجلسه حتى لا يطمع شريف في حيفه، ولا ييأس ضعيف في عدله.

(٣) البينة على من ادعى، واليمين على من أنكر، والصلح جائز بين الناس إلا صلحاً أحل حراماً أو حرم حلالاً.

(٤) لا يمنعه قضاء قضاه، ثم راجع فيه عقله أن يرجع إلى الحق، فالحق قديم، ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل.

(٥) على القاضي أن يكون فاهماً لما يتلجلج في صدره مما لم يرد فيه نص. وعليه أن يقيس الأشباه والأمثال، ويعمد إلى أقربها من الحق.

(٦) عليه أن يجعل لمن ادعى حقاً غائباً أو بينة أمداً ينتهي إليه، فإذا أحضر بينته أخذ له بحقه. وعليه ألا يقلق أو يضجر، أو يتأذى بالخصوم أو يتنكر عند الخصومات فإن الحق في مواطن الحق يعظم الأجر.

فالمساواة أمام القانون هي القاعدة الأساسية، والإباحة هي طابع القانون في الثقافة العربية بحدود تحول دون الظلم والتعدي. والمبادىء القانونية على تعدد أشكالها تؤول على غاية واحدة هي الرفاهية العامة، وهي ما يسمى «المصلحة».

* * *

وقد طبعت الثقافة العربية مفهوم القانون بطابع السماحة الذي يقوم على إلغاء القيود الصارمة والمحرمات المختلفة التي عرفتها القوانين السابقة ومسايرة الطبيعة البشرية، على قاعدة « التيسير » : (لايكلف الله نفساً إلا وسعها) . وحيث لا تحرم طيبات الرزق وزينة الحياة، وحيث لا تعذيب للنفس لا إماتة لها بالتقشف، وحيث لا كبت للغرائز البشرية الطبيعية، شريطة الاعتدال، والوقوف عند « الضوابط » الحامية للشخصية الإنسانية من الانحلال والتدهور.

* * *

وقد حقق القانون - في مفهوم الثقافة العربية - رعاية مصلحة الجماعة، حين حرم الربا وأباح العتق والوصاية والزواج وصلة الرحم.

والحرية هي أولى القواعد في مفهوم القانون، حيث تجد الحرية حدودها في طبيعتها نفسها وفق قانون ثابت هو: أن الحرية المطلقة معناها فناء البشرية. والحدود التي تقف عندها الحرية هي ما اصطلح على تسميته بالقواعد القانونية، وليس في هذه الحدود شطط أو غلو، لأن الغاية المتوخاة من إقرارها هي المنفعة والصلاح والخير بأعظم ما يستطيع الفرد أو المجموع أن يجني ثمارها منها.

ومن أهم حقوق الفرد حقه بوصفه فرداً في السلامة والحرية. فالحرية هي الحق الطبيعي لكل مخلوق بشري، أما الرق فهو استثناء لهذه القاعدة. واللقيط المجهول الأصل ترجح حريته على عبوديته، وترجح حالة الحرية عند وجود الشك، والحرّ المشكوك في حريته لا يجبر على إثبات حريته.

« والحرية [1] » في مفهوم القانون في الثقافة العربية معناها: قوة التصرف الذاتي. والحر لا سيد له إلا الله، فالحرية لا يمكن أن تباع أو

---

(١) راجع سانتلانا (القانون والمجتمع).

تشترى ، والعبودية التي يختارها المرء بملء رغبته لا يعترف بها قانوناً قط ، وعلى هذا يحرم الانتحار . وللمرء أن يقتني ما يشتهي ويصنع بماله ما يريد لأنه متاع الحياة الدنيا جميعه خلق لاستعمال البشر وانتفاعه ولكن الله مقرر حق الملكية والحيازة وضع لهذا الحق حداً . وأتاح الفرصة لكل امرىء في معرفة المقدار المخصص له من مصادر الثروة العامة صيانة للنظام الاجتماعي .

وفي كل صرف يجب أن لا يكون تبذير والمبذر آثم بالنتيجة . فالسفه في القانون وفق مفهوم الثقافة العربية : نوع من الخلل العقلي يحجر على صاحبه . والقاعدة هي الحرص على الاعتدال ، والقسط في كل شيء ، واتباع الوسطية في إنفاق الثروة . (والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا) وقد وضعت « الضوابط » لحماية صغار السن والمعتوهين والزمنى والمفاليس . وفي مفهوم القانون في الثقافة العربية أن لكل امرىء أن يستعمل حقوقه الخاصة بمطلق حريته بشرط ألا يرمي بهذه الممارسة الإضرار المطلق بالغير في الوقت الذي ينال منفعة شخصية من وراء ذلك ، ويمنع المرء من ممارسة حقوقه عندما يسبب ذلك ضرراً فاحشاً لغيره على حساب منفعته الخاصة . وقد رسم « القانون » في مفهوم الثقافة العربية « ضوابط » أساسية لكل ناحية من نواحي الحياة لصيانة وجود الفرد في المجتمع ، كما حرم الربا بأي شكل كان ، ونفَّر من كل أنواع المضاربة ، وأعلن بطلان أي عقد غير مؤكد النتيجة .

وقد انبثقت كل هذه المميزات من أصل المبدأ العام « المساواة » وبهذا يتمثل القانون في مفهوم الثقافة العربية : كفاح دائب متواصل لغرائز الإنسان المنحرفة ، ووضع حد لتفرقات البشر التي ترمي إلى تحقيق سعادتهم مع عدم الإضرار بالمجتمع وأفراده .

وهدف القانون أساساً هو الطمأنينة والأمن الاجتماعي وسعادة المجموع في نطاق قواعد عامة :

(١) الناس جميعاً سواسية : لا فضل لأبيض على أسود .

(٢) توزيع العدالة بالقسطاس على الجميع بلا تفضيل.
(٣) لا ينتفع أحد بمال آخر ما لم يجزه.
(٤) على كل إنسان أن يفي بالعهود التي يقطعها على نفسه.

ويعلق القانون في مفهوم الثقافة العربية أعظم الأهمية على القصد القانوني، لا على النص الحرفي، وفق قاعدة: إن إرادة البشر كافية مهما كانت لخلق رابطة قانونية.

وتكون العدالة رائدة المساواة في كل مرحلة من مراحلها.

وقد ساير القانون في مفهوم الثقافة العربية في جميع الأطوار سنن تطور المجتمعات، وعايش الحضارات في كل زمان ومكان فهو مبني دوماً على المصلحة العامة، والخير العام. وقد استهدف بناء الأحكام على المقاصد والمصالح وتغيرها بتغير الزمان والمكان، وأقام قاعدة أن (لا تعارض بين العقل والنقل) وان صحيح المنقول موافق دائماً لصريح المعقول.

٤ - في مجال السياسة

ترسم الثقافة العربية مفهوم «السياسة» على نحو كبير من الوضوح والأصالة وفق قيمها الأساسية. فالأمة والجماعة سواسية كأسنان المشط، لا تفرقة ولا تمييز «الضعيف قوي حتى يؤخذ الحق له. والقوي ضعيف حتى يؤخذ الحق منه». ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق (أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم).

وأبرز مفاهيم السياسة «الحرية»: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟» كما تقرر حقوق الإنسان في عقيدته وتفكيره وشخصيته ومعيشته، وتوجه الاهتمام إلى جوهر الإنسان من روح وعقل وخلق وفضيلة. والتهوين من شأن الفوارق المادية التي تتصل بهذا الجوهر.

وقد أولت الثقافة العربية مفهوم المساواة طابعاً جديداً، هو طابع المساواة في الإنسانية، حيث كانت المجتمعات تقوم على فوارق الشرف والضعة، والغنى والفقر، ورد الاعتبار الإنساني إلى الطوائف المستضعفة «المرأة والرقيق» والقضاء على الرق تدريجياً.

كما اعتدَّت بمبدأ الشورى «إدارة الناس أمورهم بأنفسهم» مع التجرد من الهوى والتزام جانب الحق والعدل: «فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى». وللمرأة الحق أن تشارك بالرأي في الشؤون العامة، ولم تقتصر الشورى على الرجال، بل للأرقاء حق المساهمة في الرأي والشورى.

والسيادة حق للأمة وحدها، وهي التي تمنحها للحاكم.

والعدل أساس من أسس الثقافة العربية في السياسة: «كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين أو الأقربين».

والمساواة بين أفراد المجتمع فهم سواسية لا فضل لأحد على الآخر إلا من جهة الكفاية الشخصية، والسجايا الذاتية. ولكل فرد من أفراد المجتمع أن يترقى إلى ما شاء الله.

وحرية الفكر مفهوم واضح من مفاهيم الثقافة العربية للسياسة: وهي حرية تطلق الفكر من عقاله وتدعو إلى التدبر ونبذ كل ما لا يقبله العقل، وعلى الإنسان ألا يؤمن بشيء إلا بعد أن يقتنع به عقلياً. وتغض من شأن تعطيل الفكر أو إلغاء العقل بالتقليد أو التمسك بالعلاقات والتقاليد - دون تمحيص.

وكذلك الحرية في مجال الدين، فلا إكراه في الإعتقاد. لكل إنسان أن يعتنق ما شاء، وليس لأحد أن يحمله على ترك عقيدته.

وقد بلغ من تسامح الثقافة العربية في هذا المجال أن أولت الملل والنحل دراسة متسعة.

الأخلاق في السياسة

وحين تربط الثقافة العربية بين مقوماتها في عقد متكامل فهي لا

تفرق بين عناصر الاجتماع والسياسة والدين والاقتصاد، وتجعل الأخلاق قاسماً مشتركاً عليها. فالأخلاق في مجال السياسة عنصر فعال في السلم والحرب، وفي علاقات الأفراد بالجماعة، وفي علاقة الحاكمين بالمحكومين، وهي منطلق إلى الطابع الإنساني في الثقافة العربية.

فالثقافة العربية تؤمن بترابط تكاملي بين أعمال وسلوك الإنسان، وبين الخير والنفع مما يحقق إسعاد المجتمع ورقيه ودوامه. ومن هنا تختلف اختلافاً جذرياً عن مفهوم السياسة الغربي الذي يقوم وفق نظرية مكيافلي حين نادى بالانفصال بين السياسة والأخلاق، وقال بأولوية السياسة على الأخلاق، وأن من حق الدولة أن تنفض يدها من مفهوم الأخلاق المتعارف عليه بين الناس.

السياسة مقوم من مقومات الثقافة العربية متميز ولكنه غير منفصل عن وحدة الثقافة العربية في مجال الدين والاقتصاد والقانون، وقد قدمت الثقافة العربية في مجال الفكر السياسي مبادىء هامة قوامها:

١ ـ العدالة الاجتماعية.

٢ ـ المساواة أمام القانون.

٣ ـ تكافؤ الفرص في مجال السياسة والاقتصاد.

٤ ـ مبدأ الأغلبية.

ويقوم مفهوم السياسة في الثقافة العربية على دعائم ثلاث: العدالة والترابط بين العدل والمسؤولين والشورى.

١ـ فالعدالة شرط أساسي من شروط الحكم وإن الهناء لتظل ملازمة للأمة ما بقيت تحكم بالحق والعدل.

والعدالة (في مجال الثقافة العربية) لا تعني جانباً واحداً من جوانب الحياة، وإنما تشمل كل جوانبها: الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والقانونية. ولا شك أن الدولة التي تقوم ـ وفق تعبير ابن خلدون ـ على العدل لها أن تأمل الرقي والحضارة. والدولة التي تقوم على الظلم لها

أن تأمل الانحطاط السريع والموت.

٢ ـ الترابط بين العدل والمسؤولية.

٣ ـ مبدأ الشورى ويعني تبادل الرأي، ويعني جماعية علاج المشاكل (الماوردي). ومبدأ الشورى من الوجهة السياسية هو: طلب نصح ومشورة أهل الحل والعقد.

* * *

كما قدمت الثقافة العربية في مجال السياسة مفهوم «الكفاية» الذي يقوم على تقدير الكفايات ذات الدراية في المجالات السياسية والمسؤوليات وإتاحة الفرص لها بالإنابة عن الأمة.

* * *

يقوم المفهوم السياسي في الثقافة العربية على أساس:

١ ـ تحقيق أكبر قدر من سعادة المجتمع.

٢ ـ توفير الأمن والاستقرار والسعادة للأمة.

٣ ـ إعطاء الحرية للأفراد للكشف عن آرائهم.

٤ ـ الترابط العضوي بين المفهوم السياسي والمفاهيم الاجتماعية والاقتصادية والقانونية بحيث تشكل الثقافة العربية كياناً عضوياً مترابط الأجزاء.

٥ ـ عدم وجود خط فاصل بين السياسة والأخلاق.

ويتلاقى مفهوم السياسة في الثقافة العربية مع النظرية الديمقراطية في كون كليهما يضع السيادة في يد الأمة، ويؤكد على المساواة أمام القانون، وتكافؤ الفرص السياسية والاقتصادية للمجتمع، بينما يتميز المفهوم العربي بالارتباط بين ما هو مادي وروحي، والاستمداد من القواعد الخلقية، فهناك مقياس خلقي لكل عمل سياسي، وحيث

يرتبط مفهوم السياسة في الثقافة العربية بالقيم الأساسية لها فهي بعيدة دوماً عن التطرف والإكراه والتسلط.

كما يتسم مفهوم السياسة في الثقافة العربية بالتكامل والوسطية. ووفق تكامل الثقافة العربية وشمولها ووسطيتها ترتبط فكرة الحرية بالمسؤولية، فليس من سيد على الرجل الحر إلا (الله) والحرية إذا أسيء استعمالها حطمت نفسها، وحدّ الحرية هو الخير الأسمى للفرد والمجموع.

* * *

والمجتمع ضروري لدوام حياة الأفراد، والدولة ضرورية لدوام المجتمع لا يستقيم بدون وجود سلطة تلقى إليها مسؤولية تحقيق التقدم والاستقرار. وحاجة الفرد إلى المجتمع طبيعية، بل ضرورية. والإنسان في حاجة دائمة إلى تعاون الآخرين. ولا بد من قيام التعاون بين عدد كبير من المتخصصين بالحرف والصناعات، وإن هذا التعاون بين الجماعات من شأنه أن يؤدي إلى التطور وإلى قيام الفنون والصناعات. (الغزالي وابن تيمية).

«والدولة قوة منظمة لحياة الإنسان في المجتمع» «ابن رشد»

والقوانين المنظمة للمجتمع لا يمكن أن تكون فعالة إلا إذا اكتسبت صفة التطبيق. وعلى الدولة تحقيق الاستقرار والحفاظ على وحدة الأمة بأجمعها ومراقبة سلوك الأفراد، وعليها مسؤولية الحفاظ على التعاليم والأهداف السامية، وان الهناءة تظل ملازمة للأمة ما بقيت تحكم بالحق والعدل.

ولا تعترف الثقافة العربية بمفهوم «الثيوقراطية» فالثيوقراطية: نوع من النظام الذي عرفه الغرب، ولم يعرفه العالم الإسلامي قط، وهو يخضع لسيطرة طبقة رجال الدين، وقد طبق مثل هذا النظام في أوروبا في العصور الوسطى.

وليس في الثقافة العربية وفق مفهوم الإسلام منظمة كهنوتية دينية

تقوم بممارسة نفوذ سياسي . وليس في الإسلام رجال دين ، بل علماء دين يفسرون النصوص . ولكل إنسان مثقف بالغ الحق في الحديث في الدين . لم يقم في تاريخ الإسلام حكم يمكن أن ينطبق عليه مفهوم الثيوقراطية .

٥ - في مجال التربية

مفهوم التربية في الثقافة العربية يتصل بالقيم الأساسية ، والمقومات المختلفة والسياسة والاجتماع والأخلاق . والتربية مفهوم إيجابي في الثقافة العربية من شأنه بناء شخصية الإنسان وإعداده ليكون عضواً فعالاً في المجتمع . وهي تعمل على « تكييف » العلاقة بين الفرد والبيئة ودعمها ، وإقامة التوازن الكامل بين الفرد والمجتمع على نحو يعمل على تحقيق السعادة والسمو ، فهي تدعم الرباط الذي يربط الفرد بالمجتمع ، فلا تنفصل غايات الفرد عن مجتمعه ، وإنما تتم تنمية فاعلية الفرد داخل المجتمع .

وليست التربية ثقافة عقل أو تربية إحساس ، بل هما معاً . فهي بناء العقل والضمير والجسد جميعاً وفق مفهوم (الثقافة العربية) في تكامله وشموله ، وكما يتكامل العقل والروح والجسد في الفرد الواحد ، فإن هذه القوى تتكامل بين الأفراد ، وبين الأفراد والمجتمع . فالفرد له أهميته بالنسبة للمجتمع ، وللمجتمع أهميته بالنسبة للفرد وكلاهما يؤثر في الآخر ويتأثر به حيث لا كيان للفرد بدون المجتمع ، ولا حياة للمجتمع بدون أفراده .

وتربية العقيدة وتعميقها في نفس الفرد جزء هام في مفهوم التربية ، وفي تكوين شخصية الإنسان فهي العامل القادر على تعديل الغرائز المختلفة ، (غرائز حب البقاء ، الخوف ، المقاتلة ، السيطرة . . .) والاتجاه بها إلى السمو والكمال . ولا شك أن هناك خطراً قائماً في ترك الغرائز دون تهذيب . فلا بد من إعدادها حتى تصبح قوة في جانب الحق والخير . والتربية في مفهوم الثقافة العربية : تعد الإنسان ككل (في مجال

الروح والعقل والجسم) بالقدوة، والموعظة، والتثقيف. وهي عملية دائمة لتعديل الخبرة بشكل يزيد في قوتها وفي قدرتها.

وقد جمعت الثقافة العربية في مفهوم التربية بين النظريتين اللتين عرفتهما الثقافات المختلفة: إصلاح النفس وإصلاح المجتمع. وتعمل في مجال يربط بين الواقعية والمثالية وفق مفهومها من التكامل والشمول، فهي تستهدف السمو بروح الفرد وعقله وجسمه. ومن هنا تبنى التربية على:

أولاً: العقل، فتكون رياضة روحية وغذاءً للنفس.

ثانياً: الدين مصدر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ثالثاً: والأخلاق التي ترتفع بالطبيعة الإنسانية نحو مواطن الحق.

وتربط الثقافة العربية بين التربية والتعليم، وتجعل أهمية التربية في بناء نفس الفرد أساساً للتعليم بوصفه بناء لعقل الفرد، وتجعل للقدوة في البيت أكبر أهمية، وتجعل اختيار المعلم الذي هو المثل الأعلى للطفل أساساً هاماً. وتشترط أن يكون المعلم عاقلاً ذا دين، بصيراً برياضة الأخلاق، حاذقاً بتخريج الصبيان، وقوراً رزيناً بعيداً عن الخفة والسخف [١].

«والتعليم الجماعي أبعد أثر. فالصبي عن الصبي ألقن، وانفراد الصبي الواحد بالمؤدب أجلب الأشياء لضجرهما، ومن مميزات التعليم الجماعي ما تفيده المناقشة والمحادثة من انشراح للعقل. وفي ذلك تهذيب للأخلاق وتحريك للهمم».

وإرهاف الحد بالتعليم مضر بالتعليم، فمن كان مرباه بالعسف والقهر من المتعلمين أصاب نفسه الضيق، فدعاه ذلك إلى الكسل وحمله على الكذب والخبث والتظاهر بغير ما في ضميره [٢].

---

(١) راجع مفاهيم ابن سينا في التربية.

(٢) ابن خلدون في مقدمته.

وتقوم التربية في مفهوم الثقافة العربية على مراعاة ملكات النشء وميوله الفطرية حيث لا يجوز قهر الناشىء على علم لا رغبة له فيه.

وتقرر «الثقافة العربية» أن العلوم كلها شريفة، ولكل منها فضيلة، والإحاطة بجميعها محال. فإذا لم يكن إلى معرفة جميع العلوم سبيل وجب صرف الهمة إلى أهمها، والعناية بأولاها وأفضلها. ولا يمنع كبر السن من التعلم استحياء، لأن العلم إذا كان فضيلة فرغبة ذوي الأسنان فيه أولى. والابتداء بالفضيلة فضيلة، وليس الكبير أقل شغلاً وأكثر تواضعاً. وعلى المتعلم أن يتجنب الحفظ دون فهم للمعنى حتى لا يروي بغير روية، ولا يخبر عن غير خبرة.

وتقرر الثقافة العربية قاعدة اصلية. «كونوا للعلم رعاة ولا تكونوا له رواة».

وعلى المعلم ألا يكتفي بما تعلم، بل عليه أن يزداد منه، وليكن مستقلاً للفضيلة منه ليزداد منها ومستكثراً للنقيصة فيه لينتهي عنها. ولا يقنع من العلم بما أدرك. لأن القناعة فيه زهد، والزهد فيه ترك، والترك فيه جهل. وعلى المعلم أن يرفق بالمتعلمين ولا يعنفهم ولا يحقرهم ويبذل النصح لهم [1].

* * *

وتقيم الثقافة العربية قواعد التربية على أسس سبعة: الإيمان بالله، بالمثل الأعلى، بالأمة، بالعلم، بالحرية، بالعمل. والتربية العربية شمولية متكاملة الأسس: فردية وجماعية وقومية وإنسانية. وأخلاقية التربية العربية: تجنب نقائص الكبر والعجب والحسد والمنافسة وتزكية النفس وحب الحياة.

وتقرر أصول التربية العربية حقائق أساسية:

«على المعلم الشفقة والرأفة بالمتعلمين، وأن لايقصد بعمله جزاءً ولا

---

(١) الماوردي: في أدب الدنيا والدين.

شكراً، وعليه أن يمنع المتعلم من التصدي لرتبة قبل استحقاقها، والتشاغل بعلم خفي قبل الفراغ من الجلي، مع التنبيه على الغرض من دروس العلوم، وأن يزجر المتعلم من سوء الأخلاق بطريقة التعريض ما أمكن دون التصريح، وبطريق الرحمة لا بطريق التوبيخ. فإن التصريح يهتك حجاب الهيبة، ويورث الجرأة على الهجوم بالخلاف، ويهيج الحرص على الإصرار وعلى المتكفل ببعض العلوم أن لا يفتح في نفس المتعلم العلوم الأخرى، وأن يراعي التدريج في ترقية المتعلم من رتبة إلى رتبة، وأن يقتصر بالمتعلم على قدر فهمه، فلا يلقي إليه ما لا يبلغه عقله، فيكلم الناس على قدر عقولهم، فإن المحدث إذا حدث قوماً بحديث لا تبلغه عقولهم كان فتنة على بعضهم».

«وعلى المعلم أن يكون عاملاً بعلمه فلا يكذب قوله فعله، لأن العلم يدرك بالبصائر والعمل، فإذا خالف العمل العلم منع الرشد». وعلى المتعلم أن يكون نقي النفس عن رذائل الأخلاق، وعليه أن يمتنع عن أهم الصفات الرديئة: الغضب والشهوة والحقد والحسد والكبر والعجب، وعليه ألا يتكبر على العلم ولا يتآمر على المعلم، بل يلقي إليه زمام أمره بالكلية في كل تفصيل، ويذعن لنصيحته، ويتواضع لمصلحته، ويطلب الثواب والشرف بخدمته، حيث لا ينال العلم إلا بالتواضع وإلقاء السمع. مع الإصغاء والإدراك والاطلاع. وعلى المتعلم ألا يدع فنّاً من العلوم المحمودة، ولا نوعاً من أنواعه إلا وينظر فيه نظراً يطلع به على مقصده وغايته، طالباً التبحر لأن العلوم متفاوتة، وبعضها مرتبط ببعض. وعلى المتعلم أن لا يخوض في فن من فنون العلم دفعة واحدة.

بل يراعي الترتيب ويبتدىء بالأهم. فإن العمر إذا كان لا يتسع لجميع العلوم، فالحزم أن يأخذ من كل شيء أحسنه. وعلى المتعلم ألا يخوض في فن حتى يستوفي الفن الذي قبله. فإن العلوم مرتبة ترتيباً ضرورياً وبعضها طريق إلى بعض [1].

---

(١) الإمام الغزالي: إحياء علوم الدين

وفي مفهوم الثقافة العربية أن التربية ترمي أساساً إلى ترقية الخلق السامي وتقويته. والعقل منبع العلم، ومطلعه وأساسه. والعلم يجري مجرى الثمرة من الشجر والعلم وحده لا يغني بدون الأخلاق.

والتربية الخلقية هي في الواقع تربية اجتماعية. والخلق ليس شيئاً شخصياً محضاً، إن ان قيمة تربية الأخلاق تبرز كلما كانت علاقتها بالمجتمع أكثر، وروابطها أقرب. فإذا كان غرض العلم كسب العيش وحده ضاق الأفق العقلي وحرم المرء الترقي الصحيح. والمهارة في فن ما إذا كانت مقرونة بفساد في الخلق وضعف في النفس لا يكسب صاحبها راحة البال، ولا تجعل الناس تثق في علمه أو مهارة فنه. أما إذا سمت أخلاقه وعلت نفسه كان عمله أكثر أثراً وإيجابية.

* * *

وتربط الثقافة العربية بين ثقافة الفكر وثقافة الخلق، فالمعرفة تكون ثقافة الفكر، والتربية تكون ثقافة الخلق. والعلم وحده لا يكفي، ولا بد معه من التربية. ولا بد أن تتم الرابطة بين البيت والمدرسة بالقدوة والثقافة معاً. وتربية الفضائل تكتسب بالقدوة في البيت وتنمى في المدرسة، والمتعلم يحتاج إلى جهد الأب والمعلم وتدريب العقل. واستيعاب الحقائق وحدها لا يكفي، ولا بد أن يرفدها، ويشترك معها تهذيب النفس، وتقويم الأخلاق. ولا بد من تثقيف العقل وتأديب النفس وتزكية الروح وتقوية الجسم، حيث يتمثل في التربية مفهوم الثقافة العربية متكاملة: دينياً وخلقياً واجتماعياً، ممتزجة. لا يبنى نوع منها على حساب الآخر.

والإيمان بالله هو حجر الزاوية، والتمييز بين الحلال والحرام، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والبر بالمحتاج، ومساعدة الضعفاء، وخلوص النية، وطهارة النفس، والاعتماد على النفس، والكرامة، وحسن الظن بالناس، وحرية الإرادة والجرأة الأدبية، والصراحة، والصدق، والاستقامة في الرأي والعمل.

وهذه المفاهيم في مجموعها تتمثل في قدرة المعلم على السؤال والبحث عن الحقيقة والرفق بالمتعلمين وتعليمهم بالقدوة وتقديس حرية الرأي وتفهم الأحكام تفهماً صحيحاً، وفقاً للقاعدة: «علموا ولا تعنفوا، فإن المعلم خير من المعنف، لا يعنف متعلم ولا يحقر ناشىء، ولا يستصغر مبتدىء».

والأخلاق ليست قيوداً، ولكنها وسائل لتنظيم الحرية، وهي لاتعيق النمو والحركة بقد ما تحفظ الشخصية الإنسانية من الانهيار والضعف والرخاوة حيث تتاح الطيبات والزينة بالاعتدال المتوازن بين الاندفاع والجمود، فلا يؤخذ شيء بغير حقه، ولا يجري السرف في هذا الأخذ، وليس هناك انفصال بين العقيدة والخلق. بل بينهما امتزاج وتكامل ولا يمكن أن تبقى الأخلاق صالحة إذا وقع الانحراف عن العقيدة.

* * *

وفي مفهوم الثقافة العربية: العلم حق وفريضة على كل رجل وامرأة، ثم هو رسالة من المهد إلى اللحد.

والتعليم حق كل صبي وصبية، واجب على الدولة، وهي مكلفة به إذا لم يكن أهله قادرين.

* * *

وإن الصبي يجب البدء بتهذيبه عند فطامه لئلا تثبت في نفسه الأخلاق الذميمة فيصعب بعد ذلك نزعها من نفسه. والطفل أمانة عند والديه، وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة. والطفل المستحي لا ينبغي أن يهمل، بل يستعان تأديبه بحيائه وتمييزه. ولا يؤخذ الطفل بأول هفوة، بل يتغافل عنه، ولا يهتك ستره، ولا سيما إذا ستره الصبي واجتهد في إخفائه. وعلى المربي أن ينظر في حال سنه ومزاجه، وما يحتمله في نفسه من الرياضة، ويبني على ذلك أسس تربيته.

ومن أسس التربية في الثقافة العربية مراعاة ميول الأطفال واستعدادهم. ومن القواعد الأساسية للتربية: أن بناء الشخصية للفتى والفتاة يتم أساساً في البيت، وبقدوة الآباء والأمهات. على أن يتم التأديب بالحزم الممزوج بالرفق. وعلى الصبي أن يتجنب معايب الأخلاق بالترهيب والترغيب، والإعراض والإقبال. وعلى المربي أن يبيح للأطفال الفرصة بعد المكتب في اللعب حتى يذهب عنهم آثار التعب والملل. وعلى الأطفال أن يرجعوا إلى بيوتهم للغذاء، حتى لا يتألم الطفل الفقير الذي لا يمكنه مجاراة الموسرين في مظاهر يسرهم عندما يحملون غذاءهم معهم إلى المكتب. ومن كان مرباه بالعسف والقهر سطا به القهر، وضيق على النفس في انبساطها، وذهب بنشاطها، ودعا إلى الكسل، وحمل على الكذب والخبث خوفاً من انبساط الأيدي بالقهر عليه. وعلى الآباء أن يعلموا أولادهم العوم والرماية، وأن يثبوا على الخيل وثباً.

* * *

وليس هناك انفصال بين التربية والتعليم. والتعليم لا ينفصل من مهمة تقويم النفس، ضمن حدود الحق والبر، وينتهي بها إلى تكوين الإنسان الممتاز، الروح مرتبطة بالجسم. ولا شك أن التربية الكاملة هي (تربية الروح ،تربية العقل، تربية الجسم) هي الوسيلة الصادقة المثلى لفهم العلاقة بين الله والإنسان والمجتمع، وهي أبرز مفاهيم الثقافة العربية.

ولا شك أن أعظم أهداف التربية في الثقافة العربية هي خلق فرد مؤمن بالله، مدرك لحقوقه وواجباته عامل للمصلحة العامة، متمسك بمبادىء الحق والخير، يستهدف المثل العليا في سلوكه الفردي والاجتماعي، ويملك إرادة النضال المشترك، وأسباب القوة والعمل الإيجابي [1].

---

(١) راجعنا في هذا الفصل آراء ابن سيناء والغزالي والعبدري وابن خلدون.

في مفهوم الثقافة العربية يمثل « الاقتصاد » عنصراً هاماً يتكامل مع العناصر الأخرى، ولا يمتاز عليها. له أهميته وضرورته الأساسية في حياة الإنسان والمجتمع، ولكنه يتكامل تكاملاً أساسياً مع مقومات السياسة والقانون والدين وفق القيم الأساسية للفكر الإسلامي.

فالاقتصاد ليس مقوماً مستقلاً، وليس له إرادة غالبة، ولا نفوذ مفروض على المقومات الدينية والاجتماعية والخلقية وهو مطبوع في الثقافة العربية بطابع الحرية والخلق والإنسانية.

ولما كان مفهوم الثقافة العربية هو التكامل والتوازن والوسطية بين الفردية والجماعية، فإنه لا يقر إذابة الأفراد في بوتقة الجماعة ولا إذابة الجماعة في بوتقة الأفراد. بل يقر التعاون بينهما والالتقاء.

وهو حين لا يعارض الفطرة، يجعل من النظام القانوني نظاماً أخلاقياً يقوم على تزكية النفوس، ويعترف بالكفايات والمواهب.

وقد استهدف المفهوم الاقتصادي أساساً: تحقيق العدل الاجتماعي، وتكافؤ الفرص للمجتمع، ومنع الاستغلال الاقتصادي للضعفاء من جانب الأقوياء، ومنع استغلال طبقة لطبقة من الناس، أو استغلال فرد لفرد. ويقوم المقوم الاقتصادي في الثقافة العربية على مراعاة الوسطية والأخلاق. والاقتصاد في معناه اللغوي إنما يعني التوسط بين الإسراف والتقييد حيث لا ينفصل الأساس الأخلاقي عن المفهوم الاقتصادي في حدود الأمانة والإخلاص والعدل.

وتقدم الثقافة العربية مفهوماً واضحاً وفق طابعها المتكامل، وقوام هذا المفهوم: الحض على التجارة وأداء الزكاة، وتحريم الربا، والاحتكار، وإقرار حق الملكية الفردية بمفهومها الأصيل، وهي أنها وظيفة اجتماعية. والعمل في الإسلام فريضة، وهو حق مكفول لكل مواطن، ويلتمس مفهوم الاقتصاد قيمة أساسية أخرى: هي الحد من أرباح الوساطة، وتحريم التطفيف « الأخذ أكثر مما يستحق، الإعطاء أقل مما يحق ».

ومن أهم معالم الاقتصاد في مفهوم الثقافة العربية: التفرقة بين الحلال والحرام، وتحريم الربا، والاحتكار والعقود الباطلة.

وإقامة التداول الاقتصادي على أساس الخلق والإيمان، والوازع الديني الشريف، واعتبار مشاكل الفرد والجماعة مشاكل إنسانية بالدرجة الأولى، ثم مادية بعد ذلك، وأن لا يغفل هدف أساسي هو توثيق أواصر الأخوة الإنسانية بين البشر.

والاقتصاد في مفهوم الثقافة العربية: يقر الكسب الحلال، ويوجب عمل المرء بيده، ويقر البيع المبرور، ويقر البيع إلى أجل بثمن المثل النقدي، ويقرر أنه في كل ذي عسرة نظرة إلى ميسرة، ويدعم حقوق من لا يستطيعون الإنتاج ويكفلها ويقر الإنفاق للوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل، ويحرم الخمر والمسكرات والمخدرات كوسائل للكسب، ويشجب كل المكاسب التي تضر بالآخرين: كالرشوة والسرقة والميسر وصنوف المقامرة وجميع المعاملات التي يخالطها الغش والغبن، ويحرم احتكار الحبوب والأغذية والأمتعة طمعاً في ارتفاع الأسعار، كما يحرم طرق الكسب التي تقضي إلى النزاع والخصام، ولا يقر وسائل الكسب الغامضة المجهولة.

كما يحظر التعامل على أساس الربا، وأكل أموال الناس بالباطل، وبخس أشياء الناس كما يحظر استغلال حاجة الناس إلى المال.

* * *

وتقر الثقافة العربية الملكية الفردية، ولكنها لا تدع الفرد حراً طليقاً في استهلاك ماله، والتصرف في ثروته. بل تحدّ له حدوداً هي إحدى طرق ثلاث: إما أن يستهلكه في مرافقه، أو يستعمله في تجارة أو صناعة تعود عليه بالربح، أو يدَّخره. وفي كل حالة من هذه الحالات تجب عليه زكاة أو صدقة.

* * *

والزكاة ضريبة تجبى على الأرض المملوكة ملكاً خاصاً. تكون نسبة ثابتة من ثروة المكلف، وتشمل إنتاج الأرض والذهب والفضة والبضائع والحيوانات.

وللإنسان أن ينفق المال ويتصرف في الثروة، بشرط الاعتدا والتوسط في المعيشة. وكل نفقة ينفقها المرء فيما يفسد الأخلاق أو يضر المجتمع محرمة، أو كل ما يؤدي إلى السرف، ويحرض كل من له فضل مال بعد استيفاء حوائجه أن ينفقه في سبيل الصالح العام.

* * *

والثقافة العربية تؤمن بإعادة توزيع الثروة بوسيلتين: نظام الزكاة، ونظام المواريث. فمن يدخر يأخذ المجتمع منه ٢,٥ في المائة سنوياً لتوزع لمن يعجزون عن كسب معاشهم. ومعنى الزكاة في اللغة التطهير. وهي ليست صدقة ولكنها حق للأمة في مال الغني، وللدولة خزنة (بيت المال) يكفل العون للفقراء أو العاجزين عن كسب الرزق. بل إن حق الفقراء في مال الأغنياء ليس مقصوراً على الزكاة.

وبالنسبة للتوريث فإن الثروة يعاد توزيعها كل جيل، بعد وفاة صاحبها الأصلي. فإن لم يكن للمورث أقارب من عصبه، قسم ماله على الأباعد من ذوي رحمه، فإذا لم يكن آل إلى بيت المال. وعلى الموسر أن يقرض من له حاجة، ولا يستوفي منه أكثر من رأس ماله.

وكل مال في مفهوم الثقافة العربية يؤول إلى التجزيء، ولا يلبث أن ينقسم إلى أجزاء صغيرة.

* * *

وتؤمن الثقافة العربيةبضرورة تدبير وسائل الحياة الكريمة للطبقة الفقيرة من غذاء وكساء ومسكن.

وتقر الثقافة العربية في مجال الاقتصاد: حق الملكية الفردية (الملكية

الخاصة) . والملكية في الثقافة العربية وظيفة اجتماعية . والملكية الخاصة تلتزم بوظيفتها الاجتماعية بحسبان أنها أمانة وليست حقاً مقدساً .

ولا يجوز أن تنفصل الملكية عن العمل . فالعمل فريضة ، فإذا قصرت الملكية الخاصة في وظيفتها الاجتماعية ، وتحولت إلى أداة استغلالية وجب مصادرتها أو تحويلها إلى ملكية عامة .

والملكية الخاصة خاضعة للقوانين الأخلاقية ، واعتبارات المصلحة العامة . وتقدم المصلحة العامة إذا اصطدمت مع مصلحة الفرد . والملكية الفردية على الجملة حق اجتماعي لا حق طبيعي .

المال :

وللمال وظيفة اجتماعية غير فردية ، وهو لا يقصد لذاته ، وإنما يقصد لأداء خدمات اجتماعية عن طريقه . ويشترط لتحصيله وجوه الكسب السليمة : الفلاحة والصناعة والتجارة .

وعلى المال التزامات كالزكاة والصدقات ، وإنفاق المال في سبيل المصلحة العامة ، والذود عن الوطن . وعلى مالك المال توجيه نشاطه وكفايته إلى استثمار ماله في نطاق الوجوه المشروعة للاستثمار وبغير عدوان على مصلحة الجماعة . ومن أحيا أرضاً ميتة فهي له . ومن عطل أرضاً ثلاث سنين لم يعمرها فجاء غيره فعمرها فهي له . ومن أخلاقية الإستثمار أنه يتعين على صاحب الأرض أن يتركها دون استثمار ولا يستثمرها استثماراً ضعيفاً . وعلى كل إنسان أن يحسن استثمار ماله . فإذا تضخمت الثروة بين يدي فئة قليلة من الناس ـ وكانت هذه الثروة من مصادر الانتاج التي عليها قوام المجتمع ـ ثم ثبت عجز هذه الفئة عن استثمارها ، وأدى هذا العجز إلى حرمان المجتمع من منافع الاستثمار ، كان لولي الأمر أن يتدخل بما يدرأ عن المجتمع هذا الضرر العام .

وتقرر الثقافة العربية توازن المجتمع في كيانه الاقتصادي كما هو متوازن في جميع جوانبه الأخرى ، فتوزع القوى الاستثمارية على مصادر الإنتاج المختلفة . ولا يركز استثمار الأموال في تملك الأرض الزراعية

وفلاحتها دون المصادر الأخرى للتوظيف كالصناعة والتجارة.

والمال أساساً: هو مال الله، والإنسان وكيل عليه. ولذلك لا بد من تقديم حق الفقراء والسائلين والمحرومين. ولا يجوز أن تترك الأموال تتجمع في أيدي قلة مميزة إلى الحد الذي يمكنها من ممارسة السيطرة على الآخرين واستغلالهم. ومن شأن تجمع المال لدى قلة مميزة أن يؤدي إلى الترف والتبذير والضياع. وعلى المجتمع أن يستخدم المال، وأن يجعله وسيلة للإنتاج، فلا يكون إلهاً ومعبوداً، وإنما يكون في خدمة الإنسان بحيث لا يصبح رأس المال له قوة وسيطرة على المجتمع، ويصبح صاحب المال صاحب استغلال وإقطاع في المجتمع.

* * *

وتقر الثقافة العربية في مجال الاقتصاد قاعدة هامة هي: قاعدة الإنفاق للحيلولة دون تكديس الثروة.

و«الإنفاق» من وسائل الرواج، وانتعاش الأموال. حيث يؤدي الإمساك إلى الكساد، وإلى ركود الاقتصاد، وإلى البطالة. ويتم ذلك بفرض الزكاة والدعوة إلى الإنفاق في أوجه المصلحة العامة وعن طريق نظام الإرث وتحريم الربا. ويشكل الإنفاق حركة يطلق عليها «دورة الإنفاق» المربحة، وهي تطبق في أوقات الرخاء والكساد معاً. فالإنفاق يحقق الخير للمجتمع، ويحكم قاعدة الإنفاق مقوم أخلاقي هو مصلحة المجتمع قبل مصلحة صاحب المال ومن شأن الإنفاق تحقيق قاعدة إعادة توزيع الدخل القومي.

وتؤكد أحداث النظريات الاقتصادية أهمية الإنفاق في أوقات الأزمات: هو ما يسمى «الإنفاق في الضراء» فالأزمة الاقتصادية ترجع إلى قلة مدخول الإنفاق مما يؤدي إلى نقص الطلب وعجز الاستهلاك بالتالي، مما يتحتم معه زيادة في أوقات الكساد بالتوسع في المشروعات العامة لكي يزداد حجم المدخول، وتزداد القوة الشرائيه، فينتعش

الاستهلاك، الأمر الذي يعجل بالعودة إلى الرخاء [١].
ويحقق الإنفاق الجماعي ثمرة سريعة، فيولد دورة الإنفاق المربحة.

* * *

وترفض الثقافة العربية «الربا» رفضاً باتاً وترى أن الواقع القائم ما هو إلا اضطرار لنظم فرضها الاستعمار والرأسمالية العالمية.

والربا هو كل فائدة تنتج عن قرض المال أو المنتوجات الغذائية في التبادل التجاري. ومن أخطار الربا أنه يؤدي إلى تركيز الثروة في أيدي فئة قليلة من الناس، وحرمان المجموع منها بالتدريج، ووقوع الملايين تبعاً لذلك في العبودية، ويحرم الربا مهما كان مقداره إلا للمدين المضطر، الاضطرار الذي يدفع للهلاك، ويحلّ الله البيع ويحرم الربا. ومن المقبول تعادل القيمتين المتبادلتين، ويحرم ما عدا ذلك.

---

(١) انتفعنا في هذا الجانب بكتابات مصطفى السباعي وعبد المغني سعيد.

الباب الثاني

الثقافة العربيّة

في مواجهة الثقافة الغربيّة

الفصل الأول

الثقافة العربية في مواجهة الثقافة الغربية



عاشت (الثقافة العربية) حياتها على قاعدتين :
الأولى : النمو والحركة من خلال مصادرها ومقوماتها .
الثانية : الانفتاح على الثقافات المختلفة شرقية وغربية .

وقد واجهت عديداً من التحديات في تاريخها الطويل ، وهي تحديات المذاهب الفلسفية ، والأديان والمذاهب المختلفة التي كانت تدخل بها بلاد العالم الإسلامي من بوذية ومجوسية ووثنية وفلسفات هيلينية وهندية وفارسية . وقد تحولت هذه المذاهب والفلسفات إلى قوى غازية تمثلت في دعوات الباطنية والمانوية والقرامطة وغيرها من الدعوات التي واجهها كل من الفكر الإسلامي ، والثقافة العربية ، والتي كانت بمثابة غزو فكري شديد المراس . له مدارسه ودعاته وقواه . وأبرز مظاهره « الشعوبية » التي كانت تريد تحطيم الفكر الإسلامي بإثارة الشبهات ومحاولة تحريف القيم الأساسية . ومن هذه النظريات : محاولة إعلاء العقل إعلاءً يقضي على قيم أساسية الفكر الإسلامي هي : تكامل المعرفة القائمة على التوازن بين ثقافة القلب وثقافة العقل ، ومحاولة إدخال مفاهيم وحدة الوجود والحلول والاتحاد إلى نظرات المعرفة والتصوف ، ومحاولة فرض المنطق اليوناني ونظرية أرسطو على الفكر الإسلامي .

وقد استطاع المفكرون المسلمون العمل على تحرير الفكر الإسلامي والثقافة العربية من مثل هذه الشبهات .

واليوم تواجه الثقافة العربية مثل هذا التحدي في ظل ظروف أشد عنفاً. فقد كانت الثقافة العربية في فترة نقل الفلسفات اليونانية والهندية والفارسية تملك حريتها الكاملة في هذا المجال، وكانت قادرة على الاختيار والنقل لكل ما تراه من هذا التراث صالحاً له ونافعاً ومضيفاً إلى فكره أسلوباً ومنهجاً ومادة، وقادرة أيضاً على الرفض لما تراه معارضاً لقيمها الأساسية. ومع ذلك فقد واجه الفكر الإسلامي والثقافة العربية من جراء هذه المحاولة أخطاراً لا حد لها، وتحولات وشبهات غاية في الخطورة. وقام المجددون والمصلحون ومصححو المفاهيم من الأئمة الأعلام أمثال ابن حزم والغزالي وابن خلدون بجهد ضخم في سبيل إزالة النتائج التي ترتبت على هذه الآثار، والتي اتخذها خصوم الفكر الإسلامي والثقافة العربية وسيلة لمحاولة تدمير القيم الأساسية، وإثارة الشبهات حولها، وهي قضية ضخمة يجب أن تعرض لتكشف عن هذه الأخطار التي واجهتها الثقافة العربية ثم استطاعت التحرر منها بعد وقت ليس بالقصير.

أما اليوم فإن الثقافة العربية تواجه هذا التحدي الجديد في جو أقل تماسكاً وقوة وصموداً ـ لأنها ما تزال خارجة من مرحلة ضعف وتخلف استمرت قرنين من الزمان ـ ولأمر آخر أشد خطراً. وذلك أن يد الثقافة العربية ليست منطلقة بالحرية في أن تأخذ ما تشاء أو تدعَ ما تريد، وأن هناك قوة قاهرة تفرض عليها هذا الفكر العربي وتحميه وتدافع عنه. وقد أقامت هذه القوة القاهرة لذلك مؤسسات ثابتة لن تزول في عهد قريب. كما أقامت له وسائل حماية ضخمة من صحف ومجلات ذات شهرة، ومن كتّاب مغتربين لهم مراكز ضخمة في المجالات الثقافية والتربوية، ولهم صوت مسموع في كل ناد. هذا بالإضافة إلى ضعف جبهة المواجهة، وقوى تصحيح المفاهيم والرد على الشبهات حيث لا يجد صوتها الصدى، ولا يكاد يصل إلى الجموع العامة، وليس له مثل ذلك النفوذ. ومن هنا يبدو مدى الخطر الذي تواجهه الثقافة العربية في عصرنا الحاضر وفي ظل قوى الاستعمار ونفوذه

الاجتماعي والسياسي والثقافي المتمثل في بعض قواعد الغزو الفكري في العالم الإسلامي والبلاد العربية .

ولا شك أن هذه القوى الفكرية الغازية باسم الاستعمار الثقافي ، والغزو الفكري ، والتغريب والشعوبية ، قد بدأت تحول دون قدرة الثقافة العربية على التكامل والمقاومة ، واستكمال نفوذها وقوتها وأثرها الذي يجب أن يكون بعيد المدى في تحرير الفكر والثقافة ، والتماسها مقوماتها الأساسية القادرة على أن تمكنها الحرية والمواجهة في جو أشد ما يكون خطراً بعد نكسة حزيران ١٩٦٧ حيث يقوم النفوذ بحملات ضارية من حملات الحرب النفسية والغزو الثقافي ، وحيث تصدر اليوم صحف لامعة وكتب باهرة تحمل تلك السموم الخطيرة والبعيدة الأثر في جيلنا وأمتنا . ومن هنا كان لابد من صيحة قوية تدعو إلى تحرير الثقافة العربية من مفاهيم التغريب والشعوبية ، وشبهات المبشرين والمستشرقين ، وأباطيل الصهيونية ، وتحريفات الماسونية ، ومفاسد الشعوبية ، بالإضافة إلى وثنيات اليونان والمجوسية ، ودعوات الإلحاد والإباحة .



إن أخطر ما يواجهنا به الغزو العثماني المؤيد بالنفوذ الأجنبي الاستعماري يتمثل في عدة محاولات :

أولاً : انتزاعنا من جذورنا ، وفصلنا عن ماضينا ، وذلك بالدعوة الصاخبة إلى مخاصمة التراث الماضي والجذور ، وذلك على النحو الذي يفصلنا عن قيمنا الأساسية .

وفي هذه الحملة تتجلى جماعة التغريب في اتهام الماضي واحتقاره وإثارة الشبهات حوله ، والدعوة إلى التخلي عنه نهائياً ، وهو ما لم تفعله الثقافة الغربية التي لم تجد سبيلاً إلى بعث النهضة إلا بإحياء التراث القديم الهليني . وإعادة بعثه واعتماده أساساً عميقاً لكل ما وصلت إليه

الثقافة من تطور وحركة .

ولكن النفوذ الاستعماري لا يؤمن بالمنهج العلمي المجرد من الهوى ، فيتعامل مع تراثه بإيمان وقداسة ، ويعتبره مصدراً رئيسياً لنهضته بينما يحاول معنا إتهام تراثنا ، وإثارة الشبهات حوله ، ودعوتنا إلى إهماله والتحرر منه .

ثانياً : إثارة الدعوى القائلة بأن الثقافة إنسانية ، ولذلك فليس هناك ضرورة لقيام ثقافات قومية . لذلك فإن القول بأن العالم كله يجري نحو الوحدة الفكرية العالمية من أخطر دعوات التغريب والغزو الثقافي .

والحق أن قيم الثقافة العربية تختلف اختلافاً واضحاً عن قيم الثقافات الأخرى مستمدة جذورها من القرآن واللغة العربية والإسلام والتاريخ العربي الإسلامي ، والتراث ، ومن الذاتية العربية الواضحة المزاج النفسي والعقلي . وكذلك قيم الثقافة الغربية ذات الطابع الخاص المختلف ، بل المتباين أحياناً عن قيم الثقافة العربية ، هذه التي قامت على أسس مستمدة من المجتمع الأدبي . وقد شكلتها عوامل تاريخية مختلفة تتمثل في ذلك اللقاء بين التراث اليوناني والقانون الروماني ، والديانة المسيحية . ثم تشكلت في ذلك المزيج الذي وصف بأنه « إطار مسيحي ومضمون يوناني روماني » ثم كانت حركة لوثر وكالفن واستمدادها من الفكر الإسلامي ومحاولتها تحرير المسيحيين من نفوذ الكنيسة ، ثم ظهور الثورة الصناعية في أوروبا مستمدة من المنهج العلمي التجريبي الإسلامي ، ثم قيام الثورة الفرنسية ، كل هذا قد خلق نزعات أدبية وفلسفية كونت عناصر الثقافة الغربية ، فكانت الفلسفة المادية وليدة هذا التطور .

في ضوء هذا كله تكونت للثقافات الغربية قيم ومفاهيم تختلف كل الاختلاف عن قيم ومفاهيم الثقافة العربية ، فإذا قيل إن الثقافة « إنسانية » كان معنى هذا أن الثقافة الغربية صاحبة النفوذ الأقوى سياسياً وعسكرياً ، والمسيطرة والمحتلة للعالم العربي ، هي القادرة على أن تفرض

نفوذها وتصهر في بوتقتها الثقافة العربية، ولما كانت الثقافة العربية عميقة الجذور، ذات تاريخ عريق وماضٍ أصيل، ولما كانت هذه الثقافة ممتدة لم تتوقف ولم تنفصل عن واقع الأمة العربية، فإنه من العسير أن تنصهر في ثقافة أخرى أو تذوب في بوتقتها.



الفصل الثاني

وجوه التباين والاختلاف بين الثقافتين

٢ ـ وجوه التباين والاختلاف بين الثقافتين

تتباين طوابع الثقافات الغربية، وتختلف اختلافاً واضحاً عميقاً عن طوابع الثقافة العربية في عدد من القيم الأساسية أهمها: أولاً ـ لا ترى الثقافات الغربية أن «الدين» جزء أساسي من تكوين فكرها وثقافتها. وترى أن المسيحية الشرقية كانت عارضاً من العوارض التي التقت بها وأصابتها بالانحراف، لأنها نقلت إليها روح النسك الآسيوية، ولكن الثقافة الغربية استطاعت امتصاص هذا الرافد وصهره في روحها الأساسية التي تدين للوثنية اليونانية وحضارة روما القديمة.

بينما الثقافة العربية تؤمن بالدين جزءاً أساسياً لا ينفصل عن المجتمع.

ثانياً ـ تؤمن الثقافة الغربية بأن محتواها العلمي والأدبي والفني والصناعي إنما يهدف إلى خدمة الإنسان الأوروبي قبل غيره، وعلى حساب غيره، وليس إلى خدمة الإنسان بصفة عامة أو من حيث هو بشر.

بينما تؤمن الثقافة العربية بالطابع الإنساني، وترى أن قيمتها لخدمة البشرية جميعاً.

ثالثاً ـ تؤمن الثقافات الغربية بحلول للمشاكل على قاعدة القوة وأسلوب الميكيافيلية الذي تنفصل فيه الأخلاق عن السياسة، وعلى قاعدة الغاية التي تبرر الواسطة.

بينما تؤمن الثقافة العربية بالحلول الأخلاقية، ولا تبرر الوسيلة عندها الغاية.

رابعاً ـ تقوم الثقافة الغربية على أساس انفصال الضمير عن العلم، وسيادة المادة على الضمير. بينما تؤمن الثقافة العربية بأن الضمير أساس العلم والحضارة.

خامساً ـ الثقافات الغربية تتشكل في صورتين: صورة الفردية الرأسمالية، وصورة الجماعية الماركسية، وهما مذهبان يتنازعان ويتصارعان، بينما تقوم الثقافة العربية على أساس الجمع بين الفردية والجماعية في تناسق وتكامل وتوازن وامتزاج.

وحيث يؤمن الغرب بقداسة الفرد والشخصية الإنسانية، يؤمن الفكر الماركسي بقداسة الجماعة، ويرى الفرد ترساً في آلة.

هذا بينما تؤمن الثقافة العربية بالإنسان سيداً للكون تحت حكم الله، وعضواً مؤثراً في الجماعة، فهي لا تنكر مكانته كإنسان، ولا تنسى دوره في الجماعة.

سادساً ـ تحاول بعض المذاهب في الثقافات الأوروبية إثبات أن الإنسان عبد نزواته وغرائزه الجنسية، وأن العقل الباطن هو المسيطر الفعال في توجيه الإنسان. وبهذه النظريات أدخل الإنسان إلى حظيرة الحيوان.

وهذه المفاهيم تتعارض مع مفاهيم الثقافة العربية التي ترى للإنسان كرامة تعلو على المخلوقات جلة، وترى له سيادة تحت حكم الله ترفعه بالعقل وتكرمه بالإيمان.

سابعاً ـ تفصل مختلف مذاهب الثقافات الغربية بين الروح والمادة، والعقل والقلب، وبين الدين والحياة.

بينما تؤمن الثقافة العربية بالوحدة بين هذه العناصر والالتقاء والتوازن فيها.

كما تنكر الثقافات الغربية الغيبيات وتؤمن بمادية الحياة وبالمحسوس والملموس، بينما تؤمن الثقافة العربية بأن هناك جانباً من الحياة لا يصل إليه الحس أو النظر، ولكنه يفهم بالعقل والإيمان.

ثامناً ـ تعلي الثقافات الغربية من شأن الجنس، وتحاول أن تجعل

للاريين والبيض والغربيين استيلاءً على الساميين والملونين والشرقيين، وتحاول بهذا الإعلاء أن تجعل للاستعمار سيادة على الأمم التي وقعت تحت سيطرة الاحتلال الأجنبي. وفي هذا تختلف الثقافات الغربية عن الثقافة العربية التي ترى أن الناس سواسية كأسنان المشط. وأنه لا فضل لعربي على أعجمي، ولا أبيض على أسود إلا بالتقوى والعمل.

تاسعاً - تنظر الثقافات الغربية إلى الإسلام على أنه «دين» مثل الأديان الأخرى اللاهوتية التي تقف عند العلاقة بين الله والإنسان، بينما تنظر الثقافة العربية إلى الإسلام نظرة أكثر عمقاً وواقعية حين تراه (ليس ديناً فقط) ولكنه دين ونظام حياة وحضارة.

عاشراً - تؤمن الثقافات الغربية بما يسمى سيادة أوروبا وسيادة الغرب، وأن باقي الأجناس والقارات في الدرجة الثانية، وأن هناك حقاً مقدساً على البيض أصحاب الحضارة في السيادة على الأجناس والأمم، وحق تمدينها. وهذا هو التفسير الفلسفي للوجود الاستعماري، بينما تؤمن الثقافات العربية بأن الحضارات ليست استعماراً أو سيطرة، ولكنها إخاء ومساواة وحرية.

حادي عشر - تدعو الثقافات الغربية إلى إطلاق الحياة وتحريرها تحريراً كاملاً من كل القيود. وقد أصبحت هذه الإباحة طابع المجتمعات بالإضافة إلى الإلحاد الذي هو طابع الفكر، ويستتبع ذلك تعرية كاملة للنفس الإنسانية وإعلاء جانب الغرائز والملذات، وإطلاقها إلى آخر مدى، والعمل على كشف الجوانب الحيوانية والمادية والغريزية والجنسية، وتبرير حريتها، وتوجيه كافة المفاهيم والقيم لخدمة هذا الاتجاه.

وتختلف الثقافة العربية مع الثقافات الغربية في هذا المعنى، وترى أن لكل حرية ضوابط، وأن المجتمعات لا تستطيع أن تخرج عن مقومات أساسية قائمة على الأخلاق. وترى أن في ذلك حماية للإنسان من الانهيار

والانحلال، وترى أن الإنسان القوي الصادق هو إنسان الثقافة العربية.
إن نظرة الثقافة العربية هي نظرة منفتحة منطلقة، ولكنها لا تطلق العنان للغرائز، ولا تفتح الطريق إلى الملذات والشهوات. هذه النظرة التي تؤكد للباحثين والفلاسفة الغربيين المنصفين جميعاً حاجة الإنسانية إليها اليوم في مواجهة أزمة القيم ونمو مجال الماديات مع تجاهل حاجة النفس الإنسانية إلى الضمير والروح والأخلاقيات.

الفصل الثالث

أصول الثقافة الغربية ومصادرها

تستمد الثقافات الغربية مصادرها ومنابعها من قوى متعددة :

(١) الإغريقية الوثنية .
(٢) المسيحية الغربية .
(٣) الإسلام .
(٤) الماسونية الصهيونية .
(٥) الماركسية .



١ ـ الإغريقيّة الوثنيّة

١ـ أما الإغريقية الوثنية فهي المصدر الأساسي لهذه الثقافات، ومنها تنطلق أغلب التيارات الجديدة، وتؤكد الثقافة الغربية عراقة صلتها بثقافة اليونان القديمة، وحضارة روما. ويؤكد رجال الثقافات الغربية أنهم يستمدون غذاءهم الفكري من مآثر اليونان والرومان، وأنهم يعملون على الوفاء بما وضعته من القيم، وتؤكد الثقافة الغربية أصالتها اليونانية باعتبارها المصدر الأول والأعظم.

وتقف من المسيحية الشرقية موقفها من رافد أصابها بالانحراف، إذ اعتبرت أنها كانت دخيلة على الروح الأوروبي، وأنها نقلت إلى أوروبا (روح النسك الآسيوية). وكيف أن الثقافة الغربية استطاعت أن تنتصر عليها بعد قليل، وأن تتحرر من مفاهيمها، وكيف تمكنت الثقافة الأوروبية من ابتلاع المسيحية وامتصاصها وتمثلها. وكان في ذلك التحرر لمنطق الغرب من روح النسك الآسيوية، والتخلص من روح اللاهوت الكنسي، وكيف أن أوروبا لم تكن متدينة في وقت من الأوقات [١]. ولكن هل كان هذا حقاً؟ وأن المسيحية لم تؤثر في الثقافة الغربية تأثيراً جذرياً بعيد المدى؟ وأن المسيحية الغربية تلاقت مع الوثنية اليونانية في كثير من القيم، وخاصة في نظرية التثليث التي كانت موجودة بالفعل في الفكر الإغريقي، والفكر الفرعوني، والفكر الهندي القديم.

وقد كان يمكن أن تنصهر الثقافة بعاملي الإغريقية الوثنية والمسيحية الغربية. ولكن عاملاً خطيراً بعيد المدى ـ ربما لم يكشف عنه بوضوح حتى الآن ـ كان له أثره البعيد في تشكيل الثقافات الغربية ذلك هو روح (الفكر اليهودي الماسوني الصهيوني) الذي يمكن القول بلا مبالغة إنه كان مصدراً خطيراً وهاماً في تحول الثقافات الغربية عن مفاهيمها،

---

(١) راجع ما أورده (إسماعيل أحمد أدهم) في «عن الشرق والغرب» (الرسالة ١٩٣٦).

ثم كانت الماركسية في العصر الحديث عاملاً جديداً في الثقافة الغربية بعيد المدى.

* * *

٢ ـ ويمكن القول بأن النهضة الأوروبية في فجرها إنما قامت على أساس إحياء الروح الإغريقي بكل مقوماته، بعد أن كانت قد انفصلت عنه أكثر من ألف عام. إذ المعروف أن الدولة الرومانية قد سقطت حوالى ٤٠٠ م. وأن المسيحية قد استطاعت أن تسيطر إذ ذاك بنفوذها الغلاب إلى أن بدأت النهضة في القرن الخامس عشر عندما أرادت استحياء التراث الإغريقي، وإزاحة النفوذ المسيحي المتمثل في الكنيسة، حتى قال البعض وبحق: إن النهضة الأوروبية إنما كانت في الواقع ثورة على الكنيسة من أجل الإنسان في التفكير والحياة، وحرية الرأي [١]. ويقول (برتراند راسل) إنه في الوقت الذي كان الناس يؤمنون فيه إيماناً حقيقياً بالدين المسيحي في جميع تعاليمه وطقوسه أنشىء ديوان التفتيش، بتعذيباته فأحرقت جثث ملايين من النساء التعسات كأمثلة للعيان، واستخدم اسم الدين في كل أنواع القسوة ضد جميع صفوف الناس، ويمكن القول بأن تاريخ الفكر الأوروبي مشحون بالمصادفات وبمظاهر الطغيان على رجال الدين وتنظيم الكنيسة.

* * *

٣ ـ ويقدم الباحثون التراث الإغريقي القديم في بناء الثقافات الغربية ويضعونه في الدرجة الأولى، والمعروف أن الإغريق شعوب شمالية جاءت إلى الجنوب، فقوضت حضارة قديمة لتبني على أطلالها مدنية جديدة، ويعد من أهم مفاهيم الإغريق نظرتهم إلى الألوهية، والخالق، فإنهم تخيلوا آلهة تسرح [١] وتمرح على أولمبوس، وتتصرف تصرف البشر. ولم يشعر اليونان أمام الآلهة بنوع من الخضوع أو التطلع إلى

(١) دكتور البهي ـ الفكر الإسلامي والمجتمع المعاصر.

الرحمة، بل تعاملوا مع الآلهة وفق أسلوب الصراع، والغلب في غطرسة واستعلاء وإيمان بالسيادة على الأرض. وهم في هذا يختلفون اختلافاً بعيداً عن المسلمين الذين يؤمنون بالعبودية لإله واحد، كما أنهم يؤمنون بتأليه العقل، ويختلفون في ذلك عن المسلمين الذين يجمعون في منهج المعرفة بين العقل والإيمان. ويختلفون عن بعض الأديان التي عمدت إلى إماتة الجسد والانصراف إلى الروح الخالص. ومن هنا بدأ التناقض بين المسيحية والإغريقية في ذلك الصراع حقيقتين تتناقضان.

الأولى: تدعو إلى الزهادة الكاملة والانعزال عن الحياة، ونفض اليد عن متاع الحياة كله، بينما الإغريق يقدسون الجسد وجماله، ويندفعون إلى الغناء والرقص والشعر والتمثيل والنحت والتصوير.

٤ ـ ولعل أبرز ما يتميز به ذلك التراث الإغريقي هو قداسة الإنسان وإبراز كيانه، وإهدار جانب الروح، وقيام جو من العداء والصراع بين الآلهة والبشر، وانتقام الآلهة للبشر، وصراع الإنسان مع الآلهة، ومحاولة الانتصار عليها، وهم يتطلعون على هذا الجانب: صراع الإنسان لإثبات ذاته.

فالآلهة في مفهوم الإغريق: كالبشر تماماً. وهذه الآلهة تلهو وتعبث وتغضب وتحب وتكره، وتقترف الموبقات، ولا ترتفع عن مستوى البشر في دوافعها وأطماعها.

وقد ارتبط بالقيم الإغريقية إنكار وجود الإله الواحد، وإنكار النبوات، وإنكار الميعاد والميل إلى الحرية المنطلقة إلى درجة الإباحة والتعطيل. والفلسفة اليونانية بهذه المفاهيم تتنافى مع عقائد الإسلام وتعارضها منذ النقطة الأولى.

فالآلهة المتعددة، لا الإله الواحد، لا تميز عن البشر، وهي كعامة الناس تماماً، حتى في هيئاتها الطبيعية. والمثل الأعلى يمجد الجسم وإعلاء

---

(١) دكتور أنيس فريحة (مجلة الأبحاث ـ المجلد الأول).

شأن صاحبه الإنسان . وبذلك يقوم الفن اليوناني على تمجيد وتأليه الجمال الجسمي ، وتشير إلى ذلك أسطورة بجماليون الذي جد في صنع تمثال ، ثم ما زال يمنحه كل ما في نفسه من صور التمثال حتى نفخ فيه الحياة فهام به ، وتقطعت نفسه عليه حسرات .

كما درج الإغريق على تصوير الرجال عراة ، بالإضافة إلى شغفهم بالمصارعة ، حتى ليعدون الرقص من آلهتهم الكبرى ، فكانوا يرقصون رجالاً ونساءً في مجتمعاتهم العامة .

٥ ـ وقد تمثلت القصة الإغريقية [1] هذه الملامح جميعاً ، ملامح المثل الأعلى الإغريقي الذي امتصته الثقافات الأوروبية واعتبرته أساساً لها ، حيث تقوم المسرحية الإغريقية على الشر المحض الذي لا تلطف حدته خلجة من خلجات الخير .

وأبرز هذه الملامح : حرب طروادة الضروس التي شغل وصف أحداثها جانباً كبيراً من (الإلياذة والأوديسة) والتي طالت عشر سنوات واشتعلت نارها دون مبرر معقول . فقد اجتمعت كلمة زعماء الإغريق بعد تفرق على شن تلك الحرب الشعواء . لأن هيلانة زوجة منيلاس ، وهو من سادة القوم عشقت باريس أمير طروادة وهربت معه إلى بلده دون أن تحفظ لزوجها عهداً « وهكذا دارت هذه الحرب المدمرة في سبيل امرأة غادرة لا تستحق غير الازدراء والإهمال واصطلت الشعوب بسعيرها دون أن يكون لها فيها مصلحة أو يحفزها إليها حافز » وفي مفهوم القيم الإغريقية : أن مشكلات الإنسان الرئيسية تتولد من وقوعه فريسة لمتناقضات حياته ، وتصادم تيارات مجتمعه ، وتضارب علاقاته الاجتماعية ، وتوزيع نفسه بين الواجب وعجزه عن أدائه وبين الثورة على الظلم وعجزه عن دفعه أو وقوعه في مهب مختلف الميول والأهواء ، والمرأة الإغريقية تتصف في القصة الإغريقية بالغدر في أغلب مآسي الإغريق ، وتستسلم للرذيلة دون أية مقاومة ، وترتكب أبشع الجرائم مدفوعة بأحط

---

(١) من بحث للأستاذ مفيد الشوباشي : الأدب العربي في رحلة إلى أوروبا .

النزوات . وها هي (هيلانة) تخون زوجها في قصة طروادة وتهرب مع حبيبها دون أي تردد، أو شعور بتأنيب الضمير، فكانت سبباً في حرب أبادت شعوباً بأسرها، ودمرت بلادا عن آخرها.

وهناك قصة (الكترا) التي تعبث فيها (كلتنمرا) بقدسية الروابط العائلية، وتتخذ لها عشيقاً في غيبة زوجها (أخمن) الذي رحل على رأس الجيوش الإغريقية ليغزو (طروادة) وينتقم من أميرها، ولم تكتف (كلتنمرا) بارتكاب هذه المعصية، ولكنها أقدمت على جريرة أشد نكراً مدفوعة بشهوتها البهيمية، فقتلت زوجها البطل غدراً بالاشتراك مع (ايجست) ومن أمثلة هذه القصص الوحشية التي لا تزال تجد معجبين من بين أبناء حضارة هذه الأيام قصة: (أوديب ملكاً) التي ترجمها الدكتور طه حسين في كتابه الأدب التمثيلي اليوناني، وأبدى إعجابه بها، وقال إنها وغيرها منبع الآداب العالمية.

وقصة (أوديب ملكاً) تتلخص في أن الملك هو عدو الشعب وهو قاتل الملك. وقد تزوج أمه، وأن أبناءه في نفس الوقت هم إخوته لأمه، ثم اقتص من نفسه وفقأ عينيه بيده ونفى نفسه من المدينة، وقتلت أمه نفسها خنقاً. هذا هو طابع الأدب الإغريقي. والقصة الإغريقية تقوم في الأغلب على موضوعات شاذة غير إنسانية، ولو صح أن القصة الإغريقية حسنة الشكل، فهي ليست حسنة المضامين، وليس حسن شكلها من المقطوع به، فقد أحصى كثير من النقاد عليها تفكك بنائها الفني، وكشف عن أن أفكارها بدائية ساذجة، وأن حوارها مفتعلٌ مملٌّ، وأسلوبها طنانٌ أجوف، فهي تعكس حياة شعب طمست المعتقدات الوثنية عقله، وحجبت عنه الحقائق الواقعية، وأضعفت فيه العواطف الإنسانية النبيلة، واستثارت فيه الغلظة والميل إلى الشر، ولعل له العذر في ذلك. فإن آلهة الإغريق على الأغلب قاسية تميل إلى الانتقام، فإذا عنّ لها أن تنصف مظلوماً أو ترحم ملهوفاً اشترطت في ذلك شروطاً تجرد رحمتها وإنصافها من أية سمة إنسانية، وتحول دون تحقيق الغاية منها. وهي لا تنكل بعبادها فحسب، ولكن بعضها ينكل

ببعض، ويفتك به. وليست المقادير الرهيبة التي يقع الناس في حبائلها ولا يستطيعون منها فكاكاً إلا من تدبير هذه الآلهة. وقد قيل إن الوثنيين الإغريق فطروا على صورة آلهتهم أو على الأصح أنهم ابتدعوا آلهتهم على صورتهم.

والأدب الإغريقي يمثل كل موضوع من الموضوعات الشاذة الواردة في ملاحمه صيغ في أكثر من مسرحية (قصة الكترا) وهي أعنف مآسي الإلياذة والأوديسا، وأشدها اتصافاً بالوحشية ظفرت بالنصيب الأوفى من إعجاب كبار الكتاب الإغريق، فراح كل منهم يصوغها على طريقة مسرحية جديدة مقتصراً على تحرير بعض حواشيها دون موضوعها الأصلي. وهناك أسطورة شذت عن هذا الاتجاه، هي أسطورة بينلوب. وهذه القصة لم تحظ من المسرح الإغريقي بالاهتمام الذي حظيت به قصص الخيانة والغدر والشذوذ والقتل.

هذا هو جوهر التراث الإغريقي الذي التقى بالمزاج الأوروبي، فأصبح المصدر الأول للثقافات الغربية. ويتعصب الغربيون للأدب اليوناني ولهذه القيم ويرونها المنابع الأصيلة والأخيرة لآدابهم وفنونهم.

وقد ساقت ريح التغريب والغزو الثقافي هذه القيم إلى الثقافة العربية، وجرت محاولات ضخمة متعددة من أتباع المبشرين وأدوات الغزو الثقافي في ترجمة هذه الآثار، ومحاولة تطعيم الثقافة العربية بها على أنها تراث الأمم الناهضة التي تحمل مشعل الحضارة والتقدم. وعقّ كثير من أدبائنا فطرتهم العربية، وانقادوا وراء هذه القيم والمفاهيم، وحاولوا غزو الثقافة العربية بها، وحاول هؤلاء أن يثيروا حول هذه المفاهيم البعيدة عن القيم الإنسانية العليا جواً من الإعجاب والقداسة والادعاء بأنها منبع الآداب العالمية.

(وللثقافة العربية موقف من الفكر اليوناني والتراث الإغريقي تضمه دراسة خاصة في الفصول القادمة) ولكننا الآن بصدد أثر هذا التراث اليوناني والإغريقي في الثقافات الغربية الحديثة باعتبارها مصدراً أولاً

وأساسياً لها .

٦ ـ والتراث الروماني هو الآخر أعطى الثقافات الغربية قيماً واضحة الدلالة في المجتمع الأوروبي والحضارة الغربية المعاصرة فقد اتجهت روما إلى عبادة القوة ووضعت شعارها المعروف « روما سادة وما حولها عبيد » وعرفت بذلك النظام العسكري الوحشي ، القائم على إهدار الدماء وضروب التعذيب والأطماع الخسيسة ، والوثنية والظلم والتحكم والطغيان والاستبداد . وقد استخدموا الرقيق ليقوم لهم بالعمل ، واكتفوا هم بأعمال السيادة ، وكذلك فعل الفراعنة والإسرائيليون . وعرفت المجتمعات اليونانية والرومانية التهتك والخلاعة والفسق والانغماس في الترف والملاذ .

وقد ورث الرومان الاغريق وأغرقوا في الإيمان بالمادة ، واللذائذ الجسدية ، وتضخيم عالم الحس وإراقة الدم والقتل والتمثيل والتعذيب . أما كلمات العدل والحرية والمساواة ، فهي تنطبق عليهم وحدهم . أما غيرهم فعبيد ليست لهم حقوق ولا حريات ، والوجود عندهم هو الوجود المادي .

ولم تكن المفاهيم الروحية عندهم إلا مجموعة الطقوس والتراتيل التي تطورت إلى فن تمثيلي وثني .

٧ ـ وبالجملة فإن أساس المثل الأعلى الإغريقي والروماني « وثني خالص » . وقد اعتبرت الثقافات الغربية هذه القيم أساساً أصيلاً إلى درجة أن يقول أحد مؤرخي هذا الفكر : إن الفكر الهِليني وحده هو الذي كون العقلية الأوروبية كافة ، وإن المؤلف أو الكاتب الغربي الذي لم يتأثر بالخيال الهِليني في كتابته وتفكيره تعد منتجاته ضرباً من ضروب العامية الجافة المبتذلة . لأن المفكرين في أوروبا يؤمنون تمام الإيمان بأن ما يستمتعون به من أدب رائع وثقافة خصبة ليس له إلا منبع واحد هو التراث الهليني ..

وقد تمثلت الوثنية في عبادة الصنم وعبادة الطبيعة، وفي التثنية والتثليث. وقد وجد التثليث في الديانات القديمة: (الفرعونية والهندية واليونانية).

والوثنية هي عبادة غير الله من حجارة أو أصنام أو قوى طبيعية، أو اتخاذ البشر آلهة أو أنصاف آلهة (وقد كان اليونان والإغريق يحولون عظماءهم إلى طور الألوهية غافلين عن صفات الإله الواحد الحق الذي لا يشاركه فيها أحد) فكان عندهم من الآلهة: أفروديت لدى اليونان، ڤينوس لدى الرومان، عشتروت لدى الفينيقيين، آستر لدى البابليين، وإيزيس لدى الفراعنة.

ومن مفهوم الوثنية في الثقافة الغربية: إشراك أشياء مع الله كافتراض أن لبعض المخلوقات خواص من صفات الله، وأن لهذه المخلوقات صفة الأبدية أو القدرة والعلم، أو أن ثمة خالقاً للشر أو خالقاً للخير، أو أن للمادة والروح صفة الأبدية، أو أنها واجبة الوجود، أو اتخاذ بعض الناس بعضهم أرباباً. وقد حرر الإسلام الفكر البشري من العبودية لغير الله من جماد وحيوان ونبات وأجرام سماوية، وقوى طبيعية وارتفع بالإنسان من ذل العبودية لأخيه الإنسان، ولم يخص إنساناً بمرتبة الألوهية، ولا بمنزلة الخلود.

وبذلك حل الإسلام العقود التي طالما رسف العقل البشري فيها، والتي أعادها الفكر الغربي مرة أخرى منذ عصر النهضة، واعتبرها أساساً له، ومضى بها، ثم حاول من بعد ذلك عن طريق الاستعمار والنفوذ الأجنبي لعالم الإسلام أن يفرضها على الفكر الإسلامي والثقافات العربية والفارسية والتركية والهندية مرة أخرى.

وقد كان مفهوم الإسلام والثقافة العربية أن أول عوامل التحرر في طريق النهوض هو التحرر من الوثنية، وانطلاق العقل الإنساني من قيوده التي كبلتها بها بحسبان أن هذه الحرية هي أولى شروط النهوض بالمستوى البشري. تحرير العقل من عبودية الوثنية وإقامة قيمة عليا

أساسية هي «توحيد الله» الذي ينطوي على وحدة النوع البشري ذلك أن الاعتقاد بوحدانية الله من شأنه أن يرفع عن العقل البشري ظلم الجهل، ويزيح عن كواهله نير العبودية، ويمهد أمامه سبيل الترقي، وينطوي على معنى سام هو وحدة النوع البشري.

وقد كان كفاح الإسلام قوياً في مواجهة عبادة الأشخاص أو الذوات الشخصية[1] هادفاً إلى إشعار الإنسان بكرامته وبقيمته الذاتية. كما امتد هذا المعنى في الإسلام إلى مكافحة انقياد الفرد لفرد آخر لذاته دون رعاية لما يحمله من مبادىء عالية وافكار مثالية، وجعل حب المسلمين للرسول حباً لما يحمله من رسالة، وليس لذاته كفرد من الأفراد[2]. «قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله» وهكذا وجّه الإسلام الإنسان نحو المبدأ دون الشخص. وقد جاء الإسلام حرباً على هذه الوثنية، وهي وثنية تختلف عن وثنية العرب التي كانت قائمة على عبادة الأصنام وبعض الكواكب. وإنما عنى الإسلام وثنية الإنسان على العموم، وهي تقديس المشخص دون رعاية للمبدأ أو المثال.

وقد هاجم الإسلام الوثنية، وهاجم تعدد الآلهة. ودعا الإنسان إلى عبادة إله واحد لا يعرف شخصه، ولا تحد حقيقته لأنه فوق الطبيعة وفوق ما فيها من أشخاص وجزئيات محدودة وقد أراد أن يكون خضوع الإنسان وطاعته لغير من يجوز عليه التغير والفناء.

والوثنية تعدد للمعبود وتشخيص له، أما الإسلام فهو يرفع الفرد من عبادة الشخص المحدود إلى عبادة إله واحد. فالصراع بين الإسلام والوثنية صراع عميق الغور. ومن هنا فإن مفاهيم الثقافة العربية المستمدة من الإسلام تختلف اختلافاً جذرياً عن مفاهيم الثقافات الغربية التي تستمد جوهرها من الوثنية.

---

(١) بتصرف عن بحث للدكتور محمد البهي (الرسالة ١٩٤٥).

(٢) يراجع بحث البطولة في كتابنا (الشبهات والأخطاء الشائعة).

ولذلك فمن العسير في مفهوم الثقافة العربية قيام ما يدعى بوحدة الثقافة أو وحدة الفكر البشري.

٨ ـ لعل من خير ما يصور مفاهيم الوثنية اليونانية الرومانية، وأورده العلامة «درابر» في عبارته الجامعة يقول: لما بلغت الدولة الرومية في القوة الحربية والنفوذ السياسي أوجها، ووصلت في الحضارة إلى أقصى الدرجات هبطت في فساد الأخلاق وفي الانحطاط في الدين والتهذيب إلى أسفل الدركات كان مبدؤهم أن الحياة إنما هي فرصة للتمتع ينتقل فيها الإنسان من نعيم إلى ترف، ومن لهو إلى لذة. ولم يكن زهدهم وصومهم في بعض الأحيان إلا ليبعث على شهوة الطعام، ولم يكن اعتدالهم إلا ليطول به عمر اللذة. كانت موائدهم تزهو بأواني الفضة والذهب مرصعة بالجواهر، ويحتفي بهم خدام في ملابس جميلة خلابة، وغادات رومية حسان، وغوان عاريات كاسيات، غير متعففات تدل دلالاً. ويزيد في نعيمهم حمامات باذخة، وميادين للّهو واسعة، ومصارع يتصارع فيها الأبطال مع الأبطال أو مع السباع ولا يزالون يتصارعون حتى يخر الواحد منهم صريعاً يتخبط في دمه. وقد أدرك هؤلاء الفاتحون أنه إن كان هناك شيء يستحق العبادة فهو «القوة» لأنه بها يقدر الإنسان أن ينال الثروة التي يجمعها أصحابها بعرق الجبين وكد اليمين، وإذا غلب الإنسان في ساحة القتال بقوة ساعده فحينئذ يمكن له أن يصادر الأموال والأملاك، ويعين إيرادات الإقطاع.

هذا من ناحية (المجتمع) أما من ناحية (الدين) فيقول (ليكي) في كتابه «تاريخ الأخلاق في أوروبا»: «إن الدين الرومي كان أساسه على الأثرة، ولم يكن يرمي إلا إلى رفاهية الأفراد، وسلامهم من المصائب والمتاعب. وقد ظهر في روما مئات من الأبطال والعظماء، ولكن لم ينهض فيها زاهد في الدنيا عزوف عن ملذات الحياة، ولا تسمع في تاريخ الروم مثالاً للتضحية والإيثار إلا وتجده لا تأثير فيه للدين، ولكن

مبنيا على الوطنية » .

ويجمع الباحثون والمؤرخون على ان الظاهرة البارزة في حياة الروم، والتي أصبحت لها ديناً وشعاراً هي روح الاستعمار والنظر المادي البحت إلى الحياة، وذلك ما ورثته أوروبا المعاصرة من سلفها الروميين وخلفتهم فيه .

ويقول الراهب أوعسطين: إن الروم الوثنيين كانوا يعبدون آلهتهم في المعابد ويهزأون بهم في دور التمثيل، ومن هنا تجرأ الناس على الآلهة وأهانوها .

وأبرز مظاهر التراث الإغريقي الروماني هو الحرية الشخصية التي لا تعرف قيداً، ولا تقف عند حد. وهي التي أثرت تأثيراً سيئاً في أخلاق اليونان ومجتمعها فانتشرت الفوضى في الأخلاق، والجري وراء الشهوات العاجلة وانتهاب المسرات والتهام الحياة. والمعروف أن نظام أرسطوطاليس ـ ليس الأخلاقي ـ مبني على التمييز بين اليوناني وغير اليوناني. قال أرسطو: إن اليونانيين ينبغي لهم أن يعاملوا الأجانب بما يعاملون به البهائم .

والرومان كاليونان إيماناً بالمحسوس وغلواً في تقدير الحياة، وشكّاً في الدين واضطراباً في العقيدة، واستخفافاً بالنظام الديني وطقوسه، واعتداداً بالقوة، واحتراماً رائداً لها يبلغ درجة التقديس، وإنكار الحق للآلهة في التدخل في أمور الدنيا. ولعل مما حملهم على الاستخفاف بالنظام الديني الوثني الذي كان سائداً في روما هو أنه قائم على الخرافة والأساطير[1] .

هذه هي مجموعة المفاهيم والقيم التي ورثتها الثقافات الغربية الحديثة عن التراث الإغريقي الروماني الوثني. وقد حرص دعاة التغريب على نقل هذه القيم والفلسفات والأفكار فيما ترجموا من آثار، وفي تلك

---

(١) عن بحث للسيد أبي الحسن الندوي: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين.

الدعوة الملحة إلى الاهتمام بالتراث اليوناني والإغريقي، وتعليم اللغة اللاتينية في الجامعات. والهدف هو نقل هذه القيم إلى محيط الثقافة العربية وإغراقها بها حتى تكون مؤهلة للتخلي عن مقوماتها الإنسانية، وحتى تفتح ذلك الطريق إلى خلق مجتمع له نفس الطابع من التحلل الخلقي والديني، واطراح القيم العربية الإسلامية في مجال الثقافة والحياة.

٢ - المسيحيّة الغربيّة

والركن الثاني للثقافات الغربية الحديثة: هي المسيحية الغربية.

فالمعروف أن المسيحية - وهي الديانة السماوية التي أنزلت على السيد المسيح عيسى بن مريم في فلسطين - قد انتقلت نحو الغرب على أيدي المبشرين والدعاة إلى روما، وصارعت طويلاً حتى استطاعت أن تجد مكانها إلى جانب الوثنية اليونانية الرومانية التي كانت تمثل طابع المجتمع الروماني.

لقد وصلت المسيحية إلى أوروبا «منهجاً روحياً وإرشاداً خلقياً» حيث وجدت مجتمعاً له نظامه وأسسه من تشريع وسياسة واقتصاد. ومن ثم فقد أصبحت بمثابة إطار لهذا المضمون، وهي بطبيعتها التي تقوم على أنها «وصايا». وفي ظل نظام قائم وعميق في الغرب، لم تجد سبيلاً إلا أن تنصهر في هذا النظام دون أن تغيره.

ولقد بدا عندئذ أن هناك تقارباً واضحاً بين الوثنية الإغريقية والوثنية الفرعونية، وبين المسيحية المتحولة لا المسيحية المنزلة. وقد أشار إلى ذلك (أرنولد توينبي) حين قال: إن شخصيتي إيزيس وسيبيل تظهران في المسيحية مرة أخرى والمعروف أن إيزيس في الديانة الفرعونية وسيبيل في الديانة الإغريقية تتجليان في السيدة مريم في شخص أم الإله الكبرى، كما نشاهد تقاطيع إله الشمس في الصورة ذات الطابع الحربي التي يبدو فيها المسيح في بعض الأحيان.

ومعنى هذا أن المسيحية السماوية المنزلة الشرقية قد تحولت حين عبرت إلى روما من ديانة بسيطة توحيدية إلى ديانة وثنية تتركب من الأفكار اليونانية والبوذية والفرعونية، وذلك على يد داعيتها الكبير: بولس (١٠ ـ ٦٥م) وقد أشار إلى ذلك أرنست دي بنسين في كتابه: المسيحية والاسلام.

قال: إن العقيدة والنظام الديني الذي جاء في الإنجيل ليس هو الذي دعا إليه السيد المسيح بقوله وعمله وان مردّ النزاع القائم بين المسيحية اليوم وبين اليهود والمسلمين ليس إلى المسيح بل إلى دهاء (بولس) ذلك اليهودي والمسيحي وشرحه للصحف المقدسة على طريق التجسيم والتمثيل، وملئه هذه الصحف بالنبوءات والأمثلة.

وقال: إن بولس في تقليده لاسطفانوس داعي المذهب الإنساني قد ألصق بالمسيح التقاليد البوذية. إنه واضع ذلك المزيج من الأحاديث والأقاصيص المتعارضة التي يحتوي عليها الإنجيل اليوم، والتي تعرض المسيح في صورة لا تتفق مع التاريخ أصلاً، ليس المسيح بل بولس، والذين جاءوا بعده من الأحبار والرهبان الذين وضعوا تلك العقيدة والنظام الديني الذي تلقاه العالم المسيحي كأساس للعقيدة المسيحية الأرثوذكسية خلال ثمانية عشر قرناً» .ا هـ.

★ ★ ★

وقد كان لأولئك الرجال المتشبعين بالفكر الإغريقي أبعد الأثر في صبغ الديانة المسيحية بلونها الوثني الأسطوري، ومع ذلك فقد هاجم الفكر الأوروبي والثقافات الغربية (المسيحية) أشد هجوم وأعنفه.

ومع أن المسيحية الغربية في تقدير الباحثين والمؤرخين هي الركن الثاني للفكر الغربي، فقد ثار الفكر الأوروبي على الكنيسة وسيطرتها، وتعسف كهنتها وإن ظلت الروح المسيحية تشيع في الحياة الأوروبية.

وأما المثال الأعلى المسيحى كما يصوره واحد من الدارسين المتعمقين

فهو[1] «إن الطبيعة البشرية فاسدة أفسدتها (الخطيئة) منذ نشأتها» وما يزال الغربيون يؤمنون بالنسب الاغريقي الوثني، ويرون أن المسيحية كانت دخيلة عليهم، وأنهم لم يخضعوا لها، وإنما أخضعوها.

يقول إسماعيل أدهم[2] «قامت المدنية الرومانية على تراث الإغريق غير أن المسيحية سرعان ما غزت روما، وذهبت إليها حاملة معها نزعات المنطق الآسيوي والروح الشرقية، إلا أن الحضارة الرومانية ابتلعت المسيحية وامتصتها وتمثلتها. وكان في هذا الابتلاع والامتصاص والتمثيل بعض الخلاص لمنطق الغرب من روح النسك الآسيوية. ولو لم تكن المسيحية ديانة روحية صرفة قابلة للكثير من التفاسير مرنة بطبيعتها غير حاملة في طياتها منطق حياة اجتماعية معينة ونظم وشرائع مخصوصة لقام النضال بين منطق الغرب وأصول مجتمعه وبين روح الشرق وشرائعه التي هبت بها على أوروبا».

ويقول: «إن أوروبا[3]» اعتنقت الديانة المسيحية التي وفدت إليها من الشرق بعد أن حولتها من عقيدة تحكم ضمير الإنسان وسلوكه إلى مجرد طقوس تعبدية يلجأ إليها الإنسان ليكفر عن خطاياه أو يستدر عطف الآلهة. ولم يجعلوا للدين قط تلك الفعالية اليقظة التي تيسر أعمال الإنسان كما هو الشأن في الإسلام.

«وقد حاولت الكنيسة الكاثوليكية في العصور الوسطى بواسطة الباباوات، أن تمكن للدين في قلوب الناس وتصرفاتهم فقيدت ذلك بقيود تعسفية، لم يلبث العقل الأوروبي حين تفتح في عصر النهضة أن رفض الدين المسيحي كله. وهكذا عادت أوروبا من جديد إلى حالتها الأولى من الوثنية، وخلقت آلهة جديدة تسميها تارة العقل وأخرى العلم، وأخيراً الإنسان. وعادت عقلية أوروبا وحضارتها إلى جذورها الأرضية، وقطعت علاقاتها الروحية بالسماء».

---

(١) من بحث للدكتور محمد مندور.
(٢)و(٣) مجلة الرسالة م ١٩٣٥

وهذه شهادة منصف لأوروبا، وموقفها الحق من المسيحية الإلٓهية.

ويقول روبرت بالمر في كتابه (تاريخ العالم الحديث): أخذت المسيحية تحت زعامة (بولس) الذي ينتمي إلى ميلاد يهودي وجنسية رومانية وثقافة إغريقية تحصل على أتباع جدد، وكان هؤلاء يدخلون في هذا الدين الجديد غير مكترثين بدينهم القديم.

وقد انتشرت المسيحية في البداية بين الفقراء والمحرومين من بهاء الحياة الإغريقية وزهو الحياة الرومانية أو من المستعبدين الذين لم يكن لهم إلا رجاء المسرة على الأقل في العالم الباقي، ثم أخذت تنتشر شيئاً فشيئاً بين أفراد الطبقات الأخرى. وقد لقيت موجة عارمة من الاضطرابات والفتن حتى القرن الرابع (٣١٢ م) حينما دخل الإمبراطور قسطنطين في الديانة المسيحية، ولم يكد يحل القرن الخامس حتى أصبح جميع العالم الروماني يدين بالمسيحية رسمياً. وقد دخل في المسيحية المفكرون والرجال الذين أخذوا على عاتقهم توحيد المعتقدات المسيحية مع الفكر الإغريقي الروماني التقليدي وفلسفته التي مر عليها ألف عام «وكانت أهمية المسيحية في المجتمع الروماني أنها جلبت مفهوماً جديداً للحياة البشرية، فبينما قاد الإغريق الإنسان إلى عقله، فإن المسيحية دلته على روحه، وعلمته أن الأرواح قيم متساوية في نظر الله. وأن كل نفس بشرية مقدسة وطاهرة، وبينما عرف الإغريق جمال الجسد عرفت المسيحية جمال الروح، وآمن المسيحيون بأن الله هو الحب، ودعا المسيحيون إلى التحسس بالألم على أساس أنه صفة آلهية لأن الله نفسه (أي المسيح) قاسى الآلام بهيئة الإنسان على الصليب[1].

ولم يلبث المسيحيون أن استبدلوا القناعة الذاتية بثمرات الأعمال البشرية التي كان يؤمن بها الإغريق والوثنيون بأن أخذوا يعلمون الناس الخشوع والتواضع لله. وقد اختفت بفضل المسيحية عقائد الوثنيين في آلهتهم المحلية أو القبلية، أو القومية، وأصبح على جميع العالم أن يعتقد

(١) في مفهوم الإسلام: إعلاء للسيد المسيح النبي المرسل عن الصلب.

بإله واحد وطريق واحد للخلاص من الآثام.

ولم يكن في نظر الوثنيين فارق واضح بين الآلهة والناس، فبعض الآلهة يتصرفون كالناس، وبعض الناس أكثر شبهاً بالآلهة من غيرهم. فالإمبراطور كان يعد في الحقيقة إلهاً: «الآله قيصر». وقد أقيمت العبادة للقيصر على أنه ضرورة لإدامة الدولة التي كانت هي العالم نفسه، وقد رفض المسيحيون ذلك بشدة، وامتنعوا عن قبوله.

وقد عرض القديس أوغسطين العقيدة المسيحية بصورة منظمة وواضحة في كتابه مدينة الله (٤٢٠ م) قال المسيح: أعط لقيصر ما لقيصر، وما لله لله. وكان لهذه العقيدة أثرها في تطور الحضارة الغربية. كان العالم: عالم القيصر في عهد القديس أوغسطين قد أشرف على الانهيار، فقد نهب البرابرة الوثنيون روما نفسها عام (٤١٠ م) وكتب أوغسطين كتابه في ظل هذه الحادثة ليطلع الناس بأنه وإن كان العالم قد تلاشى، فإن هناك عالماً آخر أكثر خلوداً وأهمية. وقال: إنه يوجد في الحقيقة مدينتان: المدينة الأرضية والمدينة السماوية،. فمدينة الإنسان زائلة، ومدينة الله هي الخالدة. والمدينة الأرضية هي ملك الدولة والإمبراطورية. وقال إن الإمبراطور إنسان. والحكومة ليست أزلية ومطلقة التصرف، وأنها تقاضي وتصلح، وهي خاضعة في الواقع بطريقة ما إلى قوة روحية عليا، وأن هذه القوة تقع في مدينة الله، ونجا العالم الغربي بهذه الثنائية المسيحية من البابوية والقيصرية.
(cacsarpopism) التي يجمع فيها شخص واحد سلطتي الحكم والبابا، أي السلطتين المدنية والدنيوية. ولم تلبث السلطة الروحية والسلطة السياسية أن انفصلتا إحداهما عن الأخرى وأسقطتا وبدأ الخلاف بين البابوات والملوك.. اهـ.

لقد حاول (روبرت بالمر) أن يصور مدى تأثير المسيحية في الوثنية، والوثنية في المسيحية، وهو ما عرف من بعد (بإطار من المسيحية ومضمون من الوثنية اليونانية الرومانية) على النحو الذي أصبح يمثل

ركيزة أساسية في الثقافات الغربية الحديثة. وهذا هو ما حاول تصويره «توينبي» حين قال: لقد كانت المسيحية لامتزاج الحضارتين: اليهودية واليونانية، حيث لم تستطع المسيحية أن تصبح دولة خلال عمر المسيح أو بولس، لأنها نشأت داخل تخوم دولة عالمية موجودة آنذاك هي الامبراطورية الرومانية. وقد استغرق تمسيح هذه الإمبراطورية من الكنيسة الكاثوليكية مدة ثلاثمائة سنة.

ويكاد الباحثون جميعاً والمتخصصون منهم يجمعون على أن المسيحية الغربية هي منظومة خاصة جامعة بين المسيحية الشرقية والوثنية الفرعونية والتراث الإغريقي.

يقول سلامة موسى «الديانة المسيحية مؤلفة من عنصرين»:

أحدهما خاص باللاهوت، والآخر خاص بالأخلاق. فالأول: وهو اللاهوت يرجع الفضل فيه إلى المصريين. فإن النظريات الخاصة بالثالوث المقدس أو التجسد أو البعث هي نفسها النظريات التي كانت شائعة عند المصريين. فإن الربة (السيس) هي العذراء التي تلد «هورس» من رب الأرباب «أوزوريس» ويمكن أن تتبع تطور الفن المسيحي من مصر إلى روما حتى تصير «السيس» وابنها (هورس) كلاهما مريم وابنها المسيح. هذا من حيث اللاهوت. أما من حيث الآداب المسيحية فالفضل يرجع إلى الإغريق، فإن من يقرأ مجادلات الرسل يشعر بالروح الإغريقية التي كانوا متشبعين بها في تبشيرهم الأمم الوثنية. ويكشف البحث عن علاقة واضحة بين الفرعونية والوثنية اليونانية، وبين المسيحية الغربية.

فقد حملت المسيحية كثيرا من الروح المصرية القديمة نتيجة لأن الكنيسة الأولى للعهد الأول للمسيح استمدت تعاليمها من مصدرين: إنطاكية والإسكندرية. ويبدو هذا التشابه في مواقف عديدة.

(أولا) في التثليث يقول جوستاف لوبون: إن أغلب آلهة المصريين في شكل الثالوث الأقدس. هذا الثالوث يتألف من الأب والأم

والابن، وكل مدينة تعبد خاصة أحد هؤلاء الثلاثة. ولكن هناك ثالوثاً واحداً بينها كانت ديانة عامة في وادي النيل هي (أوزيوريس وإيزيس وهورس)

١ ـ الإكليروس: كان نظام الإكليروس أو توظيف رجال الدين قائماً في الفرعونية كما هو في النصرانية. وكان للمعابد الكبيرة ولرؤساء الكهنة حرس خاص وفق نظام الميليشيا لتنفيذ أوامره. كما كان موجوداً عند بابوات القرون الوسطى كما لا يزال موجوداً في الفاتيكان.

٢ ـ نظام الطبقات: يقوم في الديانة الفرعونية على أساس ١ الكهنة والأسرة المالكة ٢ الكتاب والمشائين.

٣ ـ الجنود ورجال الجيش.

٤ ـ الفلاحون والعمال وصغار الموظفين.

وكان هذا مشابهاً للنظام المسيحي الأوروبي. فقد كانت طبقات أوروبا في القرون الوسطى وعهد الإقطاعات تنقسم إلى طبقتين: الأشراف ورجال الدين، ثم الأجراء والعبيد.

٥ ـ صكوك الغفران: كانت معروفة في وثنية الفراعنة، ثم عرفت في النصرانية.

٦ ـ المرأة والوظائف الدينية: الفرعونية والنصرانية اشتركتا في إدخال المرأة في حظيرة المهام الدينية فتولت الكثير من الأعمال في معابد آلهة المصريين القديمة.

٧ ـ القربان والمعابد: اتفقت العقيدتان في مسألة القربان وقداسته وهو نوع من الوسيلة والوساطة.

٨ ـ الموسيقى والأناشيد.

٩ ـ الخمر والخنزير: كانت مباحة عند المصريين القدماء.

١٠ ـ توابيت الموتى: كانت توابيت الموتى من أنظمة ديانات قدماء المصريين.

١١ ـ العلامات والرموز: أشار الدكتور جورجي إلى أن الفنون تظهر العلاقات الشديدة بالفن المصري القديم.

١٢ ـ اللغة: ظهر ارتباط لا ينفصم بين الديانة القديمة وبين النصرانية في مصر هو اللغة (الهيروغليفية العامة). ويصدق في هذا قول العلامة توينبي: إن المسيحية التي لا يمكننا أن ننازع في حيويتها كانت تركيباً متألقاً جسوراً بين اللاهوت اليهودي والفلسفة الإغريقية.

* * *

ولعل أبرز مفاهيم المسيحية الغربية هي (الخطيئة) ويتلخص هذا المعنى في العقيدة المسيحية أن الله تعالى لما خلق آدم من تراب، وأسكنه وزوجه الجنة أذلهما الشيطان بالمعصية. هذه المعصية كما يقول الإسلام تطلق عليها في المسيحية كلمة «الخطيئة». وعندهم أن البشر واقعون جميعاً منذ آدم إلى اليوم تحت سلطان هذه الخطيئة، وأن فداء هذه الخطيئة هو المسيح الذي افتدى البشرية بالموت على الصليب مكفراً عن هذه الخطيئة.

أما الإسلام فلا يرى هذا المفهوم، ويصور عمل آدم بأنه معصية، وأن الله قد تاب على آدم وغفر له معصيته التي لا ذنب للبشرية فيها، ولا عقوبة عليها نتيجة لها. فليس في الإسلام خطيئة موروثة في الإنسان قبل ولادته، يحتاج في التوبة عنها إلى كفارة من غيره.

ولا شك أن ألفاظ ومفاهيم: الخطيئة والصلب والفداء والخلاص لا تحمل في مفهوم الثقافة العربية نفس المفهوم الذي تحمله في عبارات المسيحية الغربية.

من أهم معالم المسيحية الغربية الكنيسة، ولها دورها التاريخي في الثقافات الأوروبية. ويرى الأب لويس شيخو اليسوعي في كتابه (خلاصة الدين المسيحي[1]) أن معنى كلمة(church) في المسيحية ليس مقتصراً على دور العبادة المسيحية فقط، بل تفيد «المجتمع المسيحي» بأسره بعلاقاته المادية والمعنوية، إذ يرتبط أعضاء ذلك المجتمع بالسيد المسيح رأس الكنيسة الأوحد عن طريق الإيمان. أما كلمة كاثوليكية فيقصد بها الرسالة العالمية. ولم تكن التسمية الأخيرة مقتصرة على كنيسة روما في بداية الأمر إلا أنها أصبحت كذلك تمييزاً لروما الكنائس الشرقية خاصة كنيسة القسطنطينية الأرثوذكسية منذ عام ١٠٥٤ بشكل قاطع.

ويرتكز الدين المسيحي بصورة عامة على ما جاء في العهدين القديم والجديد، وعلى ما تناقلته الألسنة مما لا يكتب. وتدور العقيدة المسيحية حول الخطيئة الأولى خطيئة آدم حينما عصى ربه فعوقب بالسقوط إلى الأرض، وتعرض لغضب الله فعوقب بالأمراض والموت، ثم شمل الغضب ذرية الإنسان. وهكذا أصبحت خطيئة آدم متوارثة في نسله. هذا ويعتقد أن كافة الأنبياء والرسل الذين جاءوا قبل المسيح مهمتهم الإعداد لإنقاذ البشرية من الخطيئة والتمهيد لظهور المسيح.

وتعتمد الكنيسة في عملية الإنقاذ على رموز دينية تشاركها بالاسرار السبعة(Sacranents) وسميت بالأسرار لأنها صلات الوصل الخفية التي توطد الرابطة بين المسيح وأتباعه.

والأسرار السبعة قد تبلورت نهائياً في العالم الغربي في منتصف القرن الثاني عشر حين عالجها (بطرس لمبارد) أحد أساتذة اللاهوت في باريس ١١٦٤ م في كتابه الآراء وعن طريق ممارسة تلك الأسرار تختص الكنيسة، وجعلت هذه الأسرار سبعاً حددها المسيح نفسه، ولأن حياة

(١) عن كتاب العصور الوسطى الأوروبية: د. عبد القادر أحمد يوسف.

الإنسان الروحية كحياته الجسدية تتطلب هذا العدد. وأهم هذه الاسرار التعميد وهو السر الذي قصد به إزالة الخطيئة الأولى، ومنح الولادة الروحية الثانية، ويتم ذلك عن طريق الماء عادة بالرش أو الغسل أو التغطيس.

ويصور المؤرخون الكنيسة الكاثوليكية في العصر الوسيط بأنها أشبه بحكومة ملكية حيث يقف البابا على قمتها، وهو السيد المطلق في الشؤون الروحانية والمشرّع الأعلى. وليس هناك من مجلس مهما سمت منزلته له حق أن يشرع قوانين ضد إرادته، وأن كل تشريع يعتمد على موافقته، ويمكن للبابا إلغاء أي قانون مهما كان قديماً لم يشر إليه في الإنجيل ويساعد البابا مجلس من الكرادلة (جمع كردينال).

وللكنيسة مجموعة شرائع قانونية استندت على مقررات المجالس الدينية العالمية منذ مؤتمر نيقا عام ٣٢٥م وما بعده وعلى القرارات البابوية. ويمكن للبابا أن يصدر عقوبة التحريم (Excommunication) يقاطع بموجبها من صدرت بحقه دينياً ودنيوياً. وقد يفرض البابا عقوبات التحريم ضد مدن وأقطار بكاملها. وقد بلغت الكنيسة الغربية درجة كبيرة من القوة في أواخر القرن الثاني عشر وأوائل القرن الثالث عشر حيث توضحت في سياسة البابا (أنوسنت الثالث) وظهور فرقتي الفريسيسكان والدومنيكان ونشاط الأديرة النسائية ومحاكم التفتيش. وفي عهد أنوسنت الثالث (١١٩٨ - ١٢١٦) بلغ نفوذ الكنيسة أعلى مراحله حيث تمكنت من فرض سطوتها على عدة ملوك في أوروبا، وأصبحت ممالكهم تابعة بالمعنى الإقطاعي للبابوية وهم ملوك (إنجلترا - البرتغال - الأراغون)

ولم يكن يعترف بأية سلطة دنيوية مساوية لسلطة الكنيسة إقرار بالقاعدة التي تقول: إن المسيح ترك لبطرس الكنيسة والسلطة على كافة العالم، وإن البابا هو وريث صلاحيات كل من القديس بطرس وقسطنطين الكبير.

ومن المعترف به إذ ذاك أن السلطة البابوية أسمى من السلطة

السياسية. وقد اتخذت قرارات هامة تتعلق بوحدة العالم المسيحي، ومحاربة البدع الدينية دون هوادة. وكان من أبرز أعمال البابوية والكنيسة: الدعوة والإعداد والدعم للحملات الصليبية التي شنت على العالم الإسلامي خلال مائتي عام تقريباً تحت شعار« ما جئت لألقي على الأرض سلاماً بل سيفاً».

ويجمع المؤرخون أن المسيح لم يفكر في إنشاء كنيسة، وإقامة كهنة عليها وإنما جاءت هذه الفكرة من «بولس» حتى يصلوا إلى القول بأن المسيحية الفاشية الآن ومنذ القرن الأول المسيحي هي «مسيحية بولس»: على حد قول التعبير السائد «الدين للمسيح والكنيسة لبولس». وأصبح البابوات خلفاء المسيح. وهناك شبه إجماع على أنه لما ظهرت المسيحية دخلتها طائفة كبيرة من العقائد الفاشية في ذلك الوقت. ومنها فكرة الثالوث (الأب - الإبن - الروح القدس) التي كانت فاشية عند الوثنيين، وعنهم أخذها المسيحيون.

وقد جرى خلاف واسع وعميق حول القول بطبيعة وحدة المسيح، حتى اصطدم القائلون بمدرسة الإسكندرية، فالتقى التفكير السامي القائل بالطبيعة الواحدة مع التفكير الروماني الوثني القائل بألوهية البشر، فتلقحت بفكرة التثليث أخذاً من الوثنيين الفرعونية (إيزيس - إيزوريس - هورس). وكان الراهب أثناسيوس (٣٢٦ - ٢٧٣) هو الذي نشر فكرة التثليث. وكان نصارى الساميين يكرهون التماثيل، وقد ظل الأمر كذلك خلافاً على طبيعة المسيح حتى تقرر بأن للمسيح أكثر من طبيعة واحدة، ثم تقررت ألوهية المسيح في هذه المجامع المتعددة التي فرضت مقرراتها دون مناقشة، كما تقرر أن تعاليم الدين لا يمكن أن يتلقاها الناس من كتب المسيحية رأساً ولا بد من تلقيها من أفواه رجال الكنيسة.

بل إن الإمبراطور قسطنطين منع الكتب التي تخالف ذلك، وأمر بحرقها. ثم برز بصورة واضحة أن الفكر المسيحي الغربي يجري في ضوء ما ترسمه الكنيسة.

على ضوء هذه الآراء يرى الكثيرون: أن المسيحية (المسيحية الغربية بالطبع) جاءت متممة للحضارة الهلينية، وامتداداً لها. يقول أنسي الحاج[1]: إن المسيحية كما طبقت كانت إغريقية رغم ما فيها من عبريات وإن المسيحية لم تكن ثورة، وإنما كانت امتداداً وإنعاشاً لحضارة سابقة. لذلك لم تر مانعاً من أن تقتبس الكثير من الوثنية.

ويقول الدكتور علي العناني: إنه نشأ مع العقيدة المسيحية في أول ظهورها الخلاف الطبيعي في الرأي، ودخلت عليها التأويلات في المسائل، والتحليلات في الآراء اليهودية واليونانية. وكان من نتيجة ذلك تلك الاضطهادات الدامية والحملات الفتاكة

ويقول العلامة (درابر في كتابه: النزاع بين الدين والعلم) امتزجت الوثنية بالنصرانية. ونشأ من ذلك دين جديد تتجلى فيه النصرانية والوثنية.

وهنا يختلف الإسلام عن النصرانية. إذ قضى الإسلام على منافسة الوثنية قضاءً تاماً، بينما عمل قسطنطين على مزج الوثنية بالمسيحية لمصلحة الحزبين المتنافسين: النصراني، والوثني في التأليف بينهما، حيث كانوا يعتقدون أن الديانة الجديدة ستزدهر إذا طلعت بالعقائد الوثنية القديمة.

ولقد كانت الشريعة في المسيحية الأوروبية يحكمها القانون الروماني. أما الكهنة فقد احتجزوا لأنفسهم ملكوت السماء وفرضت الكنيسة ضرائب مالية وعقلية وروحية فادحة، ثم كان التعذيب والحرمان لكل دعاة العلم النظري والتجريبي (جرادنو برونو - كوبر نيكوس - چاليلو) هذا بالإضافة إلى صكوك الغفران.

يبدو أن العقلية الأوروبية لم تتقبل المسيحية تقبلاً كاملاً، أو

---

(١) مجلة أدب: (ج٧) ١٩٦٣.

تقبلاً صحيحاً بالرغم من أنها لم تظهر بصورة صحيحة. وذلك أن الروح الإغريقية الرومانية الوثنية لم تلبث أن قاومت المسيحية والكنيسة جميعاً.

يقول إسماعيل إبراهيم أحمد: كانت العقلية الغربية رازحة تحت كاهل اللاهوت الكنسي الذي قام بروما رقيباً على النفوس والعقول محملاً بكل سيئات روح النسك الآسيوية. غير أن العقلية الجرمانية لم ترَ في رقابة روما، وتسلط البابا إلا روحاً آسيوية بعيدة عن طبيعة الذهن الغربي، فعملت الجهد على تقطيع أوصالها. وبدأ الصراع بين الذهنية الجرمانية الخاصة ممثلة العقلية الأوروبية، وبين العقلية البابوية التي تحمل في طياتها شيئاً من روح النسك الآسيوية. يقول درايبر: دخلت الوثنية والشرك في النصرانية بتأثير المنافقين الذين تقلدوا وظائف خطيرة، ومناصب عالية في الدولة الرومية لتظاهرهم بالنصرانية. ولم يكونوا يحتفلون بأمر الدين، ولم يخلصوا له يوماً من الأيام. وكذلك كان قسطنطين قد قضى عمره في الظلم والفجور، ولم يتقيد بأوامر الكنيسة الدينية إلا قليلاً في آخر عمره ٣٣٧ م.

إن الجماعة النصرانية، وإن كانت قد بلغت من القوة بحيث ولّت قسطنطين الملك، فإنها لم تتمكن أن تقطع دابر الوثنية، وتقتلع جرثومتها. وكان نتيجة كفاحها أن اختلفت مبادئها، ونشأ من ذلك دين جديد تتجلى فيه النصرانية والوثنية سواء بسواء. هناك يختلف الإسلام عن النصرانية. وإن هذا الإمبراطور الذي كان عبداً للدنيا، والذي لم تكن عقائده الدينية تساوي شيئاً. رأى لمصلحته الشخصية، ولمصلحة الحزبين المتنافسين: النصراني والوثني. أن يوحدهما ويؤلف بينهما حتى أن النصارى الراسخين أيضاً لم ينكروا عليه هذه الخطة، ولعلهم كانوا يعتقدون أن الديانة الجديدة ستزدهر إذا طعمت ولقحت بالعقائد الوثنية القديمة، وأن الدين النصراني سيتخلص آخر الأمر من أوزار الوثنية وأرجاسها.

ويصور سلامة موسى دور الكنيسة بأنه كان دور تسلط وحجز. يقول: كلما ذكر الإنسان القرون الوسطى خطر للذهن تسلط الكنيسة على التفكير، وحجزها على الحرية الذهنية. وليس من شك في هذا التسلط وهذا الحجز فمنذ القرون الأولى للمسيحية أخذ الناس يدرسون لغاية واحدة هي: خدمة الدين. وعندئذ أصبح الرجل المثقف راهباً، وهو يفعل هذا لأن الكنيسة تمنعه من درس الطبيعة او العلم.

مهدت المسيحية لفصل الأخلاق عن السياسة، لأنها جعلت حياة الإنسان الحقيقية ليست في هذه الدنيا وإنما في العالم الآخر. فالحياة الدنيا زائلة فانية، والحياة الأخرى هي الخالدة الباقية. وحياة الإنسان الدنيوية هي بمثابة إعداد وتجربة وقيمها رهن بالعناية التي يتم بها هذا الإعداد.

ومنذ عصر إحياء العلوم قطعت الصلة بين التفكير السياسي، والتفكير الأخلاقي، وصار ما كان يراه اليونان وحدة لا تنفصم عروتها فرعين مختلفين من فروع التفكير. وقد حرص الفكر اليوناني على استدامة العلاقة بين الأخلاق والسياسة والإبقاء عليها. ولكن مجيء المسيحية وجعلها أساس الحياة في الحياة الأخرى، وذهابها إلى أن مدينة الله هي منزل القدس. ولتهوين الروح أمر المدنية السياسية، كل ذلك مهد السبيل لهذا الانفصال ثم ظهرت البروتستانتية فأتمته وتوفرت الفلسفة الأخلاقية على بحث معنى الخير والشر، ومقياس السلوك الحسن، والخلق الفاضل.

٤ ـ النهضة

بدأت النهضة الأوروبية بالثورة على المسيحية، والعودة إلى الديمقراطية، وإعلان أن المسيحية الغربية كانت عائقاً يجب التخلص منه، وإزاحته من طريق الثورة العلمية.

وقد صور ليكي في كتابه (تاريخ أخلاق اوروبا) هذا التحول فأشار

إلى أن المسيحية الغربية حين دخلت على الحياة الأوروبية أثارت تأثرات جديدة قوامها الزهادة الروحية التي جعلت قوامها الرهبانية وأقامت مفاهيمها على أساس تعذيب الجسم كوسيلة لمقاومة شره المادية الرديئة، أو كبح جماحها وغلوائها. وقد جاءت المسيحية الرومية بنظام مخالف للفطرة، مما حمل النفوس ما لا طاقة لها به. وقد دفعت مفاهيم الرهبانية الناس إلى كراهية الحياة والانصراف عنها، وزلزلت القيم الطبيعية للمجتمعات الإنسانية. فقد كانوا يعدون حرية الجسم وحقوقه منافية لنقاء الروح. وأصبح في نظرهم أن أزهد الناس هم أبعدهم عن الطهارة والنظافة. ومضى الرهبان ينشرون شعرهم الطويل، ويمشون على أيديهم وأرجلهم كالأنعام. وزاد عدد الرهبان زيادة عظيمة، وعظم شأنهم، واستفحل أمرهم، فاسترعوا الأنظار، وشغلوا الناس وكان يجتمع في أيام الفصح منهم أكثر من خمسين ألفاً.

وكان هذا هو أحد مصادر رد الفعل العنيفة التي دفعت الأوروبيين إلى التخلص من المسيحية وتغليب المادة الطاغية. هذا فضلاً عن أن حركة الزهد هذه لم تحقق نتيجة ما للمجتمع إذ كانت تعتزل في الصحارى والخلوات، بينما كانت تعج بالفجور والإباحة. هذا ومن ناحية أخرى فقد أدخل رجال الدين في كتبهم المقدسة معلومات[1] بشرية ومسلمات عصرية عن التاريخ والجغرافيا والعلوم العصرية، ربما كانت أقصى الكنيسة الكاثوليكية، ولا تعترف بها الكنيسة البروتستانتية، وهي الأسفار الأبوكريفية. وقد كتبت التوراة أول ما كتبت باللغة العبرية القديمة، واللغة الكوئينية أي الإغريقية، إلا أنه عاش أكثر ما عاش في الترجمة. وقد وصفت الترجمات كلها بأنها ناقصة قاصرة، وكانت طريق المترجمين محفوفة بالمخاطر والصعوبات. ويجمع الباحثون على أن تأليف التوراة يرجع إلى ما قبل المسيح، وأن أسفار التوراة من شعر وقصص وأمثال وتاريخ وتعليم ديني، كانت في بادىء أمرها روايات

(١) الندوي: ماذا خسر العالم.

شفهية متداولة جيلاً بعد جيل، إلى أن قيض لها أن تدون في حدود عام ٤٤٠ م قبل الميلاد، ولكن الذين دونوها لم يرتبوا المواد ترتيباً زمنياً.

ويصور الكتاب (التوراة) بأنها أشبه بملحمة كتبها العبرانيون[١] من وجهة نظرهم الخاص.

ويقول الدكتور صروف [٢] انه لا يعلم من كتب التوراة أول مرة، ولا الزمن الذي كتبت فيه أولاً. ويقول: والظاهر أن موسى كتب بعض فصولها. وقد كانت الكتابة معروفة في عهده، فإنه وجد في الآثار المصرية درج من البردى في عهد الدولة الحادية عشرة التي كانت قبل عهد موسى بمئات السنين. أما الإنجيل فالظاهر مما قاله الأسقف (پابيناس) الذي كان في النصف الأول من القرن الثاني المسيحي أن مرقص كان يكتب ما رواه بطرس فيكتب بالتدقيق كل ما يذكره مما قاله المسيح أو فعله من غير أن يراعي في ذلك الترتيب التاريخي، وكان ذلك باللغة الآرامية. ثم ترجم ما كتبه باللغة اليونانية، ونشأت من ذلك الأناجيل الأربعة، والظاهر أنها كتبت في عهد الرسل. وكان استعمال ورق البردى قد شاع حينئذ، وكتب عليه اليونان بلغتهم، فلا يبعد أن يكون الإنجيل كتب على ورق البردى أولاً، ولكن رقوق الجلد استعملت قبل ذلك للكتابة. وأقدم ما يوجد من نسخ الأناجيل إنما كتب في القرن الرابع المسيحي.

وقد تبين من جميع النصوص والدراسات التي رجعنا إليها أن التوراة كتاب بشري، كتبته أقلام القديسين. ولا تشير هذه النصوص ولو على سبيل الشك إلى أن الكتاب المقدس الموجود في أيدينا اليوم منزل من السماء.

وقد أدت الدراسات التي أجراها المفكرون الغربيون وعلماء اللاهوت إلى اكتشاف كثير من الأغلاط والتغيير والتحريف، وإضافة هوامش

---

(١) أنيس فريحة ـ مجلة الأبحاث ١٩٥٩.

(٢) المقتطف أغسطس ١٩٢٤.

المعلقين، وحشرها في المتن - ١ - هـ.

ويقول الدكتور أنيس فريحة: إن التوراة لم تعد في نظرهم كتاب علم وتشريع، بل ترك العلم والتشريع للإنسان، وتخلص الأوروبيون من تقديس الحرف، وأشار إلى التناقض الواضح بين ما أثبته العلم وما جاء في التوراة، مما أثار شكاً وقلقاً روحياً عند المؤمنين، وكان تطبيق قواعد النقد الأولى على التوراة ذات أثر مباشر للثورة الإنجيلية ضد الكنيسة البابوية، التي كانت تهدف إلى التخلص من شريعة التقليد الكنسي.

وأشار الدكتور أنيس إلى أن أحد أسفار التوراة وهو سفر (نشيد الإنشاد) هو قصة غرامية عنيفة بطلها راع يخطف فتاة لترسل إلى قصر الملك، وهو رمز لزواج يهودي من شعب إسرائيل. وعند ظهور المسيحية عزي الرمز إلى زواج المسيح من كنيسته.

أما المزامير فهي مجموعة من الشعر الديني العميق العاطفة ينسبونها إلى داود، وهناك شك في صلتها بروحه أو كلامه. ويقول الدكتور أنيس: إن التوراة اعتبرت «أدباً» في نظر الباحثين، أو قسماً كبيراً منها. ويرى بعض النقاد أنها دراما بطلها يهوه. ويبدأ الفصل الأول بقضية الخليقة، وظهور الإنسان الأول، فيقع في الخطيئة، ويطرد من الفردوس. ويرى قسم منها أنها أقرب إلى الملحمة، ملحمة الخلاص. وقال إنه من نتائج الدراسات النقدية للتوراة أن أخذ الإنسان في إعادة النظر في نشأة الدين، وأشار إلى أن دراسات التوراة والكتاب المقدس قد وقعت تحت تأثير علماء التلمود. وأنه قد ظهر رد فعل على تهويد هذه الدراسات.

وأرجع الكاتب الاضطراب في النص التوراتي إلى صعوبة الحرف العبري، وتشابكه وأشكاله «فإن حروفاً كثيرة تختلط أشكالها على الناسخ إذا كان الكاتب الذي ينسخ عنه لم يحسن رسم الحرف. هذا بالإضافة

إلى هوامش المعلقين والشراح التي كانت تحشر أحياناً في المتن. ولم ينج نص التوراة من كل هذه الآفات فجاء نصاً مشوهاً قلقاً غامضاً في كثير من الأسفار.

وقال: إن التناقض الواضح بين ما أثبته العلم، وما جاء في التوراة قد أوجد شكاً وقلقاً روحياً. فقد قالت التوراة إن الأرض ثابتة.

وأشار أنيس فريحة إلى ما أصاب التوراة من تغيير وتحريف. وقال إن هناك أغلاطاً مصدرها السهو والكسل والملل، أو ضعف النظر. وإذا كان الناسخ غير-أمين في عمله عندما تعرض كلمة لا يستطيع قراءتها فإنه يعمد إلى تغيير الكلمة أو تحوير النص بكامله ليستقيم المعنى [(١)].

* * *

أما بالنسبة للأناجيل بعد (إنجيل متى) أقدم الأناجيل، فقد كتب سنة ٦٠ بعد الميلاد باللهجة الآرامية الفلسطينية. والأناجيل كلها تختلف عن ما أشار إليه القرآن الكريم، مما يوصف بأنه إنجيل عيسى. فالقرآن الكريم يقرر أن إنجيل عيسى كتاب سماوي منزل عليه، ولكن هذه الأناجيل أسفار ومذكرات كتبها أناس من البشر أقدمها كتب بعد المسيح [(١)].

وقد أشار الدكتور أنيس فريحة في بحث له عن (يهوه - إيل) إلى الخلاف القائم بين الباحثين عن دين السيد المسيح وإلهه، وهل هو يهوه إله اليهود أم (إيل) إلّه الآراميين.

وقد أشار إلى أن بعض الباحثين يرون أن المسيح مجرد إنسان عظيم قدير، وأن إلّهه هو يهوه. ويقول: كان يسوع الإنسان يهودياً في بيئته وتعليمه ونظرته إلى الكون والإنسان، ولم يأت يسوع لينقض الناموس والأنبياء بل ليكمل. ويسوع جاء إلى خراف إسرائيل الضالة. ثم أشار

---

(١) راجع بحث التوراة ص ٢٨٠ م ٤ مجلة الأبحاث.

(١) راجع مجلة المعرفة (٤٥) تشرين الثاني ١٩٦٥ (جورج طعمة).

إلى الخلاف الذي وقع حول طبيعة المسيح. وقال إن نظرة بولس اليهودي الهيليني هي التي انتصرت.

وأشار إلى أن المسيحية بعد بولس حاولت طمس معالم اليهودية، واقتبست عناصر هيلينية. ولكن بالرغم من ذلك فإن المسيحية قامت على أنقاض اليهودية المتحجرة، حتى أن المصادر اليهودية تعتبر يسوع يهودياً.

٥ - التوراة

تعد التوراة المصدر الأساسي للفكر الديني المسيحي، وبالتالي فهي بعيدة الأثر في بناء الفكر الغربي المعاصر، والثقافات الغربية الحديثة.

وقد أجمعت المصادر على أن التوراة هي أوسع الكتب انتشاراً، وأنها كتاب كتبه[١] الإنسان، وأن مؤلفيها يحملون أسماء ذائعة الصيت مثل: (يساياه، ايزيكبيل، جريمياه، القديس بول) ولكن أغلب كلماته كتبها أشخاص آخرون لا يعرف أحد من هم، ولا يمكن معرفتهم في يوم من الأيام. لقد ظل الوحي الإلهي إلى الإنسان ينتقل من الأب إلى الإبن ألف سنة تقريباً بعد إبراهيم من غير أن يكتب، وبعد ذلك بدأ اليهود في تدوينه. وكان ذلك قبل ألف سنة تقريباً من ميلاد المسيح، فأخذوا يسجلون القصص والقصائد القديمة، وأضافوا إليها قصصاً وقصائد أخرى جديدة، ثم استلزم الأمر أن تعاد كتابة لفائفهم عدة مرات، وأن تنقل وتنسخ، مما أوجد فرصاً عديدة لا تحصى لتغييرات لا حدّ لها، بعضها مقصود، وبعضها الآخر غير مقصود. ولما بدأت المسيحية تنتشر بسرعة ازدادت الحاجة إلى عمل نسخ جديدة، لا سيما العهد الجديد. وأخذ كثير من المؤمنين يضعون نسخاً لأنفسهم بأنفسهم. ولذلك فإنه لا يوجد اليوم أي نص (أصلي) لأي جزء من (الكتاب) وربما حوى

---

(١) بحث في مجلة لايف م ٨٣ عدد ٧ (ابريل ١٩٦٥) ترجمة الدكتور أمير رضا عن مجلة الوعي الإسلامي مايو ١٩٦٦.

العهد الجديد تغييرات أكثر وأبلغ من العهد القديم .

* * *

والكتاب المقدس يتكون من جزأين أو عهدين .

الأول ـ هو العهد القديم ، وهو مشترك بين اليهود والنصارى ، إلا أن ترتيب الأسفار يختلف عند كل من الطائفتين .

الثاني ـ هو العهد الجديد ، وهو مشترك بين الكاثوليك والبروتستانت ، إلا أن (الكتاب المقدس) البروتستانتي يستبعد أحد عشر سفراً يعترف بها ما وصلوا إليه من العلم في ذلك العصر ، وأقصى ما وصل إليه العلم الإنساني ، ولكنها كانت لا تؤمن بالتحول والتعارض مع ترقي العلم ، وكان هذا تحدياً جعل الدين في مواجهة العلم الحديث ، بحقائقه الجديدة ، التي عارضت ما دونوه ، وخلقت أزمة تاريخية هي أزمة الخلاف بين الدين والعلم ، وحققت للدين الهزيمة بفعل ما أضيف إليه من معلومات كذبتها حقائق العلم . وبذلك سقط رجال الدين سقوطاً دفعهم إلى الانتقام . فلم تلبث الكنيسة أن اضطهدت العلم ، ووقفت في وجه الكشوف العلمية ، وقام رجالها بصيحات خطيرة في أنحاء أوروبا استحلوا بها دماء العلماء وأموالهم ، وأنشأوا محاكم التفتيش التي دعت إلى معاقبة هؤلاء الملحدين والزنادقة الذين انتشروا في المدن والبيوت . وأحصيت على الناس الأنفاس ، وقد عاقبت هذه المحاكم (٣٠٠ ألف) أحرق منهم اثنان وثلاثون ألفاً أحياء ، منهم العالم الطبيعي (برونو) وعوقب العالم الطبيعي (جاليلو) بالقتل لأنه كان يعتقد بدوران الأرض حول الشمس . ولقد كان من أثر ذلك أن اصطبغ الفكر الغربي والثقافة الغربية لآماد طويلة بتلك الكراهية وذلك الحقد ، وتلك الخصومة التي عرفتها الفلسفات والمذاهب والدعوات . ومن ثم أعلن الفكر الغربي شجب كل ما يتصل بالكنيسة .

وتقرر أن العلم والدين ضرتان لا تتصالحان ، واتجه الغرب إلى المادية

بكل معانيها. ومن هنا علينا أن نلاحظ أن مثل هذه المعركة التاريخية لم تقع مطلقاً في تاريخ الإسلام أو الثقافة العربية، وإن كانت كلمات الصراع بين العلم والدين ما تزال تتردد، والمقصود بها ليس الإسلام بأي وجه من الوجوه، فإذا نظرنا إلى الإسلام وجدناه على طرف نقيض من ذلك، فهو ذلك الذي أعان على النهج العلمي، ودعا إليه، وكان من ثمرة دعوته إبداع المسلمين والعرب للمذهب العلمي التجريبي الذي قام عليه العلم الحديث.

أما النهضة الغربية الحديثة فقد استمدت قيمها من الإسلام والفكر الإسلامي، وكان سلطان الكنيسة قد طغى وفرض نفسه على الحياة حتى لم تتمكن أوروبا من أن تتقدم فكراً أو ثقافة أو علماً أو اقتصاداً إلا بعد أن ثارت على سلطان الكنيسة وتحررت تحرراً تاماً من نفوذها.

وكان أبعد الآثار الإسلامية في الفكر الأوروبي أهمية ما تجلى في دعوة مارتن لوثر، وكالفن. فقد حمل (لوثر) على بيع صكوك الغفران، والوساطة بين الله والإنسان عن طريق الرهبان. ونادى (كالفن) بأن العلاقة بين الله والإنسان هي السبيل الوحيد للغفران، وأنه لا قوة إلا بالله، وأنكر أن البابوية معصومة لا تخطىء.

وكانت هذه التعاليم التي حملها لوثر، وكالفن غريبة عن طبيعة الفكر الأوروبي في ذلك العصر، وكانت مستمدة من ذلك التراث الإسلامي الذي تسرب إلى أوروبا عن طريق الأندلس وإيطاليا.

وقد هاجمت حركة الإصلاح الأوضاع الإقطاعية أيضاً، ودعت إلى تحرير المعذبين من الفلاحين والكادحين، كما حاربت حركة كالفن في غير هوادة الانحلال الذي كان قد تفشى في أوروبا، والذي كان من مظاهره الإباحة في الحمامات العامة المختلطة التي كان يتردد عليها شباب الجنسين والأغاني التي تدور ألفاظها ومعانيها حول المسائل الجنسية، والملابس الخليعة التي ترتديها السيدات. وقد أمعن كالفن في خطته، فأصدر الأوامر بتعقب كل فرد في حياته الخاصة ومسائله عما يبدو له

من تصرفات أمام محكمة أقيمت لهذا الغرض اسمها محكمة الأخلاق.

والمعروف أن هذه الحركة قد أراقت الدماء في أوروبا، وأوقعت الصدام المسلح العنيف بين البروتستانت أعوانها، وبين الكاثوليك الذين هم أساس الكنيسة المسيحية، فعاشت أوروبا منذ السنوات الأخيرة من القرن الخامس عشر إلى منتصف القرن السابع عشر، أو على وجه التحديد حتى عام ١٦٨٤ في هذا الجو الديني المحموم والمتزمت، والذي قام على أساس الحروب الدينية التي خضبت أوروبا بالدماء حيث كان يحرق المتهمون بمخالفة المذهب الديني الرسمي للدولة احياءً، تنفيذاً لأحكام محاكم التفتيش الصارمة، فضلاً عن القوائم التي كانت تنشر على الملأ متضمنة أسماء الكتب وسائر المطبوعات المحظورة.

وكان أخطر هذه المصادمات موقعة سانت بارتلمي (٢٤ أغسطس - ١٥٧٣). وقد أحصي عدد القتلى فيها فوجد أنه ٢٥ ألفاً. وكانت الكنيسة الكاثوليكية هي التي قادت المعركة ضد خصومها ففتكت بالبروتستانت. كانت وقائع هذه المعركة التي استمرت ثلاثة أيام غاية في العنف والمرارة والوحشية مما لم يشهده تاريخ البشر على حد تعبير المنصفين من المؤرخين. وكان الفكر الإسلامي بعيد الأثر في هذه المرحلة حيث ترجمت آثاره، وبدأ نفوذه العملي والعلمي معاً في جانبين كبيرين:

الأول: جانب البحث العلمي.

الثاني: جانب الدراسات الإنسانية والاجتماعية.

وكان من آثار هذا الفكر أشياء كثيرة أهمها: ذلك التحرر في مفاهيم الكنيسة والمسيحية الرومانية، عن طريق دعوات لوثر وكالفن وغيرهما، كما سبقتها الدعوة إلى تحطيم التماثيل، وإزالة الصور من الكنائس. هذه الدعوة التي حققت إصدار بيان إمبراطوري عام ٧٢٦ م بتحريم تقديس الصور والتماثيل، وأن القيام به يعد من أعمال الوثنية. وكان

(كليوديوس) أسقف تورين يحرق الصور والصلبان، وينهى عن عبادتها. كذلك وجدت طائفة من النصارى شرحت عقيدة التثليث بما يقرب من الوحدانية، وأنكرت ألوهية المسيح عليه السلام.

كما كان للإسلام أثره في تاريخ أوروبا الديني، وتاريخ الكنيسة في نزعات المصلحين والثائرين على النظام الأسقفي السائد. وكانت هذه كلها مقدمات لحركة لوثر وكالڤن التي انبثق عنها المذهب البروتستانتي، والتي أدت أيضاً إلى إصلاحات قام بها المذهب الكاثوليكي.

وقد كان لوثر قد ألصق نشرة من خمس وتسعين مادة على باب كنيسة القلعة في جيتنبرج استعرض فيها سر الاعتراف المقدس الكاثوليكي.

وأعلن أن الآثم يتحرر بعد الاعتراف من ثقل الإثم بالرحمة الإلهية التي تنبعث من قرارة نفسه، وبالإيمان وحده وليس بغفران القسيس.

كما أعلن أن رجال الإكليروس لا يؤدون وظيفة مهمة ذات علاقة بين الله والإنسان. وقال لوثر: إن كل شخص باستطاعته أن يقرأ الإنجيل وهو حر يفسره حسب فهمه له، وإدراكه إياه. وكان هذا الرأي بالنسبة إلى الكنيسة كما لو تجرد اليوم المحكمة العليا من حق تفسير دستور الدولة. كما أعلن أن الادعاء باختلاف طبقة الإكليروس عن العامة مجرد كذب وبهتان، ورجا الناس أن يبحثوا عن الحقيقة المسيحية في الإنجيل، والإنجيل وحده. (وهذه الآراء مستمدة استمداداً مباشراً من مفاهيم الإسلام) كما أنقص عدد الأسرار المقدسة من سبعة إلى اثنين: وهما التعميد والقربان المقدس. ورفض القول باستحالة المادة إلى لحم المسيح ودمه، وأعلن أن على رجال الدين أن يتزوجوا، وأنب الكرادلة على حياة البذخ والرفاهية التي يحيونها، كما طالب بإزالة الرهبنة.

فلما أعلن البابا في نشرة مكتوبة حرمان لوثر. أحرق لوثر هذه

النشرة علانية وبصورة رسمية أمام الناس بكل ثقة وثبات.

ولم تلبث «اللوثرية» أن انتشرت في جميع ألمانيا، واعتبرت حركة معادية للكنيسة الرومانية، وأسهمت إلى حد ما في الحركات الثورية، والقومية، وشاركت في جميع الثورات السياسية والاجتماعية.

أما كالڤن فقد أيد انتقادات مارتن لوثر للكنيسة الرومانية .ومعظم آرائه الدينية، وأضاف إضافات جديدة إلى دعوة الإصلاح، أضاف الإيمان بفكرة القضاء والقدر، كما رفض الاعتراف بخضوع الكنيسة للدولة، أو بحق أي حكومة أو بحق الملك أو المجلس النيابي بسنّ القوانين الخاصة بالدين. ورفض الاعتراف بنظام الأساقفة، فأزيلت الصور التي تمثل القديسين مريم والمسيح، ثم حطمت، واستهجن استعمال الآلات الموسيقية في الكنائس. وكذلك الشموع والبخور والغناء والترتيل، وحاول أن يوجد كنيسة وفق تعاليم السيد المسيح.

واستطاعت (البروتستانتية) أن تمنح القسيس حق الزواج، ولم يعد هناك رهبان، كما استبدلت جميع الكنائس البروتستانتية اللغة اللاتينية باللغة المحلية كالإنجليزية والفرنسية والألمانية. وتخلى الجميع عن الاعتراف الإجباري وما يتبعه من غفران يتحقق على يد الإكليروس لذنوب المعترف وخطاياه؛ والتخلي عن فكرة المطهر أو الاعتراف، كما تخلوا عن عبادة القديس، وعبادة مريم العذراء، ولم يعد البروتستانت يطلبون وساطتها من السماء، وأعلنوا أن المصدر الوحيد الحقيقي للعقيدة المسيحية هو الكتاب المقدس.



الفصل الرابع

الإسلام

الإســـــلام

وصف عصر النهضة بأنه مرحلة الانتقال من الفترة التاريخية المسماة بالعصور الوسطى إلى ما يسمى بالعصر الجديد ويرجع المؤرخون والباحثون عوامل النهضة إلى انحطاط الكنيسة والإمبراطورية - وكانتا تحكمان في العصور الوسطى - انحطاطاً شاملاً، ويرون أن هدف النهضة كان الإعداد لتحرير النفس البشرية من أغلال الكنيسة التي كانت تشل حركتها، وكان لحركة إحياء الدراسات العربية والترجمة من الفكر الإسلامي أبعد الأثر في هذه النهضة، حيث بدأ ما يسمى (الدراسات الإنسانية) على قلم (بترارك) الذي حاول الاكتشاف المضاعف للإنسان والكون. وقد قامت هذه الحركة على أساس الفهم لكرامة الإنسان مخلوقاً ومفكراً ذا إرادة تريد وتختار وقوة تحس وتتذوق وتجرب (وهي المعاني الأساسية التي حملها القرآن إلى الفكر الإنساني عامة، وحملها المسلمون إلى الاندلس الذي تربى في جامعاته جميع قادة النهضة) غير أن هذه الحركة قد صاحبتها حركة أخرى، هي إحياء التراث الإغريقي. ومن هنا فإن هذه الحرية الإنسانية بدت وثنية في مظهرها غير مصطبغة بالدين، بل لقد قام كثيرون وفي مقدمتهم توماس الأكويني بالعمل على تفريغ الفكر الإسلامي من إطاراته، ونقله إلى الفكر الغربي على أنه فكر غربي منفصل عنه تماماً. وقد ظلت صيحة الإنكار والتجاهل لأثر الإسلام (هذا الأثر العميق في الفكر الغربي) قائمة ومستمرة منذ ذلك الوقت حتى سنوات قريبة حيث قام أمثال توماس كارليل، وجوستاف لوبون وغيرهما بالكشف عن هذه الحقيقة وإعلانها.

غير أن الذي لا شك فيه أن الإسلام قدم للثقافات الغربية أعظم ما قامت عليه النهضة الحديثة والحضارة المعاصرة في مجالين هامين: مجال العلوم الإنسانية الاجتماعية، ومجال العلم التجريبي.

ولقد ظل الغرب وكتابه وأتباعه في العالم الإسلامي ينكرون أثر الإسلام، ويتجاهلونه، ويتخطون هذه المرحلة المضيئة (ما بين ٦٠٠ ميلادية إلى ١٥٠٠ ميلادية) وهي فترة ظهور الإسلام في مجال العلوم، ووقفوا عند هذا الحد، وإذا كان لنا أن نضيف شيئاً هاما في هذا المجال. فإن مختلف النظريات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والتربوية، ودراسات علم النفس والأخلاق والفنون وغيرها كانت لها أصول إسلامية أساسية. غير أن نمو هذه النظريات لم يلبث أن انحرف عن مفاهيم الإسلام تحت عدة عوامل أهمها: التمويه الخطير الذي حمل لواءه الأب توماس الإكويني وغيره في محاولة نقل نصوص بأكملها عن ابن رشد، والغزالي، ثم تحريفها. ورفع الإطار الإسلامي عنها حتى تبدو وكأنها غربية الصنع[1]. والأمر الثاني الخطير هو ذلك الانحراف الذي أصاب الفكر الغربي نفسه في مرحلة (المنحنى الخطير) عندما سيطرت أفكار التلمود والماسون والصهيونية العالمية على الفكر الغربي، وهي مرحلة متقدمة جدا بدأت في الأغلب في أوائل عصر المسيحية، ولكنها بدأت تأخذ خطوات خطيرة قبل الثورة الفرنسية التي كانت من أعظم ثمارها.

فمن اليقين أن النظريات الفكرية في الثقافات الغربية لها أصول إسلامية، وجذورها واضحة لا سبيل إلى تجاهلها، نعم. لم يقف أثر الفكر الإسلامي عند الجانب العلمي وحده. الذي كان من أعظم ثماره «المنهج العلمي التجريبي» بل امتد إلى مختلف نظريات الفكر السياسي والاجتماعي الحديث.

---

(١) هناك ظاهرة أساسية في الفكر الغربي بدأت في الفكر الإغريقي، هي إنكار الروابط التي تربط الفكر الإنساني في مراحله المختلفة. فالفكر الإغريقي يحاول في تعنت شديد وتضليل كبير أن يفصل نفسه عن الفكر الديني والفلسفي السابق له، والذي كان هو أثراً من آثاره وكذلك فعل الفكر الغربي الحديث.

(٢)

المنهج الحسّي التجريبي

١ - المنهج العلمي التجريبي أهم ما قدمه الفكر الإسلامي للثقافة الغربية .
٢ - إضافات العلماء المسلمين في الرياضيات والفلك .
٣ - اضافات العلماء المسلمين في العلوم الاجتماعية والسياسية .

بدأ المفهوم العلمي عند المسلمين مستمداً من القرآن الكريم أساساً ، ومن دعوته الصريحة إلى النظر في الكون والاهتمام بالعلم . وآية ذلك أن كلمة « علم » وردت في القرآن (٨٥٠ مرة) وأن أول أمر استخدم في القرآن هو كلمة « اقرأ » وأن أول أداة ذكرت في كتاب الله هي « القلم » .

والإسلام هو الذي أمر معتنقيه باتباع المنهج العلمي ، والقرآن هو الذي أطلعهم على أن للكون سنناً وقوانين ليس فقط في مجال الطبيعة ، بل وفي مجال المجتمع ايضاً . ومن هنا فقد انفتح المسلمون على الثقافات القديمة (إغريقية وفارسية وهندية) ونقلوها ودرسوها ، ووقفوا منها موقفاً واضحاً صريحاً : هو موقف الاستقلال والإنصاف ، فلم يرفضوها جملة ولم تلتهمهم . ولكنهم أخذوا منها ، وتركوا على ضوء من قاعدة قيمهم الأساسية .

لقد كانت الفلسفة اليونانية أشبه بالغول الخطير . فقد اقتحمت المسيحية ومن قبلها اليهودية ، ولم تلبث أن سيطرت عليها واحتوتها . ولكنها حين ترجمها المسلمون ونقلوها إلى لغتهم وتعاملوا معها ، عجزت عن أن تصهرهم أو تبتلعهم ، وإن أصابتهم بخطر كبير ، وأزمة بعيدة المدى . ولكن الإسلام وقادة فكره ، بقدرتهم على التماس مفاهيمه وقيمه الأساسية قد استطاعوا أن يردوها على أعقابها ، وأن يتخطوها محتفظين بمقوماتهم إذ امتصوا منها ما شاءوا ، ثم بنوا منهجهم الفكري والعلمي على أسس رصينة من قيم الإسلام نفسه .

وقد تبين للباحثين المنصفين أخيراً خطأ الرأي الذي حمل لواءه «أرنست رينان» وتابعه كثير من المتعصبين وأعداء الإسلام والثقافة العربية، ودعاة التغريب، والنفوذ الأجنبي، وهو الرأي القائل بأن الفلسفة الإسلامية هي: (فلسفة يونانية مكتوبة بحروف عربية) وقد تأكد أنه (لا منطق أرسطو ولا الفلسفة الهيلينية أو الفارسية أو الهندية قد خلقت أو حولت الفكر الإسلامي العربي عن مساره القرآني، وإنما بقي كما هو ثمرة أصيلة للتوحيد الإسلامي الصريح) فقد بدأ من القرآن الكريم، والتقى في طريقه بتراث اليونان، فامتص عصارته الصالحة في سبيل إبداع منهج أصيل مستمد من قيم الإسلام توصلاً إلى ما حققه الفكر الإسلامي فعلاً من إنشاء «المذهب التجريبي».

لقد تمثل الفكر الإسلامي من الثقافات الروافد، والحضارات المختلفة ما يتفق مع طبيعته، وما يتفق مع احتياجاته، ثم طبع ما أخذ بطابعه الخاص. ولم يكن الفكر الإسلامي هو مجرد تأثر بهذه الثقافات المختلفة أو مجرد توفيق بينها وبين العقيدة الإسلامية، بل هو فكر أكثر إبداعاً وأصالة من هذا، فقد تجاوز منطق أرسطو الذي لم يكن هو العامل الأكبر في بناء الثقافة الإسلامية العربية، وتجاوز غيره من قوائم الفلسفات القديمة. ولذلك كله لم يكن الفكر الإسلامي في الحق امتداداً للفكر اليوناني، بل كان إضافة جديدة للفكر الإنساني، ونواة للمنهج العلمي التجريبي، وانطلاقاً امتد بعد ذلك إلى نشأة العلم التجريبي الحديث. فالفكر الإسلامي إبداع حقيقي في التفكير العلمي، وفلسفة شاملة يطل منها على الكون العريض، ونظام اجتماعي مستقل قوامه التوحيد.

لقد كانت فلسفة أفلاطون وأرسطو تعبر بدقة وعمق عن طبيعة المجتمع اليوناني في مرحلة انهياره. وكان مجتمعاً قوامه طبقة السادة،

وطبقة العبيد . فالفكر والتأمل والمتعة هي من نصيب « السادة » والعمل والفاقة من نصيب العبيد . وكانت فلسفة أفلاطون وأرسطو تعبر عن هذا الوضع تعبيراً دقيقاً .

وهي فلسفة تقوم على التأمل الخالص غير العملي ، وتفرق بين الصورة والمادة تفرقة جادة . السادة هم الصورة ، والعبيد هم المادة [١] .

ولكن الفكر الإسلامي كان يختلف عن الفكر اليوناني في قيمه ومقوماته ، وأبرز المقومات التوحيد . وكذلك المجتمع الإسلامي الذي يختلف اختلافاً بيّناً عن المجتمع اليوناني ، فلم يكن أساساً يقوم على طبقتين : « سادة ـ وعبيد » ولكنه كان يقوم على ترابط عميق بين الفرد والمجتمع . وكانت حضارته حضارة علمية وعملية داخل إطار الإسلام من حيث أن الإسلام دين وعبادة ونظام مجتمع معاً .

لقد درس الفكر الإسلامي : الفلسفة اليونانية ، وحاول أن يوفق بينها وبين إطار التوحيد الإسلامي ، وهي فلسفة وثنية عبودية أساساً . غير أن المحاولة التي أجراها : الكندي ، والفارابي ، وابن سينا لم تحقق شيئاً . فقد تبين أن جوهر الفلسفتين مختلف تمام الاختلاف . فالفكر الإسلامي له طابعه الجامع المتكامل القائم على النظرة العقلية ، والممارسة العملية التي تختلف كل الاختلاف عن الفكر اليوناني القائم على التأمل النظري ويقف عنده .

لقد كان الفكر الإسلامي في جوهره فكراً تجريدياً تجاوز حدود التأمل الإغريقي ، وخطا خطوة أبعد إلى مجال العلم التجريبي ، والممارسة العملية ، ودخل آفاقاً أوسع . وبذلك بدا متميزاً كفكر له خصائص ذاتية مستمدة من جوهر يختلف عن الفكر اليوناني .

---

(١) راجع أمين العالم في بحثه عن العلم عند العرب ، والدكتور النشار في كتابه : مناهج البحث عن مفكري الإسلام .

لقد كان أبرز مظاهر الفكر الإسلامي، أنه بلغ خطوة أكبر، وأضاف إضافة واسعة حين راجع النصوص اليونانية ونقدها، وكشف عن خطأ ما بها من نظريات، ثم تجاوز ذلك كله إلى التجربة العملية، واتخذها مصدراً لعلمه وفلسفته. وكان هذا هو منطلق الحضارة العربية الإسلامية في توسعها وتطورها. فالفكر العربي العلمي بهذا المفهوم ليس امتداداً للفكر اليوناني، بل هو إبداع جديد له طابعه التجريبي الذي كان نقطة انطلاق إلى نشأة العلم التجريبي الحديث.

« بهذا المنهج التجريبي، وبهذه القيم العلمية، والكمية، وبهذا التوحيد بين النظر والعمل، وبهذه النظرة المتطورة للكون والإنسان، بهذا كله اختلف الفكر الإسلامي العربي اختلافاً كبيراً عن الفكر اليوناني المترجم، وتناقض معه في مختلف فروع الثقافة من علم أصول وفقه وفلسفة عقلية، ونظرة إلى الإنسان. ولم يكن هذا الاختلاف عابراً أو طارئاً أو مصادفة أو عفوياً ».

وعندنا أن ذلك إنما جاء نتيجة للخلاف الجذري بين الإسلام القائم على التوحيد والرسالة المنزلة، والنظرة القرآنية العلمية، وبين التراث اليوناني الوثني القائم على العبودية للغالبية العظمى، والسيادة للقلة القليلة، ويكشف منهج البيروني وجابر بن حيان عن هذا الخروج المباشر عن منطق أرسطو، كما يكشفه خروج رجال الأصول والفقه على المفهوم الأرسطي للحد والتعريف، وإنشاء نظرية جديدة للتعريف، مستمدة من الواقع الإسلامي، فقد أصبحت عملية التجريب العملي لا عملية استخلاص المنطق هي سبيل المعرفة الإسلامي.

وقد نقد ابن خلدون قياس أرسطو حين قال: إن الأقيسة المنطقية أحكام ذهنية، والموجودات الخارجية متشخصة، فالتطابق بينهما غير يقيني، لأن المادة قد تحول دونه. اللهم إلا ما يشهد له الحس من

ذلك، فدليله شهوده لا تلك البراهين المنطقية.

وميزة الفكر الإسلامي هي: «إدراك عميق بأهمية[1] الرابطة العليا بين الأشياء، كأساس للمعرفة العقلية، وعلى هذه الرابطة العلية تقام التجارب، وتتحقق النظرة الموضوعية إلى الظواهر الطبيعية والاجتماعية على السواء».

وقد بدأت المعارضة لفلسفة أرسطو واضحة بعد فترة قليلة من ترجمة آثار الإغريق، وهي معارضة نابعة من منابع الفكر الإسلامي نفسه، المستمدة من القرآن الكريم، أساسها خلاف واضح بين الوثنية والتوحيد، وبين مجتمع العدل الاجتماعي في الإسلام، ومجتمع العبودية في اليونان.

وقد وصل علماء المسلمين: (فيما عدا الشراح الذين اعتبروا امتداداً للفكر اليوناني نفسه) من المتعلمين وعلماء الأصول إلى رفض المنطق الأرسطي رفضاً قاطعاً منذ وقت مبكر، وأخذوا في إقامة منطق جديد مستمد من القرآن الكريم.

وكان علماء الطب والرياضة والبصريات أقرب هؤلاء إلى الخروج من حدود التأمل إلى التجربة. وكان الرأي قد تبين أن منطق الاستدلال[2] الأرسطالي اليوناني قاصر عن استيعاب أسرار الذات الإلهية، وتفسير قدراتها.

وكان ابن تيمية هو قمة الأئمة الذين وصلوا إلى كشف «منطق إسلامي مستمد من القرآن الكريم» دحضاً لمنطق أرسطو، ورفضاً للقول بالكليات المجردة، وتوصلاً إلى جعل المحسوسات والجزئيات أساساً للمعرفة. وبالجملة: فالفكر الإسلامي قد رفض المنطق الأرسطي الذي

(١) أمين العالم: ك: معارك فكرية.
(٢) الدكتور علي سامي النشار: مناهج البحث في مفكري الإسلام.

يقوم على القياس والاستدلال النظري وأقام منطقاً جديداً أكثر تعبيراً عن خصائصه هو:

المنهج الحِسّي التجريبي

فمفهوم الإسلام يتفق مع منهج منبثق من جوهره هو: المنهج الاستقرائي التجريبي، وينكر أشد الإنكار المنهج البرهاني القياسي.

ومن هنا عدة أمثال: الكندي، والفارابي، وابن سينا، وابن رشد، مجرد امتداد للروح الهِلينية في العالم الإسلامي. وقد تبين فشل منطق أرسطو من اللحظة الأولى، ولكنه تأكد من بعد على ضوء الملابسات الموضوعية لنمو الحضارة الإسلامية.

ومن هنا تكشفت حقيقتان أساسيتان لا ريب فيهما:

١ - إن الفكر الإسلامي في جوهره «فكر تجريبي».

٢ - إن منطق أرسطو منطق قاصر من وجهة النظرة الإسلامية.

ذلك ان منطق أرسطو «بنية يونانية» وخاصة من خواص الفكر اليوناني وحده. وهو تعبير عن وجود يوناني قائم على العبودية والوثنية معاً. وبذلك فهو غريب على الفكر الإسلامي غربة كاملة.

وبذلك يكون الفكر الإسلامي بحق هو مبدع «المنطق التجريبي» وكان وضوح موقفه من الفكر الإغريقي تمزيقاً وهدماً للمنطق الأرسطي الذي هدمه الغرب بعد ذلك بأكثر من أربعمائة عام. والقول بالاستقراء والتجربة هو في مفهوم الباحثين المنصفين جميعاً خاصية الفكر الإسلامي، بينما القول بالقياس والاستدلال هو خاصية الفكر اليوناني.

ومن هنا بدأت النهضة الأوروبية بالتماس منطق المسلمين، وبدأ تأخر

المسلمين بالتماس منطق اليونان. ولقد كان التجريب والاستقراء مرحلة على طريق الوصول إلى «المنهج العلمي التجريبي» الذي هو قوام الحضارة الحديثة المعاصرة.

ومن هنا فإن أثر الإسلام والثقافة العربية في بناء أساس الحضارة الغربية جوهرها ومضمونها، واضح وأكيد وبعيد المدى.

(٣)

المنهج العلمي الإسلامي

كان إيمان المنهج العلمي في سبيل بناء «حضارة إنسانية» هو سيادة الخلق والمبادىء الشريفة وتغليب معاني العدل والإخاء، والتكامل الاجتماعي. وكان الرقي في نظر الفكر الإسلامي هو تغليب الإنسان على المادة وعلى أهوائه في نفس الوقت.

وإن الإسلام في أسسه الأولى التي أوردها القرآن الكريم، قد دعا إلى «البرهان» في كل قضية: «قل هاتوا برهانكم». ومن هنا نشأ في مجال الفكر العربي الإسلامي ما يسمى بالبحث عن الدليل، والنهي عن التقليد، وعدم الثقة بالنص إلا بعد مطابقته للعقل وإقرار مصدره.

وقد وصل الفكر الإسلامي في ذلك إلى غاية النضج والقوة، وعندما ترجمت آثار الاغريق لم يأخذها المفكرون المسلمون قضايا مسلماً بها، ولكنهم ناقشوها وراجعوها وقبلوا منها ورفضوا.

فابن سينا يخالف أرسطو وأفلاطون وغيرهما من فلاسفة اليونان في كثير من النظريات والآراء، فلا يتقيد بها. يأخذ منها ما يقتنع به، ويوافق مزاجه الإسلامي ويزيد عليه. وعنده أن الفلاسفة يصيبون ويخطئون كسائر الناس، ولذلك فهو لا يتقيد بآراء من سبقه، بل يبحث فيها ويدرسها، ويعرضها على المنطق والعقل، ومختلف خبراته.

وقد جعل للتجربة مكاناً واضحاً فيما قبله، واعتقد به. ومن قوله: «حسبنا ما كتب من شروح لمذاهب القدماء. وقد آن لنا أن نضع فلسفة خاصة بنا».

وابن رشد يمضي في طريق البحث العلمي خطوات أكثر عمقاً واتساعاً حيث يقول: «يجب علينا إذا ألقينا لمن تقدمنا من الأمم السابقة نظراً في الموجودات واعتباراً لها بحسب ما اقتضته شرائط البرهان، أن ننظر في الذي قالوه عن ذلك، وما أثبتوه في كتبهم، فما كان منها موافقاً للحق قبلناه منهم وسررنا به، وشكرناهم عليه. وما كان غير موافق للحق نبهنا عنه، وحذرنا منه وعذرناهم. وعلينا أن نستعين على ما نحن بسبيله بما قاله من تقدمنا في ذلك، وسواء كان هذا الغير مشاركاً لنا في الملة، أو غير مشارك إذا كانت فيها شروط الصحة.

«وابن الهيثم» له في مجال تقنين أصول البحث العلمي رأي واضح، ونظرية كاملة يقول: يبدأ في البحث باستقراء الموجودات، وتصفح أحوال (المبصرات) وتميز خواص الجزئيات، ويلتقط باستقراء ما يخص البصر في حال الإبصار، وما هو مطرد لا يتغير، وظاهر لا يشتبه في كيفية الإحساس، ثم نترقى في البحث والمقاييس على التدريج والتدريب مع انتقاد المقدمات، والتحفظ في الغلط في النتائج، ونجعل غرضنا في جميع ما نستقرئه ونتصفحه استعمال العدل، لاتباع الهوى، ونتحرى في سائر ما نميزه وننتقده طلب الحق الذي به تثلج الصدور ونصل بالتدرج واللطف إلى الغاية التي عندها يقع اليقين، ونظفر مع النقد والتحفظ بالحقيقة التي يزول معها الخلاف وتنحسم بها مواد الشبهات.

«والبيروني» يصور مذهبه العلمي في مقدمة كتابه: (الآثار الباقية عن القرون الخالية) وعنده أن أقرب الأسباب (لمعرفة التواريخ التي تستعملها الأمم): هو معرفة أخبار الأمم السابقة وأنباء القرون الماضية،

لأن أكثرها أحوال ورسوم باقية من رسومهم ونواميسهم، ولا سبيل إلى التوسل إلى ذلك من جهة الاستدلال بالمعقولات، والقياس بما يشاهد من المحسوسات سوى التقليد لأهل الكتب والملل، وأصحاب الآراء والنحل المستعملين لذلك، وتعتبر ما هم فيه أساساً يبنى عليه بعده، ثم قياس أقاويلهم وآرائهم في إثبات ذلك بعضها لبعض بعد تنزيه النفس عن العوارض المرئية لأكثر الخلق والأسباب المعمية لصاحبها عن الحق، وهي كالعادة المألوفة، والتعصب والتظاهر، واتباع الهوى، والتغالب بالرئاسة وأشباه ذلك.

وفي رسالة القاضي عياض عن «علم المصطلح» من الدقة والتفكير والاستنتاج تحت عنوان «تحري الرواية والمجيء باللفظ» ما وصفه الدكتور أسد رستم: بأن ما جاء فيه يضاهي أدق ما ورد في الموضوع نفسه في أهم كتب الإفرنج: ألمانيا، وفرنسا، وأميركا، وإنجلترا. هذه الآراء التي سبقت كتابات الغربيين بخمسة قرون، والفكر الإسلامي هو السابق لإقرار هذه النظريات. ويقول الدكتور رستم «إنه على الرغم من مرور سبعة قرون عليها، فإنه ليس بإمكان رجال التاريخ في أوروبا وأميركا أن يكتبوا الآن أحسن منها».

وقد أشار (قدري حافظ طوقان) في كتابه (العلوم عند العرب) أن العلامة النظام سار في كتاباته على الشك والتجربة. وهما الركنان القائمان في النهضة الحديثة، فاعتبر الشك أساساً للنجاح. وقال: «الشاك أقرب إليه من الجاحد، ولم يكن يقين قط حتى صار فيه شك، ولم ينتقل أحد من اعتقاد إلى اعتقاد غيره، حتى يكون بينهما حال شك».

ويقول أبو هاشم البصري: الشك ضروري لكل معرفة.

ويقول الجاحظ: «تعلم الشك في المشكوك فيه تعلماً، فلو لم يكن إلا تعرف التوقف، ثم التثبت. لقد كان ذلك مما يحتاج إليه».

ودعا جابر بن حيان إلى إجراء التجربة حين قال: «إن واجب المشتغل في الكيمياء هو العمل وإجراء التجربة، وإن المعرفة لا تحصل إلا بها.».

وقد شك «الجاحظ» فيما أورده أرسطو من أن هناك طائراً قديراً على الاهتداء والطيران البعيد، يبني عشه في منطقة الجبال التي هي شرقي العراق بأوراق شجر (الدارصيني) التي نبتت على حدود الصين. وقال: ولست أدفع خبر صاحب المنطق (يعني أرسطو) عن صاحب الدارصيني. وإن كنت لا أعرف الوجه في أن طائراً ينهض من وكره في الجبال بفارس أو اليمن، ويعمد نحو بلاد الدارصيني، وهو لم يجاوز موضعه، ولا قرب منه، فكيف يقطع بطون الأودية، وأهضاب الجبال بالتدويم بالأجواء، وبالمضي على السمت يطلب ما لم يره، ولم يسمعه ولم يذقه بعد. فإن شجر الدارصيني ليس بالوطيء ولا بالوثير، ولا هو لهذا الطائر بطعام.

ويواجه ابن حزم نظريات أخرى يونانية من نظريات الفلك والجغرافيا، ويدحضها على أساس البرهان، وتقدير العقل يقول: زعم قوم أن الفلك والنجوم تعقل، وأنها ترى وتسمع. وهذه دعوى بلا برهان واضح الحكم بأن النجوم لا تعقل أصلاً، وأن حركاتها أبداً على رتبة واحدة. وهذه صفة الجماد. ويقول: زعم بعض اليهود والعامة أن أنهار النيل، وجيحان، ودجلة، والفرات تخرج من الجنة وتسقي جميع المعمور، والواقع أن لهذه الأنهار منابع معروفة في أرضنا.

* * *

وقد رسم ابن حزم نظرية المعرفة الإسلامية على أسس ثلاثة:

(١) شهادة الحواس (أي الاختبار).

(٢) بأول العقل (أي بالضرورة وبالعقل من غير حاجة إلى استعمال الحواس الخمس).

(٣) ببرهان راجع من قرب أو بعد إلى شهادة الحواس وأول العقل.

* * *

وأعتقد أن هذه الأسانيد تعطينا الدليل القطعي على سبق الفكر الإسلامي العربي للغرب في وضع أسس المنهج العلمي على نحو تطبيقي لا نظري. قوامه: الاستقراء، والقياس، والتمثيل. ثم انتقاله انتقالاً سريعاً مدعماً إلى التجربة والممارسة العملية على نحو واضح.

أولاً ـ قصر البحث العلمي على المشاهدة والتجربة، وجمع المشاهدات، ونتائج التجربة وربطها وتبويبها.

ثانياً ـ تمحيصها، وربط تلك الحقائق على النحو الذي يجعلها تصبح قانوناً طبيعياً أو نظرية علمية.

ثالثاً ـ استنباط النتائج التي تفضي إليها، وبحث صحة تلك النتائج ومطابقتها للواقع.

وقد يتضح هذا المنهج على يد ابن الهيثم (٩٣٥ ـ ١٠٣٩ م) سابقاً به فرنسيس بيكون (١٥١٦ ـ ١٦٢٦ م) فقد جمع ابن الهيثم بين الاستقراء والقياس، وقدم الاستقراء على القياس، وحدد الشروط الأساسية في البحث العلمي وهي طلب الحقيقة دون أن يكون لرأي سابق أو نزعة أو عاطفة مهما كانت داخلة في الأمر. وعنده أن كل مذهبين مخالفين. إما أن يكون أحدهما صادقاً، والآخر كاذباً. وإما أن يكونا جميعاً كاذبين، والحق غيرهما جميعاً. وإما أن يكونا جميعاً يؤديان إلى معنى واحد هو الحقيقة.

ويرى قدري طوقان، ومصطفى نظيف وغيرهم أن ابن الهيثم لم يسبق (بيكون) فحسب، ولكنه سما عليه. فقد كان أوسع منه أفقاً وأعمق تفكيراً.

وابن رشد الذي أخذ عنه الغربيون يؤمن بمبدأ العقل عند البحث، وعدم الاعتماد على الروايات التقليدية. تبدو في فكره وبحثه النزعة الاستقلالية واضحة. فبالرغم من أنه شارح أرسطو، فلقد كان واضحاً أن شروحه في الأغلب كانت تكشف عن شخصيته وآرائه الاستقلالية.

وقد أشار الدكتور محمود قاسم في أبحاثه الكثيرة عن أصالته الإسلامية، وعن اقترابه من الغزالي في كثير من مفاهيمه، وأن الخلاف بينهما الذي يردده خصوم الإسلام فيما يتعلق بتهافت الفلاسفة، وتهافت التهافت - وبينهما مائة عام تقريباً - ليس خلافاً جذرياً، وأنهما يلتقيان معاً في بوتقة الإسلام باختلاف الظروف والأزمنة، ولكنهما على التقاء في عشرات القضايا الأساسية في الفكر الإسلامي.

والحق أن هذه الوقائع الأساسية عن مكانة الفكر الإسلامي قد أشار إليها بعض الباحثين المنصفين. فإن الأستاذ: بريفولت يقول: إن ما يدين به علمنا لعلم العرب ليس فيما قدموه إلينا من كشوف مدهشة لنظريات مبتكرة، بل يدين هذا العلم إلى الثقافة العربية بأكثر من هذا. إنه مدين لها بوجوده نفسه. فالعلم القديم لم يكن للعلم فيه وجود، وعلم النجوم عند اليونان ورياضياتهم كانت علوماً أجنبية استجلبوها من خارج بلادهم وأخذوها عن سواهم، ولم تتأقلم في يوم من الأيام، فتمتزج امتزاجاً كلياً بالثقافة اليونانية.

وقد نظم اليونان المذاهب، وعمموا الأحكام، ووضعوا النظريات. ولكن أساليب البحث وجمع المعلومات الإيجابية، والمناهج التفصيلية للعلم، والملاحظة الدقيقة المستمرة، والبحث التجريبي، كل ذلك كان غريباً تماماً عن المزاج اليوناني. ولم يقارب البحث العلمي نشأته في العالم القديم إلا في الإسكندرية في عهدها الهيليني. أما ما ندعوه «العلم» فقد ظهر في أوروبا نتيجة لروح من البحث جديدة، ولطرق التجربة والملاحظة والمقاييس ولتطور الرياضيات إلى صور لم يعرفها اليونان، وهذه الروح وتلك المناهج العلمية أدخلها العرب إلى العلم الأوروبي.

ولم يقف الأستاذ بريفولت عند إقرار دور الفكر الإسلامي وأصالته وإضافته الموضحة المبتكرة، بل ذهب إلى أبعد من ذلك حين قرر: «أن روجر بيكون نقل مذهب العرب في البحث العلمي يقول: إن روجر بيكون درس اللغة العربية، والعلم العربي، والعلوم العربية في مدرسة اكسفورد على خلفاء معلميه في الأندلس. وليس لروجر بيكون ولا لسميه «فرنسيس بيكون» الذي جاء بعده الحق في أن ينسب إليهما الفضل في ابتكار المنهج التجريبي، فلم يكن روجر بيكون إلا رسولاً من رسل العلم والمنهج الإسلامي إلى أوروبا المسيحية، وهو لم يمل قط من التصريح بأنه يعلم معاصريه أن اللغة العربية وعلوم العرب هما الطريق الوحيد لمعرفة الحق.

وعند بريفولت أن المناقشات التي دارت حول واضعي المنهج التجريبي هي طرق من التجديف الهائل لأصول الحضارة الأوروبية. وقد كان منهج العرب التجريبي في عصر بيكون قد انتشر انتشاراً واسعاً، وأكب الناس في نهم على تحصيله في ربوع أوروبا [1].

(٤)

إضافات الفكر الإسلامي في مجال العلم

أضاف الفكر الإسلامي إضافات بعيدة المدى في مجالات العلوم المختلفة: في الطب، في الفلك، في الكيمياء، في الصيدلة، في الملاحة، في الجغرافيا، في علوم البحار، في الصوت، والضوء، في نظريات النشوء والترقي، في الأرقام والحساب، في البحر، في المراصد وآلات الأسطرلاب، في صناعة الورق.

ففي الطب عرفوا طبيعة كثير من الأمراض: كالجدري، والحصبة، واستعملوا الأمصال في معالجة الأمراض، ووصفوا تشريح الجسم الإنساني وصفاً دقيقاً.

(١) راجع شهادات أخرى للفكر الإسلامي في كتابنا «أضواء على الفكر العربي الإسلامي».

وعرفوا العقاقير فسجل ابن البيطار ١٤٠٠ عقاراً لم تعرف اليونان منها غير ٤٠٠ عقار والألف اكتشفها العرب، وحددوا منافعها ومضارها.

وألف أبو القاسم الزهراوي كتابه «في الطب والجراحة» في عشرين مجلداً. وأطباء الإسلام هم أول من فتت الحصى في المثانة، وسدوا الشرايين النازفة، وعرفوا كثيراً عن الجذام، والحصبة، والجدري، وعدوى الطاعون، واستعملوا المرقد (المخدر) في العمليات الجراحية. والأطباء المسلمون هم أول من كشف النقاب عن الدورة الدموية ودودة الانكلستوما كما صحح الأطباء العرب آراء بقراط وجالينوس في التشريح ووظائف الأعضاء [١].

وقد ترجم كتاب ابن سينا (القانون في الطب) في خمس عشرة طبعة إلى اللاتينية، والعبرية، والانجليزية. وقد بحث عن العقاقير والأدوية في سبعمائة وستين نوعاً. قال الدكتور ردينستون: إنه يحتوي على ما يزيد على مليون كلمة. وقد عالج القرحة الدرنية، والقولنج الكبدي والكلوي، والتهاب الرئة، والجنب، والتهاب الدماغ. وقد ظلت مؤلفاته أساساً للمباحثات الطبية في جامعات فرنسا وإيطاليا ستة قرون. ولم تعرف جامعة لوفان حتى القرن السابع عشر مرجعاً للطب والعقاقير أوفى من كتب الرازي وابن سينا وابن الهيثم.

وعرّف الفكر الإسلامي التطعيم ضد الجدري، واستخدموا عفن البنسلين، وعين الغراب كمراهم. «أما طب العيون فهو من صناعة العرب. وظلت تذكرة طب العيون تستخدم حتى القرن ١٩ [١]، بل لقد احتل المسلمون المركز الأول في مجال الطب فترة تزيد على خمسمائة عام.

* * *

---

(١) راجع كتابنا «مقدمات العلوم والمناهج».
(١) ربيته جارودي «بحثه في القاهرة نوفمبر ١٩٦٩».

وفي المجالات الأخرى نجد إضافات باهرة، فقد اخترع المسلمون الساعات الدقاقة والزوالية، واكتشفوا قوانين ثقل الأجسام، وعرفوا تركيب النار اليونانية، واستخرجوا قوة البارود الدافعة، واستعملوا الآلات القاصفة، واتقنوا فن تسقية الفولاذ. وهم أول من استخدم البوصلة في الملاحة. واكتشفوا الإبرة المغنطيسية التي انتقلت إلى أوروبا في القرن الثاني عشر، ونقلوا القمح الأحمر، ومشاتل النخيل من اسبانيا وافريقيا إلى فرنسا. واستخرجوا مادة القطران التي يطلى بها قاع السفن. وعرف فضلهم في تحسين نسل الخيل. وكانوا أول من حاول قياس خط النهار. ووصفوا أصول علم الجبر، وحساب المثلثات. وبسطوا علم الحساب الإغريقي. ونقلوا القطن إلى الأندلس. وأخذوا من الصينيين زراعة القصب، واستخراج السكر منه، وأدخلوهما إلى مصر وصقلية والأندلس. وكانت علوم المسلمين في الجغرافيا والفلك هي صاحبة الفضل الأكبر في الكشف عن الأميركيتين. وعلل المسلمون ملوحة البحر، وعذوبة المطر، واستحالة الحطب في الاحتراق، واستحالة الزيت في المصباح، وصعود الهواء، وانحدار الماء لا بالجاذبية والثقل النوعي، بل بانجذاب بعضها إلى بعض.

وعرف موسى بن شاكر مائة تركيب ميكانيكي، كما علل علماء المسلمين صعود الماء في العيون والفوارات، وتجمع الماء في العيون والقنوات. واستعملوا السيفون وسموه (السمارة) وعرفوا كثافة الذهب والرصاص، وبحثوا في الصوت وحصوله، وعللوا حدوث الصدى، وكتبوا في الأوتار واهتزازها. وعرفوا ما بين طول الوتر، وغلظه وتأثره من علاقة. كما عرفوا خاصة الجذب في المغناطيس، وخاصة اتجاهه. وهم أول من استعمل بيت الإبرية (البوصلة) في البحار. ودرسوا نظرية النشوء والارتقاء في مدارسهم، وطبقوها على المواد غير العضوية والمعادن. والحسن بن الهيثم هو أول علماء البصريات. كما اقتبسوا الأرقام الهندية وشذبوها. وأوجدوا طريقة مبتكرة وهي الإحصاء العشري باستعمال الصفر واستعملوا الرموز في الرياضة، فسبقوا

الأوروبيين إلى ذلك، ومهدوا للكشف عن اللوغاريتمات وعن التكامل والتفاضل. وأنشأوا المراصد العديدة، ووضعوا الأزياج الدقيقة الكبيرة الفائدة. وهم أول من عرف الأصول التي تقضي إلى الرسم على سطح الكرة. وأول من أوجد عملياً طول الدرجة من خط نصف النهار. وقالوا باستدارة الأرض ودورانها على محورها، واخترعوا آلة الإسطرلاب الدقيقة. وحققوا مواقع كثير من النجوم، وحسبوا طول السنة الشمسية، وبحثوا في كف الشمس قبل الأوروبيين، ووضعوا جداول دقيقة عن النجوم الثوابت، وصوروها في الخرائط. وصححوا أخطاء بطليموس، وخطأ الرومان القائلين بتسطح الأرض، ورسموا خرائط بلادهم. وأكد أبو الفداء: أن الأرض كروية، وأنها في الوسط. وهم أول من وضع أساس الكيمياء. وقد مارسوا أعمال التقطير والترشيح والتصعيد والتبلير (البلورة) والتذويب والإلغام والتكليس. وهم الذين استحضروا الكحول والقلي والبورق والزرنيخ والبوتاس، والإثمد، وزيت الزاج (حامض الكبرتيك) والزاج الأخضر، وماء الفضة، (حامض النتريك) وحجر جهنم (نترات الفضة) وملح البارود (نترات البوتاس) والسليماني والراسب الأحمر (اكسيد الزئبق) وروح النشادر وملح الطرطير، وماء الذهب والبارود. والقلويات كلها في الكيمياء معروفة باسمها العربي. وماء الفضة لم يوصف في كتاب غربي قبل كتاب: جابر بن حيان. وملح البارود من تحضير تلميذ المسلمين روجر بيكون. وأول من اخترع رقاص الساعة هو: أبو الحسن العباسي المشهور بابن يونس، والساعة الدقاقة اخترعها علماء المسلمين وأهداها هارون الرشيد إلى شارلمان ملك فرنسا، فكانت وغيرها من الهدايا موضع دهشة عظيمة. وأول مصنع للورق بدأ في سمرقند عام ٧٥١ - ثم في بغداد في زمن الرشيد، ثم في دمشق الرشيد. ثم في دمشق ودمياط ومراكش وصقلية وأسبانيا. والمرايا والبلور بدأت في سوريا، ومنها انتقلت إلى البندقية. وقد عرف المسلمون (الصفر) ولم يعرفه الغربيون إلا في القرن الثاني عشر عن طريق المسلمين. وقال العلامة إير: إن فكرة

الصفر تعتبر من أعظم الهدايا العلمية التي قدمها المسلمون. وكان المسلمون قد استعملوا الصفر في الحساب، ورسموه على هيئة حلقة. ثم شرح الخوارزمي طريق استعماله في بحث ترجم إلى الكتب الأوروبية في الربع الأول من القرن الثاني عشر.

وأبرزت هذه النهضة العلمية عدداً كبيراً من العلماء في مقدمتهم: جابر ابن حيان، والخوارزمي، والرازي، والبتاني، والبيروني، وابن الهيثم، وابن خلدون، وأبو الثناء الأصفهاني، والفرغاني، والقزويني، والزهراوي، وابن يونس وابن ماجد، وحسن المراكشي، وعمر الخيام، والفارابي، والإدريسي، وغيرهم [1].

ومما يذكر في هذا المجال أن الطبيب ابن النفيس (علي بن حزم القرشي) كبير أطباء مصر ١٢١٠ - ١٢٨٨ م. عارض رأي جالينوس الذي ظل مهيمناً على عقول الأطباء أكثر من عشرة قرون، ونقد نظرية جالينوس، وعارض قوله في الدم، وقال كيف يمكن أن ينتقل الدم من البطين الأيمن إلى الأيسر خلال حاجز ليس له منافذ، ودحض نظرية جالينوس، وأخرج للعالم لأول مرة نظرية الدورة الدموية الصغرى، إذ قال: إن الدم لا يمكن أن ينتقل من البطين الأيمن إلى البطين الأيسر مباشرة خلال الحاجز. وإنما يسير من البطين الأيمن إلى الرئة إلى البطين الأيسر. وهذه هي الدورة الدموية الصغرى.

وقد ظلت آراء ابن النفيس قائمة، حتى ترجمت كتبه إلى اللاتينية في عصر النهضة. وجاء سرفيتو وكولمبو: فأيدا ما ذهب إليه ابن النفيس، وذلك في القرن السادس عشر، فهو قد سبقهما بأكثر من مائتين وخمسين سنة. أما وليم هارفي: فقد جاء بعده بأكثر من أربعماية سنة، وقام بتجاربه في ضوء أبحاث ابن النفيس ومن تلاه وانتهى إلى كشف الدورة الدموية الكبرى.

---

(١) راجع تفاصيل أكثر في هذا المجال في كتابينا: أضواء على الفكر الإسلامي، وصفحات من أمجادنا.

١ ـ ابن حزم : نظرية المعرفة

نستطيع أن نقول إن أبرز دعائم للفكر الإنساني الحديث في مجالات الاجتماع والسياسة والاقتصاد والتربية والقانون، وخاصة في مجال الخطوط العامة لها جميعاً إنما بدأها الفكر الإسلامي وأرساها، ثم نماها الفكر الغربي واتجه بها وجهة أخرى.

وتكاد تكون نظرية المعرفة التي صاغها «ابن حزم» من أهم هذه الدعائم. وقد سبق بها «كانْت» بسبعة قرون، وقد بلغ ابن حزم الغاية في ذلك، فهو يعد بحق مؤسس المنهج العلمي في المعرفة في الفكر العربي الإسلامي.

يقول: لا يجوز لمن لا يملكون أدوات الاجتهاد والعقل أن يقلدوا إماماً في كل ما يقول، أو كل ما قال وقرر، من غير ترجيح دليل على دليل.

وطالب الحق لا يصح أن يعميه التعصب لقوله عن التماسه، حيث يكون. وهو في إخلاصه للحق لا يبغي له الغلب، ولكن يبغي بعد نصر الحق المجرد، وهو مستعد لترك قوله هو إلى قول غيره إن رأى عند غيره الحق السائغ، الذي لا يشوبه باطل. وكذلك يقول فيما لم يصح عندنا حتى الآن، فيقول مجد بن مقرين: إن وجدنا هدى منه اتبعناه وتركنا ما نحن عليه، فلا نأخذ رأياً إلا بعد أن نمحصه ونسلط عليه العقل والبرهان.

والمعرفة تكون:

١ ـ بشهادة الحواس.

٢ ـ بأول العقل . أي بالضرورة، وبالعقل من غير استعمال الحواس.

٣ ـ ببرهان راجع من قرب أو بعد إلى شهادة الحواس.

وهكذا حلّ ابن حزم أعظم مشكلة في تاريخ نظرية المعرفة. هذه المشكلة التي زعم مؤرخو الفلسفة الحديثة أن حلها كان من نتاج عبقرية الفيلسوف الألماني «كانت» المتوفى ١٨٠٤.

٢ - الغـزالي : علم النفس الإسلامي

أولاً: أوجد الإمام الغزالي «علم النفس الإسلامي» حين قرر أن السلوك الإنساني يقوم على شهوة للطعام، ويمتد من شهوة الطعام إلى سائر الشهوات، وهو نفس المصدر الذي استمد منه علماء النفس في العصر الحديث أول مفاهيمهم. ويعد الإمام الغزالي بحق: مؤسس علم النفس الإسلامي. وقد فسر مظاهر سلوك الإنسان بأربعة دوافع أساسية. هي شهوة الطعام، والجنس، والمال، والجاه. وعنده أن أساس هذه الدوافع كلها غريزة الطعام وأن الاعتدال هو الميزان الصحيح لجميع أنواع السلوك والخروج عن حد الاعتدال إلى التفريط، والإفراط هو سبب الأمراض النفسية، والعلاج هو الارتداد إلى حد الاعتدال الواجب.

ثانياً: البراهين التي جاء بها الإمام الغزالي للدفاع عن الإيمان تبناها القديس توما الأكويني من بعد، وحولها للدفاع عن المفاهيم المسيحية دون أن يذكر أولية الغزالي.

٣ - ابن خـلدون : منـهج التاريخ

١ـ أما ابن خلدون فقد قدم لعلماء الغرب سبقاً حاسماً في وضع أسس ثلاثة علوم: التاريخ، والاقتصاد السياسي، والاجتماع. وبه سبق آدم سميث وأوجست كونت بأربعة قرون كاملة. فقد درس ابن خلدون الظواهر الاجتماعية على أساس علمي، وقرر أن الظواهر العمرانية في تزاحمها وتواليها تحكمها قوانين. وكانت وسيلته في الدراسة الاستقراء والقياس. وقد أكّد

المنصفون أن آراءه جاءت كعمل مرتب منظم ينطبق عليه العلم في معناه الدقيق.

٢ - اكتشف ميدان التاريخ الحقيقي وطبيعته، ولم يقل أحد قبل ابن خلدون أن التاريخ علم خاص موضوعه بحث الظواهر الاجتماعية في حياة الإنسان. وبذلك يعتبر بحق مؤسس علم الاجتماع.

٣ - سبق في آرائه أقطاب علم الاجتماع المحدثين.

(١) اكتشف نظرية الأجيال الخاصة بظهور الأسر ونهوضها من قبل أن يعرفها «أوتوكار لونتس» في أواخر القرن التاسع عشر.

(٢) عرف قانون التشبيه بالوسط قبل أن يعرفه العالم الطبيعي (دارون) بخمسة قرون.

(٣) اكتشف مبدأ وجود المادة قبل أن يكتشفه العالم الفيلسوف الألماني أرنست هيكل بأكثر من خمسة قرون.

(٤) اكتشاف مبادىء العدالة الاجتماعية قبل نوتسبدران، وماركس، وباكونين.

(٥) عرف مبدأ الحتمية قبل رجال الفلسفة الإثباتية وعلماء النفس بقرون عديدة.

٤ - ابن مسكويه : نظرية التطور

سبق ابن مسكويه وإخوان الصفا، دارون في نظريتي أصل الأنواع والتطور، فقد ذكر ابن مسكويه في كتبه أن النباتات أسبق في الوجود من الحيوان. وقال ابن مسكويه، بنشوء الحيوان من النباتات، وأن الإنسان ناشىء من آخر سلسلة البهائم، وأنه بقبول الآثار الشريفة من النفس الناطقة وغيرها يرتقي حتى أعلى رتبة من مراتب البشر.

وقد ورد «لفظ التطور» في الطبقات الكبرى للسبكي، وفي مقدمة ابن

خلدون، وفي كتاب البدر الطالع للشوكاني. قال السبكي: ومن كرامات هذه الأمة التطور بأطوار مختلفة وهذا الذي تسميه الصوفية بعالم المثال، وتثبت عالماً متوسطاً بين عالم الأجسام وعالم الأرواح.

وقال ابن خلدون في المقدمة: إن أهل الدول أبداً يقلدون في طور الحضارة، الدولة السابقة قبلهم، فأحوالهم يشاهدون، ومنهم في الغالب يأخذون، ومثل هذا وقع للعرب لما كان الفتح، وملكوا فارس والروم، فما استعبدوا أهل الدول فعلهم، واستعملوهم في مهنهم وحاجات منازلهم.. إلى أن قال: فبلغوا الغاية من ذلك وتطوروا بتطور الحضارة، والترف في الأحوال.

وقال الشوكاني في سيرة أبي الفضل المشير إلى: أنه ولد عام كذا ورحل الى تلمسان، وفتحت على ابن مرزوق وعلى سائر علمائها في عدة علوم، ثم رحل نحو المملكة المصرية وتطور على أنحاء مختلفة.

٥ ـ أبحاث الاقتصاد الاسلامي

وضع المفكرون المسلمون أسس النظرية الاقتصادية العصرية قبل أن يعرفها الفكر الأوروبي بألف عام على الأقل. وظهر التخصص العلمي المصحح في المؤلفات الاقتصادية الإسلامية واضحاً خلال القرن الثامن الميلادي، فهناك كتاب (الخراج) ليحيى بن آدم القرشي ظهر عام ٢٠٣ هجرية أي حوالى ٧٨٥ ميلادية.

وكتاب الاكتساب في الرزق المستطاب للإمام محمد بن حسن الشيباني صاحب أبي حنيفة عام ٢٣٤ هجرية ـ ٨١٢ ميلادية. وكتاب الخراج للإمام أحمد بن حنبل.

ثم تلا ذلك في مقدمة ابن خلدون في القرن ١٣ ميلادية ـ وذلك قبل كتاب ثروة الأمم ـ إنجيل الاقتصاد الحديث الذي كتبه أبو الاقتصاد الغربي آدم سميث قبل عام ١٧٧٦ بخمسة قرون من الزمان.

وقد بحث ابن خلدون الحضارة ونشوءها، وإنتاج الثروة، وصور

النشاط الاقتصادي، ونظريات القيمة والتوزيع والسكان.

ثم كتب المقريزي كتاباً في النقود، وكتاباً في دورات الأعمال الاقتصادية سماه (إغاثة الأمة بكشف الغمة). بحث فيه أسباب الأزمات الاقتصادية، واقترح أوجه علاجها.

ومثل هذه الدراسات لم تظهر في الاقتصاد الحديث إلا في القرن التاسع عشر، كما ظهر كتاب (الفلاكة والمفلوكون) أي الفقر والفقراء لأحمد بن علي الدلجي، وهو نوع جديد من الدراسة الاقتصادية لم تظهر دراسته وأبحاثه إلا في أوائل القرن العشرين [١].

٦ - ابن رشد: نظرية المعرفة

١ - كان من أول من قرروا نظريات التحرر من الجمود، وعنده أن النظر البرهاني لا يؤدي إلى مخالفة الشرع، فإن الحق لا يضاد الحق، بل يوافقه ويشهد له.

٢ - قال إن الزمان معنى ذهني لا وجود له في الحقيقة، والزمان شيء يفعله الذهن في المعركة، لأن الزمان ليس شيئاً غير ما يدركه الذهن من هذا الامتداد المقدر للحركة. فالزمن ليس بذي وضع.

وهذا المعنى هو ما ردده «كانت» الألماني المتوفى ١٨٠٤ حين قال: إن المكان والزمان ليسا شيئاً في ذاتهما، بل هما وعاءان كبيران يحتويان على جميع الحقائق المحسوسة والعقلية، وإنهما وعاءان بلا قعر ولا جوانب. ثم قال: إنهما في الحقيقة فكرة خالصة تمكننا من تخيل الأشياء مرتباً بعضها قرب بعض. وهذا الذي قال به في أواخر القرن ١٨ كان قد قرره ابن رشد قبل ذلك بثلاثة قرون.

٣ - أعلن وحدة العقل البشري ومؤدى ذلك أن أشخاص الناس لا تخلد بعد الموت، وإنما الخلود للعقل المطلق فقط. وكان لهذه النظرية

---

(١) عن دكتور زكي شبانة في كتابه عن الاقتصاد الإسلامي.

أثر بعيد المدى على الكنيسة والدين . على أن الأمر في المسيحية غير ذلك فالكنيسة تقول : إن القديسين يأتون بالعجائب وهم موتى كما كانوا يأتون بها وهم أحياء . إنهم يشفون المرضى ويمنحون البركات ، ويطهرون الناس ، من أجل ذلك قاومت الكنيسة رأي ابن رشد في وحدة العقل وضياع الشخصية الفردية بالموت .

٤ ـ أعلن ابن رشد نظرية العقل الفعال . وهي النظرية التي استحوذ عليها توماس الاكويني في القرن الثالث عشر ، وارتضاروس الإنجليزي في العصر الحديث[١] .

وكل ما فعله توماس الاكويني ، أنه أخذ آراء ابن رشد في هذه المسألة . وزعمها لنفسه ، كما أخذ مختلف آراء ابن رشد بحذافيرها ، فنسبها لنفسه ، ثم فصلها في كتابه الضخم المسمى (الخلاصة اللاهوتية) فبدا في نظر قومه أنه هو المجرد الأكبر في المسيحية .

٧ ـ الإضافات الاجتماعية

(١) الشافعي : قدم نظرية للتعايش السلمي . هي الأصل الذي لا يختلف في الشكل أو في المضمون عن النظرية الحديثة[١] .

٢ ـ توصل الشاطبي إلى نظرية تسمى في القوانين العصرية نظرية التعسف في استعمال الحقوق ، فأثبت بعد تحليل وتفصيل أنه يجب منع الفعل المأذون به شرعاً إذا لم يقصد فيه فاعله إلا الإضرار بالغير .

٣ ـ سبق أبو العلاء المعري الفيلسوف العربي (دانتي) إلى كتابه

---

(١) راجع الدكتور محمود قاسم في كتابه : النفس والعقل .

(١) قدم هذا البحث الدكتور عز الدين فودة إلى مؤتمر لاهاي للعلاقات الدولية عام ١٩٦٦ .

قال: أسين [١] بلاسيوس عام ١٩١٩ إن دانتي استقى ملحمته الكوميديا الإلهية من مصادر عربية، وإنه في تصويره للجحيم والجنة استمد مادته من كتب الإسلام عن معراج النبي ﷺ ورسالة الغفران لأبي العلاء المعري.

٤ - سبق أبو بكر محمد الطرطوشي: الفيلسوف ميكيافللي في وضع أسس السياسة في كتابه: الأمير. وذلك بكتابه: سراج الملوك، الذي كتبه قبل خمسة قرون من صدور كتاب: الامير.

٥ - أثر البخاري وعلماء الحديث في بناء منهج التاريخ الأوروبي الحديث، وبعد وفاة البخاري بحوالى عشرة قرون بدأت فكرة تحديد منهج للتاريخ تظهر في أوروبا، ونقله الشرقيون على أنه أمر جديد. والحق أنه مأخوذ من منهج المحدثين المسلمين، وشيخهم البخاري [٢].

يقول الدكتور محمود قاسم في كتابه: المنطق الحديث، ومناهج البحث العلمي، تحت عنوان مراحل البحث التاريخي الأوروبي: لم يتبع القدماء من الأوروبيين منهجاً سليماً في دراسة التاريخ، فكانوا يخلطون بينه وبين فن القصص وكانوا يجمعون الوثائق والروايات، كيفما اتفق، ويصهرونها ويصبونها في قالب أدبي جذاب.

٦ - سبق الفكر الإسلامي علماء الغرب في مجال كتابة المكفوفين التي عرفت بالحروف البارزة، فقد عرف العلماء المسلمون هذه الطريقة، وسجلها عليّ بن أحمد بن يوسف المشهور بزين الدين الآمري.

٧ - سجل الباحثون أن الفارابي سبق آنشتاين إلى بعض النظريات في نطاق نظريته في النسبية. وأن الغزالي سبق هربرت سبنسر في تخطيط الدولة والمدينة، وقارن بين كل منهما وبين جسم الإنسان. فالغزالي يشبه الملك بالقلب، وأصحاب المهن الحرة بأعضاء الجسم، والشرطة بعصب الإنسان، والوزراء بحسن الإدراك، والقضاء بالشعور.

---

(١) راجع كتابنا: أضواء على الفكر العربي الإسلامي.
(٢) الحسيني محمد هاشم: كتاب البخاري ص ٢٥٥.

الفصل الخامس

المُنحنى الخَطِر في الثقافة الغربيّة



١ - اليهودية العالمية والفكر الغربي

استطاع الفكر الإسلامي أن يقدم للثقافات الغربية في مختلف مجالات البحث العلمي والعلوم الكونية والإنسانية معطيات ضخمة، بعيدة المدى، قام عليها الانطلاق العلمي، والتطور الاجتماعي والفكري (سياسياً واجتماعياً واقتصادياً) على نحو كاد أن يحقق للإنسانية (مدينته الفاضلة) التي كانت حلم الفلاسفة والمصلحين.

غير أن الفكر الغربي الذي كان بطبيعته إغريقي الجذور، وثني الملامح، والذي استطاع أن يسيطر على المسيحية الوافدة، فيصبغها بصبغته، ويصوغها في قوالبه لم يستطع الفكر الإسلامي أن يخرجه من طبيعته العنيدة، فقد امتص كل القيم الإسلامية البناءة في مجال العلم ومجال الفكر والمجتمع والحياة، ثم تخلى عن الجوهر الأساسي القائم على التوحيد، وأعاد صياغتها في إطاره وطوابعه. ثم لم يلبث أن أعلن مجافاته للفكر الإسلامي، وحمل عليه حملة عنيفة، وأنكر فضله وأثره في نهضته. بل وأنكر أن هذه المضامين جميعاً ذات جذور إسلامية نماها الفكر الغربي الحديث، وأضاف إليها. والواقع أن الفكر الغربي قد وقع تحت تأثير خطرين كبيرين.

الخطر الأول: خطر الجذور الوثنية الإغريقية الرومانية البعيدة المدى في تشكيل مزاجه وطوابعه، وهو مزاج ليس الدين جزءاً منه، ولا ارتباط له أساساً بالمفاهيم الغيبية، أو الروحية، أو مفاهيم التوحيد، والنبوة وما إليها حيث تقوم أساساً على فكرة الصراع بين البشر والآلهة.

الخطر الثاني: خطر اليهودية وقيمها التي يسجلها التلمود والمشنا وهو ما

كشف عنه في أواخر القرن التاسع عشر بما سمي (بروتوكولات حكماء صهيون) والدعوات الصهيونية والماسونية والبهائية، والمذهب النفسي الفرويدي والروحية الحديثة، والثيوصوفية. والمعروف أن اليهودية حاربت المسيحية منذ فجرها الأول، وحورت مفاهيمها، ثم كان لها دورها الخطير بالنسبة للحضارة الأوروبية في مجال السيطرة عليها.

ومن هنا برز تيار خطير في الهجوم على الدين والمسيحية والحضارة الغربية بصفة عامة. لقد كانت النهضة الأوروبية «وثنية في ثورتها غير مصطبغة بالدين، أهدرت أكثر ما في العصور الوسطى من الحسنات، وضحت بكثير من الفضائل. فقد كانت تترصد تحت مظهر الثقافة اللامعة شهوة عارمة، ورغبات وحشية لم تكبح جماحها في هذا العصر نزعة دينية، ولا هذبتها تجربة كتجربة العصر الحديث، فوجدت في ايطاليا الشهوة والخيانة والسم والاغتيال بجانب التهذيب الفني والأدبي، وبدت الكنيسة ناشزة عن مبادىء المسيحية بأعمالها الدنيئة المفضوحة، وفقدت سيطرتها على الأخلاق والأمانة السياسية».

وعندنا أن «اليهودية» كانت من وراء هذا التحول الخطير، التحول نحو الانحراف في مختلف قيم الحياة، ظهر ذلك بوضوح شديد في آراء «نيتشه» و «دارون»، وفي الدعوة الماسونية التي كانت تخفي هدفها الأساسي في هدم المسيحية، وبناء هيكل سليمان.

فقد كشفت بروتوكولات حكماء صهيون، كيف دبرت اليهودية العالمية القضاء على الحضارة المسيحية الأوروبية، والعمل على تحطيم الديانة المسيحية تحطيماً كاملاً.

يقول المستشرق الاسباني فيلاسبازا: لقد حجب الغرب أنوار المسيحية الأولى وبدل ما في المسيحية السامية من مواساة، وحوّل فلسفتها إلى أحاج ومعميات. ويقول فيلكس فارس: بالرغم من أن الغرب قد بدّل فلسفته المسيحية، فإنه لم يتمكن من إيصال الإسلام إلى ضميره،

كما أنه امتنع عليه أن يبلغ بالمسيحية إلى فطرته، وبقي النزاع مستحكماً فيه بين الفطرة والضمير، لأن ثقافته المسيحية لم تزل متأثرة بالأحاجي والمعميات.

ويردد هذا الكلام كاتب شرقي، وكاتب غربي، كلاهما مسيحي. ولعل هذا الاتجاه قد استمد وجوده من تراث ضخم واجه المسيحية الغربية بالنقد، وكان وراءها خصومها التقليديون اليهود، المتأهبون لتدمير الحضارة، ووراثه السيادة العالمية، وقد تركزت هذه الحملة على الإشارة إلى مواقف الكنيسة ضد التقدم وإثارة قضايا إعدام المفكرين، وإحراق العلماء، والإيماء إلى مسؤولية المسيحية والكنيسة عن فظائع سان برتلمي، وهي مذبحة البروتستانت التي أمر بها شارل التاسع ليلة ٢٤ أغسطس ١٥٧٢ والتي استمرت ثلاثة أيام قتل فيها مائة ألف إنسان. ومذبحة «الاليجواه» وهي طائفة دينية انتشرت في القرن الحادي عشر بجنوب فرنسا. وقرر البابا إينو سانت الثالث إبادتها عن آخرها فأبيدت (١٢٠٨ م).

وحرب الكاثوليك البروتستانت (الأنابانيسيت) وقتل فيها ١٦٠ ألفاً، أو محرقة توركادا الدومنيكي الاسباني (١٤٢٠ - ١٤٩٨) والتي قضت على ستة آلاف إنسان بالنار.

وتبدو صورة هذا المنحنى الخطير من خلال «موقف أقطاب الفكر الغربي من المسيحية المنحولة» فإن (هكسلي) قد رفض المسيحية رفضاً قاسياً، ورأى أنها لا تصلح مطلقاً لأن تكون عاملاً مدنياً، ورد جميع النظريات المسيحية كما حارب (رينان) ما أسماه المسيحية التاريخية. وقال: إن الكتاب المقدس عنده ليس إلا أثراً من تكامل الخرافات والأساطير، وقد هاجم المسيحية ووصفها بالسلبية. وكذلك (شفيترز) في كتابه عن المسيح. كما وصف «كارل ماركس» المسيحية بأنها «ديانة الكلاب الضالة».

وقال (برتراند رسل) إنه لم يعتنق المسيحية منذ نشأتها سوى فرد

واحد، وهذا الفرد مات على الصليب. وكتب (أوجست كونت) فصولاً عن الفلسفة الواقعة هاجم فيها الكنيسة الكاثوليكية. وأعلن كثير من الفلاسفة أن الأوروبي لم يتمكن من الخلق والابتكار إلا بعد أن تحرر من قيود تعاليم المسيحية الصارمة في الروحية وانطلق في جو الثقافة اليونانية.

ويعد ميكيافلي [1] أخطر من قاوم الفكر الغربي المسيحي، فقد دعا إلى التخلص من سلطان الكنيسة، وقال إنه لا يرى في الفضائل الخلقية أساساً للفضائل السياسية، وجعل أسس الفضائل عند الرجل السياسي هي قدرته على إقامة حكومة قوية مهيبة الجانب، نافذة السلطان، وأباح ميكيافلي للأمير الاتصاف بالخديعة والنفاق حتى يحتفظ بسلطانه السياسي.

وقال: يجب على الأمير أن يظهر مثال الاستقامة والإخلاص، ومثال العطف على الإنسانية، ومثال التقوى أمام الناس، ولكن عليه أن يعوّد نفسه ويمرّنها على أن يهمل الوسيلة إذا كانت هذه الغاية هي الاحتفاظ بالسلطة والنفوذ.

وهكذا جعل ميكيافلي الأخلاق وأسسها خاضعة للعوامل السياسية، ودعا إلى نظرية الغاية تبرر الوسيلة، إذا كانت هذه الغاية هي الاحتفاظ بالسلطة والنفوذ. وقال إن كل وسيلة توصل إلى الغرض المنشود محمودة وشريفة.

وهاجم الخلق المسيحي وقال إنه خلق ضعيف.

أمّا نيتشه، فقد كان من أخطر من حملوا على الدين بصفة عامة، وعلى المسيحية الغربية بصفة خاصة فقال: إنها تلجأ إلى عدم الصدق للتأثير على الناس، ولإثارة انفعالاتهم حتى أصبحت الوسائل المتبعة وسائل غواية أكثر منها وسائل لنشر الدعوة. إذ إنها ترفض كل ما يمكن أن يثير المقاومة مثل العقل والفلسفة والحكمة والشك، واصرَّ إصراراً

(١) ١٤٦٩ - ١٥٢٧.

عنيداً على أن العقيدة من عند الله، وأنه لا مجال فيها للنقد والفحص، بل للتسليم والاعتقاد، وإنها تبث روح التعصب والغرور لدى الفقراء وتصفهم بأنهم (ملح الأرض) على ما يقول الإنجيل، وأنها تتعامل مع المتناقضات، وكل ما يثير الغرابة والدهشة، وتمجد الاضطهاد وخدمة الآخرين.

ويرى أن التناقضات الموجودة في المسيحية هدامة لا بناءة، وأنها قضت على الإمبراطورية، وحدت من انتشار الإسلام حتى جاء لوثر: فاضاع مكاسب عصر النهضة.

وقال إن التصور التراجيدي للحياة (الصعود والهبوط) ليس تصوراً مسيحياً صرفاً، ولكن عرفه الشعراء اليونان من قبل، كما عرفته الأساطير اليونانية، وبعض الفلسفات مثل فلسفة أفلاطون، وعرفه الرومانيون في عواطفهم وانفعالاتهم.

ويرى أن النظرية المسيحية المشهورة عن الخطيئة والفداء، هو تصور موجود قبل المسيحية، ثم تسرب إلى المسيحية في تصورها للكون. وهو التطور الأفلاطوني للكون بحركتي الهبوط الذي تمثله الخطيئة، والصعود الذي يمثله الفداء!. وهو التصور الذي خلد أوغسطين في (مدينة الله). هذا التصور ليس مسيحياً بالضرورة، بل هو التصور القديم للتاريخ قبل المسيحية.

ويرى نيتشه: أن المسيحية عدو العلم. إذ إنها لا ترتكز على الواقع الذي يصدر العلم عنه كما يرى أن الإيمان المسيحي معارض للعلم خاصة لعلمي التفسير والطب.

(٢)

وهكذا نشأ تيار عنيف في الفكر الغربي يعارض «المسيحية» فإذا كانت تدعو إلى الزهد والرهبنة، فقد اتجه الغربيون إلى الإباحة في اقتحام الحياة، وإذا كانت المسيحية تحرم العنف والقوة، فقد وصلوا

إلى أقصى درجة في الانتقام والدمار. وقد جاء ذلك في نطاق ما عرف من الدعوة إلى تهويد المسيحية أو تدميرها من الداخل. لقد كان من الحق أن يقال أن الكنيسة في القرون الوسطى قد جمدت الفكر، ووقفت في وجه التقدم. ولقد ثار الفكر الأوروبي على الكنيسة والمسيحية الغربية، ولكن في استطاعة هذا الفكر أن يهضم الفكر الإسلامي، ويجري في طريقه، لولا أن هناك قوة استطاعت أن تدفعه حتى يربط نفسه بالوثنية الإغريقية، ولو كان هذا الاتجاه في ذاته سلبياً. فلقد امتص العرب في منهجهم العلمي خير ما في الفكر الهِليني والفارسي والهندي بعد أن صححوه، ثم نموه أو صهروه.

لقد استطاعت هذه القوة الغامضة أن تجعل حركة الإصلاح المسيحي التي كانت تستمد مفاهيمها من الإسلام أن تتحول إلى صراع دموي، وانقسام وخلاف عنيد، فقد نقلت الفكر الغربي نقلة ماكرة من جذوره المسيحية التي هي شرقية أصلاً قبل انحرافها. ومن معطيات الفكر الإسلامي إلى الهِلينية الإغريقية، ونمت فيه ذلك العداء القوي لكل شيء ما هو ديني أو روحي أو خلقي. ودفعته إلى عبادة الإنسان، أو عبادة المادة، وصبغته بالصبغة اللادينية المنكرة للغيب والميتافيزيقا.

ومن هنا نشأ ذلك الاتجاه الذي نما من بعد نمواً كبيراً، والذي وصل الآن إلى أخطر نتائجه في التحول إلى فهم الإنسان على أنه «حيوان» واتجاهه إلى التحليل النفسي على أساس الجنس كما صوره (فرويد) أو إنكار كل العوامل غير العامل الاقتصادي في تطور التاريخ كما رسمه (ماركس) وإنكار وجود الأسرة كخلية طبيعية في بناء المجتمع كما نظرية (دوركايم). ومن ثم حل التعبد للرقي المادي، وللذة، وللحرية المطلقة، وسرت عقيدة تقول بأنه ليس في الحياة هدف سوى الاستمتاع بهذه الحياة نفسها.

«إن هياكل هذه الديانة إنما هي المصانع العظيمة، ودور السينما

والمختبرات الكيماوية التي أباحت الرقص وكهنة هذه الديانة هم الصيارفة والمهندسون وكواكب السينما ».

ومن ثم جرى تحوير مفاهيم الدين والأخلاق، ومختلف القيم الاجتماعية في أضواء هذا الاتجاه الذي أوجده خصوم المسيحية، والحضارة الغربية. فقد رددوا القول بأن الفضائل ليست قيماً ثابتة، ولكنها متطورة ومتصلة برفاهية المجتمع المادية، وأعلنوا إنكار وجود الحب الأبوي، وإنكار العفاف والإحصان والسخرية بهما، وأخذت الفضائل القديمة التي يؤيدها الدين تتخلى عن مكانها بالتدريج للفضائل الغربية الجديدة التي تدعو إلى حرية فردية للجسد البشري غير مقيدة. وبدأ تغيير كامل في قيم السياسة والاجتماع والاقتصاد والتربية.



ومن ثم تبلورت مفاهيم الفكر الغربي في صورة تغلب عليها طوابع التحرر من القيم الروحية والأخلاقية في مجال المجتمع مع غلبة طابع الحس والمادة، وأصبح الدعاة الجدد يرددون القول بأن الحقائق إنما هي وسائل لفهم الدنيا (وليم جيمس) والأخلاق ترجع إلى أسباب حيوانية بيولوجية (فرويد) والكتب المقدسة موضع الشك.

والتوراة كتاب بشري، وليس كتاباً سماوياً (نيتشه).

والدين نظام اجتماعي قابل للتطوير مثل الجماعة نفسها (أوجست كونت)

والجنس الأبيض سيد الأسياد (جوبينو).

ولقد أسقطت هذه المفاهيم: قيم التوحيد والألوهية والنبوة، ثم لم تلبث أن أسقطت قيمة الإنسان نفسه في محاولة خطيرة ترمي إلى إثبات أن الإنسان هو عبد نزواته وغرائزه الجنسية، وأن العقل الباطن هو المسيطر الفعال في توجيه الإنسان. وبهذه النظرية أدخل الإنسان في

حظيرة الحيوان، استمداداً من أن الإنسان سليل الحيوان، وأنه ينتمي إلى فصيلة القرود.

ثم استمدت من هذه القواعد الخطيرة أصول الفلسفات والنظريات المختلفة في مجال الاجتماع والتربية والاقتصاد. ثم اتسع نطاق هذه الاتجاهات، فكان القول بأنه ليست هناك قوانين مطلقة، وليست هناك قيم ثابتة، وأعلنت الدعوة إلى تحرير الإنسان من كل القيود، حتى يتمتع بوجوده، ويطلق لحريته العنان، ووجهت إلى المثل الأخلاقية والقيم الروحية أسوأ الاتهامات، وأنكر مفهوم الحق والخير. كان هذا الاتجاه في مجمله ثمرة عمل تلك القوة العاتية التي فرضت نفسها على الفكر الغربي المسيحي وحولته عن طريقه الطبيعي، الطريق الإنساني الجامع بين الروح والمادة إلى الإباحية والإلحاد.

يظهر هذا واضحاً في نصوص بروتوكولات حكماء صهيون، أو الإنسان البلشفي، كما أطلق عليه (سرجي تيلوس) أول من نشره في العالم قبل خمسين عاماً باللغة الروسية.

وتستطيع بعض هذه النصوص أن تلقي الأضواء الكاشفة لهذا المنحنى الخطير، فقد تبين أن (بروتوكولات حكماء صهيون) إنما هو مخطط سيطرة (الصهيونية) على العالم باستخدام كل الوسائل، وأهمها الدعوة إلى الإباحة وإشاعة الأدب الزائف المنحرف.

يقول البروتوكول الثالث عشر: «سننشر بين الشعوب أدبا مريضا قذراً تغثى له النفوس، ويساعد على هدم الأسرة، وتدمير جميع المقومات الأخلاقية للمجتمعات المعادية لنا، وسنستمر في الترويج لهذا الأدب وتشجيعه حتى بعد فترة قصيرة من الاعتراف بحكمها».

فالدعوة إلى الإباحة المطلقة بهدم الأسرة، وتدمير أخلاق المجتمع، وإشاعة الانحلال في الفرد والأمة والدولة هو هدف هذا المخطط. وتقصد (بروتوكولات صهيون) بالمجتمعات المعادية لها: المجتمعات

المسيحية في الغرب والإسلامية في الشرق، فهي تقوم أساساً على العداء للمسيحية، والعداء للإسلام، وهي لا تتصدى للعقيدة مباشرة، وإنما تهدم العقيدة بهدم الأخلاق والأسرة، ولا شك أن هدم الأسرة وتدمير أخلاق المجتمع، إنما هو تحطيم لمناعة الأمة ضد المقاومة، ودون القدرة على رد التحدي، إذ يجدون في هذا التهديم الاجتماعي قوة فاعلة أكثر من التهديم الأيديولوجي الذي يروجون له في الحركات الفلسفية والاقتصادية والعلمية، وهناك شبه إقرار بين الباحثين المستوعبين للتيارات والمخططات بأن إصبعا من الأصابع الصهيونية كامنة وراء كل دعوة تستخف بالقيم الأخلاقية، وترمي إلى هدم القواعد التي يقوم المجتمع الإنساني عليها. ومن هذه البروتوكولات نماذج خطيرة تكشف جوانب هامة، مما يقع تحت أبصارنا دون أن يفهم تفسيره أو مصدره.

(بروتوكول ١٧)

وقد عنينا عناية كبيرة بالحط من كرامة رجال الدين عند الأمميين في أعين الناس. وبذلك نجحنا في الإضرار برسالتهم التي يمكن أن تكون عقبة كؤودا في طريقنا. وإن نفوذ رجال الدين ليتضاءل يوماً بعد يوم.



ومنها العمل على تحطيم «الدين» عامة، والنيل منه. تقول البروتوكولات:

«لقد خدعنا الجيل الناشىء، وجعلناهُ فاسداً متعفناً بما علمناه من مبادىء ونظريات يجب أن تحطم بكل عناد الإيمان، وتكون النتيجة الموقتة لهذا، هي إثمار ملحدين يجب أن تكتسح كل الأديان والعقائد الأخرى. وإن كان هذا يؤدي إلى وجود ملحدين ينكرون وجود الخالق، واليوم تسود حرية العقيدة في كل مكان، ولن يطول الوقت

إلا سنوآت قليلة حتى تنهار المسيحيةانهياراً تاماً » .

وهناك إشارة صريحة إلى مدى التدبير وراء النظريات الفلسفية ذات الدويِّ، ومدى تأثيرها .

يقول البروتوكول الثاني : « ليعتقدوا أن هذه القوانين النظرية التي أوحينا إليهم ذات أهمية قصوى ، يجب أن لا يكون هنا اعتقاد في أن مناهجنا كلمات جوفاء ، لاحظوا أن نجاح دارون ، وماركس ، ونيتشه ، قد دبرناه من قبل ، سيكون واضحاً على تأكيد الأثر الأخلاقي لاتجاهات هذه العلوم في الفكر الأممي ، ولم يفتنا تقدير الآثار السيئة التي تركتها هذه النظريات في أذهان غير اليهود » . وبالإشارة إلى « الحرية » ، يقول أحد البروتوكولات : إن الأثر الهدام للأخلاق الذي تنشئه علومهم في الفكر غير اليهودي واضح لنا بكل تأكيد « إن لفظ الحرية يجعل المجتمع في صراع مع جميع القوى . بل مع قوة الطبيعة ، وقوة الله نفسها . فإذا أردنا أن نعرف مدى أثر هؤلاء الفلاسفة لقلنا : إن دارون هو أول من استغلت نظريته لتخريج فلسفة تحتقر الإنسان ، وتنكر أنه سيد الخلق . تقول البروتوكولات : إن دارون ليس يهودياً . وكلنا عرفنا كيف ننشر آراءه على نطاق واسع ، ونستغلها في تحطيم الدين .

أما فرويد فقد أنكر الحب والقلب ، وحاول أن يصور النفس البشرية على أنها مجموعة من الرذائل تتحكم في قواها وتسيطر على مشاعرها . وأن الإنسان عبدُ نزواته وغرائزه .

أما ماركس فهو صاحب الدعوة إلى التفسير المادي للتاريخ .

أما نيتشه : فصاحب الحملة العنيفة على المسيحية ، والقائل بفكرة الإنسان الأعلى ، وموت الإله ، وإعفاء الإنسانية من التقيد بالأخلاق المسيحية ، لأنها أخلاق الأذلاء .

ويرى دوركايم : أن الدين والزواج والأسرة ليست نزعات فطرية في الإنسان ، وأن القواعد الخلقية لا وجود لها في ذاتها . ويمكن القول

بأن هذا «المنحنى الخطير» الذي حاولت قوى الصهيونية العالمية توجيه الفكر الغربي إليه إنما كان يرمي إلى إغراق الإنسانية كلها في حمأة الرذيلة.

وبالرغم من أن الفكر الغربي قد سادته نظريات أخرى معارضة لنظريات: فرويد وماركس ونيتشه وتفسيرات خلفاء دارون من اليهود. فإن قوة النفوذ المسيطرة على دور النشر والصحف والإذاعات وغيرها قد مكنت لهذه النظريات بأن تنمو وتتسع وتخترق جدران الجامعات والمعاهد، ودوائر المعارف حتى أصبحت في نظر الأجيال التالية لها، وكأنما هي حقائق علمية. ثم كانت الخطورة البعيدة المدى في أن هذه القوى قذفت العربية بذلك السم كله، وفرضته عليها عن طريق التغريب والغزو الثقافي، وسلطان الاستعمار والنفوذ الأجنبي.

ولقد كانت دائماً للثقافة العربية قيمها ومفاهيمها تجاه كل هذه القضايا والنظريات والفلسفات التي أثارها الفكر الغربي، فلم تتقبلها كقضايا مسلم بها، ولكنها نقدتها وأخذت منها ورفضت وكشفت عن أخطائها ومخالفتها لجوهر الذات العربية، والمزاج العربي الإسلامي والقيم الإنسانية أساساً، وليست الإسلامية وحدها. ويمكن القول بأن الفكر الغربي خرج من الكهنوتية والنسك والزهادة والغيبيات التي كانت قد بلغت أقصى حدودها إلى تحول جذري في الوجه المقابل. قوامه التحرر المطلق من مختلف القيم الدينية والخلقية والإنسانية. وهو تحول مفتعل وموجه، وليس تطوراً طبيعياً للفكر الغربي الذي بدأ بإقامة مناهجه أساساً على مفاهيم الفكر الإسلامي، وهي ذات طابع إنساني وأخلاقي.

غير أن القوى القاهرة استطاعت أن تعود به إلى مفاهيم الوثنية الإغريقية، وأن تجرده تماماً من مقومات المسيحية والإسلام على السواء رغبة في تدميره، وتدمير الجوانب القوية في الحضارة حتى تسقط البشرية محطمة في قبضة المطامع الاستعمارية الصهيونية، وكان أبرز

مفاهيمها هو نفي القداسة عن الدين والأخلاق والقيم والتشكيك في بقائها .

ولعل هذا هو مصدر الإحساس الذي يسود فكر المصلحين من أن الفكر الغربي تسوده سحابة من المادة والتحلل ، على نحو يفهم منه نمو الجانب المادي دون الجانب الروحي ، فقد نما جسم الحضارة وتباطأ نمو عقلها حتى اختل التوازن بين قواه الفاعلة ، وقواه المنفعلة ، وهو ما يعبر عنه باختلال التوازن بين الحضارة والثقافة . وقد ضاعت صيحات هؤلاء المخلصين الداعين إلى تحرير الفكر الغربي من قيوده في ضجيج هذه الدعوات ودويها المفتعل المتعالي . وقد تكشف أن ماركس ، ونوردو ، وفرويد ، وبرجسون ، واسبينوزا ، ودوركايم كانوا جميعاً من اليهود ، وأن لبعضهم صلة وثيقة بالحركة الصهيونية التي أقامها (هرتزل) في أواخر القرن الماضي وأن هذه المخططات الفكرية والفلسفية ، إنما تمثل جوانب من العمل الضخم الذي قامت به الصهيونية في غير الميادين السياسية والاقتصادية لفرض نفوذها على العالم .

الفصل السادس

تطور الفكر العربي بين الفردية والجماعية

تطور الفكر الغربي بين الفردية والجماعية

يمكن القول بأن تطور الفكر الغربي قد مر بخمس مراحل:

أولاً: هدم سلطان الكنيسة ونفوذها وفكرها.

ثانياً: بناء النهضة على أساس المنهج العلمي التجريبي الإسلامي.

ثالثاً: المغالاة في عبادة الفرد، وتقديس الإنسان والانحراف به إلى مفهوم الوثنية من إطلاق الحريات العقلية والاجتماعية، وإنكار العقائد الدينية، والقيم الأخلاقية، وإعلاء شأن العنصر الأبيض، وعبودية سائر الأجناس.

رابعاً: انبثاق الدعوة الماركسية الغربية، والثورة على الفردية، ونفوذ الرأسمالية، وقيام الصراع بين الرأسمالية والاشتراكية.

خامساً: انبثاق الدعوة الصهيونية وارتباطها بالرأسمالية، ونموها في ظل الاستعمار، وإقامة حاجز بشري في قلب العالم الإسلامي والأمة العربية، ومحاولة صبغ كل مقدرات الفكر الغربي بمفاهيمها وقيمها لإلقائها تحت السيطرة العالمية.

وقد عاش الفكر الغربي، وما زال بين صراعات المذاهب جميعها، دون أن يصل إلى وحدة فكر أساسية، إلا أن تكون هذه القاعدة هي «المادية» التي تحكم الفكر الغربي الرأسمالي والماركسي جميعاً. والتي تعد مصدراً أساسياً للمذاهب الفكرية والاجتماعية والسياسية التي انبثقت منها

البراجماتية والماركسية على السواء مع خلاف بين الفردية والجماعية، وبين الرأسمالية والاشتراكية. وما زال النظامان الرأسمالي والاشتراكي يتصاعدان.

أما الصهيونية فهي قد ظلت حركة فكرية حتى حققت وجودها بقيام «إسرائيل» في قلب فلسطين. عندئذ بدأت تكشف مخططاتها التي تضمنتها أيديولوجية تعمل على وراثة الاستعمار الغربي كله، وإقامة إمبراطورية في قلب العالم العربي، وإعادة بناء هيكل سليمان في مكان المسجد الأقصى.

ويربط الفكر الغربي بين الثورة الفرنسية (١٧٨٩) وبين الثورة البلشفية (١٩١٧). ويرى أن الثورة الأولى هي رد فعل لاستبداد الأمراء، ونفوذ الكنيسة. وأن النظام الديمقراطي كان وليد الثورة الفرنسية، وأن الثورة الثانية هي رد فعل استعلاء رأس المال وجشع الرأسمالية، وتحكمها في جوانب الحياة الإنسانية وقضائها على الحرية الفردية، وأن النظام الاجتماعي هو وليد الثورة البلشفية.

فالفردية الغربية تعلي من شأن الفرد، وتجعل له السيادة الكاملة، والحرية المطلقة. بينما الجماعية الاشتراكية تعلي من شأن المجتمع، وتجعل له السيادة الحقيقية ويحاول بعض المؤرخين أن يعزي إلى الصهيونية العالمية دوراً في إقامة الثورتين. فالثورة الفرنسية هي التي أخرجت اليهود من الجيتو إلى حق المواطن، والمشاركة في مختلف مجالات السياسة والمناصب والتمثيل النيابي. ومن هنا انطلق اليهود للسيطرة على مقاليد الصحافة، والمال والعلوم الكيميائية على نحو حقق لهم تقدماً بعيد المدى في هذا المجال.

ثم كانت لهم مشاركتهم وتأثيرهم البعيد المدى في الفلسفات الاجتماعية والسياسية التي هدمت ضوابط الدين والأخلاق، وإعلاء شأن الغرائز والإباحة والدعوة إلى التحرر من العقائد والقيم والمقدرات الروحية والنفسية المتصلة بالرسالات السماوية، وإعلاء شأن المفاهيم المادية الخالصة،

وتفسير التاريخ تفسيراً مادياً.

غير أننا إذا نظرنا إلى الفكر الغربي نظرة منصفة مجردة تصورناه فكراً قد حرر نفسه من قيود كادت تحول بينه وبين التقدم والنمو، ولكنه في اندفاعه إلى هذا التحرر لم يستطع الاحتفاظ بالتوازن بين المادة والروح، أو بين العقل والبصيرة. فتنكر للروح والبصيرة تنكراً كاملاً، ربما كان ذلك بفعل «عوامل» وافدة قسرته على هذا الانحراف، وأن هذه العوامل كانت حريصة على أن تخرجه من الأثر العربي الإسلامي القائم على «العلم مع الضمير» في اندفاع لبناء حضارة إنسانية وقف بها المسلمون، عند حد محدود. وكان على الغرب أن يواصل تنميتها وبناءها. هذا الانحراف، دفع الفكر الغربي إلى التماس قيم الوثنية الإغريقية، والتنكر للدين جملة، ومن بينها الإسلام الذي كان ديناً ومنهج حياة. ثم كان هذا الإغراق العاصف في الرأسمالية، وتقديس الفردية على النحو الذي وصل إلى العلمانية الإلحادية التي جهرت برفض أية صورة للإيمان بالله، والتي أخرجت الدين من التربية، وفصلت الأخلاق عن السياسة.

ثم ارتبط هذا الاتجاه بالإعلاء للجنس والعنصر، وسيادة الجنس الأبيض صانع الحضارة، واستباحة الحق في الاستعمار والاستعباد للأجناس الملونة المتخلفة، واعتبارها مصدراً لخاماته وأسواقاً لتجارته، واعتبار قيم الحرية والعدل والمساواة حقوقاً لجنسه وحده، لا للإنسانية كلها. ثم مجد الإنسان ذاته، وأباح لنفسه كل حرية دون قيم أو ضوابط، وتنكر لله. واستغلت الرأسمالية العاملين، وشرعت الربا والرشوة والمقامرة والاحتكار. وكان لا بد للمستضعفين من ثورة على الطغاة، ولا بد من دعوة عالية إلى الجماعية في مواجهة الفردية العاصفة، فكانت الإشتراكية داعية إلى إعادة تشكيل المجتمعات وفق عمل البشر وإنتاجهم.

فانبثاق الاشتراكية الغربية هو تطور طبيعي للمجتمع الغربي، وضرورة

لا شك في تحركها في مجتمع غلت فيه الرأسمالية والفردية، فكان لا بد لها من رد فعل. فلما قامت الثورة البلشفية انقسم المجتمع الغربي إلى صراع طويل مرير بين الجماعية والفردية ما زال مستمراً وقائماً، وسيظل إلى وقت بعيد. وما زال بعيد المدى في الفكر والثقافة والاقتصاد والسياسة للمجتمع البشري كله.

وقد ارتبطت الرأسمالية الغربية الفردية بالاستعمار، كما ارتبطت الاشتراكية بالدعوة إلى التحرر من الاستعمار. وقد هاجمت الماركسية الأديان، وهي في نظرها الدين الغربي الذي أدار عليه ماركس قضية اوروبا وأزمتها الرأسمالية في ضوء دور المسيحية الغربية، والكنيسة في الصراع بين الطبقات. بل لقد كانت هذه النظرة هي نقطة التحدي أمام كل الذين هاجموا الدين. ولم يكن الإسلام قد دخل بعد في صراع مع المجتمع الأوروبي، ولم يكن له موقف ما من الحضارة أو الرأسمالية أو العلم.

ويقول هكسلي في كتابه (دين بغير وحي) Re!igion without Renelation إن الشيوعية الماركسية أكثر تنسيقاً وملاءمة. لكن أساسها المادي المحض حد من فاعليتها، فقد حاولت أن تنكر حقيقة القيم الروحية. وهذه القيم موجودة قائمة، لذا كان على الشيوعية أن تقبل نتائج هذا الخطأ الإيديولوجي فأقبلت على فتح أبواب الكنائس للجموع المتعطشة إلى القيم الروحية.

ويرى توينبي أن الماركسية طريقة لتفسير السياسة والاقتصاد والحياة والنزعات، وهي نظرية ودعوة لعمل ما، وفلسفة تتناول جميع نواحي النشاط الإنساني، ومحاولة لجعل التاريخ بماضيه وحاضره ومستقبله نظاماً منطقياً يحمل في طياته مصائر محتومة كالقدر.

ويقول سارتر: إن الماركسية فلسفة المرحلة المعاصرة، وستظل فلسفة المرحلة المعاصرة طالما أن الظروف الموضوعية التي أوجدتها قائمة.

ومن الحق أن يقال ان الماركسية كانت ضرورة طبيعية، ورد فعل

لا مفر منه نتيجة لتطور المجتمعات الأوروبية، واستعلاء الرأسمالية والفردية. ولما كانت الرأسمالية قد ارتبطت بالكنيسة، واستمدت مفهومها من اللاهوت المسيحي الذي يعلي من شأن الفردية (راجع توينبي) فقد أخذت الماركسية الجانب المعاكس تماماً، وأعلنت خصومتها للمسيحية الغربية، والكنيسة والدين بصفة عامة.

وقد تمثلت دعوتها في إعلاء شأن الطبقات الكادحة، للقضاء على الرأسمالية الغربية، ممثلة في الشركات والاحتكارات والبنوك الكبرى.

فتلك الإيديولوجية من نتاج المجتمع الغربي الصناعي المسيحي. فالإيديولوجية الغربية والإيديولوجية الماركسية تمثلان الصراع بين نظريتي الفردية والجماعية. وعندما بلغت الرأسمالية أعلى صور الاستغلال كانت الماركسية بمثابة رد فعل طبيعي للثورة الصناعية الأوروبية، وللمجتمع الرأسمالي الصناعي، ودعوة لتحرير الطبقات العاملة من ربقة أصحاب رؤوس الأموال.

هذا هو ضمير الاشتراكية الحقيقي بعيداً عن الفلسفات والمذاهب المتصارعة، وهو تطور طبيعي للمجتمع الأوروبي الذي أخذ يصنع أيديولوجياته واحدة بعد واحدة من أجل تحقيق قيام المدينة الفاضلة أو «أيتوبيا العدل والحرية». وإذا كانت الثقافة العربية تؤمن بالعدل الاجتماعي، فإنها تختلف مع النظرية المادية، ومع النظرة اللادينية، ومع المادية التاريخية، ومع الرأسمالية نفسها. وتجد في جذور فكرها الإسلامي نظرات سمحة اهتدى بها العالم في مجال الحرية. والديمقراطية والاشتراكية. ولذلك فإن للثقافة العربية أسساً عميقة، قوامها الإيمان بالحرية والشورى والعدل الاجتماعي التماساً من قيمها، وظروف مجتمعاتها وحاجاتها وفي ظل مفاهيمها الجامعة بين الروح والمادة والعقل والضمير والدين والدنيا والآخرة.

وهي قيم أساسية مفتوحة أمام التطور التاريخي، وأمام حاجة المجتمعات، وتمثل إطاراً مرناً الذي يسمح بقيام أنظمة سياسية واجتماعية

واقتصادية في ضوئها، وعلى هداها تتفق مع تطورات العصور، واختلاف البيئات.

وفي هذا يبدو عمق القيم الأساسية للثقافة العربية التي لا تتعرض للإهتزازات والتحولات التي تتعرض لها الإيديولوجيات الوضيعة التي فرضها على الغرب المفهوم القائل بأن عقائدها أساساً لا تقيم نظاماً إجتماعياً، وإنما تقف عند حدود القيم اللاهوتية الخالصة.

وفي ظل ذلك ما تزال النظريات الغربية من ليبرالية وديمقراطية وماركسية تتطور وتتغير وتضيف وتحذف مجاراة لتطور الزمن، واختلاف البيئات. بينما تقدم الثقافة العربية أصولاً ثابتة لنظام مجتمع في مضمون واسع قادر على التكيف في كل عصر وبيئة.

وأبرز ما تتميز به الثقافة العربية أنها تستطيع أن تقدم للإنسانية ما في النظرتين الفردية والجماعية، فهي تجعل الفرد للمجتمع، والمجتمع للفرد، وتحقق لكل طبقة حقها تجاه الطبقات الأخرى، وتحرر الطبقة العاملة والفقيرة من سيطرة طبقة أخرى، وتزيل الفوارق بين الطبقات وتوزيع الثروة على أفراد المجتمع بالعدل، وذلك دون صراع أو حقد، وفي تكافل اجتماعي وأخوي.

الفصل السابع

أثر الصهيونية في الفكر الغربي[1]



أثر الصهيونية في الفكر الغربي

كان لمخططات الصهيونية العالمية ممثلة في الماسونية خلال الفترة السابقة لإعلان الدعوة الصهيونية ١٨٩٧ - وفيما بعدها أثرها بعيد المدى في الفكر الغربي، فتحول من طريق إلى طريق، وكان أبرز المفكرين اليهود تأثيراً في الفكر الغربي.

فرويد: علم النفس ونظرية الجنس (خلق الإباحة الحديثة على نمط الوثنية اليونانية) ومجد الغريزة ودعاوى إطلاق الشهوات البشرية.

ماركس: نظرية التفسير المادي للتاريخ.

دوركايم: نظرية التفسير المادي للمجتمع.

أميل لودفيج: تعرية البطولة وردها إلى الماديات.

برجسون: نظرية النسبية.

اسبينوزا: إنكار الألوهية.

ماركس نوردو: حلل المبادىء والنظم التي تدعم المدنية، وأظهر فسادها وتعفنها.

أندريه مورا: السيطرة على الأفكار، وتحويلها إلى الإثم عن طريق الأدب.

اسبنجلر: أنذر بقرب زوال الحضارة المسيحية.

هذا بالإضافة إلى هويتمان، وتوماس مان، ودامنسكي، ودزرائيلي.

والوقع أن الفكر اليهودي الصهيوني قد حدد مفاهيمه وأهدافه منذ وقت بعيد، وعمد إلى السيطرة على الفكر الغربي، واحتوائه وتوجيهه إلى أهداف الفكر الصهيوني، وتصفيته من مفاهيم المسيحية والقيم الإنسانية، واستغلال كل وسائل الثقافة والحضارة (الجامعة، والكتاب، والصحيفة) في تحقيق هذه الأهداف.

وأول أهداف الصهيونية السيطرة على النظم الدينية والأخلاقية من أجل السيادة على العالم، والسيطرة عليه، وتسخيره. فلا بد من تخريب العالم أولاً قبل السيطرة عليه. وذلك عن طريق الجمعيات السرية المسماة بالماسونية وذلك بمحاربة الأديان جميعاً، والكثلكة بنوع خاص، والعمل المنظم على بث روح الإلحاد في العالم. ويرى كثير من الباحثين أن «الصهيونية» مهدت لاستيعاب الرأي العام، والمسيحي والغربي ابتداء من ظهور الكثلكة (منذ ٤٥٠ سنة). وقد استخدمت الصهيونية أسلحتها الدعائية في أعقاب حركة الإصلاح الديني. وعمدت الى السيطرة على مجالات العلوم والفكر، ووقفت وراء الزعامات العلمية، وحولت مفاهيم (دارون) ونقلت مذهبه الى مجال تشكيك المجتمع الإنساني في طبيعة الخلق، وكانت من وراء (فرويد) في نظرية الجنس و (دوركايم) في قوله بأن نظام الأسرة نظام مصطنع، ووراء (نيتشه) وهو ينادي بسياسة القوة وسحق الضعفاء بدون رحمة.

وهكذا شق الفكر الصهيوني طريقه للسيطرة على الفكر العالمي عن طريق التعليم والإعلام والقضاء على القيم وزرع الشك والريبة، للوصول بالفكر البشري إلى مرحلة الحيرة، ومن ذلك قول البروتوكولات:

«لاحظوا أن نجاح دارون وماركس ونيتشه نحن الذين رتبناه من قبل».

ومن يراجع تاريخ الفلسفة يجد دور اليهود فيها واضحاً، فهم وراء الفلسفات التي تعمل على تحطيم وتدمير القيم الإنسانية.

وقد وصلت الصهيونية إلى قدر كبير من تحقيق غاياتها بتدمير القيم

الأخلاقية في دور الغرب، وفي احتواء الفكر الغربي بمختلف نزعاته، والسيطرة عليه.

وبذلك سيطر الفكر اليهودي على قلب الفكر الغربي مؤثراً فيه، ومتفاعلاً معه، ومحركاً إياه في مختلف جوانب علوم النفس والاجتماع والاقتصاد.

واستطاعت أن تكسب كثيراً من الكتّاب الغربيين أمثال: سارتر، وبرتراند رسل. كما سيطرت على دوائر المعارف وكتب التاريخ لتصوير فكرة خطرة تسري الآن في مختلف مجالات الدراسات الثقافية والتاريخية والاجتماعية في مختلف جامعات الغرب التي تكون الأغلبية الساحقة من هيئات التدريس فيها.

هذه الفكرة، تقول بأن الفكر اليهودي سيد العالم، وأنه سيسيطر على العالم، ويحكمه. وقوام هذا الفكر اليهودي أنه ليس ثمة شيئاً ثابتاً في هذا الوجود حتى العقيدة، مع احتقار الدين، وتحطيم الأخلاق، والقول بأن الإنسان حيوان، وأن الدين ناشيء عن الكبت، والزواج ليس من الفطرة والأسرة من صنع العقل الجمعي الذي لا يثبت على حال، والأخلاق مجرد انعكاس للوضع الاقتصادي.

وهدف هذه الدعوة تحطيم المعتقدات، وإثارة الشبهات حول الأديان الإسلامية والمسيحية، وسحق القيم المعنوية، وخلق فلسفات التشكيك، وإقامة النهضة على أساس لا ديني، وعزل الدين عن كل عناصر الفكر والحياة.

وتحقيقاً لهذه الأهداف عمدت الصهيونية إلى نشر صحف المجون والفسق، وأشد وأقبح الكتب المحظورة على أذهان الشبيبة، ونشر الصحف الكاشفة القناع على أسرار الجرائم تحت ستار التحقيق الجنائي، وتحريض خفي لاقترانها بطريقة الإيحاء التي يجيد اليهود توجيهها نحو الجماعات، بالإضافة إلى استحياء السحر القديم والمخدرات ودعوات

المميز والأزياء. وما زالت الصهيونية وراء كل مذهب وفلسفة ونظرية. وما ظهر مذهب فكان مؤدياً إلى مسهم بالأذى إلا قتلوه. وعمدوا إلى ترويج كل فكر يعمل على إفساد الناس، ورفع شأن اليهود. وهم الذين روجوا لمذهب التطور وأولوه تأويلات ما خطرت لدارون واستخدموه في القضاء على الأديان والقوميات والقوانين والفنون، باعتبار أن كل شيء بدأ ناقصاً شائناً يثير السخرية والاحتقار، ثم تطور، فلا قداسة لدين، ولا لوطنية، ولا لقانون، ولا لفن، ولا لمقدس من المقدسات وسخروا علم مقارنة الأديان لمصلحتهم، وإفساد الآداب والنظم والثقافات والعقول بدراسات نظريات براقة لا يفطن إلى زيفها إلا القليل. وهم وراء كل زي من أزياء الفكر والعقيدة والجنس والسلوك. وهم وراء كل دعوة تستخف بالقيم الأخلاقية، وترمي إلى هدم القوانين الاجتماعية. وأبرز ما يهدف إليه الفكر الصهيوني هو دعم الاتجاه الإباحي والإلحادي في الفكر الغربي، وإخراج الفكر البشري كله من مفهوم الدين والأخلاق[1].

وقد دعا فرويد إلى تحطيم احترام الإنسان لنفسه تحطيماً كاملاً، وجماع فكره يضم الجنس البشري كله بأنه جنس متحلل ينطوي على أسوأ النوايا، وأخس الرغبات، حتى أنه اتهم الجنس بأن الطفل يعشق أمه، ويريد أن يقتل أباه. وبنى فلسفته ومذهبه على هذه الحقيقة الرئيسية حتى جعل الناس جميعاً يشكون في كل فضيلة وفي أمر كل عاطفة رقيقة. وقد حقق فرويد الإباحة الحديثة على نمط الوثنية الإغريقية، ومجد الغريزة بحيث أطلق عنان الشهوات البشرية، ورخص للرجل والمرأة أن يفعلا بجسدهما ما شاءا. فالهتك الجنسي لا حد له. أما توماس مان: فقد برر عشق الذكور في قصته (الموت في البندقية) ووصف مرضى الصدر بأنهم حيوانات متعاشقة تتخذ من يأس الشفاء عذراً للتسافد. وقال إن مصحات الجبال مواخير للمرضى تحت مراقبة الأطباء الذين لا

---

(١) راجع مقدمة بروتوكولات صهيون لخليفة التونسي.

يملكون منعهم (قصة الجبل المسحور).

ولم يقف أثر الفكر الصهيوني عند هذا الحد. بل إنه عمد إلى تنظيم جماعات الناس في سلك التحرر بحيث لا يخجلون من أعضائهم التناسلية حيث يجتمعون في نوادي العراة.

من أجل هذا تتخذ الماسونية من المدنية المسيحية موقفاً عدائياً. وترى أن المسيحية تقف في وجهها عائقاً أخلاقياً يحول دون نجاح دعوتها، فعندما أرادت الماسونية أن تلقن الشباب في طفولتهم أسس دعوات الجنس والانحلال، وتلقنهم مبادىء تقديس أعضائهم التناسلية وقفت آداب المسيحية في وجههم، ولذا فقد صنعوا برجال الدين المسيحيين الأعاجيب من قتل وتخويف.

وقد جعلت اليهودية العالمية من عقيدة الماسونية خلقاً وأسلوب عمل. يهدد مجتمعات الدنيا بالدمار الأخلاقي، وتحولها إلى مرحلة سحيقة من التخلف. وقد انكشفت للعالم كله في الفترة الأخيرة بأن جذور هذه الأفكار منبعثة أساساً من التراث اليهودي الصهيوني (التوراة والتلمود وبروتوكولات صهيون) والمتجهة أساساً إلى تقويض الأسس التي تقوم عليها حضارة الغرب بسيطرتها على الأدب والفن على نحو يغري الناس بالتحلل وييسر لهم سبيله [1].

* * *

وكانت المرحلة الأخيرة من تطور الفكر الغربي هو ما بلغته نظريات البراجماتزم في الفكر الأميركي، ومذهب ديوي في التربية، وهي مناهج تعزل الدين، والمثل الأعلى، والأخلاق، والقيم الروحية عن الحياة عزلاً تاماً، وتحاول أن تهتدي بالمصلحة والمنفعة. وقد قامت هذه المذاهب من خلال أثر الصهيونية في الفكر الغربي بعامة، ولم تجد تقبلاً كثيراً في بيئاتها نفسها.

(١) راجع كتاب التراث الصهيوني اليهودي لعلم النفس. للدكتور صبري جرجس.

الفصل الثامن

التحدّيات في وجه الثقافة العربيّة



١ ـ تحديات الفكر الغربي للثقافة العربية

فرض المستعمر فيما فرض على الأمة العربية بالدرجة الأولى ثقافته بأسلوب مسيطر عنيف لم يتح للثقافة العربية أن تحقق معه حريتها وانطلاقتها في بناء مجتمعها من ناحية، وفي قدرتها على الاختيار والاقتباس من الثقافات الغربية. ذلك أن النفوذ الاستعماري قد جعل من فرض النفوذ الثقافي أساساً لبقائه، وعول عليه أهمية أكبر من أهمية الاحتلال العسكري والسياسي، إذ اعتبره وسيلته الأساسية لخلق أجيال تتقبله وترضى به.

ولذلك فقد عول منذ البدء على دعم مؤسسات تربوية وتعليمية عن طريق الإرساليات التبشيرية لدوام استمرار تخريج أجيال جديدة وفق مفاهيم تعلي من شأن الغرب وحضارته وبطولاته، وتثير الشبهات حول العرب والإسلام وثقافتهم ولغتهم وتراثهم.

ومن خلال مؤسسات التعليم والصحافة والثقافة الغربية كان الحرص على صياغة عقولنا صياغة من شأنها أن تجعلنا تابعين أو مستعبدين. ومن خلال البقاء الاستعماري في العالم الإسلامي كله، والبلاد العربية، فرض المستعمر ثقافته بأساليب يغلب عليها القسر والاحتواء الغاصب، والخداع والمغالطة والغموض، واستعمال الأساليب العلمية على نحو منحرف بعيد عما توصل إليه من حقائق، مع تعصب واضح، وبعد عن التسامح أو العدل. ذلك أن الثقافة العربية قد ألفت أسلوب الوضوح واليسر والنظر المفتوح إلى الحق والرجوع عن الرأي إذا تبين أنه باطل. ومن هنا نشأ ذلك الإحساس العميق بأن الثقافات العربية لا تصدق مع ادعاءاتها بأن

لها منهجاً علمياً خالصاً مجرداً. وتبين أن الهوى هو الذي يحكم، وأن الهدف الاستعماري القائم من وراء البحث العلمي هو صاحب الرأي الأخير، وأن خصومة الاستعمار للثقافة العربية إنما هي هدف أصيل يرمي إلى تدمير هذه الثقافة بحسبانها القوة الوحيدة القادرة على منح هذه الأمة قوتها وحيويتها في مواجهة الاستعمار والاحتلال ومقاومة الغزو على النحو الذي قاومت به كل غزو وجه إليها طوال تاريخها المليء بالصراع الذي يفرضه الغرب على الإسلام والعرب.

وفي أكثر من معركة استطاعت الثقافة العربية استمداداً من أصالتها وقيمها الأساسية الصامدة أن تحفظ وجودها دون أن تنصهر. وكان أكبر معاركها مع التراث الهِليني الإغريقي الوثني، الذي انصهرت فيه الثقافة المسيحية من قبل. أما الثقافة العربية فقد احتفظت باستقلاليتها وذاتيتها عن أن تذوب أو تنصهر. كانت قدرة الثقافة العربية في أنها أخذت ورفضت، ثم صهرت ما أخذت وأدخلته في إطارها التوحيدي.

ومن الحقائق الواضحة التي كشفت عنها الثقافة العربية، أنها لا تنمو إلا من خلال جذورها، وباستحياء قيمها، وأن الثقافات الغربية مهما بلغت من قوة فإنها لا تستطيع أن تنضج العقلية العربية التي تختلف في مقوماتها النفسية والعقلية عن مقومات العقلية الغربية، وهي تستطيع أن تستهدي بأساليب الفكر الغربي ومناهجه، دون جوهره وقيمه، وبغير أن تترك له أن يسيطر عليها أو يحتويها.

والمعروف أن الفكر الغربي لم يعرف طريق القوة إلا بعد أن تحرر من قيود الوثنية، وامتص مفاهيم الفكر الإسلامي. وهي قيم الحرية والعدل: والقوة التي أخرجته من الأديرة والرهبانية والانعزال عن الحياة. لقد كانت تعاليم الفكر الإسلامي هي العامل الحيوي الذي جعل الفكر الغربي ينفض عن نفسه قيود الجهل. فلما نجحت الثقافة الغربية في بناء فكرها العلمي على أساس المنهج العلمي التجريبي الإسلامي، وأقامت حضارتها، عادت تحت ضغط قوى مؤثرة، هدفها السيطرة عليه وتدميره. فأرادت العودة

إلى التماس قيم اليونان والإغريقية والوثنية المادية، والتماس طبيعتها القديمة التي لم يكن الدين جزء من تكوينها، وعادت حثيثاً إلى التحرر الكامل من قيم الدين والأخلاق. فهي ترى «التقدم» قائماً على المفهوم المادي وحده. بينما ترى الثقافة العربية استمداداً من الفكر الإسلامي، أن الرقي المادي والرقي الروحي، هما شقا حقيقة واحدة لا يعارض أحدهما الآخر، فهما وجهان من الحياة الإنسانية، فهي تقبل بوضوح إمكان الرقي المادي للإنسانية في مجموعها لا لجنس منها دون جنس أو أمة دون أمة أخرى. ولا ترى ما تراه الثقافة الغربية من سيادة الجنس الأبيض أو سيطرته أو تميزه بالنفوذ والسلطان على غيره من الأجناس.

وقد أخذ الفكر الغربي هذه النظرة من التراث الروماني الذي كان يرى أن روما وحدها هي صاحبة الامتياز والسيادة، وأن كل ما حولها عبيد. أما الثقافة العربية استمداداً من الفكر الإسلامي فقد جعلت إطارها «إن أكرمكم عند الله أتقاكم».

ولقد كان من أكبر المغالطات التي روجها التغريب والغزو الثقافي، أن لا فرق بين العقل العربي، والعقل الغربي، وأن العرب والمصريين غربيون بالفكر نتيجة لارتباطهم بالثقافة اليونانية القديمة، أو أنهم تجمعهم والعرب وحدة ثقافة البحر الأبيض المتوسط، وهي وحدة وهمية غير صحيحة، أو أن تشابه الأجسام والجماجم والرؤوس أو إلى غير ذلك من الادعاءات التي رددها دعاة التغريب في محاولة للتعمية عن الفوارق الذاتية والنفسية، والعقلية الواضحة بين الثقافة العربية، والثقافة الغربية، وبين المزاج النفسي الذي كونته جذور أساسية مستمدة من الإسلام في الأمة العربية، ومن الوثنية الإغريقية في الغرب.

ولقد رددت هذه المؤسسات القول بأن الثقافة عالمية، واكدت كل المراجعات الأصيلة أن العلم عالمي، والمعرفة عالمية، ولكن الثقافة قومية، لأنها تستمد قيمها من جذور الأمة ولغتها ودينها وتاريخها. ولذلك فهي لا تتلاقى الا لقاء الاختيار، تأخذ وتترك وفق قاعدتها. ولقد كانت

الثقافة العربية متفتحة على الثقافات العالمية الإنسانية دوماً، ولكنها احتفظت دائماً بمقوماتها وذاتيتها ومزاجها النفسي الخاص.

وإذا كان من حقنا النقل والاقتباس، فإن علينا دوماً أن نحتفظ بقيم الأساس نبني عليها ونتحاكم إليها، وإن الحاضر هو امتداد الماضي ومقدمات المستقبل، فلا انفصال بين الماضي والحاضر، والمستقبل إلا من حيث مراحل النمو والاستمرار، والتطور. ومن هنا فقد أخفقت كل دعوة إلى الانفصال عن الماضي، أو امتهان التراث. فقد كانت معرفة الماضي ضرورية لبناء الحاضر.

* * *

ومن الملامح الواضحة للتغريب أنه يقود حركة لإخراج الوطنيين من قيمهم وثقافتهم، ويدفع أمامهم موجات تتلوها موجات من الإقليمية، وأخطار التحلل والإلحاد، ثم لا يلبث أن يحصي عليهم هزيمتهم أمام غزوه. ومن مثال ذلك، ما كتبته إحدى الصحف البريطانية تتساءل عن هذه العزلة التي تعيشها الأمة العربية عن قيمها فتقول: ما هي حقيقة الحركة القومية المصرية وما قيمها إذا كانت تتجاهل التقاليد القومية، ولا تظهر شعورها نحو ماضي بلادها الحر، فالمصري العصري بدون استثناء تقريباً يفضل المظهر الكاذب المموه، وهو عادة مظهر فرنسي كاذب، ويؤثره على تقاليده الثقافية. ومصر بلد إسلامي متعلم، وبها حركة وطنية. ومع ذلك فإن وطنيتها تستنكر كل مظهر للروح الإسلامي. والمصري يحاول اليوم بإدراكه وشعوره أن ينسى طبيعته الإسلامية، فتراه يقطع نفسه وينفصل عن أصوله الأدبية والثقافية، في الحين الذي يستسلم فيه عن عجز وضعف إلى العوامل العصرية الخالية من الحياة الحقيقية.

لقد رأى اللورد كرومر: الخطر الكامن في توسيع الشقة بين مصر الإسلامية، ومصر السياسية. ولا ريب أن مصر السياسية تفتقد تراثها شيئاً فشيئاً، وهكذا فإن الوطني المصري بالحكم الذاتي المطلق الذي

يطلبه، لا يجد لديه شيئاً من التقاليد الأدبية والفنية والثقافية يستطيع أن يستخدم هذا الاستقلال السياسي لفائدتها.

إن الوطنية دون الشعور بالتقاليد أو الجنس لا تصلح لأن تكون قاعدة تستطيع الطبقة المستقيمة أن تستمد منها أيّ ثبات أو تشريع له قيمته[١].

وقد علق على هذا الرأي السيد محب الدين الخطيب فقال: الغريب في الشرقيين أنهم يتظاهرون بعدم التمسك بقيمهم تقرّباً إلى الإفرنج، واسترضاءً لهم، والإفرنج يبتسمون لذلك في سرهم ابتسامة الاستخفاف. ولا يخفى على المثقفين الغربيين أن سياسة الاستعمار جاهدت طويلاً لإفراغ سياستها في القوالب بما لها من السلطان على منهج التعليم والتربية، وعلى حياة الصحافة التي تكون العقائد السياسية والأدبية في رؤوس قرائها، وبما لسياسة الاستعمار من الأساليب في ترقية من يرون من المتعلمين إلى المناصب ذات التأثير في حياة الشرق، فساسة الشرق وقادته هم تلاميذ هؤلاء العاملين من الفرنسيين في الغالب.

وواضح أن هدف الغزو الفكري هو مسخ شخصية الأمة، ومنابع الأصالة والإبداع منها حتى تتوقف عن النمو، وذلك عن طريق إشعار المواطنين بالتخلف.

وقد عمدت قوى التبشير والتغريب والإرساليات التبشيرية إلى هدف واضح هو «تحريف المقومات العلمية[١] والحضارية». حيث كتب الكثيرون صفحات زائفة مضللة عن التاريخ العربي والحضارة العربية الإسلامية محاولين توجيه البحث توجيهاً استعمارياً. فأنكروا على علماء المسلمين والعرب القدامى الأصالة الفكرية، واعتبروا أن كل ما قاموا به هو ترجمات من علوم الحضارات القديمة. وكان الهدف هو إسقاط مرحلة هامة من مراحل التطور الحضاري الإنساني، وذلك بإغفال شأن

---

(١) مجلة الفتح م ١٩٣٥.

(١) للتوسع في هذا البحث راجع التسلل الفكري للدكتور ابراهيم العدوي.

الحضارة الإسلامية العربية صاحبة الفضل على نهضة أوروبا في مطالع العصور الحديثة.

ثم تسلل العلماء الأوروبيون للبحث عن العاميات، ولبس ملابس التجار والدبلوماسيين والمبشرين، وصاروا يعملون بشتى الوسائل لإثارة العجز في نفوس المواطنين.

ثم مضى الهدف إلى خلق «تبعية غربية» وحملت لواء هذا الهدف معاهد التعليم في البلاد العربية التي عمدت إلى تقديم التجارب التي من شأنها الإبقاء على تبعية المتعلمين للمراكز الاستعمارية في أوروبا، ونشر المعارف التي تجعل أصحابها حيارى في خضم الحياة.

ومن أخطر مخططات التبعية هي: أن يحتقر المواطنون لغتهم القومية، وإعلاء لغة المستعمر، ثم الدفاع عن لغة المستعمر على حساب اللغة القومية، واتصل هذا بعمل آخر هو: التفتيت، رغبة في القضاء على قوة الأمة في وحدتها وتضامنها بحسبان أن سلاح التفتيت أخطر سلاح شهره أعداء الأمة العربية.

وكان ما حرص عليه التغريب هو البحث في أصول المجتمعات قبل أن يوحدها الإسلام، ثم اندفع الاستعمار إلى تمزيق هذه المجتمعات على أساس الطوائف الدينية والعنصرية، فأحيا الاستعمار الفرعونية والفينيقية والبربرية، وخلق الوطنيات الضيقة ليحول بين الأمة العربية وبين التضامن. وأشاع استخدام الأسماء المحلية كالمصرية واللبنانية، فوقفت هذه الوطنيات الضيقة في وجه الاستعمار منفردة.

ثم كان عمل الاستعمار هو تقديم قشور الحضارة وجوانبها غير الإبداعية والأصيلة، وحجب جوانب القوة عن العرب والمسلمين. ثم عمل هؤلاء الدعاة بالإغراء إلى هذه الجوانب الانحلالية باعتبارها هي الحضارة نفسها. وكان السخط دائماً منصباً على حركة يراد بها إيقاظ البلاد عن طريق الفكر الأصيل، والمحافظة على الرباط الأساسي وهو

الإسلام واللغة العربية . وعمد الفكر الغربي إلى إبعاد الفكر الإسلامي ، والثقافة العربية عن مجال الحياة ومناهج التربية .

ومن هنا نشأت تلك الأزمة حيث وضع النفوذ الاستعماري ، الثقافة العربية في مجال التبعية والولاء الغربي ، وسلط عليها تلك القوى الضخمة من التبشير والتغريب والشعوبية . فالنظرة إلى الإسلام التي تحملها الثقافة الغربية إلى الثقافة العربية هي نظرة بعيدة كل البعد عن واقعنا . وإن تلك الأزمة من العلم والدين هي في الواقع أزمة غربية صرفة ، ولم تتعرض الثقافة العربية لشيء منها أساساً على اعتبار أن الفكر الإسلامي - وهو مصدر الثقافة العربية - هو مبدع « المذهب العلمي التجريبي الحديث » .

لقد كانت للغرب ظروف خاصة نتج عنها ذلك الصراع بين الدين والعلم نتيجة لما التبس بالمسيحية الغربية من انحراف عن طبيعتها ، من وثنية ورهبانية ، وتأييد الكنيسة للأمراء والإقطاع .

من هنا كان موقف الفكر الغربي من « الدين » بصفة عامة - استمداداً من تلك التحديات - موقف الخصومة والهجوم والنقد اللاذع . فإذا نقل التغريب والغزو الثقافي هذه المعركة إلى ساحة الثقافة العربية ، كان الأمر غريباً كل الغرابة ، مختلفاً كل الاختلاف للفوارق البعيدة بين الإسلام وبين الأديان الأخرى ، وبين مفهوم الدين نفسه ، وبين الإسلام باعتباره ليس ديناً فحسب ، ولكنه دين ومنهج حياة . وأبعد الفوارق أن الإسلام هو الذي صاغ التيار العلمي الإسلامي الذي بَنَتْ عليه الحضارة الحديثة أمجادها ، بينما واجه العلم في أوروبا موقفاً مغايراً .

وكذلك قذف الفكر الغربي للثقافات العربية بدعوات متعددة : منها المذهب الطبيعي ، والمادية الجدلية ، والتفسير المادي .

وجرت المحاولات لفرض مفهوم غربي للقومية في محاولة لإقامة أسوار حصينة من العنصرية ، والعداء المتصل بالأجناس والدماء والشعوب بين

العرب، والشعوب الإسلامية التي يجمعها بها تاريخ طويل، وفكر أصيل، وقيم أساسية في مجال النفس والعقل والذوق لا سبيل إلى انفصام عروته. وكانت النظرة الغربية لهذه الدعوة التي حملتها إلى الثقافة العربية تتمثل في ذلك الصراع بين القوميات الغربية.

والثقافة العربية لا تنكر حق الشعوب في وحدتها، وبناء كيانها، ولكنها لا تجعل من هذا البناء خصومة وصراعاً للقوميات الأخرى خاصة تلك التي يربطها بها فكر وتاريخ وتراث ضخم، ومقومات أساسية واحدة.

ومن ذلك محاولة تفريغ مفاهيم العلم والسياسة والاجتماع والاقتصاد من الطابع الأخلاقي الأصيل الجذور في الثقافة العربية.

(٢)

وقد ركز دعاة تحرير الثقافة العربية من غزوة الوثنية والتغريب، والقومية على دعم مفهوم «الذاتية الثقافية» العربية، والحرص على كيانها الخالص واستقلالها على أساس واضح.

أولاً: الذاتية الثقافية لا تعني الانغلاق عن ثمار الثقافات الأجنبية، وإنما تعني التخلص من السيطرة الأجنبية، إيماناً بأن جوانب كثيرة من هذه الثقافات لا تلائم حاجات هذه البلاد، وأنها تحول دون تقدم ثقافتها تقدماً سوياً.

ثانياً: إن عدم الانتباه والتكيف يولد نتائج خطيرة، فإن النظم التعليمية أو الثقافية في أي بلد من بلدان العالم لا تكون أنظمة قائمة بذاتها تعمل منفردة، محررة من النظم العائلية، والقومية السائدة في البيئة التي تنتسب إليها. وإنما تكون جزءاً من مجموعة الأنظمة الإجماعية الخاصة بتلك البيئة. معنى هذا أن النظام التعليمي القائم في بلد من البلاد إذا انتقل إلى بلد آخر، فإنه ينتقل بمفرده وينفصل عن سائر النظم التي

ترافقه في منشئه الأصلي، وإن من شأن ذلك أنه لا يعطي نتائج مماثلة للتي يعطيها في بيئته الأصلية [1].

ومن هنا يبدو خطر الأضرار التي تتولد من الاقتباس بدون تأمل، وتكيف. لأن الاقتباس قد يؤدي إلى نقل النقائص التي كان يشكو منها، ويسعى لإزالتها المفكرون في البلاد التي أنشأت ذلك النظام. وهذه النقائص عندما تنتقل إلى بيئة جديدة قد تصبح أشد ضرراً مما كانت في بيئتها الأصلية.

ثالثاً: لا يجوز لنا أن نقتبس أي نظام بهيئته الأصلية، بل نضع لأنفسنا نظاماً خاصاً مستنيرين فيه بتجارب جميع الأمم التي سبقت في مضمار التقدم والرقي دون أن نرتبط بنظام إحدى الأمم على وجه الانحصار.

رابعاً: في كل ثقافة من الثقافات العالمية بعض العناصر الإيجابية، وبعض العناصر التي لا تتفق مع تكويننا الاجتماعي، ومزاجنا النفسي. وعلينا أن نقتبس من الثقافات ما يساعدنا على النهوض والتقدم دون أن نتقيد بإلزام معين، ثم نصهر هذا الذي نقتبسه في بوتقة ثقافتنا فيتحول إلى طبيعتها كما تنصهر البذور المستوردة في التربة الجديدة فتصبح نباتاً قومياً، وتصاغ وفق حاجتنا الروحية والعقلية فإذا لم تصلح هذه البذور للنماء والتشكل، فهي غير مطابقة لحاجتنا.

خامساً: إن أبرز الخلافات بين الثقافتين العربية والغربية هي أن الفكر الغربي يحل مشاكله على قاعدة القوة، ويفضل الضمير عن العلم، ويقر السيطرة من الجنس الأبيض منشىء الحضارة على الشعوب الملونة. كما يقر تسخير هذه الأمم للخدمة والعبودية، دون إيمان بالقانون الأخلاقي أو الإنساني، ويتجاهل القيم الروحية، والحقوق الضيقة. بينما تقف الثقافة العربية في الموقف المخالف إيماناً بالحق بديلاً للقوة، واعتباراً

---

(١) راجع ساطع الحصري في بحث الاستقلال الثقافي.

بالقاعدة الأخلاقية مرتبطة بالسياسة والاجتماع، والضمير مرتبطاً بالعلم.

سادساً: إن الخلاف بين الثقافتين واسع واضح عميق، وجذري لأنه خلاف عقلي ونفسي، يصل إلى الحد الذي يشكل في كل منهما مثلاً أعلى مختلفاً متبايناً.

وقد صور الدكتور هيكل هذا المعنى حين قال: «أعتقد أن الشرق قد ضل طريقه في هذه العصور الأخيرة متأثراً بتعاليم الغرب، فأصبح مثله الأعلى مادياً يحسب الحرية التي تسمو بها النفس إلى المكانة الأرفع أن ينال الجسم، وأن تنال الشهوات كل مبتغاها. وقد يكون للبيئة الطبيعية في الغرب ما يدفع إلى التطلع إلى هذا المثل الأعلى. ولكن بيئة الشرق الطبيعية، وتاريخه منذ العصور الأولى، وتاريخه بنوع خاص منذ انتشرت الحضارة الإسلامية في ربوعه، يجعل هذا المثل الأعلى الذي يتخذه الغرب أمامه دون ما تتطلع إليه النفس الشرقية. فهذه النفس تؤمن بوحدة الوجود، وترى في هذه الوحدة والاتصال بها، والفناء الروحي فيها غاية ما ترجو. لذلك كانت «أمثال» هذا الشرق تجري بأن من اعتز بغير الله ذل، ومن افتقر لغير الله هان. ولا تعرف شيئاً في الحياة ما يعادل بقوة الله. وقد أثر هذا في الغناء والنفس والموسيقى والأدب.

(٣)

يجمع الباحثون على تأكيد واجب المثقفين في كل وطن، ومسؤوليتهم في الدفاع عن مقومات ثقافتهم، وذلك بالتصدي للتيارات الأجنبية بقدر وافر من الإيمان والنشاط.

يقول الدكتور عمر حليق: إن الثقافة العربية مهددة بأدب اللذة والمجون الذي أصبح يؤلف الجزء الأكبر من الثقافة الغربية المعاصرة، ويفرض ديكتاتوريته على الثقافات الأخرى.

أما الثقافة العربية فقد ساهمت في جوهر الفكر الإنساني، وحافظت

على كثير من خصائصها على مر السنين. وتعداد القرون وحاضرها يشمل ٧٠ أو ٨٠ مليوناً، ويتصل بأربعمائة[1] مليون مسلم يحتلون قطاعاً هاماً في مجالات السياسة والاقتصاد والسلم والحرب، ويتساءل لماذا يقف المثقفون العرب موقفاً سلبياً، ويتعلقون بأذيال لندن، أو نيويورك، أو موسكو، أو باريس.

والقول بأننا في فترة (هضم واستيعاب) لا يبرر الانشقاق نحو التعلق والمحاكاة. ويصف هذا بأنه الاستعارة الضالة، وأن المستعير حين يكون سطحي الثقافة لن يستطيع أن يبدل طبيعة الوضع، فيبقى الشيء المستعار «غريباً» يفرض على ثقافة لا قبل لها بتحويله أو طبخه من جديد.

ومن هنا تكون النتيجة أن تصاب الثقافة الأصلية بالتفكك والانحلال، وتفقد الأمة طابعها الأصيل.

ويقول: إن الاقتراض من الثقافات الأخرى دون قيد أو شرط، أو دون مراقبة أو محاسبة سيولد في المجال الثقافي والاجتماعي حالة تجد عناصر الثقافة القومية نفسها قاصرة عن مناقشة العناصر الدخيلة أو المستعارة، أو عاجزة عن هضمها ووضعها في قالب قوي أصيل. حين تفقد تلك الثقافة الأنصار من أهلها يكون مصيرها مصير الطفل لم يجد من يرعاه ويحنو عليه، فيشب ضعيف البنية، ناقص التغذية، مشلول النشاط.

ويرى الدكتور عمر حليق: أن الشرقيين في نظر الغربيين علم عن الانحطاط والضعة، وكل ما في قاموس اللغة من صفات ونعوت سيئة. وهذا التحامل ليس مقصوراً على فئة دون فئة، فحضارات الشرق عند الغربي أمر عفى عليه الزمن، فهو جزء من الماضي، ولا مكان له في حضارة العالم الجديد، بالرغم مما في الثقافة الشرقية، من عناصر خالدة

---

(١) تقدير المسلمين اليوم لا يقل عن ٧٠٠ مليون، وتعداد العرب ١٠٠ مليون.

تصلح لكل زمان ومكان.

هذا الخلاف في وجهات النظر يتبعه اختلاف في طبيعة المجتمع العربي عن طبيعة المجتمع الغربي، وهو اختلاف جوهري في التطور التاريخي والصناعي، وفي العواطف والإحساسات والمشاعر. وما تزال الثقافة العربية في جوهرها أصيلة عريقة حساسة وخاصة بالنسبة للمجون واللذة.

ويرى الدكتور عمر حليق: أن على الثقافة العربية أن تسلك سلوكاً قومياً فتحتفظ لنفسها بالقيادة الفكرية، والسيادة الثقافية بحيث تهيء للمفكر والفنان، ورجل الدين أن يقوموا بوظائفهم.

وإن عامل الحياة والنمو في الثقافات لا يكون بالاستعارة الضالة، والمحاكاة والتقليد الأعمى، بل باستيعاب الأسس العريقة لثقافات الأمم واختيار الأخرى ما يستسيغه الذوق، وما يهضمه العقل، فيطعم بها، ثم إلى ثقافته الوطنية مساغة منقحة، كما فعل بناة الثقافة العربية حين اتصلوا بثقافات الإغريق والهند والفرس والرومان.

وكما فعل بناة الثقافة الأوروبية حين اتصلوا بالثقافة الإسلامية في القرون الوسطى. والخطر كل الخطر أن تفقد الثقافة أصولها ومقوماتها إزاء التقليد، وما أطلق عليه «الحول».

يقول: «فقدان الحول لا يمكن إلا بواحدة من اثنتين: إما أن تكبت ألمعية المفكرين وحفظة الدين وأهل الفن كبتاً كما فعل أتاتورك، فأفقد ثقافتهم طابع الحياة والنمو، وإما أن يقف المثقفون موقفاً سلبياً أمام نشاط المقلدين يتركونهم يعبثون بالثقافة القومية وخصائصها».

ويرى الدكتور عمر حليق: أن الدفاع عن الثقافة واجب وطني، وأنه من أهم أنواع الالتزامات القومية شأناً، فهي المصدر الذي يستمد منه السياسي دهاءه، والاقتصادي كفايته، والجندي معنويته واستعداده، والمصلح الاجتماعي مواده الخام.

ويقول: إن في عنق الكتّاب والباحثين من أهل الثقافة أمانة مضاعفة

إزاء موجات العبث والتحدي، وإنه من الضروري مواجهة التيارات الغربية التي تعصف بثقافات الأمم في قوة ومناعة. فالثقافة لا تحفظ طابعها ومقوماتها العريقة إلا إذا صمد لها العارفون بها، والمؤمنون بعزتها.

ويرد على الذين لا يعترفون بأن للفن والفكر حدوداً ومعالم جغرافية وزمنية. ويقول: إن هذا مناقض لطبيعة السلوك الإنساني، فعلم الاجتماع ينفيه، وعلم النفس لا يقره، والمرء حيوان اجتماعي، وهو يألف الجماعة التي تبادله مشاعره وتشاركه طبائعه وتبادله المحبة والإلفة.

ويرى أن من حق الثقافة العربية أن تتحدى التيارات الدخيلة، وأن تمحصها، وأن تختار منها ما تستسيغه، وما يتفق وثقافتها القومية. وأن الثقافة العربية اليوم، وهي تمر في عهد إحياء وتجديد أكثر ما تكون تعرضاً للخطر، خطر التيارات الدخيلة [1].

---

(١) مجلة الرسالة. (م ١٩٥٠).

الفصل التاسع

الثقافة العربية في مواجهة الثقافة الغربية
موقف الثقافة العربية من الحضارة



الثقافة العربية في مواجهة الثقافة الغربية
موقف الثقافة العربية من الحضارة

من شأن كل ثقافة أن ترتبط بحضارة، وأن يكون لها موقف من الحضارة الأخرى. والثقافة العربية لها ذاتيتها، ولها موقفها من الثقافات المختلفة شرقية وغربية، كما أن لها موقفاً من الحضارة المعاصرة، ولها أيضاً ارتباطها بالحضارة الإسلامية العربية.

وللحضارة في الثقافة العربية مفهوم واضح، يختلف في أسسه عن مفهوم الثقافات الغربية للحضارة، ويقوم كل مفهوم تبعاً لمقومات كل ثقافة، والقيم الأساسية التي تخضع لها.

والسؤال الأول: ما هي الحضارة؟.

وإذا كان لنا أن نفرق بين مفهوم الحضارة ومفهوم المدنية، قلنا إن مفهوم المدنية أوسع، وهو أشمل للثقافة والحضارة معاً. وهو مجموع العقائد والأفكار والفنون والمؤسسات والعادات والنظم التي يقيمها المجتمع البشري. أما الحضارة فقد جرى العرف على أنها تمثل ذلك التقدم المادي، وطرق المعيشة والأدوات التي يستخدمها أفراد المجتمع، وهي تمثل بالجملة الجانب الاجتماعي الصناعي المتصل بالحياة والمجتمع، وهو غير ما يتصل بالفكر والفلسفات والأدب.

وإذا كانت الثقافة ذاتية وقومية، فإن الحضارة إنسانية وعالمية. وإذا كانت الثقافة خاصة لأمة ما، فإن الحضارة عامة وملك مشاع للبشرية.

وليست هناك حضارة واحدة، ولكن هناك حضارات متعددة. والحضارة العربية الحديثة لا تنفي وجود حضارات أخرى ما تزال حية،

من بينها الحضارة الإسلامية الغربية، وهي مدينة في جذورها وأصولها للمنهج العلمى التجريبي الإسلامي. ومن شأن الحضارة الإسلامية العربية أن تقتبس وتأخذ من الحضارة العصرية، ولكن ليس من شأن هذه الحضارة أن تحتوي الحضارة الإسلامية أو تذيبها في بوتقتها، وذلك للخلافات الأساسية الواضحة والعميقة بين كل حضارة وحضارة. ولقد ذاع رأي تغريبي يقول بالترابط بين الثقافة والحضارة في مجال الاقتباس. وأن على الشرق إذا أراد أن يصطنع الحضارة الغربية أن يصطنع الثقافة الغربية أيضاً. وبطلان هذا الرأي ظاهر، فإن الغرب عندما نقل من العرب والمسلمين لم ينقل إلا العلوم، وما نقله من الثقافة إنما صاغه في بوتقته، وأضافه إلى أصول فكره، وجرده من طابع الفكر الإسلامي العربي. وهو في ذلك يجري مع طبيعة الاقتباس بين الثقافات. ومن شأن الثقافة العربية أن تفعل ذلك، فالعلوم وهي معارف عامة لا حظر على نقلها. ولكن مفاهيم الثقافة تختلف بين ثقافة وثقافة. ولذلك فلا تستطيع الحضارة الغربية، ولها مالها من سلطان في العالم كله، وما لها من نفوذ مرتبط بالاستعمار أن تفرض مفاهيم فكرها وثقافتها على الثقافة العربية، والحضارة العربية الإسلامية.

هذا هو مقطوع الرأي في مجال التفريق بين الحضارة والثقافة في الاقتباس. أما في واقع الأمر فإن بين كل ثقافة وحضارة ترابطاً لا سبيل إلى تجاوزه أو إنكاره. فالحضارة هي تنفيذ للتصميم الذي تتمثله الثقافة وبناء الحضارة إنما يبدأ في الثقافة أولاً تخطيطاً ومشروعاً. ولذلك فإن أية حضارة إنما تستمد مقوماتها من ثقافة لها أسسها ومقوماتها. وهدف الحضارة والمدنية أيضاً هو: الرقي، والارتفاع عن مفهوم البداوة والارتقاء بالإنسان في السلوك، وأساليب المأكل والمشرب والهندام، والتغلب على المادة. وفي مفهوم الثقافة العربية أن الرقي مادي وروحي. وأن هدف الحضارة الإسلامية أن توجد إلى جانب التقدم المادي: التقدم الروحي، وسيادة الأخلاق النبيلة، والمبادىء الشريفة، وتغليب معاني العدل والإخاء والتكامل الاجتماعي.

ولعل الحضارة الغربية قد وصلت إلى مفهوم أساسي هو: أنها تقوم على ترقية الماديات والصناعيات دون اعتبار كبير للجانب المعنوي أو الروحي، وأن نمو الحضارة أصبح يهدد البشرية بسيادة الآلة، وعبودية الإنسان لها. فضلاً عن أن النمو المادي إلى جوار التوقف عن النمو الروحي قد خلق هوة سحيقة بين العقل والقلب، وبين المادة والروح، فنما جسم العالم، بينما ضمرت روحه، ويرجع ذلك في الأغلب إلى أن الحضارة انحرفت عن اتجاهها الإنساني، وآثرت الاتجاه الوثني الإغريقي القديم المرتبط بالتحلل والانطلاق الغريزي والجسدي.

وقد كان من شأن هذين الخطرين أن وجدا ما أطلق عليه «أزمة الحضارة» وهو أمر تناوله بالدراسة كثيرون منهم سوركان واشبنجلر وتوينبي وغيرهم.

١ - الحضـارة

اشتقاق من تحضر، والتحضير هو التهذيب البطيء المتدرج. ويجمع الباحثون أن لكلمة حضارة مفهومين: مفهوماً يعني الانتقال من وضع اجتماعي معين إلى وضع آخر أكثر تطوراً. وهو ما وصفه ابن خلدون بالعمران، وعرفه بأنه مجموع الأحوال التي تنجم عن الاجتماع الإنساني مثل التوحش والتأنس والعصبيات والتقلبات المختلفة للبشر، وما يتصل بأعمال الناس ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع.

والثاني: وهو ما يعني حالة خاصة لجماعة من الجماعات البشرية في وقت معين، وهو ما أسماه ابن خلدون الحضارة وعرفه بأنه غاية العمران ونهاية أمره.

وقد فرق إشبنجلر بين المدنية والحضارة نفس تفريق ابن خلدون، فجعل المدنية علماً على المعنى الحركي الديناميكي وجعل الحضارة تعني المعنى الثابت (ستاتيك).

* * *

ويجمع الباحثون على عدة حقائق:

أولاً: إن الحضارة تصدر عن ثقافة، أو عن دين. وإن الحضارة العربية الإسلامية تصدر عن الإسلام، وإن حضارة الغرب المعاصرة تصدر عن العلم، وإن حضارات الشرق تستمد من البوذية والهندوكية.

ثانياً: إن التطور البشري الحضاري يشتمل على شقين:

(أولهما) المادي: أي الخاص بالحالة الاقتصادية التي يلائمها.

(ثانيهما) الروحي: أو الفكري الذي يتصل بالمعتقدات والقيم الخلقية والمعنوية.

ثالثاً: إن مستلزمات الحضارة الصحيحة أن يقترن التقدم المادي بالتقدم الخلقي، ويسايره جنبا إلى جنب.

رابعاً: إن الحضارة الصالحة هي التي ترتفع بالحياة الإنسانية جملة، من نواحيها الفكرية والمادية والمعاشية والنفسية والخلقية والاجتماعية الفردية. وإنها هي التي تفسح المجال لنمو العقل وتفتحه واكتشاف آفاق الوجود، والتي تزيد من تماسك الأفراد في المجتمع وارتباطهم وتضامنهم وتكاتفهم.

وإن مهمة المدنية ترمي إلى نشر تعاليم الإنسانية وتعميمها على وجه الأرض. وقد ربط توينبي ومالك بن نبي الحضارة بالفكرة الدينية، فالحضارة عندهما تبدأ حين تدخل التاريخ فكرة دين معين، أو مبدأ أخلاقي معين، وتنتهي حين تفقد الروح نهائياً الهيمنة التي كانت لها على الغرائز.

ويرى توينبي أن الحضارة الحديثة الغربية قد قامت على الدافع الروحي أساساً.

وقد أشار بعض الباحثين [1] إلى أن الحضارات لا يتميز بعضها عن

(١) جان لاو وجان بنس (الثقافة والحضارة) ترجمة عبد اللطيف شرارة.

بعض بعناصرها المادية، ولا حتى الثقافية، وإنما أكبر ما تتميز به هو الفكرة الدافعة، أي القوة المحركة التي ينبعث منها النشاط من الداخل وتسيرها في سبل معينة. وإذا كانت الحضارات الشرقية تقدم التأمل على العمل، أو تغلب القدرية. وإذا كانت الحضارات الغربية تغلب النظرة المادية، أو تجعل من الإنسان سيداً مطلقاً للكون، فإن الحضارة الإسلامية تقيم نظرة متكاملة جاعها الروح والمادة، وتجعل الإنسان سيداً للكون تحت حكم الله وكيلاً متصرفاً في سبيل قيام نظام الإسلام ومنهج القرآن.

وإن عقلانية الحضارة الإسلامية ليست عقلانية الحضارة الهلينية، وليست هي عقلانية مطلقة، وإنما هي عقلانية روحية بحسبان أن المعرفة الإسلامية جامعة للروح والعقل معاً.

٢ ـ مفهوم الثقافة العربية للحضارة بعامة

١ ـ يقوم مفهوم «الحضارة» في الثقافة العربية على أساس من الفكر الإسلامي الذي يستمد مقوماته من القرآن الكريم. فأول مقومات الحضارة الإسلامية الجوهرية أنها تستمد من وحي رسالة سماوية تمدها بالقوة والتماسك، وتربط بين عناصرها عقيدة التوحيد التي تقوم على الموازنة بين الروح والمادة، والعلم والدين، والقلب والعقل، والدنيا والآخرة. ويقوم نظامها السياسي على الشورى والمساواة، واحترام حقوق الإنسان. وتقوم الأسرة في مجتمعها على المودة والرحمة. ويقوم اقتصادها على تبادل المنافع، واتخاذ المال وسيلة لا غاية، واحترام الملكية الفردية غير المستغلة أو المعطلة للصالح العام، والتشريع القائم على أسس مرنة، وخطوط عامة تتيح الفرصة للاجتهاد والتطور مع ظروف الأزمنة وعوامل البيئات. والإيمان بطلب المعرفة من كل وجه، واستخدام العقل في كسب المعارف، وتسخير الطبيعة لسعادة الفرد والجماعة. وتربط هذا كله قيم خلقية هي ضوابط الحضارة وإطارها، قوامها خلوص النية، ونقاء الضمير، والتمسك بقيم الحق والخير.

أولاً: حضارة جامعة إنسانية: لا حضارة الجنس السائد.

ثانياً: حضارة وسطى تقوم على التوازن بين الروح والمادة، فلا هي حضارة الزهادة ولا حضارة الغرائز.

ثالثاً: حضارة فكر مفتوح متقبل لتيارات الفكر والحضارات المختلفة تأخذ منها، وتترك وفق قاعدتها الأساسية.

رابعاً: حضارة لها أسس ومقومات تستمدها من القرآن الكريم: أساسها التوحيد، وقوامها العدل والحق والإخاء والحرية.

خامساً: حضارة تكرم العلم وتشرف العقل، ولكنها لا تنسى حاجة القلب والروح، وتجعل قانون المعرفة فيها: قائماً على العقل والوجدان معاً.

٣ - ربط الإسلام بين الارتقاء الروحي، والارتقاء المادي، وفتح بابهما على مداه، فلم يحرم علماً نافعاً، ولم يضع للعلوم حدوداً. وبذلك ربط بين المدنية والدين. حيث يظن في الحضارة العصرية، وبعض الحضارات القديمة أنهما متعارضين. بل لقد بلغ الإسلام بالأمر أن ربط بينهما ربطاً عضوياً. فأعلن أن الدين هو ذروة المدنية. فالمدنية التي تستحق هذا الاسم بنزاهة أصولها هي غرض الدين الحق الخالص. فالمدنية الصحيحة لا تنافي الدين الحق، والعلم الصحيح لا يخالف الدين الحق في شيء [١].

٤ - جعل الإسلام للأخلاق المكان الأرفع من عنايته لكل الاعتبارات، وهو إعداد النفس البشرية لتكون قادرة على حمل مسؤوليته المهمة التي ناطها الإسلام بكل مسلم، فوضع الأخلاق في مستوى لم تضعها فيه أية فلسفة في الأرض على شدة عناية هذه الفلسفات بها. ويتمثل ذلك في قول الرسول (ص): (إنما بعثت لأتمم مكارم

(١)و(٢) محمد فريد وجدي.

الأخلاق) فالإسلام يعتبر مكارم الأخلاق غاية الدين الحق، وثمرة لوسائله المختلفة. وقد عمد الإسلام إلى حياطة الدعوة إلى حسن الخلق بعملين هامين: تحريم الينابيع الثلاثة للشرور(الخمر والميسر والزنا) تحريماً لا هوادة فيه . إيجابه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وقد أباح الإسلام لكل إنسان أن يستعمل حقه الطبيعي في كل ما لا ينافي القانون العام. وما لا يجافي ناموس الأخلاق، فكان من أكبر معالم مفهوم الإسلام للحضارة حماية الأخلاق في الأمم. وقد جعل آحاد الأمة قواماً بعضهم على بعض، فقرر أنه لا يحل لمسلم أن يرى منكراً فيهز كتفيه، ويمضي في سبيله .

٥ ـ ارتباط الحضارة بمنهاج اجتماعي متميز، قوامه الحرية والعدل والإخاء الإنساني، بحيث تكون الحضارة عامل تقدم وسعادة للبشر جميعاً، ولا يكون خيرها وقفاً على مجموعة خاصة، ويكون للباقين الذل والكدح والعبودية وحماية الفرد من قسوة الطبيعة، أو سلطان الأعمال. وبذلك قضى على التفرقة العنصرية، والصراع بين الطبقات، وأقام أنظمة الرحمة والعدالة. ويمكن أن يوصف هذا بأنه سماحة الحضارة وإنسانيتها، فهي ثمرة جهد مشترك لكل من عاش في المجتمع الإسلامي مسلمين وغير مسلمين، وتوفير الحرية لغير المسلمين، واحترام شعائرهم، وإعطاء المرأة حقها وحريتها. فالحضارة في الثقافة العربية ليست قاصرة على طبقة دون طبقة، ولا أمة دون أمة.

٦ ـ الموازنة بين مقاصد الروح، ومطالب البدن، والبعد عن الزهد المعطل للطاقات، وعن المادية الجامدة المفسدة لإنسانية الحياة، وقوام هذا المفهوم الحضاري.

٧ ـ ليس هناك انفصال بين القيمة الدينية، والقيم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية في مفهوم الثقافة العربية للحضارة، وإنما تتمثل القيم مجتمعة ككل في تقدير كل موقف.

٨ - الحضارة الإسلامية تؤمن بوحدة البشرية، لأنها تؤمن بوحدة الله وبوحدة الإنسانية، وبوحدة الحقيقة، وهي بالتالي تتوجه إلى العالم كله وإلى الإنسانية. ومن هذه الإنسانية في الحضارة الإسلامية تنشأ الوحدة الثقافية والوحدة الاجتماعية المستندة إلى نظرة إلى الكون واحدة، ونظرة إلى الحياة واحدة. وقد أكدت حلقات التاريخ الإسلامي أن الحضارة في مفهوم الثقافة العربية هي حضارة إنسانية تجمع عليها الشعوب والأقوام في صعيد واحد مشترك من المفاهيم الفكرية، ونظم الحياة التي تتحقق فيها المساواة بين البشر، وإقامة العدل، وسائر المثل العليا التي تتقدم بالبشرية مادياً ومعنوياً. وقد كان الإسلام هو جماع هذه المثل العليا، وهو أساس الحضارة المثلى. فإن الحضارة هي الموقف الذي تتخذه أمة من الأمم من الحياة والكون ويتبع هذا الموقف تباين واضح في مجالات كثيرة منها: الفن، والأدب، وذلك واضح في اختلاف الفن الإسلامي عن الفن الصيني والأوروبي. وكذلك في الفرق بين فهم الإغريق للديمقراطية وفهمنا لها.

حقائق أساسية[1]

وهناك حقائق أساسية في بحث الحضارة أهمها:

اولاً: إن الحضارة الغربية الحديثة استمدت مقوّم نمائها من التراث اليوناني الذي حرره الفكر الإسلامي، وأضاف إليه من المنهج العلمي التجريبي الذي هو ثمرة الفكر الإسلامي.

ثانياً: إن الحضارة على هذا المفهوم ملك للبشرية، وليس للغرب وحده، فهي ثمرة جميع الحضارات التي سبقتها وأبرزها اليونانية (البذور الأولى للعقل). والمسيحية (تربية النفس) والعربية الإسلامية (تمام نمو العقل والارتقاء بالنفس).

ثالثاً: إن الحضارة الصحيحة تجمع بين التقدم المادي، والتقدم

(١) عن بحث للأستاذ محمد المبارك.

الخلقي جنباً إلى جنب، وأن يكون الخلق هو قوام الحرية. وهذا هو الفارق بين الثقافة العربية والثقافات الغربية في مفهوم الحضارة، حيث يرى الغرب مفهوم الحرية في إطلاق الغرائز والحريات أقصى مدى للحرية. أما في الثقافة العربية فالحرية مرتبطة بالأخلاق، ولها ضوابطها.

ويقول لامارتين: أما الحضارة المادية، فإن علماء الأخلاق يخشونها، والفلاسفة يزدردونها، والإقتصاديين يمجدونها، ولكنهم جميعاً بعيدون عن أن يتفاهموا على وسائل رقيها، وأن يضبطوا انحرافاتها، وأن يدرأوا مفاسدها.

رابعاً: لكل حضارة «شخصية» متميزة بخواصها وصفاتها الملازمة، ولهذه الشخصية ارتباط بمصادرها من ثقافة أو أمة أو دين أو تاريخ.

٣ ـ موقف الثقافة العربية من الحضارة الغربية

إن مفهوم الثقافة العربية للحضارة يختلف اختلافاً أساسياً عن مفهوم الثقافة الغربية. ولذلك: فإن الأمة العربية والعالم الإسلامي ـ بحسبان استمدادهما من الفكر الإسلامي ـ يقفان من الحضارة المعاصرة موقفاً صريحاً يكشف عن «ذاتية» قيم الثقافة العربية، وطابعها الاستقلالي الواضح، ومفاهيمها المستمدة من تاريخها ولغتها ومزاجها النفسي والعقلي. وإن كانت هذه الثقافة مفتوحة أمام الثقافات البشرية المختلفة، إلا أنها تقف دائماً على قاعدتها الأساسية، وتتعامل مع هذه الثقافات من خلال قيمها الأساسية حفاظاً على كيانها وشخصيتها.

وتستمد الثقافة العربية مفهومها للحضارة من جوهر الإسلام نفسه، الذي يتمثل مفهومه للحضارة في أنها تقوم:

أولاً: على أساس تحقيق توازن سليم بين الفرد والمجتمع. فالإسلام يعترف بالفرد كوحدة اجتماعية، وتعترف به على أنه صاحب إرادة تشكل الوضع الأساسي في المجتمع في حدود المبادىء التي وضعها

الإسلام، وهي تعطي للفرد أيضاً حق الملكية، وحق التمتع بثمرات ملكه. ولكنه مع ذلك يضع قيوداً وحدوداً على إرادة الفرد، وعلى مباشرته لملكيته بحيث يحقق توازناً سليماً بين الفرد وحقوقه، وبين وجود المجتمع ومستلزماته [1].

ثانياً: حرم الإسلام جميع طرائق الكسب التي تقوم على الرشوة، واستغلال النفوذ أو الغش، أو أكل أموال الناس بالباطل، حتى يحول دون الأرباح الفاحشة، والثروات الضخمة، وإلغاء الربا كلياً.

ثالثاً: جعل للأسرة نظاماً حكيماً يقوم على المودة والرحمة، ورعاية الواجب، وشرع للميراث نظاماً فريداً حكيماً يتضمن تقسيم تركة المتوفى بين عدد من ذوي قرابته حتى لا تتضخم الثروات وتتجمع في أيد قليلة، وحرم على كل مالك أي تصرف في ملكه يؤدي إلى إضرار بالغير، أو ينطوي على اعتداء على حقوق الآخرين.

رابعاً: الاهتمام بالفقراء والمعوزين، وإقرار حق معلوم لهم في مال الأغنياء مع إشاعة روح التعاون والإيثار وبناء المجتمع على أساس أن المؤمن للمؤمن كالبنيان. واعتبار التقوى ـ وليس المال والنسب والجاه والحسب ـ ميزان التفاضل بين الناس.

خامساً: إقامة الحدود والقصاص، والنهي عن أكل الربا وأموال الناس بالباطل والوفاء بالعقود، وتنظيم أمر الكيل والوزن، وكتابة الديون، وإقرار مبدأ العمل.

سادساً: اعتبار القيم الأخلاقية محوراً أساسياً لبناء الحضارة والجماعة والربط بينها بحيث تكون هناك قواعد يرعاها الجميع، ويعترف بها الخارجون عليها (هذه القيم توجد عن طريق الأسرة والمسجد

* * *

(١) بحث للدكتور محمد شقير.

والمدرسة[1]) .

تكشف هذه المفاهيم عن « ذاتية » واضحة « للحضارة » في مفهوم الثقافة العربية، يختلف اختلافاً بيناً، وعميقاً عن مفهوم الحضارة في الفكر الغربي، وعن طبيعة الحضارة الغربية المعاصرة، في قيم أساسية كبيرة، وعديدة أبرزها :

١ - السمة الأخلاقية التي تعتبر قاسماً مشتركاً على الاجتماع والاقتصاد والسياسة .

٢ - رفض الربا كأساس للنظام الاقتصادي .
٣ - الترابط بين الفرد والجماعة، والجماعة والفرد .
٤ - العدل الشامل .
٥ - الإخاء .
٦ - التطبيق العادل للناس جميعاً لا لفئة خاصة .

بهذه السمات تمتاز عن الحضارة العربية، بينما تشترك معها في مختلف الجوانب الإيجابية، والحية، وأهمها التفكير العلمي، واحترام العقل .

* * *

وإذا قال أندريه سجفريد : إن حضارة الغرب تتميز بقدرتها على الإختراع في عالم الآلة . فإن مصدر هذا مستمد من الحضارة الإسلامية التي ابتدعت المنهج العلمي التجريبي . أما الميزة التي اعتبرها سجفريد ذات قيمة هي : أن الإنسان سيد مصيره . فإن الثقافة العربية تؤمن بسيادة الإنسان تحت حكم الله، ولا ترى له مطلق التصرف أو الاستعلاء . وترى أن السيادة لله وحده، وأن منطلق الحضارة هو تحقيق إرادة الله في الكون، وأن الحضارة الإسلامية حضارة علمية أخلاقية، بينما الحضارة الغربية حضارة مادية . وأن الحضارة الإسلامية عندما تمتلك وسائل العلم

---

(١) تاريخ الحضارة الإسلامية : أبو زيد شلبي .

الحديث والتكنولوجيا تستطيع أن تقدم للإنسانية حضارة جامعة بين المادة والروح. وانه لا سبيل إلى ما يقوله بعض قصار النظر من إعطاء حضارة الغرب المادية مدداً من روحانية الشرق. فإن تركيب الحضارة الغربية هو تركيب متكامل على النحو الذي تقوم به الآن، وأنه لا سبيل إلى تطعيم أي حضارة في مقوماتها الأساسية بقيم حضارة أخرى، وخاصة بالنسبة لمفهوم الترابط بين الدين والعلم الذي تتسم به الحضارة الإسلامية وحدها.

ومن الحق أن يقوم مفهوم الحضارة الإسلامية متكاملاً، كما يقوم مفهوم الحضارة الغربية متكاملاً. وحيث تتجه الحضارة الإسلامية إلى مفهوم الإيثار والإنسانية والإخاء تقف حضارة الغرب عند الفردية، وحب السيطرة والنفوذ والاستعلاء. ولذلك ارتبطت الحضارة الغربية بالتحرر من القيم الأخلاقية، وإقرار مذهب اللذات، والمتعة الفردية، والتفرقة في المعاملة بين الجنس الأبيض صاحب الحضارة والأجناس الملونة. وبذلك انبثقت من الحضارة هذه الحركة الاستعمارية القائمة على أساس الاستغلال والاستعباد للأجناس الأخرى.

وإذا قيل إن حضارة الإسلام تقوم على جماع المادة والروح والعقل والوجدان والدنيا والآخرة، فإن حضارة الغرب يمكن أن توصف بأنها حضارة مادية صرفة، طغت فيها المادة على كل شيء، ولوّنت كل القيم الوجدانية، والعاطفية، وأخضعت السلوك والمعاملات والأخلاق لمفاهيم المادة، وخضع لذلك الفن والاقتصاد، وقامت السياسة على مفهوم أن موطن الرجل الملون يبدأ من كاليه «الثغر الفرنسي المقابل للشاطىء الإنجليزي على المانش [1]». وأنذر الإمبراطور غليوم في أوائل القرن الحالي إلى أوروبا بالخطر الأصفر على الشعوب البيضاء، وبأن إنهاء سلطان أوروبا على العالم سيأتي من الشرق.

وتتأكد الدعوة في كل وقت بأن الجنس الأبيض يريد الاحتفاظ بحقه

(١) عبارة أندريه سجفريد.

في السيطرة والسيادة، وتجري الدعوة إلى وحدة الشعوب البيضاء، وأن مهمة الجنس الأبيض هي تدعيم الثقافة الأوروبية في البلدان المستعمرة.

وبدا أن الشعب الأوروبي الذي كان يعلن حقوق الإنسان في أوروبا ويطالب بالحرية والإخاء والمساواة كان يذهب متحمساً إلى إفريقيا، يسلب سكانها أبسط حقوق الإنسان. وفي أوروبا يقولون إن الناس ولدوا أحراراً، ولكنهم في أرض آسيا كانوا يقولون: إن الناس عبيد، وإن الرجل الأبيض وحده هو الذي له الحق في حمل أمانة حكم هذه البلاد.

* * *

وتتميز الحضارة الإسلامية بأنها:

أولاً: ليست حضارة السادة دون العبيد.

ثانياً: الاندماج في الشعوب، لا السيادة عليها.

ثالثاً: الترابط بين الدين والعلم، وبين المجتمع والأخلاق. بالإضافة إلى تباين نظرة الحضارة الإسلامية عن الحضارة الغربية إلى الكون والحياة والعقائد والعادات والقيم والآداب والفنون.

وهناك خلاف أساسي قوامه: التكامل بين الدين والمجتمع في الحضارة الإسلامية، بينما تقوم الحضارة الغربية على أساس الفصل بين الكنيسة والدولة.

* * *

وتتسم الحضارة الإسلامية بالإبداع والذاتية التي أقامت لها طابعاً مميزاً ومنهجاً خاصاً. هذه الذاتية المستمدة من جذور فكرها، والذي أعطاها وقفة الصمود إزاء خطر جسيم تهدد اليهودية والمسيحية قبلها. ذلك هو

خطر الفلسفة اليونانية الوثنية الذي سيطر على اليهودية، وابتلع المسيحية، وأذابها في بوتقته، ولكنه عجز عن ذلك بالنسبة للإسلام، والفكر الإسلامي والثقافة العربية بعد صراع طويل شاق، ولولا الأصالة العميقة الجذور لاستحال ذلك، ولخضع الإسلام لما خضعت له اليهودية والمسيحية، ولاستحال إبداع حضارة إنسانية امتدت على الزمن أجيالاً، وامتدت على هذا الكوكب فغطت مساحة كبرى منه في قلب قاراته الثلاث الكبرى، أثرت بالعطاء كل حضارة قامت من بعد، وطبعتها بطابعها أو أمدتها بأصولها ومقوماتها. فالحضارة الإسلامية نسيج تام الصنع، قام على ما قام عليه الفكر الإسلامي والثقافة العربية من تكامل ووسطية ووحدة « فهي ليست مزيجاً، بل مركباً فيها وحدة. والوحدة هي أس القوة والإبداع في الحضارات، كما هي أصل في حياة الأفراد والجماعات».

لقد اقتبست مما سبقها كأمر طبيعي لكل حضارة أن ترتبط بما تقدمها، ولكنها صهرت ما استقبلت في بوتقتها وحولته إلى مادة قوة، وطبعت كل ما أخذت بطابعها، وظل كل من طابعها وجوهرها وذاتيتها واضحاً قائماً، حتى في إبّان مرحلة ضعفها وأزمتها بعد دورة ألف عام من التاريخ.

يقول الباحث (أدلارد) وهو واحد ممن تثقف على أيدي العرب في الأندلس: «إن الإبداع الذي عرفت به الحضارة العربية الإسلامية كان نتيجة دافع روحي، ونظرة عالية من إيمان راسخ بوجدانية الحق».

« إنني والعقل رائدي تعلمت شيئاً من أساتذتي العرب أن الله أعطى الناس العقل ليكون هادياً، فيميز الحق من الباطل».

إن أثمن الخدمات العلمية الملموسة التي قدمتها الحضارة الإسلامية، وكانت مصدر بعث الفكر الغربي، وقيام الحضارة الغربية المعاصرة هما: روح البحث والاعتماد على العقل.

أولاً: قامت الحضارة الإسلامية على روح واحد، وأصل الأصول فيها: «فكرة التوحيد». وبالتوحيد تفسر عناصر الإسلام جميعاً. والإسلام لم يبتدع فكرة التوحيد، ولكنه سما بها إلى أبعد درجاتها، حيث جعلها محور كل شيء، وصاغها أدق صياغة، وحررها من كل عائق أو معاكس. والتوحيد هو شجب عبادة ما سوى الله، فلا يؤمن بسلطان غير سلطانه. والأصل في الوحدانية: التحرر من عبودية غير الله، ومن كل سلطان غير سلطان الله، فلا تفرقة بين الناس. دين واحد هو: دين الله. والناس أمة واحدة. وفي هذا معنى العالمية بأصفى أشكالها، وأسمى صورها.

والوحدانية الكاملة تقوم على أصول أربعة:

١ - التحرر من عبودية غير الله.
٢ - التوحيد أو العالمية.
٣ - الروحانية الخالصة، المثالية الخلقية.

ثانياً: الإسلام يرمي إلى تحرير العقل من كل سلطان غير سلطان الله، فهو لا يتقيد بنظر المجتمع والرأي السائد فيه، إلا إذا كان من عند الله. يضرب عرض الحائط ما يبديه المشعوذون من تأثير القوى الخفية التي من حق العقل أن يكفر بها، وأن يتحرك دون حساب لهذه القوى. والعقل من خلق الله، ويخضع له، فلا يشترك معه في الألوهية. وقد أودعه في الإنسان، لا ليعبده الإنسان ويخلص له من دون الله، بل ليعرف الكون، ويكتشف ما يلزمه منه، ويهتدي به في الظلمات التي ليس للدين أن يكشفها له. والعقل في مفهوم الإسلام واسطة لا غاية. وهو آلة تتكسر على ما يتعدى ميدانها. ولا يستطيع أن يتحدى ما يقوله الله. والعقل ليس إلهاً كاملاً يخطىء، وإنما هو نور مصباح يكشف في الظلمات، ولكنه ينكشف أمام نور الله. والعقل لا يستطيع أن يكشف

سر الخلق والكون، وأن يضع مبادىء المعرفة بل الله يفعل ذلك. والفلاسفة المسلمون يرون أنه مادام نور العقل أضأل من نور الله فلماذا لا يتخذ نور الله كاشفاً في ميدان الفلسفة يسير نور العقل وراءه؟.

والعقل في الإسلام يحرر من الخرافات، ومن عبودية غير الله، ويفتح أمام المسلمين المجال في الجبر والحساب والهندسة والكيمياء والطبيعة.

لقد قيد الإسلام العقل في النظرة الفلسفية العامة الشاملة، وأطلق له الحرية فيما سوى ذلك من مشاهدة وتجربة واختبار، وعدم خضوع للقوى الخفية. وهذه هي الوحدانية التي حررت العقل من غير سلطان الله.

وقد أقر الإسلام وجود حقيقة واحدة هي من خلق واحد أحد. فالعقول يجب أن تقبل جميعها إلى فهم هذه الحقيقة واكتشافها مهما اختلفت في أمزجتها وقوة إدراكها. ومن شأن وحدة الحقيقة أن تؤدي إلى وحدة العقول. والعقل الإسلامي يتفق مع نتائجه وطريقه مع الأخلاق.

فهو الذي يدل على الخير ويهدي إليه. أما المكر والخديعة والدهاء المؤدية إلى السوء، فليس من صنع العقل، وإنما من صنع النفس الأمارة بالسوء، ولو رجع الإنسان إلى عقله رجوعاً سليماً لأباها.
وبالجملة فالعقل الإسلامي نور محرر من الشعوذة والسحر والقوى الخفية، والخضوع لغير الله [1].

ثالثاً: تهذيب النفس أصل من الأصول في الحضارة الإسلامية.

وتقوم روح الإسلام على تحرير الإنسان من شهوات النفس، والتحرر من عبودية الناس.

وقد وضع الإسلام طرائق للتطهر النفسي كالعبادات والصوم. ومن

---

(١) يوسف العشي عن مجلة الحضارة الاسلامية.

المعروف أن النفس غير الجسم، والميول النفسية غير الاتجاهات العقلية.

وقد اتخذ الفلاسفة والصوفية من دراسة أحوال النفس وسيلة لرفعها، فوصلوا في ذلك إلى درجات عالية، وبنوا بحوثهم على التجربة النفسية عن مجاهدة النفس، فقالوا إنهم وصلوا إلى معرفة السعادة، بل إلى الحصول عليها عن طريق المجاهدة والتهذيب.

والإسلام دعوة إلى أن يتحرر الإنسان من ميول النفس ورغباتها وأهوائها وخضوعها لغير الله [٢].

رابعاً: المادة: يرى الإسلام التحرر من عبودية المادة وطغيانها. وذلك بتوجيه المال إلى صالح الأعمال، فالمال واسطة لا غاية. والمال ملك لله، وهو رهين يسترد، ويبقى لأجل معلوم. ومبدأ الزكاة يقوم على توزيع واحد من أربعين من ثروة الموسرين، فينفق في حياته خلال «أربعين سنة» ما يعادل أقصى ما جمع لديه من المال، وبذلك تنتقل الثروة في كل أربعين سنة من أيدى أناس إلى أيدي آخرين. وقد حرم الإسلام كنز المال: «والذين يكنزون الذهب والفضة».

وليست الزكاة تكرماً ولا صدقة بل «حق معلوم». وقد أقر الإسلام للسلطان أن يأخذ من مال الأغنياء ما يراه لازماً للفقراء [١].

خامساً: مهما أوغلنا في البحث والتنقيب فيما سلف من الحضارات، فلن نجد توقيتاً معيناً نستطيع أن نحدده بدءاً لحضارة ما، أو تاريخاً لمولدها، ولا أن نعين حداً فاصلاً يميز بين حضارة ولت، وأخرى أشرق عليها النور وتبدت في الوجود، ولكن هناك استثناءً واحداً هو الحضارة الإسلامية. فلم يذكر تاريخ البشر فيما عرفه الناس من حضارات سوى حضارة واحدة برزت إلى الوجود من عالم الغيب دفعة واحدة، واستوت للناظرين قائمة على أصولها في فترة محددة من تاريخ البشر، تلك هي

---

(٢) يوسف العشي: نفس المصدر.

(١) يوسف العشي: نفس المصدر.

حضارة الإسلام.

فقد انفردت حضارة الإسلام وحدها بانتمائها إلى الحياة دون سابق عهد أو انتظار. وقد جمعت من فجر نشأتها كل المقومات الأساسية كحضارة مكتملة شاملة، قامت في مجتمع واضح المعالم، له نظرته الخاصة إلى الحياة، وله نظامه التشريعي الكامل. ولم يكن قيامها ثمرة تقاليد زخر بها الماضي، ولا وليد تيارات فكرية متوارثة. ولقد كانت هذه الحضارة وليدة حدث تاريخي فريد، هو تنزيل القرآن الكريم، وكان مردها إلى رجل فذ في التاريخ هو محمد رسول الله.

جاء الإسلام نظاماً شاملاً للحياة قد افتتح حقاً حضارة جـديـدة[٢]

سادساً: تحدث القرآن الكريم قبل أن يدور بخلد إنسان بشيء عن نظرية التطور والارتقاء بأمد طويل. إن الحياة ليست سلّماً من قفزات لا رابط بينها، ولكنها عملية عضوية حية مستمرة. ومما يسر هذه النظرة إلى الحياة الإنسانية في وحدتها واستمرارها أن يأتي الإسلام بكل فذ فريد مستحدث من أصول الفكر، وأن يضم إلى ذلك بعض الأصول العقلية التي حواها الفكر القديم كذلك [١].

سابعاً: تتمثل حضارة الإسلام في تلك النظرة الخاصة إلى المنهج الاجتماعي المتمايز، والنظرة الخاصة إلى الفضائل الأخلاقية، وهذا الأسلوب الذي رسمه الإسلام لحياة البشر. فقد استهلت حضارة الإسلام عهدها كاملة العناصر والأركان وقد وصلت إلى تمام شكلها ونمائها دفعة واحدة، لأنها لابد أن تنمو، وأن تتطور كما تنمو الكائنات الحية.

ولهذا كان من الطبيعي أن تتصل حضارة الإسلام خلال الزمن ببعض العناصر والمقومات الخارجية عنها، والتي جاءتها من حضارات أخرى.

لقد بدأت حضارة الإسلام رغم كل العوامل والظروف والمؤثرات

---

(١) عن بحث محمد أسد عن الحضارة الإسلامية.

(٢) عن بحث محمد أسد عن الحضارة الإسلامية.

كائناً حياً متكاملاً متمايزاً انبثق نجمها، فكان ظهورها في توقيت تاريخي محدد[٢].

ثامناً: نقل الإسلام النظرة إلى الحياة، والكون من النظرة الخرافية والميتافيزيقية، والمجزأة إلى النظرة الشاملة الجامعة الموضوعية والتجريبية المنتظمة في سنن وقوانين. وفتح آفاق التفكير العلمي، فسار البحث العلمي في طريق جديدة. وانتقلت العلوم الطبيعية من المرحلة العقلية النظرية عند اليونان إلى المرحلة التجريبية منذ القرن الثاني للهجرة. وانتهت الكيمياء والفيزياء والفلك إلى مرحلة التجربة، واكتشاف القوانين وظهر أمثال الجاحظ وابن الهيثم والبيروني والرازي وأولاد موسى بن شاكر.

ولم يقتصر الأمر على الطبيعة الجامدة، بل تناول الإنسان والحياة الاجتماعية. فقد انبثقت عن النظرة الإسلامية نظرة علمية إلى المجتمع أنتجت لأول مرة في تاريخ الفكر البشري تفكيراً علمياً كتفكير ابن خلدون في مقدمته، والشاطبي اللذين سبقهما مؤلفون في حياة الأقوام والمجتمعات كالبيروني في الآثار الباقية، والمسعودي. هذا إلى جانب الأفق الجديد الذي شق المسلمون إليه الطريق إلى معرفة النفس الإنسانية ونزعاتها وخواطرها ورغباتها، وما تعانيه من صراع وتبدل وتطور مما نراه في آثار الصوفية التي يعد الكثير منها بحق من أروع ما سطر في العالم، في تصوير النفس والروح[١].

تاسعاً: أنتجت نظرة الإسلام إلى البشر فكرة المساواة الحقيقية، بل الشعور بالمساواة. كما ولدت أيضاً فكرة العدالة بين البشر والشعور بمسؤولية إقامتها في العالم دون اعتبار الفوارق الجنسية أو الدينية أو غيرها. لذلك لم تكن نظرة الشعوب إلى العرب المسلمين الذين دخلوا بلادهم نظرة الفاتحين المستعمرين، بل نظرة من يحملون لهم الخير،

---

(١) محمد المبارك: نظرة الاسلام العامة الى الوجود وأثرها في الحضارة.

ويقيمون موازين الحق، والعدل، ويشعرون بالأخوة الإنسانية، والمساواة بين عباد الله. وهذا هو السبب في أن البلاد التي دخلوها بقيت فيها آثارهم خالدة شاهدة عليهم.

عاشراً: حررت الفكرة الإسلامية الشعوب من الخضوع المطلق للملوك والرؤساء، إذ جعلت نظرتهم إليهم نظرة إلى أفراد من البشر مثلهم. عباد لا يمتازون عنهم بشيء إلا ما حملوا من أمانة، وما يجب عليهم من آدائها. وأعظم من ذلك كله ما بعثته النظرة الإسلامية في النفس البشرية من يقظة الضمير الإنساني وانتعاشه، وحيويته، ذلك الضمير الذي يتألم للشر، ويحنق على الظلم، ويتلهف لإقامة الحق، وإشاعة الخير ويشعر بالمسؤولية أمام الله عن التقصير في أداء الأمانة في هذه الحياة والاطّلاع بما أوجب الله من العمل والجهاد [1].

حادي عشر: حرر الإسلام الإنسان من الخرافة، والشهوة، والعصبية الخاصة، وربطه بالكون والوجود والبشرية عن طريق ارتباطه بالله العالم الخبير، وبالحياة الآخرة الباقية. إن هذه النظرة تجمع في نسق واحد: روحانية الدين، وعقلية العلم، وفعالية العمل، وخلقية الغايات [2].

٥ ـ الحضارة والاستعمار

ارتبطت الحضارة الغربية المعاصرة ارتباطاً عضوياً بالاستعمار، والتوسع، والفتح، والسيطرة على المناطق المختلفة في قارتي آسيا وأفريقيا. وذلك أن هذه الحضارة إنما نمت في قارة أوروبا، وهي قارة لا تملك جميع وسائل الصناعة التي هي دعامة الحضارة. ومن هنا كان اندفاعها للسيطرة في العالم التماساً للخامات التي هي أدوات الصناعة، وللأسواق التي هي مصادرها. وقد أقامت الحضارة الغربية فلسفة تبرير لهذا الغزو تقوم على دعوى عريضة، هي أن الغرب وأوروبا والجنس الأبيض، والحضارة تحمل أمانة «تمدين» الشعوب الملونة والمختلفة، وأنها في سبيل ذلك

(١)(٢) محمد المبارك: نفس المصدر.

ترتاد هذه الأقطار لتحمل معها المدنية والنور والحضارة، وتعد هذه الأمم والدول للنهضة.

وقد كشف الزمن وحده عن بطلان هذه الدعوى، بعد أن أمضى الاستعمار أكثر من مائة عام منذ ظهوره إلى اليوم، دون أن يحقق لهذه الأمم والبلاد التي استعمرها أي تقدم يذكر، بل إنه حال دون تقدمها الذاتي الذي كانت قد شقت الطريق إليه، وذلك بتعطيل كل مقومات نموها، وتعميق أوجه الخلاف بين عناصرها وتجميد لغتها ودينها وثقافتها، وإثارة الشبهات حولها، وإعلاء لغته وثقافته وتاريخه.

وتبين بالحق أن الإستعمار كان يقوم بعمل بعيد الخطر في احتواء هذه الأمم والشعوب والسيطرة عليها وتذويبها في كيانه عن طريق الغزو الثقافي الذي بدأه ببعثات التبشير لنقل أهالي الأوطان من أديانهم إلى دينه، وصبغ الحياة الثقافية والاجتماعية جميعاً بصبغة نفوذه السياسي والفكري. كما تبين أن الاستعمار إنما كان حريصاً على إبقاء نفوذه وإدامته، وذلك بتحويل هذه الأفكار والأمم إلى أجزاء من إمبراطورياته الشاسعة، وقد بدأ ذلك فعلاً حين فرض ضم أقطار شاسعة في إفريقيا وآسيا إلى بلاده، ومثال على ذلك هذا القرار الذي أصدرته فرنسا باعتبار الجزائر جزءاً منها، وأطلقت عليها «فرنسا الجنوبية».

وقد كان الإسلام واللغة العربية، والثقافة العربية هي الأخطار الأساسية التي عمد الاستعمار إلى محاربتها رغبة في القضاء عليها، وإزاحتها من طريقه، وفرض لغته وثقافته ودينه على هذه البلاد المستعمرة.

ومن الحق أن يقال: إن العالم الإسلامي كان أحط هذه المناطق إزاء الاستعمار، وقد وجه إليها ضغطاً أكبر، ولكن من الحق أيضاً أن يقال: إن العالم الإسلامي استمداداً من قيمه ومقوماته وفكره، كان أكثر صموداً وأكثر مقاومة لهذا النفوذ.

ولم تكن محاولة الغرب في فرض نفوذه على العالم الإسلامي والأمة العربية، عن طريق الاستعمار، والحضارة هي المحاولة الأولى، ولكنها كانت أضخم هذه المحاولات، وأعظمها أثراً. ويمكن القول بأن الحضارة قد ارتبطت بالاستعمار، واتجهت إلى المشرق، وعبرت البحر الأبيض المتوسط من جوانبه المختلفة في سبيل تطويق هذه المنطقة. وقد بدأت هذه المحاولة منذ القرن السادس عشر الميلادي، واصطبغت هذه الحملات بالطابع التبشيري المسيحي، وربطت نفسها بالحروب الصليبية القديمة، واعتبرت نفسها امتداداً لها. وظل هذا المعنى قائماً في ضمير الحضارة والاستعمار الغربيين طوال هذه القرون، حتى صرح به اللورد اللنبي في العقد الثاني من هذا القرن حين قال عندما دخلت القوات البريطانية الغازية مدينة القدس: «الآن انتهت الحروب الصليبية».

ومن أعظم ما ركّز عليه الاستعمار لإدامة السيطرة العمل على تمزيق الكيان الفكري والاجتماع، وكانت الحضارة الغربية عاملاً هاماً في تأكيد السيطرة والاستعمار.

وقد التمست الحضارة الغربية مفهومها في الاستعمار من النظرية الرومانية التي كانت تقول إن في العالم فئتين: «نحن والبرابرة».

يقول جان بول رو: لقد تغيرت العبارة وأصبحت أقل فظاظة، ولكنها لا تزال أقل وضوحاً. أما معناها فهو: الغرب هو قبل كل شيء وطننا، والبرابرة في نظرنا أو الشرق هو كل آسيا وكل أفريقيا.

ويمكن القول إن مفهوم الحضارة والاستعمار قد ارتبطا ارتباطاً عضوياً وفق مفهوم واضح، هو أن أوروبا هي أرض الجنس الأبيض المسيطر على العالم كله، وأفريقيا وآسيا أرض الأديان والثقافات ويجب أن توضع تحت الحماية، وتظل مصدراً للموارد، وأسواقاً لبيع منتجات الحضارة.

ومن ثم فقد وضعت خطة أساسية ما تزال موضع التنفيذ: هي

امتصاص ثروات هذه البلاد واستنزاف كل ما تملك أولاً بأول بكل الوسائل والأساليب، سواء بالتجارة أم بالسرقة.

وقد سيطر على هذا النفوذ الاستعماري والاقتصادي، نفوذ اليهودية العالمية المسيطر على شؤون المال والاقتصاد في أوروبا، ثم في أمريكا بعد ذلك، واتصل ذلك بتأسيس وطن قومي لليهود في فلسطين، كمقدمة لإقامة امبراطورية استيطانية استعمارية في قلب العالم الإسلامي كبديل للاستعمار نفسه.

وقد ارتبط الاستعمار بإيديولوجية الفكر الغربي القائم على «نظرية الأمير» التي نادى بها ميكيافلّي، والتي سيطرت على السياسة الغربية، والحضارة الغربية. وذلك باصطناع كل وسائل الخديعة والتآمر في سبيل تحقيق الغايات، وإنكار الأساليب الأخلاقية في مجال السياسة أو الاقتصاد. ومن ذلك قامت مؤامرات الوقيعة بين المسلمين والمسيحيين والعرب والبربر والسنة والشيعة. والدروز والموارنة.

وكان للقوى التغريبية ذات النفوذ الفكري كالماسونية والبهائية والتبشير أثرها البعيد المدى في عمليات الهدم والتمزيق والتآمر، ومقاومة الثقافة العربية أساساً، وذلك بإثارة الشبهات، وحياكة المؤمرات والوقيعة بين العناصر المختلفة.

وكانت محاولة إخراج العرب المسلمين من مفاهيم الإسلام، وقيم حضارتهم وثقافتهم ولغتهم وتراثهم وزعزعة عقائدهم وتشكيكهم في مقومات فكرهم كمقدمة لاستيعابهم وتذويبهم في أتون الحضارة الغربية العالمية، وخلق طابع غربي في أسلوب الحياة أقرب إلى الانحلال والإباحة والإلحاد.

(٢)

هناك وجهة نظر غربية لمفهوم الاستعمار والحضارة يعرضها ليوناردولف في كتابه «الاستعمار والحضارة» فهو يرى أن الحضارة الأوروبية الحديثة هي شيء مختلف كل الاختلاف عن كل الحضارات التي سبقت القرن التاسع عشر بعد أن تحطمت الحضارات التي كانت ترتكز على المملوكية والأرستقراطية، وأنه لما تضخمت الصناعة في أوروبا اضطرت الحضارة أن تبحث عن أسواق جديدة لصناعتها، وجلب المواد اللازمة للإنتاج والعمل. ومن هنا شعرت أوروبا بحاجتها إلى سائر العالم إن كان لها أن تنجح في نظمها الجديدة، فتنافست الدول الأوروبية في الاستئثار بالأقطار الآسيوية والأفريقية لتجعلها ملاحق لتجارتها وصناعتها، وساعدها على ذلك سرعة المواصلات. وقد كانت صعوبة المواصلات تحول بين أية حضارة مهما كانت قوية ممتازة أن تجتاح بقية الحضارات أو تجبرها على الأخذ منها، فكانت العزلة تامة بين آسيا وأفريقيا من حيث أساليب العيش، وسبل الحياة.

ويرى ليوناردولف: أن التطور الذي وقع في أوروبا بين ١٧٥٠ - ١٨٥٠ هو تطور عظيم هائل لم تشهد مثله البشرية في كل تاريخها المعروف، ولعله أعظم قفزة قفزها الإنسان.

وعنده أنه لما كانت الحضارة الراهنة حضارة صناعية في صميمها كان الاستعمار الحديث اقتصادياً صناعياً في دوافعه وموجباته، ولم تستطع آسيا أو أفريقيا له رداً، لأنه أتاهما فجأة، وبقوة ووسائل ليست في طاقتهما، ولا هي تدخل في دائرة معرفتهما واختيارهما، فهي في الواقع حضارة استعمارية غازية بمقدراتها الحربية، وطرق مواصلاتها السريعة.
ويرى ليوناردولف أن حادث الاستعمار هذا لعله أعظم حادث عرف في التاريخ من حيث السرعة والشمول. ففي خلال مائة عام ١٨١٤ - ١٩١٤. استطاعت أوروبا أن تخضع القارتين الآسيوية والأفريقية وجنوب أمريكا لسلطانها الذي لا ينازع.

ويعتقد ليوناردولف أن مشكلة الاستعمار الحديث إنما هي مشكلة نزاع بين حضارة صناعية آلية لا بد لها من الاستعمار في نجاحها، وبين حضارات لا تريد الفناء في هذه الحضارة الحديثة. وأن مناهضة الاستعمار وقيام حركات التحرر إنما كان مصدرها: «تصادم الثقافات» ذلك أن من خصائص الحضارة الأوروبية الراهنة أنها تطغى على كل النظم والمؤسسات الاجتماعية في الحضارات الأخرى، ولا تعرف التساهل أو الهوادة في فرض امرها، واتباع سيطرتها، وهي تقوم على القوة الحربية في أساليبها، والتنافس الاقتصادي العنيف.

ويرى ليوناردولف: أن النزاع الحالي بين الحضارة الحديثة وبقية العالم ليس نزاعاً جنسياً أو دينياً أو وطنياً، وإنما مصدره طغيان الحضارة الأوروبية وأساليبها في الاستعمار والاستغلال. فالحضارة الغربية الراهنة في مظهرها الاستعماري الحربي الاقتصادي قد هددت حياة تلك الشعوب ورخاءها، وسبل عيشها، وعلاقاتها الاجتماعية بالزوال، وإن كيان الحضارة الغربية الراهنة يقوم على التنافس الاقتصادي الذي لا يعرف سوى مبدأ الربح المادي.

وعنده أن آوروبا لا تحس بوطأة مساوىء حضارتها، ولكن آسيا وأفريقيا تحسان بها إحساساً يهدد حياتها ويكاد يفنيها. فالحضارة الراهنة التي أنجبت الاستعمار في آسيا وأفريقيا، وخلقت مشكلاته هي بعينها التي خلقت مشكلات الحروب البشرية والاقتصادية بين الدول الأوروبية نفسها.

ولذلك فإن المشكلة ليست جنسية ولا دينية ولا قومية، وإنما هي مشكلة من صميم الحضارة الراهنة. وفكرة الوطنية نفسها هي نتاج الحضارة الأوروبية الحديثة، فهي غير معروفة في آسيا وأفريقيا بمعناها الحديث.

والشعوب الآسيوية والأفريقية إنما تستعمل وسائل هذه الحضارة

وسبلها كأسلوب للتحرر منها.

* * *

ويعلق ليوناردولف على الفارق الشاسع بين الاستعمار الروماني، وبين الاستعمار الحديث. ففي ذلك الاستعمار لم ترغم روما بقية العالم على أخذ حضارتها بمقتضاها، وإنما كانت تترك لهم كامل الحرية في معظم طرق عيشهم وحياتهم، لأن حاجة الرومان إلى الفتح لم تكن اقتصادية صناعية، وإنما كان دافعها الأول هو حب الفتح ومطامع الملوك في السلطان والتوسع الحربي. وليس معنى هذا أن الحضارة الرومانية لم تمتزج بالحضارات الأخرى أو تؤثر فيها، وإنما كل ذلك جاء تدريجياً في رفق وهوادة، حتى أن الرومان أخذوا من الحضارة الإغريقية الشيء الكثير مع أنهم كانوا من الغزاة الغاشمين. وقد بلغت هذه الحضارة الإغريقية في أوج مجدها مستوى رفيعاً من الاجتماع والنظم السياسية والاقتصادية والفنون، وفتحت معظم شعوب العالم، فكان لها فارس في الشرق ومصر في الجنوب والشعوب اللاتينية، وفينيقيا في الغرب. واتصلت بحضارة تلك البلدان، وأثرت فيها، غير أنه لم يقم نزاع عنيف بينها وبينهم، ولم تتلاش أية حضارة من تلك الحضارات من جراء هذا الاختلاط. ذلك لأن الإغريق لم يحاولوا توحيد إمبراطوريتهم الواسعة المختلفة الأشكال

(٣)

لقد نقل الاستعمار إلى العالم الإسلامي الجوانب الضعيفة والإباحية من حضارته، ومرافق اللذات والمتعة، والخمور والمسارح والملاهي والقصص الماجنة، وأباح في البلاد المستعمرة ما لا يبيحه في بلاده، بعد أن سيطر على مقدرات البلاد. أباح الربا والخمر والميسر، ودعا إلى التهافت على اللذة والتفنن فيها، ودعا إلى إطلاق الغرائز من عقالها، وتجهيز المرأة بكل صنوف المفاتن واللذات.

وبذلك خلق الفساد الاجتماعي القائم على ضعف الأخلاق، والتناحر

والاختلاف . وكانت هذه الحضارة قد أثبتت عجزها في بلادها عن تأمين المجتمع الإنساني، أو إقرار الطمأنينة والسلام في ربوعه . وقد اعتمد الاستعمار في نقل هذه الجوانب من الحضارة إلى العالم الإسلامي، والأمة العربية أسلوباً عنيفاً من أساليب الغزو الاجتماعي، الذي نجح نجاحاً لا حدّ له، وكان أعمق أثراً من الغزو العسكري والسياسي . وتغالب الأمم المستعمرة في احتضان هذه الجوانب من الحضارة.

يقول الدكتور هيكل: «لقد نشر الغزب حيث ذهب حضارة استعمارية قامت على إضعاف الروح المعنوي في الشعوب التي نزل فيها، وعلى قتل معنى الاعتماد على النفس في تلك الشعوب، كما نشر بينها روحاً مادياً قتالاً للإيمان بكل المعاني السامية، أو المثل العليا موطداً للاستعمار وآثاره . هذا الروح المادي هو ما يعمل المستعمرون لنشره أنّى ذهبوا لأنهم يرونه الصلة الوحيدة التي تربط الحاكم والمحكوم».

فالحضارة الأوروبية التي دعت نفسها حضارة العلم قد اصطبغت منذ زمن بعيد بلون أعطاها صبغته فجعلها حضارة الاستعمار، وجعل العلم، وجعل العقل، وجعل النفس، وجعل كل ما في الحياة من قوى في خدمة هذا الاستعمار الذي لا يبغي إلى نشر العلم أو الدعوة إلى عقيدة جديدة، وإنما يبتغي استغلال ما سوى أوروبا استغلالاً مادياً بحتاً. والاستعمار على هذه الصورة أناني بطبعه، أناني حتى ليستهين بالقتل، وباستئصال الأجناس، وبكل ما يقف في سبيل غايته المادية الصرفة . هذا الاستعمار قد استطاع أن يخفي لونه الحقيقي، وأن يزعم لنفسه غايات هي تحضير الشعوب القليلة الحضارة، فلما وقعت الحرب بتأثير أرباب المال في العالم، زادت العواصف الأنانية نمواً في نفوس تنطوي على حظ غير قليل منها.

لقد كان حرص الاستعمار أن يقدم للعرب والمسلمين الجوانب المتحللة الاستهلاكية والإباحية في محاولة للقضاء على القيم الأساسية لهم، وذلك بإباحة القوانين الوضيعة، وإباحة الزنا والخمر، والتحلل

الخلقي، وتنازع المذاهب والأحزاب، على مدى الخلاف الواسع العميق بين المزاج النفسي والعقلي العربي والغربي. ولا شك أن الاستعمار يحرص على أن يبقى العرب والمسلمون في حالة لا تمكنهم من مزاحمته في مجال الحضارة. وهو يهدف إلى أن تظل هذه القوة معطلة عن النمو، تابعة، مستهلكة، وليست منشئة أو مؤثرة.

ومن هنا كانت دعوة الاستعمار إلى ما أطلق عليه «وحدة الثقافة العالمية». وهي دعوة مشوهة، ترمي إلى أن تنصهر ثقافة العرب وحضارة المسلمين في بوتقة الفكر الغربي، والحضارة الغربية، وما هذه الأساليب والوسائل التي يتخذونها إلا وسائل لاحتواء الثقافة العربية، ومحاولة تذويبها في كيان غربي.

هذه الغاية هي الهدف الأساسي لحملات التغريب، والغزو الثقافي والشعوبية، وإذاعة دعوات الإلحاد والإباحية، وإحياء الشبهات، ومحاولة والثقافات في شؤون السياسة الاقتصادية أو النظم الاجتماعية الأخرى، فقد كانت الحضارة الإغريقية كثيرة التساهل مع الشعوب الأجنبية التي دانت لها، وكذلك كان استعمار عصر الأحياء والنهضة (الرنيسانس) كان غايته التبادل التجاري في المحصولات، وفتح الأسواق الأجنبية، وأخذ المواد الخام.

أما قصة الاستعمار الحديث في آسيا، فهي معروفة مشهورة، ابتدأت أولاً بالمعاهدات التجارية بين الدول الأوروبية والأمم الآسيوية كما حدث في الهند. ويتضح تصادم الثقافات جلياً ناصعاً في الحركة التي بدأت تشتد في أوائل القرن العشرين، فهي في الواقع ثورة واسعة ضد الحضارة الأوروبية،ونظمها الاستعمارية.

أما استعمار أفريقيا فقد ابتدأ عام -١٨٨٠- وكانت الدوافع اقتصادية من غير شك. وكان الرحالة الاوروبي أو الوكيل التجاري، لشركة من الشركات يذهب إلى أواسط أفريقيا ومعه ألوان من الهدايا

والمنح التي يقدمها للأمير الإفريقي ثم يطلب منه إمضاء معاهدة مع الشركات التجارية لا يفهم لغتها، ويفهم أن هذه المعاهدة ستدر على شخصه وبلاده الرخاء والثروة. وتم استعمار معظم بلدان إفريقيا الوسطى على هذه الطريقة الخادعة.

فاستانلي حين قام بالنيابة عن ملك البلجيك بإمضاء مثل تلك المعاهدة أصبحت الكونغو مستعمرة بلجيكية. وبهذه الطريقة استولت إنجلترا وفرنسا على مستعمرات في أواسط إفريقيا. ولما نشب النزاع بين الدول الأوروبية على تحديد أراضي مستعمراتها اتفقوا فيما بينهم على أن كل من أمضى معاهدة مع أمير من أمراء أفريقيا على جزء من الشاطىء الإفريقي من حقه الأرض الموازية لذلك الشاطىء في داخل القارة الإفريقية.

ويقول: «إن الطريقة التي اتبعت في الاستيلاء على تلك الأراضي الأفريقية كانت في معظم الحالات وحشية موغلة في الوحشية، وأن تلك الطرق المبتذلة قد تركت من غير شك أثرها السيء في العلاقة الراهنة بين سكان أفريقيا وأوروبا. فإن تلك السبل الدنيئة إن دلت على شيء فهي تدل على أن الحضارة الأوروبية تعامل الرجل الإفريقي مثل معاملتها لأي حيوان أبكم. ذلك لأن الرجل الأوروبي يعتقد أن له الحق في الإستيلاء على أرض الأفريقي بالقوة والخداع»[1].

ومن الحق أن يقال: إن الاستعمار أعطى الحضارة طابع الغدر، وأبعدها عن الطابع الإنساني الذي عرفته الحضارة الإسلامية في انتشارها، فضلاً عن أن الحضارة الغربية لم تنقل إلى العالم إلا الجوانب البراقة والاستهلاكية والخاصة بالترف والمتعة المادية. بينما حجزت عن هذه الأمم والشعوب عوامل القوة، وحالت بينها وبين الوصول إلى مقدرات العلم والاختراع والتكنولوجيا، ومنعتهم من إقامة أسباب الصناعة أو

---

(١) من ملخص لكتاب ليونارد ولف (الاستعمار والحضارة) لمعاوية نور (المقتطف ابريل ١٩٣٤).

القوة العسكرية في أرضها لتجعلها دائماً ضعيفة في حاجة إلى حمايتها، وتجعلها دائماً أسواق إنتاج، وأرض خامات، وشعوباً استهلاكية.

وبذلك ينفرد الغرب والجنس الأبيض وحده بأسرار الصناعات والاختراعات وأدوات الإنتاج والصناعات الثقيلة وأسباب القوة العسكرية والصواريخ والذرة. وقد قام ذلك على مخطط استعماري دقيق هو أن يظل العالم مقسوماً إلى قسمين:

الأول: صناع الحضارة وهم دهاقنة الاستعمار في نفس الوقت الذي يظلون دوماً السادة.

الثاني: هي شعوب آسيا وأفريقيا التي تظل دائماً أرض الاستعباد ومصادر الثروة التي يمتصها الاستعمار لبناء الحضارة.

إثارة العصبيات والقبليات والإقليميات، والفرق المذهبية والعنصرية القديمة، والانتقاص من القيم الأساسية للثقافة العربية والفكر الإسلامي، والحملة على الإسلام واللغة العربية والتاريخ. والهدف هو تحويل الثقافة العربية عن قاعدتها وقيمها، رغبة في ابقاء هذه الأمة في موضع الضعف والتخلف، كياناً مستعبداً، خاضعاً للاستغلال البشري والاقتصاد يدور في فلك التبعية للفكر الغربي والثقافات الاستعمارية.

ومن هنا كانت الدعوة إلى تحرير الثقافة العربية من الغزو الثقافي، ومن آثار الوثنيات والشعوبيات والتغريب بالتماس قيمها الأساسية ومفاهيمها الأصيلة التي لا حياة للمسلمين والعرب، ولا نهضة ولا قيام لهم إلا بها.

ومن حق أن يقال إن الثقافة العربية كانت دائماً قادرة على مقاومة تذويبها في كيان الفكر الغربي، ولم تزل قادرة.

٦ ـ أزمة الحضارة الغربية

هل نحن بمقاييس الثقافة العربية، نرى أن الحضارة الغربية المعاصرة صالحة لنا؟.

وهل هذه الحضارة اليوم في دور العطاء حتى تبهر النفوس، وتستولي على العقول، وتثير الإعجاب في نفوس أصحاب الثقافة العربية، والحضارة الإسلامية العربية؟.

وهل هي حقاً أعطت، وما تزال تعطي غير الظواهر المادية والاستهلاكية والترفيهية؟ وهل استطاعت أن تعطي أهلها مفهوم الطمأنينة النفسية الذي بحث عنه الفلاسفة، وتطلعوا إليه في مختلف نماذجهم من «المدن الفاضلة» التي حاولوا فيها تصوير المجتمع الأفضل والأمثل؟.

الحق أننا قبل أن نجيب على كل هذه الأسئلة، لنصل إلى رأي الثقافة العربية في الحضارة الغربية المعاصرة يجب علينا أن نستعرض آراء عمالقة المفكرين الغربيين أنفسهم في حضارتهم «لنكشف عن أزمة الحضارة».

هذه الأزمة التي تتلخص في مدى الإغراق الذي وصلت إليه الحضارة من جوانبها المادية، بينما بقيت جوانبها العقلية والنفسية متخلفة مما احدث بها ذلك الصراع العجيب الذي يدفعها إلى الهاوية بخطى وئيدة. فالذين يتنبأون بأنها في طريق التحلل والزوال يرجعون ذلك إلى ما اشتملت عليه من ألوان التناقض، وضروب التعارض مع القوانين الإنسانية، ومن أن ثقافتها لم تعد ثقافة حضارة، بل استحالت بتأثير الاستعمار والعنصرية إلى ثقافة إمبراطورية.

(١) ـ ويقول فون باين السياسي الألماني في مذكراته:

نحن الآن على حافة الهاوية، ذلك لأننا تقدمنا في العلم حتى صرنا عبيد العلم. وتقدمنا في الاختراع، وتمادينا في استخدام الآلة إلى أن

حكمتنا الآلة. ولم يبق إلا بارقة أمل ضعيفة، لا أظن أننا سنهتدي إليها. هذا الأمل الوحيد في النجاة، هو أن نؤمن بأن هذا الكون له خالق، وأن هذا الخالق قد وضع له قوانين، وما على الإنسان إلا أن يسير طبقاً لهذه القوانين، فإن فعلنا ذلك تحررنا من العبودية، واستطعنا نحن أن نحكم العلم والاختراع.

(٢) - يقول أرنولد توينبي: نحن البشر بكل تقدمنا العقلي، وقدراتنا الفنية نبدو وكأننا قد ورثنا نفس العناصر الحيوانية والآلية التي كان يملكها أجدادنا البدائيون دون أن يطرأ عليها تغيير مذكور، فلم تستطع القوة الآلية للعلم بكل ما أتت به من أعاجيب أن تقضي على شهواتنا الحيوانية، ومكنتنا عن طريق الكهرباء والقوة الإشعاعية أن تخترق الأركان المظلمة للطبيعة المحيطة بنا، ولكن الظلام ما زال يخيم على كياننا الداخلي، فنحن نتحكم في قوى الطبيعة، ولكن طبيعتنا الحيوانية تتحكم فينا.

(٣) - تقول الكاتبة الفرنسية مدام سنت بوانت:

إنني أتهم المدنية الغربية بأنها قصرت عن القيام بالمهمة التي تزعم أنها ألقيت على عاتقها في الأجيال الأخيرة، أعني المهمة التي ترمي إلى نشر تعاليم الإنسانية وتعميمها على وجه الأرض، وتؤدي إلى الاتحاد. ويمكن للإنسان أن يعبر عن هذه المهمة العظيمة بوسيلتين لا غير، وهما: وسيلة حب الذات، ووسيلة حب الخير. أما الغرب فإنه لم يقع اختياره إلا على الوسيلة الأولى - وسيلة الأنانية وحب الذات - وكان اختياره لها جريمة، وكان ذلك سبب ضياعه، واضمحلال نفوذه، لأن الوسيلة التي لجأ إليها قذرة ملعونة. إن الأنانية تقضي على الخير وتلتهم كل بر.

لقد أراد الغرب أن يوحد العالم، ولكن تحت سلطانه ولمصلحته، والعالم لا يساس إلا بالعدل وبالحب والإخاء، وبرد الحقوق لأهلها. ولكن الغرب لجأ إلى القوة الغاشمة. نعم لقد اعتمد على القوة وحدها، وتعدى حدود الله، وعبث بالشرائع الدينية، وخالف تعاليم المسيح عيسى

عليه السلام الذي أمر بمحبة الناس أجمعين.

لقد أضاء الشرق دياجير أوروبا بنور تعاليمه، وما هذه العلوم التي يفخر بها الغرب إلا من علوم الشرق.

ليس الذي يحجب النور عن الأنظار هو مدنية الشرق القديم، بل الوحشية الغربية ودين القوة، وحب الذات والأنانية التي يعمل بها الغرب. إن الغرب يجرم وقد اختار الرذيلة على الفضيلة، وإنه بالتجائه إلى الوسائل التي لا تقرها الإنسانية قد أثبت أن مدنيته أفلست.

(٤) - يقول الفيلسوف جود: إن الداء الذي أصاب مدنيتنا ناشيء عن الهوة الفاصلة بين قوتنا وحكمتنا، ولتخطي هذه الهوة وسيلتان. أولاهما: وقف تقدم العلوم الطبيعية التي تزيد قوة الإنسان، وتوجيه العناية إلى العلوم النفسية التي تصلح من روحه. والوسيلة الثانية هي جمع شتات العالم كله، ولا سبيل إلى سد هذه الثغرة إلا بإحياء هذه القيم الأخلاقية العليا، وليس ثمة وسيلة إلى إحياء هذه القيم إلا بإحياء العقيدة الدينية في النفوس.

(٥) - يقول شفايستر: إن أوروبا صرفت اهتمامها إلى «معرفة» العالم إلى العلوم والتطبيقات العلمية لمختلف الأفكار التي تنهيها التجارب والأحداث إلى الذهن البشري، وليس في هذه جميعاً ما يحتم أفضلية سلوك على سلوك، أو يقرر الأخذ بفضيلة دون مراعاة النفع الذي ينجم عنها، وما من أخلاق يمكن اكتسابها عن طريقة معرفة العالم.

(٦) - يقول بول هازار في كتابه: «ازمة الضمير الأوروبي» خيل إلى الناس أنه لا شك في وصولهم المقرر بفضل العلم إلى السعادة، وأن الإنسان قد ينظم هذا العالم المهزوم في سبيل راحته ومجده.

(٧) - يقول الدوس هكسلي: إن العالم الآن يشبه قبيلة تعبد الشيطان، وتعيش في ظل قوانين جديدة قائمة على الشر والحقد، والمادية

البحتة التي تجرد الإنسان من كل مشاعر الإنسان بلا حب ولا تعاطف، وإنها تتبادل الاتصال الجنسي على نحو ما تفعل السائمة. إن العالم يمارس الحياة بطريقة غريزية لا تقوم على منطق أو تفكير. وإن المجتمع الذي أخذ يتحلل من قيود الزواج، ولم يعترف بالأمومة، إنما يستهلك مائة سنة في خمسين سنة بالعقاقير والاجتهاد العصبي، والخروج عن الطبيعة، وخاصة من يكبت انفعالاته، ويتظاهر بالكذب والنفاق.

إن أزمة الإنسان متعددة الجوانب، فهي أزمة ناجمة من المفاهيم الخاطئة، والوعي الناقص. إن الخيبة والخراب إنما ترد إلى تمرد الناس على حياة الروح، واندفاعهم وراء المادة وقصر جهودهم على الربح والشهوات وإعراضهم عن المثل العليا[1].

(٨) - ويكشف دكتور ماري المير بارتس مواطن النقص في الحضارة المعاصرة فيقول:

لم يحدث في عصر سابق مثل هذا التوتر الذي يشهده اليوم بين الفن الصناعي والنظم الاجتماعية. لدينا علوم جديدة. حضارتنا المادية متشعبة متعددة النواحي، وذات كفاية ترتفع كثيراً عن مستوى مثيلاتها في العصور السابقة. وعلى عكس هذا فإن أنظمتنا وأوضاعنا العقلية وتفكيرنا الاجتماعي (وهي التي نحاول بها جميعاً) أن نسيطر على الحضارة المادية والانتفاع بها، إنما هي عبارة عن مركب عتيق مما ظفرت به الإنسانية منذ العصر الحجري حتى مطلع القرن الثامن عشر. ويتمثل أهم سبب لانهيار حضارتنا في النمو العظيم الذي ما كان يخطر بالخيال

---

(١) يرى هكسلي أن فساد العالم يتركز في الاتجاه الحاث على الاستمتاع. وقد شاع هذا الاتجاه في أقوال المؤلفين والشعراء والخطباء والممثلين داعياً إلى التمادي في سبيل الدعاية للحياة المستهترة والإباحية. وقد بالغوا في مدح الحرية والتوسع فيها حتى أصبحت مرذولة مبغوضة كالسهم الذي ينقلب داء بعد أن كان دواء. ويرى هكسلي أن المثل العليا حقائق زاهية لا شك فيها، لأنها ضرورية للعالم، وهي الوسيلة للقضاء على الفلسفة المادية التي أعجب بها هواة الملذات والباحثون عن مسرات الحياة بأنواعها. وأن النفوس البشرية لتضيع في سبيل هذه الملذات، وتفقد الثقة بالفضائل. وقد أجمعت أرقى العقول في سائر الأزمنة والأمكنة على أن غاية الإنسانية هي السلام والمحبة والعدل. ومن المحبة الأخوية نشأت فكرة الوطنية وهي فكرة إذا لم تفهم على حقيقتها جلبت الشقاء على جميع الأوطان.

للعلوم والفنون في العصر الحاضر من ناحية، وفي قصور نظم حياتنا وتفكيرنا الاجتماعي من الناحية الأخرى.

إن الفجوة الآخذة في الاتساع بين العلوم والفنون الديناميكية من ناحية، وبين أنظمتنا وتفكيرنا الاجتماعي من ناحية أخرى هي المظهر الأهم الفاصل لما نسميه التأخر الحضاري. والحرب اليوم أشد خطر يهدد الحضارة، وهي منافية تماماً لقواعد الأخلاق.

(٩) - اعترف تشارلز فرنكل (رئيس دائرة الفلسفة في جامعة كولومبيا) بأن الإنسان الجديد يمر بأزمة عنيفة وأن المجتمع الغربي حافل هذه الأيام بالمشكلات الاجتماعية والأخلاقية على الرغم من بحبوحة العيش التي يتمتع بها.

والسؤال عنده هو: هل ترجع المعضلة الحضارية إلى طبيعة الحضارة ذاتها، أم إلى فساد القيم والمثل التي ترافقها؟ ويقول: إن الأزمة هي انقطاع الاتزان بين ما يخلق الإنسان وبين الأهداف المثلى التي يترتب على البشر التزامها فيما وراء الاختراعات العظمى، والكشوف الجبارة. هذه الأزمة هي أزمة خوف وحيرة وقلق وهلع. إنها أزمة انخلاع القلب والعقل، والخوف من الموت بالذرة.

وهذا هو تمزق وجود الإنسان في المجتمع الحديث، ويمثل أكبر تحدي يواجه الحضارة. لقد نجح الإنسان في التغلب على الطبيعة وتسخيرها عارية عن طريق العلم والصناعة، فأخذته عزة الخلق، وكبرياء الإبداع، ونمت قدرته على حساب إيمانه وأصيبت القيم الدينية والأخلاقية بالجمود والتخاذل.

(١٠) - ويعرض (جاتيان بيكون) في بحثه عن انهيار القيم وأزمة الحضارة فيقول: منذ السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر أخذ التطور الذي طرأ على أوضاع الحياة والفكر يتزايد حتى بلغ من شدته أنه اليوم يوحي إلينا بتحول حقيقي، لا مفر لنا إزاءه من إعادة النظر في

جملة المبادىء التي توجه الوجود الإنساني، والتي بالقياس إليها تصدر الأحكام على أفعالنا. وقد أصيب من جراء هذا التحول ما نسميه بالفلسفة الإنسانية والأخلاق والحضارة والثقافة. أي تلك القيم التي تضبط تصرفاتنا، وتخلع على سلوكنا صفات معينة.

لقد جلب لنا التراث اليوناني اللاتيني فيما وراء الثقافة مغزى أخلاقياً هو: الشعور بتفوق الإنسان على كل ما في الكون وبامتياز ذاتي يتمثل في عقل الإنسان وإرادته وذكائه المجرد. أي في كل ما يتيح له الإفلات من الغرائز ومن حتمية الطبيعة.

والإنسان في نظر الفلسفة الإنسانية يثبت امتيازه بانفصاله عن الطبيعة وسيطرته عليها. فإن الخلق المسيحي يصبو إلى الوصول إلى حالة التزهد والنسك التي تنطوي على إنكار الغريزة وجميع القوى البيولوجية، ولا سيما الجنس. ومنذ القرن الثامن عشر فقد الإيمان المسيحي مكانه في بعض القلوب.

وقال الملحدون من أتباع المذهب العقلي في القرن التاسع عشر بإمكان وجود أخلاق لا علاقة لها بالدين، ولأسباب شتى وجدت هذه القيم منذ أواخر القرن التاسع عشر، مهددة وتزعزعت، ثم ما لبثت أن تقوضت.

وقد فرضت العلوم الطبيعية علينا نظرة الحتمية، ودعتنا إلى الشك في حقيقة الشعور بالحرية والمسؤولية، وهما دعامة الأخلاق التقليدية. وتوصل فرويد إلى الجنس، وقال: إن قوى غير خلقية تسيطر على الإنسان. ورأى ماركس في قيم الفردية والحرية والعدالة التي وضعتها البرجوازية مصالح رأسمالية مقنعة. وبعد نظام خلقي قائم على التقشف جاء مذهب ينادي بالحرية الفردية، وبالتطور وبتحقيق كلي للذات.

(١١) ـ ويقول ليوبولد فابس: إن الرجل العادي في أوروبا: ديمقراطياً، فاشياً، رأسمالياً، إشتراكياً، مفكراً، عاملاً، إنما يعرف ديناً

واحداً هو عبادة الرقي المادي، والاعتقاد بأنه لا غاية في الحياة غير أن يجعلها الإنسان أسهل. وكنائس هذا الدين هي المصانع الضخمة، ودور السينما، ودور الرقص. وكهنتها هم رؤساء المصارف، والمهندسون، والممثلات، وكواكب السينما، وأقطاب التجارة والصناعة.

إن الحضارة الغربية لا تجحد الله في شدة وصراحة، ولكن ليس في نظامها الفكري موضع لله في الحقيقة، ولا تعرف له فائدة، ولا تشعر له بحاجة.

(١٢) ـ ويقول برتراند رسل: إن عناصر الحياة ثلاثة: الغريزة والعقل والروح، وإن الحضارة الحديثة قد اهتمت بالعنصرين الأولين، وهما الغريزة والعقل، ولكنها لم تهتم مطلقاً بالروح. إن العقل يرينا أنه من الخير أن نفعل كذا، ولكن عنصر الروح وحده هو الذي يمكننا من أن نشعر شعوراً إنسانياً عاطفياً، وأن نحس إحساس الآخرين. فالغريزة والعقل لا يحلان المشكلة، ولا بد من انسجام العناصر الثلاثة: الغريزة والعقل والروح، وتنميتها تنمية قائمة على الانسجام حتى تسير الحضارة في طريقها السوي.

(١٣) ـ ويقول كارل باسيرز في كتابه «مستقبل الإنسانية» بدعتان طاغيتان من بدع العصر هي الماركسية والفرويدية في عالم محروم من الله. ظهر كارل ماركس نبياً، واتخذ القوالب التي يستطيع هذا العالم أن يقنع بها، وأن يهلل لها، وكان طبيعياً أن تسيطر على النفوس أساليب فرويد ومدرسته في منهج مهزوز مكدود، في عالمنا المقلوب. هذا قد أحس الناس بحاجة شديدة إلى التحرر. وجاء التحليل النفسي فزودهم بذلك الوهم، إننا بصدد عملية جبارة من عمليات الاستهواء الذاتي، الذي هو نتاج صادق، لهذا العصر المفتون، والذي يسير جنباً إلى جنب مع أساليب السحر والتعاويذ التي استولت على عقول الناس.

ومن الموجودات ما لا تبلغه المعرفة العلمية. ثم إن العلم لا يفسر لنا

القيم، إذا فرضنا أن العلم لا يستطيع أن يفسر لنا الكون كله، **فهناك** أشياء لا يمكن أن تفسر: هي شخص العالم نفسه.

(١٤) - ويرى البرت اشفيتسر في كتابه «فلسفة الحضارة» أن السبب في انحلال الحضارة هو سبب أخلاقي لأن الحضارة تنهار إذا أعوزها العامل الأخلاقي حتى حيثما تكون العناصر الخلاقة الأخرى من الحضارة مزدهرة ناشطة. وازدهار الحضارة تصحبه دائماً آداب توقير الحياة. ونظرة شاملة إلى الكون تبرر هذا الاتجاه الأخلاقي، وتعمل على الأخذ به في النظم الاجتماعية وسلوك الأفراد وتفكيرهم. وفي الأزمنة التي سادت فيها هذه النظرة إلى الكون مصحوبة بهذا الاتجاه الأخلاقي ازدهرت الحضارة ونمت.

واليوم أصبحت وجهة النظر الأخلاقية للكون مسلوبة القوة، ولذلك أخذ العالم يتخبط في الظلام الدامس. ومن العوامل التي آزرت الانحلال وزادت من خطورته موقف الإنسان الاقتصادي، فإنسان العصر الحاضر مرهق بالعمل، وهذا الإرهاق يحول بينه وبين القدرة على التأمل وحصر الذهن في التفكير.

إن مشكلة الحضارة مشكلة أخلاقية. إن الإنسان لن تكون له قيمة حقيقية بوصفه شخصية إنسانية إلا من خلال كفاحه، ليكون ذا خلق، وخلال حسنة، وإذا أعوز الأساس الأخلاقي تداعت الحضارة.

ولن تستطيع البشرية المشاركة في التمتع بخيرات الرقي المادي ما لم تكن في الوقت ذاته متطلعة نحو غايات أخلاقية يتقي بها الإنسان شر الأخطار التي تقترن بالرقي المادي. إن طبيعة فلسفة الحياة التي تعتمد على التوفيق بين التقدم المادي والرقي الأخلاقي في التأكيد الأخلاقي على معنى الحياة والكون.

والتقدم الأخلاقي هو جوهر الحضارة، حيث تتجه الإرادة الإنسانية نحو الخير المادي والروحي، للأفراد والمجاميع التي تضم هؤلاء الأفراد،

والخير للجزء والكل بمعنى أن تكون أعمالهم أخلاقية. أما التقدم المادي فلا يعد الجوهر الخالص للحضارة، إذ يحتمل الشر والخير على السواء.

وتتمثل الأخلاق عنده في إعلاء كل ما هو روحي أو متصل بالسلوك الخيّر للإنسان.

(١٥) - ويقول: (أوزفالد اشبنجلر) في كتابه «أفول الغرب»: إن الحضارة دستور أخلاقي يتمثل في العقيدة، وقوة النفس، وتلازمه بساطة الظواهر. وإن الدستور الحضاري لا يعتمد العقل أبداً، ولكنه يعتمد على الوجدان. هذا الوجدان المتمثل في الشعور لا الحس.

والعقلانية في شتى مذاهبها هي فلسفة مدنية لا حضارية. لذلك عندما تدخل الحضارة الطور العقلاني من تطورها، تبلغ خريف عمرها، وتهوي إلى درك المدنية، ثم تتابع انحدارها إلى الانحلال.

إن الحضارة الغربية مشرفة على عهد انحطاط وتدهور وفناء.

ويبدأ عهد الاضمحلال عندما يختفي الإلهام الجياش القوي في الأدب والفن. والفلسفة الوحيدة التي يفهمها الناس في هذه الظروف هي فلسفة: كل واشرب، فإنك ميت في الغد.

والمدنية الغربية يشع منها اليوم الاضطراب والقلق في نفوس أبنائها. وقد أخذت تنقل القلق والاضطراب إلى الشرق.

(٢)

ويرى «جود» في بحث عن انحطاط الحضارة: إن سم الانحطاط هو خطأ الإنسان في فهم حقيقة مكانته في الكون، وإقامة مستقبله على دعائم هذا الخطأ. ومصدر هذا الخطأ هو مقصد الإنسان في الاعتراف بوجود العنصر غير الإنساني ولا الطبيعي. هذا العنصر هو عالم القيم الذي لا يملك الإنسان سوى الخضوع له، والاعتماد عليه. وسبب انحطاط العصر في رأي جود هو: إنكاره هذا العالم، وتأبيه عليه، وإسقاطه

«عالم القيم الذي يشمل قيم الخير والحق والجمال».

فالعالم اليوم يفرط في الذاتية. والإسراف في الذاتية مدعاة إلى الشك في عالم القيم، بل وتدرجه إلى إنكارها إنكاراً تاماً، ومتى أنكرنا عالم القيم اختلت موازيننا، وأصبحنا في ليل من الشك مظلم.

ويرى ماكس نوردو في كتابه «الانحطاط»: إن أهم أعراض هذا العراء النفسي هو عدم الشعور بفروض الآداب، فالمصابون به لا يعرفون ما يسميه الناس قانون الحشمة واللياقة، فتراهم لأقل باعث من شهوة أو هوى يقترفون الإثم والجريمة.

ويقول: ولا يتحتم أن يكون المصاب بداء الانحطاط خلواً من النبوغ والعبقرية. وعنده أن منشأ هذا الداء (الانحطاط) هو ضعف الأعصاب وانتهاك القوى، وهما نتيجة لسببين رئيسيين: أولهما: الانهماك في الشهوات والملذات. وثانيهما: ما كابدته أوروبا في القرن السالف، وما تكابده الآن من الثورات والحروب. وإن تفشي الغلظة والوحشية في الشعوب عقب الحروب قد أصبح من البديهيات التي لا تحتاج إلى دليل. وقد عرف الناس أن الشعوب المتحاربة تخرج من الحرب أسوأ أخلاقاً، وأخشن طباعاً مما كانت عليه.

ولما كان هذا الداء (الانحطاط) شاملاً لم يخل منه فريق من المفكرين والكتاب والشعراء والمصورين والموسيقيين، فقد خرج جانب عظيم من مؤلفات الأجيال الحاضرة بعاهات هذا الداء ومشوهاته ومقاذره، وهو على ذلك الروح من الكتب السليمة النقية القيمة. وقامت الجماهير المصابة العليلة، فأجلست على أريكة دولة الآداب والفنون رجال أدهشوا القراء ببدائع الخيال وروائعه، ولكنهم أصفار من الآراء الناضجة، والأفكار المنتجة الخصبة، مجردون من المبادىء القويمة والمذاهب السليمة، منحرفون عن سنن الحق والمنطق والطهر والفضيلة، يشحنون مؤلفاتهم بأصناف الباطل والخرافات والخزعبلات ويصمونها فوق ذلك بأفانين الفسق والفجور والإثم، والرذيلة. والجماهير الحمقى

السخيفة تسميهم قادة الدنيا وأعلام الهدى، ومصابيح المستقبل، وما هم إلا فئة من المرضى المصابين، ولولا مزية الخيال القوي والأسلوب الرائع لكان المستشفى أولى بهم من غرفة الكاتب والمؤلف. ويصف (ماكس نوردو) وجه أوروبا في أواخر الحرب العالمية الأولى (١٩١٨) ويتنبأ بما تصل إليه من بعد فيقول: إن أوروبا قائمة في حومة داء ذهني قتال، أدنى إلى حومة موت أسود من الانحطاط فلا جرم إذا تساءلنا ماذا يكون بعد ذلك، إذا كان هذا الداء لم يبلغ بعد أقصاه، وأنه سيزداد شدة وعمقاً واتساعاً. فلا بد أن يأتي زمن تفتح فيه الظواهر المقصورة اليوم على سكان مستشفيات المجاذيب فقط. فقد شاعت في المجتمع الأوروبي، وصارت من أحواله وصفاته العادية، وإذ ذاك نرى الحياة وقد أخذت الصورة الآتية أو نحوها.

* بدلا من الحانات تنشأ أماكن لتعاطي الأثير والكحول والأفيون، ويزداد عدد المصابين بفساد حاستي الذوق والشم.

* تؤسس أندية الانتحار في كل مدينة، وإلى جانبها تقام أندية التذابح. أي قتل الأعضاء عن اتفاق وتراض.

* تفسد العلاقة الجنسية بين الذكور والإناث فساداً يستدعي تغيير النواميس المشروعة، والعادات المألوفة ملاءمة للحالة المستجدة، فترى المخنثين الذين يصبحون يومئذ السواد الأعظم من الناس، يلبسون أزياء نسائية لوناً وتفصيلاً. أما النساء فلا يستطعن إذ ذاك إرضاء الرجال إلا إذا لبسن أزياء رجالية، أحذية طويلة غليظة بمهاميز ونظارات على أعينهن، وعصى وسياط في أيديهن، وسيجار طويل في أفواههن.

وتشرع القوانين القاضية بتزويج الرجل بالرجل، وإباحة مواطأة الأخوات والأمهات، ومواطأة الحيوانات. وبذلك يصبح العفاف والتقى من خرافات الماضي، ويعد الشغف بسفك الدماء مرضاً بسيطاً، ويشتد ضعف العقل، وينسلخ الناس عن الأديان المعروفة، ويتكون عدد عظيم

من الشيع الروحانية والسحرة، وتشتد مبالغة الشعراء والمصورين في تعميم أغراضهم وإخفاء مقاصدهم، واستعمال الرموز الغامضة والكنايات المبهمة بدلا من الجمل الواضحة، والعبارات الصريحة.

ونرى العالم المتمدن قد استحال إلى ساحة مكتظة بالمرضى، يملأون الجو بعويلهم المؤلم، ويتلوون متأثرين بجميع صنوف الأوجاع[1].

ويقول هذا الفساد للفطرة الإنسانية، هذا الهرب الوقتي من وجه الواقع، قد زاد عدد المنتحرين يوماً بعد يوم على نسبة ما يستهلك من الخمر، ومن المواد المخدرة الأخرى في كل مكان.

ويشكو الناس اليوم من ضياع الأخلاق، فهل يسمح الإلحاد بها وقد زال الإيمان من القلوب، وزالت معه المبادىء الصالحة. الإلحاد نفسه قد أصبح مرضاً شائعاً ليس في حقيقته إلا وجهاً من وجود عدم الارتياح في كل ما هو موجود. فالقول بأن كل شيء باطل، وبأن ليس في الوجود شيء جدير بالطلب ولا بالمحاولة. ويعتبر ناقصاً. ا. هـ.

* * *

ويرى أرنولد توينبي: أن الحضارة الغربية تعاني اليوم أحد الأزمات، فهي حضارة علمانية لاحقة بالمسيحية تعيش على بقايا مختلفة من المبادىء المسيحية المشوهة، وهي فوق ذلك مأخوذة ببدعة تقديس الفرد بفكرة الإنسان الجماعي بجده في أنظمة الدول الفاشية والنازية والشيوعية والقومية الإقليمية. وقد حسب هيجل أزمة العالم سياسية، فحاول حلها بالدعوة إلى تحقيق الدولة المثلى. واعتقد ماركس أنها أزمة اقتصادية، فحاول حلها بالدعوة إلى تحقيق النظام الاشتراكي. أما توينبي فعنده أن الأزمة روحية.

ويرى توينبي أن الحضارة الغربية المتدهورة لا يمكن إنقاذها إلا

---

(١) «ماكس نوردو» متنبىء من أكبر قادة الماسونية الصهيونية.

بالدين ، ذلك لأنها مصابة بالخواء الروحي الذي يحول الإنسان إلى قزم مشوه يفتقد عناصر وجوده الإنسانية ، ويعيش الحد الأدنى من حياته ، وهو حد وجوده المادي فحسب ، مما يصيبه بأمراض السأم والروتينية ، وفقدان الهدف من كل ما يأتي به ، ويحول حياته إلى جحيم مشوب بالقلق والحيرة الذهنية ، والتمزق النفسي ، خواء روحي ، يحول المجتمع إلى قطيع يركض بلا هدف كما يركض القطعان ، دونما تفحص لمعنى مسيرته الهوجاء . كما يضطر المدركون أحياناً إلى إعلان انشقاقهم (لانتمائهم إليه) وبذل جهود الحياة من أجل الوصول إلى النظام والهدف اللذين يخلصانهم من المأساة ويقول : لم تعن الحضارة مطلقاً بالإنسان وحضارته من حيث تكامل وجودهما بشقيه الروحي والمادي .

والأزمة في نظر توينبي « أزمة روحية » والإنسان بما هو فعل وحرية مسؤولية وإيمان ومحبة ، وبما هو جوهر إنسانيته . تلك الطائفة الروحية الخلاقة القادرة أن تولد وأن تسخر بالتالي جميع ما يتعلق بها من النشاطات العقلية والمادية في سبيل تحقيق الغاية المثلى من وجودها .

ولذلك يلح توينبي على الإنسان ويبصره ويدله على طريق الحق والحياة وطريق الله ليسلكها ويرتقي عبر القلق ، وعبر التناقض إلى الغاية من وجوده ومن وجود العالم معه .

* * *

ويرى سوركن في كتابه (أزمة عصرنا) أن كل مظهر من مظاهر الثقافة الغربية يعاني أزمة حادة غير مألوفة ، وأن الثقافة الغربية مريضة معتلة سقيمة الجسم والروح ، ويرى أن الثقافة الحسية التي نعيشها اليوم قد غربت ، وأن الثقافة الغربية الآن تضرب في الظلام حتى تصدع فجر الثقافة الروحية ، فتملأ أضواء الآفاق . وفي الظلام تلم بالإنسان الأحلام المزعجة ، وتداني له الأشباح الرهيبة ، ولكن متى طوي الظلام زالت المخاوف واطمأنت النفوس . وعنده أن الأزمة ليست أزمة وضع أو

نظام اقتصادي أو سياسي فاسد، وإنما هي تشمل حياة الغرب من جميع أقطاره، فهي أزمة في الفن والعلم والأدب والفلسفة والدين والقانون والاقتصاد والسياسة والاجتماع. وهي أزمة تغلغت في كل ناحية، ومشت في جميع نواحي الحياة. وهي اليوم تنقض كل ما أبرمته الثقافة التي عاشت وازدهرت خلال أربعة قرون.

وهو يرى أن كل ثقافة هي جماع تام موحد له طابعها وشخصيتها وملامحها، ولها قيمها الخاصة ومعابدها، ولها ديانتها وفلسفتها وعلمها وفنها وقوانينها وآدابها. فإذا طرأ عليها تغيير شمل هذه النواحي جميعاً.

فالثقافة الغربية في العصور الوسطى كانت فكرة الاعتقاد بالله هي الغالبة عليها المستأثرة بها، ففنها المعماري ونحتها وتصويرها كان يعبر عن فكرتها الدينية. وكانت فلسفتها متمشية مع الفكرة الدينية ملائمة لها. وكان علمها خاضعاً لفكرة الله مؤيداً لها دائراً حولها. وكانت أخلاقياتها وقوانينها وآدابها متأثرة بالوصايا المسيحية الأخلاقية. وكان نظام الأسرة خاضعاً للنظم الدينية، فالزواج رباط مقدس لا تنفصم عروته. وحتى تنظيمها الاقتصادي كان متأثراً بوجهة النظر الدينية. وكانت أساليب الحياة على اختلاف أنواعها ترمي إلى تأكيد الصلة بين الله والإنسان، وتجعلها أسمى الأهداف، وغاية الغايات ومعقد آمال الإنسانية في الخلاص والنجاة.

وعنده أن ثقافة العصور الوسطى كانت ثقافة موحدة، ولم تكن خليطاً من الثقافات المختلفة، وكانت تسيطر عليها الفكرة الدينية، وكان (الله) في رأي هذه الثقافة هو الحقيقة والفكرة الصادقة، وما عداها باطل زائل. وهذه هي الثقافة الروحية.

وقد أدت هذه الثقافة مهمتها، وبلغت رسالتها، واستنفذت قوتها، وبدأت تنتابها بوادر الضعف في القرن الثاني عشر الميلادي (السادس الهجري) وبدأت جذور جديدة في النمو والاستطالة كانت تختلف عن

الثقافة القديمة اختلافاً شديداً.

فالحقيقة الكبرى في نظر هذه الحضارة هي: الحس والعالم المنظور، فما نراه وما نسمعه وما نشمه وما نلمسه وما نتذوقه هو الحقيقي. والواقع لا حقيقة وراء ذلك، وكل ما تجاوز الحس لا قيمة له. فإذا فرض أن وراء الحس شيء فلا قيمة له، ولا سبيل إلى إدراكه، فكأنه بالقياس إلينا غير موجود، ويمكن إهماله، وعدم التعويل عليه. وكان هذا هو المبدأ المغاير للمبدأ السابق. ولم تقف الحركة، واستمر الجانب الثقافي الروحاني في الانهيار، وألح عليه الضعف في حين أن الجانب الحسي أخذ يقوى ويستحصد حتى تمت له الغلبة وخلا له الجو. وساد في القرون التالية، وبدأ سلطانه التام في القرن السادس عشر، وبلغ الذروة في القرنين: ١٨ و ١٩ - ويسمي سوركن هذه الثقافة بالثقافة الحسية الخالصة، لأنها تقوم على الاعتقاد بالحس وحده، ولا تؤمن بغير الواقع المحسوس، فهي حسية تجريبية أرضية دنيوية، ويبدو الإيمان بالواقع الملموس في كل ناحية من نواحيها: في الفلسفة والدين والأخلاق والقانون والاقتصاد والسياسة.

فأزمة الثقافة الراهنة في رأي سوركن سببها انحلال الثقافة الغربية الحسية الخالصة. وقد سادت هذه الثقافة قروناً عدة، وفرضت نفسها على كل ناحية من نواحي الحياة حينما يدركها الخلل يسري الداء إلى مختلف أجزائها، وتشيع الفوضى بنواحيها المختلفة.

فليست الأزمة الراهنة أزمة أوضاع وصور وأشكال، وإنما هي انهيار عام، وتحلل شامل. هذه الأزمة هي أزمة انهيار الثقافة الحسية. وستخلفها ثقافة أخرى، ولكن هذا الدور هو دور الاضطراب الذي تنهار فيه الثقافة القديمة البالية، وفيه تشتعل الحروب والثورات والأزمات. كل هذه إرهاصات بالثقافة القادمة.

ويرى سوركن أن الانتقال من مرحلة ثقافية إلى مرحلة ثقافية

أخرى رغم ما فيه من الآلام والأحداث الجسام لا يستوجب فناء الحضارة، والاعتقاد بأنه سيتدركها الوفاة، ويطيح بها الموت، والأزمة الراهنة تكشف عن انحلال الصورة الحسية لثقافة المجتمع الغربي، وبدء مرحلة يطلق عليها المرحلة الحسية الروحية المختلطة Indealistic [(١)].

(٣)

هذه الآراء إذا حللناها وجدنا أمامنا عدة حقائق هامة لا بد للثقافة العربية أن تضعها في اعتبارها في مواجهة الحضارة الغربية:

أولاً: الحضارة الغربية تعاني أزمة حادة بسبب نمو الجوانب المادية، وبطء نمو الجوانب الروحية، فقد نما جسم الحضارة، وتباطأ نمو عقلها، حتى اختل التوازن بين القوى الفاعلة والقوى المنفعلة، وهو ما يعبر عنه باختلال التوازن بين العقل والقلب.

ثانياً: انفصال الضمير عن العلم وتجريد العلم من الضمير.

ثالثاً: أزمة الحضارة تصدر عن سبب أخلاقي، فالحضارات لا تنهار إلا إذا فقدت العامل الأخلاقي حتى حينما تكون العناصر الخلاقة الأخرى من الحضارة مزدهرة ناشطة.

رابعاً: انحسار المسيحية وتقهقرها أمام هذه الوثنية الجديدة. فقد كانت تعاليم المسيحية الروحية والخلقية تخفف كثيراً مما عند الأوروبيين من ضراوة وشراسة. فقد شوهت الحضارة الكثير من معالم المسيحية، وعكست عليها وثنيتها القديمة، وغلبت عليها طبائعها الوحشية غير المصقولة.

---

(١) ما يراه سوركن واشبلنجر وماكس نوردو هو من تنبؤات بروتوكولات صهيون. أما بالنسبة لأزمة الحضارة فالعرض صحيح، وأما بالنسبة لأحلام الغد فالنصر للفكرة الإنسانية الأصيلة، ولن يكون النصر للحلم الصهيوني الماسوني أبداً.

خامساً: أولت الحضارة اللذائذ الحسية، والمنافع المادية المرتبة الأولى، وجعلت العقل خادماً لها، ووسيلة لريادتها. ولقد ارتقى العقل حتى اغتر بنفسه، وتمرد حتى خيل إليه أن الوجود الذي اكتشفه من صنعه هو.

سادساً: أصبحت غاية الفرد اللذة والمنفعة، وغايته الجماعية كثرة الإنتاج وزيادة المال.

سابعاً: التقهقر بالتوجيه والاتجاه نحو الوثنية، وانصراف الناس عن عبادة إله واحد إلى عبادة آلهة موضوعية كالطبقة الاجتماعية، أو الفرد أو الأمة.

ثامناً: كان لنظرية النسبية التي دخلت مجال العلم وتسربت إلى جميع حقول الفكر أثرها في انتقاء الحتمية العقائدية وزرع الشوك في كل مطلق.

تاسعاً: يرى الكثيرون أن أزمة العالم هي أخلاقية قبل كل شيء، وأن تجديد الفكر السياسي في أوروبا والعالم إنما يتحقق بإخضاع السياسة لمقتضيات الشرف والأخلاق والعدالة.

٧ - مقارنات بين الحضارتين

تكشف الحقائق الصريحة عن فوارق جوهرية بين مفهوم الحضارة في الثقافة العربية وتطبيقاتها في الحضارة الإسلامية، وبين مفهوم الحضارة في الفكر الغربي وتطبيقاتها في الحضارة المعاصرة.

أولاً: أبرز هذه المفاهيم: الارتباط بين العقل والروح في المفهوم الثقافي العربي، والحضارة الإسلامية والخلف بين العقل والروح في الفكر الغربي والحضارة المعاصرة.

ومن هنا يبدو الخلاف واضحاً في «أخلاقية الحضارة» التي تعنيها

الثقافة العربية والحضارة الإسلامية على نحو واضح صريح أكيد يكاد أن يكون قاسماً مشتركاً على الجوانب الفكرية والاجتماعية المختلفة.

فإذا تميزت الحضارة اليونانية بعبادة الجسد، والحضارة الرومانية بحلبات المبارزة الوحشية، والحضارة الهندية بنظام المنبوذين، وتخصيص بغايا لخدمة المعابد، والحضارة المصرية الفرعونية بعبادة فر ن، والحضارة الغربية بالإيمان بالتقدم والعصرية بديلاً عن الدين، فإ. ميزة الحضارة الإسلامية هي أخلاقية العلم، والمجتمع والسياسة والاقتصاد.

ومن هنا تبدو أزمة الحضارة المعاصرة واضحة وصريحة، وهي الحيرة الذهنية والروحية بعد أن كبرت عقد العالم وصغر عقله.

وليس هناك لذلك علاج بأن تطعم الحضارة الغربية نفسها بروحانية الشرق، كما دعا إلى ذلك بعض الفلاسفة وحاول أن يختار روحانية الهند. إن التركيب الوثني العازل بين المجتمع والدين هو من طبيعة تكوين هذه الحضارة ومجتمعاتها، ولا سبيل إلى إجراء تطعيم لها إلا أن تعاد صياغتها من جديد.

وسيرة الحضارة الإسلامية في هذا أنها حضارة متكاملة تجمع بين الدنيا والآخرة، والعقل والقلب، والعلم والدين، وتجعل من الدين سياجاً للمجتمع كله.

وقد أثبت هذا التكامل والشمول في الحضارة الإسلامية قدرته على البقاء، وملاءمته للعصور، ونفوذه إلى المجتمعات الوثنية ونجاحه في تشكيلها، وقربه إلى الطبيعة الإنسانية والفطرة.

ولقد منح هذا التكامل للحضارة الإسلامية معنى العمل في الحياة دون رهبانية أو نسك، وتوجيه العمل لله في انتظار البعث والجزاء، فارتفع العمل عن المعنى الذاتي الضيق، وأصبح عملاً واسع المجال، اجتماعي الأثر والاتجاه.

وكان ارتباط الروح بالمادة عاملاً على قيام مفهوم «التوحيد» والإيمان بإله واحد، خالق لهذا الكون ومدبر له، وكان هذا التوحيد عاملاً هاماً في منح النفس الإنسانية تلك الثقة التي دفعتها إلى العمل دون خشية من الغد أو قلق من المجهول. وهذا هو ما أعطى الحضارة الإسلامية تلك النماذج الصادقة، التي تدافعت في مختلف ميادين البطولة: العلمية، والحضارية.

فقد مكن هذا المفهوم للمسلمين من مواجهة حقائق الحياة وتجاربها بصبر وشجاعة.

ولقد رفع مفهوم الأخلاق في الحضارة الإسلامية النفس الإنسانية - عن رغبة لا عن رهبة - فأعطاها القدرة على البذل والعطاء واحتمال الألم والتضحية إيماناً بالغايات الكبرى. واستطاعت هذه المفاهيم أن توفق بين حياة الروح وحياة الجسد في الإنسان والمجتمع الإسلامي على النحو الذي دفعه للعمل دون انحراف نحو الرهبانية أو الترف.

وكان للإسلام والشريعة الإسلامية أبعد الأثر ليس كالأديان الأخرى مقصوراً على أصول العقائد والأخلاق، بل يتناول تفاصيل الحياة ودقائقها، ويضع القواعد للعمل والزواج والميراث.

ثانياً: ومن أبرز القيم التي قامت عليها الحضارة الإسلامية، وتختلف فيها عن الحضارة الغربية اختلافاً جذرياً (الكرامة - الإنسانية - الإخاء) حيث لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى، ولا فضل لحاكم على محكوم إلا بالعمل الصالح.

أما الحضارة الغربية فقد قامت على مفهوم الحضارة اليونانية. هذا المفهوم الذي أقره «أفلاطون في جمهوريته». وهو المجتمع المنقسم إلى سادة وعبيد. وقد أقر أرسطو فخر الفكر الغربي الحديث - هذا التقسيم إلى سادة وعبيد. فجعل العبيد عبيداً بالطبع، حيث العلم مقصور على

طبقة معينة، والرفاهية مقصورة على طبقة خاصة.

أما الإسلام فقد دعا إلى الإخاء، ودعا إلى العلم حين افتدى أسرى بدر بتعليم عشرة من أبناء المسلمين القراءة والكتابة، وحين صفّى الإسلام الرق والاستعباد، حيث حرض على الفداء، وأحسن معاملة الأسرى، وحين دعا الإسلام إلى تمجيد العمل، ورفع شأن الإنسان العامل الذي يسعى في الأرض، بينما أقرت الحضارة الغربية تلك التفرقة بين الجنس الأبيض، والأجناس الملونة في ادعاء لم تؤكده وقائع التاريخ، أو حقائق العلم بتفوق الأجناس الآرية عقلاً وجسماً. هذا التفوق الذي جعل من حقها السيطرة والاستعمار باسم تمدين الشعوب المتأخرة في مراوغة تستهدف استغلالها، وامتصاص خاماتها واتخاذها أسواقاً لصادراتها.

وحيث نادت الحضارة الغربية بالإخاء والمساواة والحرية، وقصرت هذه المفاهيم على بلادها وأهلها، بينما اصطنعت الإذلال والعبودية للإنسان في كل مكان سوى أوروبا. فضلاً عما اعتبرته الحضارة الأوروبية من حق في أن تكون مناهجها آراء زاهية يجب أن يتقبلها الناس كاملة، والقول بأنه لا مكان اليوم لغير قيم هذه الحضارة.

بينما لا تقر الثقافة العربية هذا الادعاء، وذلك لأنه من العسير أن يتحقق لهذه الحضارة احتواء الحضارات والأمم والمجتمعات، بما هي عليه من تمزق واضطراب يعترف به أهلها وحكماؤها. وبينما هي أقل قدرة على العطاء من الحضارة الإسلامية التي قدمت للإنسانية الحرية والإخاء والعدل على نحو لم تستطع الحضارات الجديدة أن تصل إليه.

ومن العسير على الجماعات البشرية، وخاصة المجتمع العربي ربيب الحضارة الإسلامية أن يتحطم في وقت قريب أو بعيد، أو أن يستسلم أمام تيار الحضارة الغربية، أو يعتنق مفاهيم الغرب أو قيمه، فقد أخذت الحضارة الإسلامية، ورفضت من الحضارات المختلفة، كما

أعطت أيضاً، ولكنها أجرت هذا العمل كله على قاعدتها، ووفق مقوماتها الأساسية، وجعلت من هذه المقومات سياجاً لوجودها الاجتماعي. والمسلمون والعرب اليوم أكثر يقظة إلى حملة الاستعباد الفكري التي يحاول الغرب سوقهم إليها، وهم أقدر على المقاومة والعمل على تحرير ثقافتهم من عوامل الغزو.

ومن حق الثقافة العربية، ومن ورائها المجتمع الإسلامي أن يقف صفاً مرصوصاً في وجه كل طغيان حضاري أو ثقافي غربي، وأن تكون قادرة على كشف هذا الغزو الفكري والاستعمار الثقافي، ودحض هذه الحملة التغريبية الضخمة التي تحاول أن تذل الثقافة العربية لهذه التيارات التي تناقض جوهر فكرها ومنابع ثقافتها. ولتكن قيمها الأصيلة أساساً للاقتباس والنقل، وفق المقياس العربي الإسلامي الأصيل.

ثالثاً: انفصال الضمير عن العلم، وابتعاد الضمير عن التوجيه والقيادة، وتجريد العلم من الضمير، واعتماد مبدأ القوة بدلاً من الحق في حل المشاكل هو: خلاف جذري عميق بين مفهوم الحضارة الغربية والحضارة الإسلامية. والقاعدة الأخلاقية مصدر من مصادر الحضارة في الإسلام، فقد حدد في القرآن الكريم «الضمير المسلم» تحديداً جوهرياً، قوامه: الإخاء والسلام وعدم العدوان أو التسلط. (تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً).

الفصل العاشر

موقف الثقافة العربيّة من الفكر الغربي

مَوقِفُ الثقَافَة العَربيَّة مِنَ الفِكر الغَربي

(١)

قبل أن تقبل رياح الفكر الغربي مع الغزو الاستعماري الغربي، كانت الثقافة العربية التي تستمد جذورها من الفكر الإسلامي قد حددت منذ وقت بعيد خطوطها العامة، وشكلت قيمها الكبرى التي أقامت عليها من بعد وجودها ومفاهيمها. ذلك أن الأمة العربية كانت خلال خمسة عشر قرناً متصلة اتصالاً عقلياً وروحياً وتاريخياً لا ينقطع بالإسلام في قيمه العليا القائمة على التوحيد.

ولذلك فقد بدأ الصدام في اللحظة الأولى لوصول أولى رياح الفكر الغربي إلى ساحل البحر الأبيض المتوسط الجنوبي. فقد كانت هذه الرياح تحمل مفاهيم وقيماً مغايرة تمام المغايرة للقيم العربية الإسلامية، وإن بدا أن هناك من ناحية الاصطلاح تشابهاً كالحرية والعدل. غير أن مفاهيم القيم كانت مختلفة بين الإسلام والغرب. ذلك أن الفكر الغربي كان يستمد مقوماته الأساسية من مصدرين أساسيين هما:

الفكر اليوناني الهِليني الإغريقي الوثني المتشكل في إطار من المسيحية التي حرفتها أوروبا ولم تقبلها كرسالة سماوية. وإنما أخذت منها وتركت وفق مزاجها النفسي وتركيبها الحضاري الاجتماعي الذي عرفته الحضارة الرومانية، وورثته النهضة الأوروبية الحديثة من بعد.

أما العطاء الإسلامي، فقد قام أساساً في مجال العلوم والطبيعيات والفلك والطب. أما الجانب الإنساني الإجتماعي والسياسي، فإن أوروبا لم

تأخذه ككل، وإنما عمدت إلى جوهره الإسلامي ففصلته عنه، ثم أضافته إلى تراثها اليوناني المسيحي فتشكل على نحو آخر.

ولذلك فقد كانت استطلاعات أمثال رفاعة الطهطاوي وغيره تحاول أن تستكنه أبعاد الدستور والحرية والحياة النيابية وغيرها مما هو قائم في الغرب، وتجد له جذوراً مستمدة من الفكر الإسلامي[1].

ولا شك كان للفوارق العميقة بين فكر يقوم أساساً على التوحيد، ويستمد مفاهيمه من القرآن الكريم، ويواكب النفس العربية الإسلامية في تشكيلها الذاتي، ومزاجها النفسي، ويتصل بالفطرة اتصالاً وثيقاً محرراً من قيود التأليه والتثنية، وعبادة الفرد، وعبادة الجسد، والتماس الحق والعدل. كان كل هذا المفهوم وهو أساس الفكر الإسلامي، وجذره الأعلى، لا بد أن يتعارض ويختلف مع مفهوم الثقافات الغربية المستمد من الوثنية اليونانية، والقائم على مفاهيم تعلي من شأن الفرد والطبيعة، وترفض الغيبيات والقيم العليا، ورسالات السماء وما حوته من مضامين وقيم.

ولقد كان التغريب والغزو الثقافي الغربي، وهو جزء أساسي من رسالة الاستعمار والسيطرة الغربية يعمد إلى فرض هذه الفلسفات والمذاهب الغربية بما فيها من تعارض واضطراب وزيف. وذلك حتى يصيب الثقافة العربية بالتمزق والانهيار، ويجعلها غير قادرة على التماسك أمام تلك التيارات التي تهز العقيدة، وتضلل العقل، وتبعث الحيرة والشك والارتياب.

وقد جرى هذا الغزو في نفس الوقت الذي عمد فيه النفوذ الغربي عن طريق سيطرته على الثقافة والتعلم، والتربية إلى إقصاء القيم الإسلامية العربية، وعزلها عن نطاق التعليم، أو عرضها عرضاً هامشياً مشوهاً، مع إبعاد كل ما يتصل بها من جوانب القوة أو البطولة، أو عظمة الأثر

---

(١) إذا أردت التوسع في هذا الصدد فراجع كتابنا (يقظة الفكر العربي)

التاريخي الممتد. وذلك رغبة في تذويب الأجيال الجديدة في بحار واسعة من الفكر الغربي، وحصرها في دائرة واحدة لا تتعداها. ومن ثم لا يرى بعد غيرها، ولا يفكر من خارجها كما جرى تغييب التراث الإسلامي، والتاريخ الإسلامي، فإن عرض فمن جوانب الضعف والتشكيك والاضطراب حتى يبدو في نظر الشباب الجديد، وكأنه شيء قد انتهى أمره، وأن البديل الإيجابي له، إنما هو الفكر الغربي وحده.

ولقد استطاعت الثقافة العربية أن تواجه هذا الصراع، وأن تتجاوز هذه المرحلة، وأن تفرض وجودها ومكانها، وتزيل كثيراً من الشبهات، وتصحح كثيراً من الأخطاء المعتمدة.

وقد صحب هذا الغزو الفكري غزو تربوي تعليمي عن طريق الإرساليات التبشيرية التي انطلقت في العالم العربي كله، وتركزت في بيروت والقاهرة، وكان لها دورها الخطير في تنشئة أجيال تحمل الإمامة للغرب وتعارض مفاهيم الثقافة العربية، وتعمل على إعلاء القيم الغربية، ومحاولة إذابة الفكر العربي الإسلامي فيها.

(٢)

استطاعت قوى الثقافة العربية أن تكشف عن الزيوف التي فرضها الفكر الأوروبي، وعملت على تحرير ذاتها من قيودها، وأعلنت وجوب إعطاء الثقافة العربية طابعها الإسلامي المميز لها. ومما قاله في ذلك أحد قادة الفكر المبرزين:

إن تاريخ كل أمة يكسبها آخر الأمر مزاجاً خاصاً لا فكاك لها منه. وقد ظلت مصر منذ أربعة عشر قرناً إسلامية التاريخ والسياسة والمجتمع والثقافة إلى أن جاءت نظم التربية الحديثة، فأرادت أن تنزع عنها هذا اللون المميز لتميل بمزاجها إلى الشيوع في جميع الثقافات الأخرى.

ولما كانت التربية الإسلامية على ضوء المنطق وضوء العلم الحديث

تشتمل في جميع أحكامها ومنابعها الثقافية والاجتماعية على جميع عناصر التربية الكاملة، أصبح لزاماً أن نخلص من هذا الخلط في سياستنا التعليمية، وأن نتخذ سياسة جديدة أساسها هذا المزاج الإسلامي، ودعامتها هذه الروح الإسلامية، مع تأكيد قابلية المزاج الإسلامي الفريدة في نوعها لكل تطور، واحتفالها بالعلم وتقديسه.

فالصلاة وهي فريضة واحدة، وركن من أركان العبادات، لم تخرج عن النسق الكامل الذي جاء به الإسلام جملة وتفصيلاً: تربية الجسد، تربية العقل، تربية الروح، هذه العناصر الثلاثة في التربية هي بعينها ما يصفه العلماء بأنه التربية الكاملة.

إن مصر بتاريخها الإسلامي الباهر تدحض كل زعم بتأثرها بغير هذه العقلية. كما كشف كثير من الباحثين أهداف النظام التربوي الغربي الذي فرض على مدارسنا وجامعاتنا، والذي استهدف «إنشاء أجيال تتنكر لشخصيتها الإسلامية وتبغض دينها، وتنظر إلى تاريخها الحافل بالأمجاد نظرة الاحتقار، وتعتبر حضارتها الرائعة شيئاً أكل عليه الدهر، وتؤمن بأن نظام حياتها للفكر والعمل أصبح بالياً».

وعارض الباحثون ما وصف بأنه «النموذج الإنساني الغربي» الجدير بالاحتذاء. وذلك انطلاقاً من القاعدة التي تقول: «إنه لا يمكن أن يكون هناك ثقافتان متماثلتان كل التماثل. لأن كل ثقافة هي تاريخ مستقل لا يتأثر بتاريخ أية ثقافة أخرى، وإذا ما تأثر فهو لا يغير أبداً من جوهره، وكل ما يبدو نجاحاً لها، إنما يمثل أشكالاً كاذبة تتنافى مع أصالته الحقيقية.»

وقد استطاع الباحثون أن يلتمسوا من الفكر الغربي نفسه ما يدلون به على صدق موقفهم، وعلى زيف دعوى الاستعماريين والتغريبيين، فقد أشار إشبنجلر إلى هذا المعنى في التفرقة بين الحضارة والثقافة فقال: إن الثقافة تولد وهي تحمل معها صورة وجودها، وهي على صلة عميقة

بالمكان الذي وجدت فيه، ولا يمكن أن يقوم بنيانها إلا بالمبادىء التي قامت من أجلها، والأسس التي شيدت عليها صروحها، وإنما يضطرب مفهومها حين تنشأ ظروف تحدّ من حريتها، لكن هذه النفس الأولية المحدودة الحرية تسعى حتى في مثل هذه الظروف إلى طبع الثقافة المتأثرة بها بطابعها كما هو الواقع. وفي ضوء هذا كله علت الصيحة التي تقول:

*يجب ألا ننخدع ببريق الثقافات الغربية الحديثة، ونقبل عليها إقبالاً أعمى.

*يجب ألا نغفل عن أن الثقافات الغربية بما بلغته من رفعة وعمق لا تستطيع أن تنضج العقلية العربية التي تختلف في مقوماتها عن العقلية الغربية.

*يجب أن نستهدي بالفكر الغربي دون أن نترك له أن يسيطر على عقولنا، أو يتحكم في أهوائنا[1].

وقد أشار العقاد في سجال بينه وبين عبد الرحمن الرافعي حول (هل التراث الشرقي يكفي) فقال: إذا تكلمنا عن التراث الشرقي والتراث الغربي خرجت من حسابنا العلوم الطبيعية التجريبية، لأنها حقائق إنسانية عالمية. إذن فالتراث الشرقي هو التراث الذي عليه صبغة الشرق وينتمي إليه. أما العلوم الطبيعية فليس عليها صبغة شرقية ولا غربية، والواقع أن الشرقيين لا يمكن أن تنضج لهم حياة عقلية من غير تراثهم الذي ينتمي إليهم ويصطبغ بصبغتهم.

والتراث الشرقي الذي لا يشاركهم في خصائصه مشارك من العالمين هو: التراث المشتمل على ما لهم من أشعار ومواعظ وأمثال وحكايات وآداب وقواعد وسلوك، وفي طليعته روح العقائد الدينية والحكم النفسية والفكرية وما يصاحب ذلك من فقه وشريعة ودين.

(١) بتصرف عن نصوص للأستاذ عبد العزيز محمد الزكي.

أما التراث الغربي الذي يمكن أن ينقل الى الشرقيين فهو قسمان:

قسم يمكن أن يمتزج بحياتهم، وهو من نوع تلك الحياة.

وقسم لا يمتزج بحياة الشرقيين، ولا يدخل لهم في عقل ولا روح، وهذا غريب عنهم وهم غريبون عنه[١].

وفي مجال استعراض قضية الاقتباس كان الرأي دائماً هو: أن الاقتباس قاصر في مجال الحضارة وحدها. أما الثقافة فهي من الأمور التي لا يمكن اقتباسها أو نقلها من الخارج. بل هي من الأمور التي لا بد من تكوينها في النفوس تكويناً مع الاستفادة من ثقافات الأمم الأخرى[٢]. أما الإسلام فلا ينتسب إلى أمة من الأمم. والمكتسبات والمكتشفات العلمية تنتقل من بلد إلى بلد دون أن تحتاج إلى تحوير أو تكييف، فهي بمثابة ثروة بشرية عامة، أما الثقافة فهي بعكس ذلك، تختص بكل أمة على حدة، وترتبط قبل كل شيء، وأكثر من كل شيء بلغة الأمة وآدابها لأن اللغة (واسطة التفكير) فضلاً عن كونها واسطة لنقل الآراء والأفكار، ولتبليغ الأحاسيس والانفعالات (التفكير بمثابة التكلم سرًّا والتكلم بمثابة التفكير جهراً).

وقد حمل هؤلاء الدعاة التغريبيون لواء الدعوة إلى:

أولاً: مهاجمة الدين بصفة عامة، ومهاجمة الإسلام بوصفه ديناً، ومحاولة وضع العلم في مواجهته.

ثانياً: إثارة الشبهات حول الشريعة الإسلامية وقدرتها على تحقيق أنظمة كاملة للمجتمعات الحديثة وتغليب القانون الغربي عليها.

ثالثاً: إثارة دعوى الأجناس والفروق العنصرية، وإثارة دعوات الإقليميات والقوميات الضيقة لتمزيق وحدة العروبة والإسلام، والدعوة

---

(١) الرسالة م ١٩٤١.

(٢) بتصرف عن ساطع الحصري (الثقافة العربية وثقافة البحر المتوسط).

إلى العالمية في الفكر والحضارة.

رابعاً: إذاعة الدعوة إلى العامية بديلاً عن اللغة الفصحى، والهجوم على البيان العربي، ومحاولة نقد آي القرآن.

خامساً: إثارة الشبهات حول التاريخ الإسلامي العربي، والدعوة إلى إقليمية التاريخ ومصيريته.

سادساً: طرح قضايا الفلسفات اليونانية والغربية بما تحمل من وثنيات وتعدد، تخالف مخالفة صريحة للفكر الإسلامي والثقافة العربية القائمة على التوحيد.

سابعاً: إذاعة القيم الغربية في التعليم والتربية.

ثامناً: محاولة إقامة المجتمعات العربية على أساس الأنظمة الليبرالية والديمقراطية الغربية.

تاسعاً: إثارة النظريات الاجتماعية المختلفة.

عاشراً: التبشير بالبهائية والصوفية وغيرها من المذاهب المنحرفة.

١ - التحدي في وجه الإسلام

بدأت الحملات التغريبية توجه إلى الثقافة العربية من خلال أرسخ الحصون وأقواها، وهو الإسلام نفسه. ولكي تكون الحملة بارعة، فقد أريد لها أن توجه إلى الدين بصفة عامة جرياً وراء القول بأن الأديان قد انتهى عهدها، وأن العلم الحديث قد أزاحها من مكانها، وذلك بعد أن جدت الأديان وتوقفت عن أن تحقق ما يراد منها من تجاوب في مواجهة الحضارة ومكتشفات العلوم.

وكان ذلك كله مما ردده خريجو معاهد الإرساليات الأجنبية من اللبنانيين غير المسلمين جارياً في نطاق الحملة الضخمة على الدين،

والمستمدة من كتابات الأوروبيين بالنسبة للمسيحية وموقفها من النهضة الأوروبية، وما يتصل بذلك من موالاة الكنيسة للإقطاع والأمراء، ثم معارضتها لثمرات العلوم والحضارة. بينما لم يكن هناك مجال مطلقاً لمثل هذه المعركة في العالم الإسلامي، ولا في مواجهة الإسلام نفسه الذي كان بطبيعته دين العلم، وفي أحضانه نشأ المنهج العلمي التجريبي الذي هو أساس الحضارة الغربية الحديثة.

غير أن الحملة كانت بارعة وعنيفة وهدامة، وكانت تتحرك من خلال إثارة قضايا كثيرة، في مقدمتها حرية الفكر، ومحاولة تصوير بعض المواقف التاريخية مما حدث لابن رشد وغيره، على أنه مصادرة للفكر في الإسلام، وكان على رأس هذه الدعوة جميعها النفوذ الأجنبي الاستعماري في مصر بقيادة اللورد كرومر، الذي حمل لواء الهجوم على الإسلام، واتهمه بالقصور والتراجع في عصر العلم، وجرى في هذا المجرى الدكتور شبلي شميل وكانت مجلات المقتطف والهلال وجريدة المقطم، وكتابات فرح أنطون، وجرجي زيدان، وصروف، وفارس نمر كلها تجري في هذا المجرى، وكان شبلي شميل. وقد ترجم نظرية دارون من خلال أقسى كتابها وأعنفهم مادية وظل يجادل على صفحات المقتطف والمقطم في سبيل تحويل نظرية دارون إلى دعوة عامة إلى المادية لا يقف في وجهها شيء، وخاصة ما يتعلق بالدين والأخلاق وقيم المجتمعات وغيرها.

وقد تصدى لكرومر، ودارون، وشبلي شميل، وفرح أنطون كتاب كثيرون في مقدمتهم الشيخ محمد عبده، وفريد وجدي، ورشيد، رضا، وعلي يوسف في الطور الأول، ثم عبدالعزيز جاويش، ومحمد أحمد الغمراوي، وتوفيق البكري، ورفيق العظم وغيرهم كثيرون، ففندوا ما ما أثاروا من الشبهات وردوا الأمور إلى مكانها الحق، وكشفوا عن وجه الزيف في هذه الحملات التي أريد بها تنحية الإسلام عن مكان الصدارة، وضرب حركة اليقظة العربية الإسلامية للإفساح لدائرة التغريب الضيقة المغلقة، لكي تسيطر وتقود حركة الفكر.

ولقد تبين من بعد أن حركة الماسونية إحدى القوى العاملة في الدولة العثمانية من أجل تحقيق أهداف اليهودية العالمية، كانت تطرح هذه النظريات والأفكار. وكان هؤلاء جميعاً من خريجي معاهد الإرساليات التبشيرية في لبنان هم أيضاً من أعضاء المحافل الماسونية، وأنهم كانوا الطلائع التي أرسلت إلى مصر لتقود حركة الصحافة والفكر والثقافة تحت لواء الاحتلال البريطاني، والتي كان من ثمرتها بعد ذلك مدرسة لطفي السيد.

ولقد كشف رجال اليقظة الفكرية الإسلامية حقيقة الإسلام وجوهره، وكيف أنه ليس ديناً لاهوتياً فحسب، وإنما هو دين ودولة ونظام ومجتمع، وأنه لم يقف أمام تطور العلم بل أعان عليه، وأنه كان مصدر النهضة واليقظة، وهو الذي قدم للإنسانية أولى ثمراتها.

أما الفكر الغربي فقد استبعد الدين استبعاداً كاملاً في نهضته، نتيجة لموقف الكنيسة منه إزاء العلم وإزاء الحريات الاجتماعية. ولقد كانت المسيحية الغربية ديناً روحياً خالصاً. وقد دعت إلى الرهبانية، ولم تكن بنظام مجتمع. ومن هنا غلبت فلسفة الرومان ووثنية اليونان، ومن ثم فقد انفصل الفكر الغربي عن المسيحية والكنيسة جميعاً، ودعا إلى اعتناق دعوات أخرى كدعوته إلى عبادة الفرد أو عبادة القوة.

أما الفكر الإسلامي فقد غني عن مثل هذه المواقف نتيجة للشمول والتكامل الذي عرف به الإسلام، وحيث لم يكن هناك من حاجة للمسلمين والعرب في أن يعتنقوا مناهج الغرب، أو يواجهوا الإسلام بمثل ما واجهوا المسيحية.

ولم تكن حاجتهم إلى أكثر من تنقية المنابع، وتحرير المصادر، والتماس الأصول العامة للإسلام في مفاهيم الصدر الأول منه نقياً صافياً مستمداً من القرآن الكريم نفسه ومن السنة النبوية الصحيحة.

وهذا ما دعا إليه المصلحون من أمثال: محمد بن عبد الوهاب، وجمال

الدين الأفغاني، ومحمد عبده، حيث بدأت حركة اليقظة من داخل الأمة نفسها، ومن خلال فكرها. ولم تكن قد تأخرت حتى جاء الغرب فأيقظها ذلك أن حركة اليقظة بدأت فعلاً قبل اتصال الغرب بالمشرق العربي بأكثر من خمسين عاماً، ومن قلب الجزيرة العربية.

كما دحضت حركة اليقظة ما ذهب إليه دعاة التغريب وخصوم الإسلام والفكر الإسلامي العربي من أن الإسلام هو مصدر الضعف والتخلف الذي مر بالمسلمين في القرون الأخيرة، وكشفوا عن حقيقة أساسية، وهي أن انصراف المسلمين والعرب عن الإسلام، وتخلفهم عن أصوله ومفاهيمه ومقاصده، إنما هي السبب الحقيقي في تخلفهم، وأنهم لو استمسكوا بمقوماته في مجال السلم والحرب والاجتماع والسياسة، وأعدوا ما أمرهم به قوة دائمة، وحصانة للثغور، وحماية ورهبة وهيبة لعجز الاستعمار الغربي عن السيطرة عليهم والإدالة منهم، وأن هذا منطلقهم نحو الحرية والقوة والعزة أن يعودوا مرة أخرى إلى التماس مفاهيم الإسلام ومقوماته.

٢ - التحديات في وجه الشريعة الإسلامية

كما وجهت حركة الغزو الثقافية التغريبي حملة ضارية إلى الشريعة الإسلامية، واتهمتها بأنها شريعة صحراوية ظهرت في عصور قديمة، وأنها لا تصلح للعصر الحاضر، ولا تحقق للمجتمعات الحديثة ما تقصد إليه من حضارة ورفاهية، كما حاولت بعض الأقلام اتهام الشريعة الإسلامية بالنقل من القانون الروماني. وقد أشار دعاة التغريب فيما بعد أن الاستعمار الغربي، وحركة التغريب إنما تستهدف أن ينزل القرآن الكريم من فوق عرشه في أنظمة الحكم والاجتماع والاقتصاد والتربية والتعليم، وذلك من أجل تغليب القانون الأوروبي القائم على أساس فصل الدين عن الدولة. وقد جرت على الحملات في ظل الإجراءات الاستعمارية التي قامت فعلاً بفرض القوانين الأوروبية على أنظمة السياسة والقضاء

والمعاملة بين الناس وإقصاء الشريعة الإسلامية عن مجال الحكم والمجتمع، كما فرضت في مجال الجامعات دراسة القوانين الأوروبية التي أصبحت نظاماً مطبقاً في المحاكم ودوائر القضاء مع دراسة يسيرة للشريعة الإسلامية التي انحصر نطاقها في أضيق مجال.

غير أن كتاب اليقظة الفكرية الإسلامية من رجال الفقه والشريعة والقانون، واجهوا هذه التحديات بقوة، وكشفوا عن فساد ما ذهب إليه اللورد كرومر وغيره من المستشرقين، وأبانوا عظمة الشريعة الإسلامية وخلودها وقدرتها على التجاوب مع مختلف المجتمعات في مختلف العصور.

وكان من أكبر ما ركز عليه الباحثون خطأ الادعاء بأن للشريعة الرومانية أثراً في الشريعة الإسلامية، وأبانوا كيف أن الشريعة الإسلامية تقوم على قواعد العدل المطلق، ومقتضيات العقول، والشريعة الرومانية تقوم على المصالح والمنافع الدنيوية مما ينبني عليه أن الشريعة الإسلامية تمثل مصلحة الفرد في الدنيا والآخرة، بينما تمثل الشريعة الرومانية مصلحة الجماعة وحدها. فضلاً عن أن القانون الروماني قد بدأ بمثابة عادات، ونما وازدهر عن طريق الدعوى والإجراءات الشكلية، بينما الشريعة الإسلامية بدأت كتاباً منزلاً، ووحياً من الله، ونمت وازدهرت عن طريق القياس والأحكام.

وإن الشريعة الإسلامية وجدت كاملة دفعة واحدة لم يزد فيها الفقهاء شيئاً قط. أما الفقه الروماني فإنه حديث لم يعمل به إلا في القرن الثاني عشر أو الثالث عشر بعد الميلاد. أما قبل القرن الحادي عشر، فإنه لم يكن معروفاً عند الرومان أنفسهم. ومعنى ذلك أن الفقه الإسلامي قد قرر وصنف قبل ظهور الفقه الروماني بقرون، وأن مالكاً والشافعي وأحمد بن حنبل وأبا حنيفة درسوا وألفوا وصنفوا قبل أن توجد القوانين الرومانية للرومان أنفسهم. وهناك من يرجح أن الفقه الروماني إنما جاء مقتبساً من الفقه الإسلامي، والدليل هو أن الفقه

الإسلامي قد ألف وصنف قبل أن تبرز القوانين الرومانية [1].

ولقد تحطمت مختلف الادعاءات التي وجهت إلى الشريعة الإسلامية على صخرة عاتية بعد أن كشفت نصوص الشريعة الإسلامية مدى ما تحمل من أسس تشريعية صالحة للمجتمع الإنساني بشهادة المنصفين من رجال القانون الغربي أنفسهم. وكان أقوى هذه الاعترافات ما أبرزه مؤتمر القانون الدولي المقارن المنعقد في لاهاي عام ١٩٣٢، والذي أكّد مركز الشريعة الإسلامية كمصدر للتشريع. وقد قرّر أن الشريعة الإسلامية مصدر من مصادر القانون المقارن، وهي صالحة للتطور، ومسايرة للمدنية الحديثة، وأنها جديرة بأن تشكل مصدراً ممتازاً من مصادر القانون المقارن مع استقلالها الكامل عن التشريع الروماني.

كما كشفت بعض النظريات القانونية الحديثة عن مصادر لها في الشريعة الإسلامية، ومنها نظرية الاعتساف التي ابتكرها القانون المدني الألماني عام ١٧٨٧.

يقول العلامة كهلر الألماني: إن الألمان كانوا يتيهون عجباً على غيرهم في ابتكار نظرية الاعتساف والتشريع لها في القانون المدني الألماني الذي وضع عام ١٧٨٧. أما وقد ظهر كتاب الدكتور محمود فتحي، وأفاض في شرح هذا المبدأ عن رجال الشريعة الإسلامية، وأبان أن رجال الفقه الإسلامي تكلموا عنه طويلاً ابتداءً من القرن الثامن للميلاد، فإنه يجدر بالعلم القانوني الألماني أن يترك مجد العمل بهذا المبدأ لأهله الذين عرفوه قبل أن يعرفه الألمان بعشرة قرون وأهله هم حملة الشريعة الإسلامية.

وكان المؤلف قد توصل إلى نص فقهي للإمام الشاطبي يقول بمنع استعمال الفعل المأذون به شرعاً إذا لم يقصد منه فاعله إلا الإضرار

---

(١) راجع اراء صالح بن علي الحامدي العلوي، دكتور عبد الرازق السنهوري. فارس الخوري في كتابنا الإسلام والثقافة العربية ص ٢٨٨/٢٩٠.

بالغير. وهذا هو عين نظرية التعسف في استعمال الحقوق التي لم تعرف في الغرب بمعناها التحليلي الواسع إلا مؤخراً.

وقد تناولت الأبحاث الرد على ما ادعاه المستشرقون والمبشرون، ودحض ما ذهبوا إليه. ومما قاله الدكتور صبحي محمصاني إن ما زعمه بعض المستشرقين من أن الشريعة الإسلامية مقضي عليها بالخمول قول فاسد، ذلك أن أبرز ملامح الشريعة الإسلامية:

أولاً: إن الإجتهاد واجب فيها، والتقليد الأعمى محرم.

ثانياً: إن الشريعة الإسلامية ليست مذهباً واحداً بل مجموعة مذاهب.

ثالثاً: إن توسيع الفقهاء في أولية التشريع ومصادره، والأخذ بمبادىء الإنصاف المطلق بطريق الاستحسان والاستصلاح، كل ذلك كان له أثر في جعل الشريعة الإسلامية من أعدل الشرائع وأقربها إلى المثل الاجتماعية العليا.

رابعاً: إن قاعدة تغيير الأحكام تطبق في جميع المسائل التي لا يوجد فيها نص من القرآن الكريم والسنة.

هذا ولم تلبث أن تعددت المؤتمرات الغربية التي أعلنت تقديرها للشريعة الإسلامية، وكانت بعد مؤتمر لاهاي عام ١٩٣٢ أربعة مؤتمرات:

١ ـ مؤتمر القانون الدولي في لاهاي ١٩٣٧ ـ الذي أعلن اعتبار الشريعة الإسلامية مصدراً من مصادر التشريع العام، واعتبار التشريع الإسلامي قائماً بذاته، مستقلاً وغير مأخوذ من التشريع الروماني.

٢ ـ مؤتمر المحامين الدولي في لاهاي ١٩٤٨.
٣ ـ جمعية القانون الدولي العام.
٤ ـ أسبوع الفقه الإسلامي في باريس ١٩٥١. وقد قرر المؤتمر:

أولاً: اعتبار مبادىء الفقه الإسلامي ذات قيمة تشريعية لا يمارى فيها.

ثانياً: اختلاف المذاهب يحوي ثروة تشريعية هي مناط الإعجاب، ومنها يستجيب الفقه الإسلامي لجميع مطالب الحياة.

٣ ـ التحدّيات في وجه القوميّات والاقليّات

كانت الدعوة إلى عزل البلاد العربية عن العالم الإسلامي، وعزلها عن بعضها البعض من أخطر الدعوات التي صاحبت النفوذ الأجنبي والاحتلال الغربي. ففي مصر ارتفعت الدعوة إلى مصر للمصريين، والدعوة إلى الفرعونية. وفي الشام ارتفعت الدعوة إلى سوريا للسوريين وارتفعت كذلك دعوة الآشورية في سوريا والفينيقية في لبنان. وفي المغرب ارتفعت دعوة البربرية. ثم طرحت دعوات متعددة إلى البحر المتوسط، وإلى الرابطة الشرقية، وإلى القوميات المحلية، وإلى القومية العربية بمضامين مختلفة معزولة عن أصول الثقافة العربية ذاهبة إلى الماضي البعيد السابق للإسلام، أو بمضامين علمانية منتزعة نفسها من الوجود العربي بمقوماته الإسلامية الأصيلة ومتصلة بالغرب، وجرت الدعوة إلى وحدة الثقافة العالمية، ووحدة الحضارة العالمية، وكلها دعوات يراد في مجموعها شيء واحد، هو عزل الأمة العربية عن وجودها وعن ماضيها وعن تراثها وإذابتها إذابة كاملة في أتون الفكر الغربي، وذلك تمهيداً لاحتوائها وابتلاعها.

وقد فشلت دعوات الإقليميات فشلاً ذريعاً، فلم تصلح لأن تجد لها طريقاً إلى نفوس المسلمين والعرب بعد أن عزلتها أربعة عشر قرناً كاملاً من الفكر الإسلامي والثقافة العربية بما لها من ذاتية خاصة ومزاج نفسي له طابعه ومقوماته.

وقد حاول دعاة الفرعونية والآشورية والفينيقية إيجاد سند من التاريخ أو التراث أو اللغة يستطيع أن يربط العرب والمسلمين بذلك الماضي

السحيق، فعجزوا عن ذلك تماماً، وتبين أن الشقة بعيدة، وأن النفس العربية الإسلامية قد تحولت تحولاً كاملاً بحيث لم يعد في الاستطاعة ردها إلى الوثنية القديمة بأساطيرها وخرافاتها بعد أن تحررت منها بالتوحيد، وبلغت ذروة البلاغة بالقرآن.

وجرت الدعوة إلى فكرة «مصر للمصريين» التي كانت تحمل هدف فصل المصريين عن الأمة وعن العالم الإسلامي، وكان أبرز حملة لواء هذه الدعوة: لطفي السيد. ثم جاءت فيما بين الحربين مدرسة «التمصير» التي دعت إلى تمصير اللغة والفكر والتاريخ والقانون والثقافة، وحاولت أن تربط بالفرعونية القديمة والأهرام والنيل الهيروغليفية، فعجزت عن أن تجد من ذلك كله مقوماً واحداً صالحاً لعقد عروة واحدة بين الحاضر، وبين ذلك الماضي السحيق بمعابده وهياكله، وكتاب الموتى، ثم كانت الدعوة المتفرعة منها إلى أن المصريين هم من أبناء البحر الأبيض المتوسط، وهم من الغرب لا من الشرق، وأن صلتهم بأوروبا أوثق من صلتهم بالجزيرة العربية، وأنهم مع الغرب في العقلية والثقافة التي ارتبطت في ظل اليونان والرومان. وامتدت هذه الدعوة إلى سوريا ولبنان وتونس والجزائر ومراكش. وقد كانت الدعوة في دوافعها السياسية ترمي إلى الارتباط بالجامعة الفرنسية، وهي دعوة تقول إن لحوض البحر الأبيض المتوسط وحدة جغرافية وتجارية واجتماعية وفكرية قوامها: الفكر اليوناني، والنظام الروماني، والدين السامي، وأن الذين ساهموا في إبداع هذه الحضارة: الفينيقيون أصحاب الفضل في استنباط الحروف الهجائية، ومن نماذج مصرية ويونانية ورومانية. وقد حاول الاستعمار الفرنسي أن يذيع دعوى أن اللبنانيين ليسوا عرباً، بل فينيقيين، وأن حضارتهم هي حضارة البحر الأبيض المتوسط، وأنهم لا يمتون للعرب بصلة وقربى إلا باللغة.

وقد واجه الفكر الإسلامي، والثقافة العربية هذه المعركة، كما واجه أفكار التجزئة الأخرى، وأعلن زيفها، وأكد خطلها واضطرابها وعجزها

عن الأصالة الطبيعية المستمدة من روح الفكر الإسلامي. وقال إن الثقافة أمر معنوي، ولا يمكن ربطه بالعوامل الجغرافية.

بل إن البحوث ما لبثت ان كشفت عن حقيقتين بارزتين كانتا السهم الأخير في مصير هذه الدعوات. ذلك أن الفرعونيين كانوا فرعاً من فروع الأمة العربية، وأنهم جاءوا أساساً من الجزيرة العربية. وقد أشارت نظريات كثيرة مستحدثة منصفة أن أوائل المصريين الأقدمين قد هبطوا من أرض آسيا إلى وادي النيل من أمثال بروكس الألماني، وأبيرث، ولوث، وليبلن النرويجي، وكان أول من أثبت هذه النظرية: هومل الألماني حيث ذهب إلى أن الحضارة المصرية بحذافيرها كلها، إنما هي مشتقة من الحضارة البابلية. أما الاخصائيون فيقولون بمجيء أوائل المصريين إلى هذا الوادي من صحراء لوبيا.

واستطاع أحمد كمال باشا الأثري أن يصل في أبحاثه إلى إثبات أن اللغة العربية، واللغة المصرية القديمة من أصل واحد، وأن اللغة المصرية ما هي إلا لغة قبائل الأعناء التي سكنت مصر وما جاورها من الأقاليم، وهي أصل اللغة العربية بلا مراء.

وقد أرجع كل كلمات اللغة المصرية القديمة إلى اللغة العربية، وأكد نظرية مجيء المصريين الأقدمين من بلاد العرب من باب المندب، فالحبشة، فالسودان، فمصر. وقال في النهاية إن العنصرين المصري، والعربي يرجعان إلى أصل واحد ولغة واحدة.

وقد أورد في قاموسه ألوفاً من الكلمات الهيروغليفية الموافقة للغة العربية الحضرية، إما موافقة تامة أو موافقة بضرب من التحريف أو القلب والإبدال.

ومن ناحية أخرى تكشف أيضاً أن الفينيقية موجة من موجات الهجرة العربية. وقد واجه أحمد زكي باشا الملقب شيخ العروبة هذه الدعوة في

إبان ظهورها، فكشف عن زيفها، وأشار إلى ما يؤكد ارتباطها بالأمة العربية.

فقد كشفت الحفريات والأبحاث على أن الفينيقيين هم الكنعانيون والآراميون القدماء، وهم من الجنس العربي يقيناً. وقد أشار هيرودوت إلى هذه الحقيقة عندما قال: إن الفينيقيين كانوا يقطنون ساحل بحر أرتيريا أحد سواحل بحر العرب قبل سكناهم ساحل البحر الأبيض المتوسط.

وقد أكدت أبحاث عدد من الباحثين أن بلاد العرب كانت الموطن الأصلي للبابليين (الكلدان) والكنعانيين (الفينيقيين) والآراميين (السريان) وأنهم خرجوا من بلاد العرب فوجاً بعد فوج[1].

* * *

ولم تكد ريح الإقليمية تخفت حتى كانت الدعوة إلى تمزيق وحدة العروبة والإسلام بالدعوة إلى القوميات الضيقة المبتورة عن ماضيها واصولها، والمنعزلة عن كيانها الفكري العربي الإسلامي الأصيل.

وهي دعوات متعددة متضاربة تعتمد على الأرض، ويعتمد بعضها على العنصر السامي، ويعتمد بعضها على اللغة وهي في مجموعها تجري على النسق الذي خرجت عليه الدعوة الطورانية التركية. بل إن بعض الذين شاركوا في هذه الحركة حملوا لواء الدعوة إلى القومية العربية. وقد حاولت هذه النظريات أن تبتعد تماماً عن الواقع العربي الأصيل، وأن تعتمد على النظريات الوافدة التي استقدمها هؤلاء الدعاة كالنظرية الألمانية والنظرية الروسية، والنظرية الإيطالية، والنظرية الفرنسية، وكل منها يعتمد على فكرة تباين ما يعتمد عليه الآخر وكل منها يستمد نظريته من وجوده وظروفه ومقوماته.

---

(١) راجع (اتجاه الموجات البشرية في جزيرة العرب) للسيد محب الدين الخطيب.

غير أن حركة اليقظة العربية الإسلامية كانت قد قدمت فعلاً: النظرية العربية الأصيلة، وهي نظرية «وحدة الفكر» التي هي أقوى وحدة من وحدة اللغة والأرض، وأصدق تعريفاً بجوهر الأمة العربية والثقافة العربية من نظرية المشيئة، أو أية نظرية أخرى.

غير أن النفوذ الغربي في مجال الفكر، والمسيطر على حركة التغريب والغزو الثقافي كان حفياً بأن يؤيد نظريته الوافدة التي خرجت أساساً من معاهد الإرساليات التبشيرية، ومحافل الماسونية، والتي تستهدف عزل لبنان في كيان خاص، وضرب كل تقارب بين البلاد العربية حتى تبقى مفرقة مضطربة بين النظريات والبيانات الإقليمية، فضلاً عن محاولة عزل القومية العربية عن أمرين يلح التغريب والاستعمار عن عزلها عنهما.

الأول: هو التراث والماضي، والتاريخ والقيم الأساسية المستمدة من الإسلام.

الثاني: هو الانغلاق والعدوان والخصومة مع القوميات الأخرى، والاستعلاء بالجنس أو باللغة أو بغيرهما.

وينسى الحريصون على تأكيد هذه الخطوات الغربية أن الأمة العربية لم تكن أمة إلا بفضل الإسلام، وأنها لم تكن أمة قبل ذلك، وأن الإسلام هو الذي حفظ اللغة العربية، وأقامها لغة أمة ولغة فكر، وأن الفكر الإسلامي هو الأساس الثقافي والفكري والاجتماعي والقانوني للعرب جميعاً.

وأنه إذا كانت أوروبا قد استبعدت الدين عن مفهوم القومية، فإن لها ذلك لظروفها وأوضاعها الخاصة. أما الإسلام فهو ليس ديناً لاهوتياً كدين أوروبا، وإنما هو منهج حياة ونظام مجتمع، وهو حضارة وفكر، وأنه ليس للعالم الإسلامي من مصادر ثقافية غيره للعرب والترك والفرس والهند، كما للمسلمين والمسيحيين واليهود، وأرباب الأديان

الأخرى جميعاً. فقد امتصت الحضارة الإسلامية منذ أربعة عشر قرناً ثقافات الأمم وفلسفاتها ومثلها، وصاغتها من جديد بحيث أصبحت ثقافة عامة لكل من يعيشون في هذه المنطقة، وإن رسمت بالثقافة العربية أو الفكر الإسلامي.

وإذا كان الإسلام دين للمسلم، فهو ثقافة وفكر وحضارة لأصحاب الأديان الأخرى، وذلك أمر قد كشفت عنه جميع الأبحاث والدراسات وأكدته.

فعلاقة الإسلام بالعروبة ليست كعلاقة أي دين بأية قومية «وسوف يعرف المسيحيون العرب عندما تستيقظ فيهم روحهم الكامنة، ويسترجعون طبعهم الأصيل أن الإسلام لهم ثقافة قومية يجب أن يتشبعوا بها حتى يفهموها ويحبوها فيحرصوا على الإسلام حرصهم على أثمن شيء في عروبتهم»[1].

والواقع أن العروبة لاتصارع الإسلام، ولا تقف في الوجه المضاد، وأنها حلقة من حلقات الترابط الفكري الواسع الجامع لكل من استظل بالثقافة العربية من أجناس وأديان.

وليست اللغة إلا طابع الوحدة الفكرية، فلماذا نأخذ بنظرية وافدة تقول باللغة، ولا نستمد نظريتنا من الواقع العربي الإسلامي الذي يقوم فيه «الفكر» مقام الوحدة الأساسية.

وهكذا فشلت كل دعوات التغريب الثقافية الغربية في مجال الإقليميات والقوميات.

---

(١) عبارة لكاتب مسيحي معروف.

٤ - التحديات في وجه اللغة العربية

واجهت اللغة العربية أقسى ألوان التحدي في سبيل القضاء على وحدتها، وتغليب العاميات الإقليمية عليها. وقد بدأت الحملة من منطلق مقارنة اللغة العربية باللغة اللاتينية التي دخلت المتاحف مخلية الطريق للغات الإقليمية واللهجات المحلية لترتفع إلى مكان اللغات في أوروبا بعد ظهور البروتستانتية، وترجمة الإنجيل إلى اللغات المحلية. وحاول الدعاة أن يربطوا بين القدرة على الاختراع والإبتكار في الأمم، وبين هذه اللهجات على النحو الذي أعلنه «ويلكوكس» في مصر وما ردده كولون في المغرب، وماسينيون في سوريا، وكلها محاولات تستهدف القضاء على اللغة العربية الجامعة للعرب بوصفهم «أمة» والجامعة للمسلمين على أساس وحدة الفكر التي يعد القرآن سندها الأعظم والأقوى.

ولما كانت حركة التغريب الموالية للاستعمار والنفوذ الأجنبي تستهدف تمزيق وحدة المسلمين والعرب، فقد كان التركيز على «اللغة» عاملاً هاماً. وقد جرى هذا التركيز بوسائل متعددة،وأساليب كثيرة، فقد عمدت القوى الاستعمارية إلي إيقاف نمو اللغة العربية في البلاد الإسلامية، وخاصة في أفريقيا، وجنوب شرق آسيا، وغلبت اللغات الغربية والإقليمية كما فعلت ذلك في مصر وسوريا والسودان والمغرب جميعاً حيث غلبت لغة المحتل، وسيطرت على التعليم والثقافة، ولونت الفكر والثقافات والعقليات بآثارها التي حملت الولاء للغرب. ومن ناحية أخرى شجع الاستعمار العاميات في البلاد العربية، وحاول كثير من المستشرقين والمبشرين خلق سند تاريخي من التراث كالأغاني والأمثال لتعزيز دعوى العاميات والإقليميات، وجرى التغريب في ذلك شوطاً طويلاً.

وكان الدعاة المتصدرون يحملون لواءً براقاً يطلق عليه «تمصير اللغة» كما فعل أحمد لطفي السيد في مصر ومن بعده سلامة موسى. ثم كانت

الدعوة إلى كتابة العربية بالحروف اللاتينية، وهي الدعوة التي تبناها عبد العزيز فهمي وسلامة موسى، ولم تكن غريبة على مختلف أجزاء البلاد العربية. وفي لبنان جرى التركيز على العامية اللبنانية، وكتابتها بالحروف اللاتينية، ومضى سعيد عقل وغيره من دعاة الإقليمية الضيقة شوطاً طويلاً في سبيل عزل لبنان عن الفكر الإسلامي والثقافة العربية.

وامتدت الأبحاث إلى محيط له طابع علمي زائف، وذلك بالحديث عن مقدرة اللغة العربية على مجاراة العصر واحتواء المصطلحات الجديدة، ومحاولة وصمها بالعجز عن ذلك، والمطالبة بإدخال المصطلحات الأجنبية بأعيانها دون تعريبها.

ودعا كثيرون إلى تحرير اللغة العربية من كل قيد وتقريبها من العامية، وخلق لغة وسطى، والانصراف عن الأسلوب العربي البليغ.

ومما أذاعه بعض خصوم اللغة العربية دعوى أن العامية المصرية والسورية إنما هي لغة قديمة هي: البونية أو الكنعانية. وأن هذه هي أصل لغة الحديث، ولا صلة لها بالعربية الفصحى، وأنها دخلت مصر قبل أن تدخلها الفصحى بألفي سنة «وأنها هي أخت العربية، وليست العربية نفسها [1]».

وقد دحضت الأبحاث العلمية الصحيحة هذه الادعاءات الباطلة. كما تبين أن الهدف من هذه المحاولات جميعاً هو:

أولاً: إيقاف اللغة العربية عن النمو في المناطق الإسلامية التي هي لغة الفكر والثقافة والعبادة لدى سبعمائة مليون من المسلمين.

ثانياً: منافسة العامية لها منافسة واسعة بما أضفي عليها من محاولات تاريخية مضلّلة، ومن عمل جمع الفلكلور والأمثال والقصص الساذجة القديمة.

ثالثاً: خلق لغة وسطى بين العامية والفصحى، وذلك لإنزال مستوى

(١) انظر ولكوكس ورسالته في كتاب (الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر).

الثقافة العامة إليها، وعزل اللسان العربي والثقافة عن مستوى القرآن الكريم من الفصاحة. ومن وراء ذلك كله هدف خطير هو: إقصاء القرآن عن اللغة، وعزل العالم العربي، وتفتيت وحدته. ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل لقد دخلت أخطار العامية وسمومها إلى مجامع اللغة العربية التي كان إنشاؤها بمثابة مقاومة لأخطار هذه الحملة، فقد تبنت بعض المجامع تعديل (مناهج النحو) وتبديل الخط العربي، وما يسمى «تطوير» قواعد الصرف والبلاغة. وهي محاولات استهدفت هدم اللغة العربية على المدى البعيد من خلال حصونها الأساسية، وتجرى هذه المحاولات على نهج الأبحاث الغربية التي تنقل نقلاً دون تقدير للفوارق البعيدة العميقة وبين لغات الغرب كلغات مستحدثة لا تزيد أعمارها عن أربعمائة عام، وبين اللغة العربية التي تبلغ خمسة عشر قرناً من الزمان. وقد أغضت هذه الدعوة الطرف عن عامل هام وخطير في محاولات التطور واستحالتها بالنسبة للغة العربية، وهو القرآن الكريم الجامع لأصول هذه اللغة، والحافظ لها. ذلك أن اللغة العربية ليست ملك العرب وحدهم ليتصرفوا فيها على هذا النحو أو غيره، ولكنها ملك لأصحاب الفكر الإسلامي أنفسهم.

وفي هذا يقول العلامة مصطفى صادق الرافعي: «إن في العربية سراً خالداً هو هذا الكتاب المبين (القرآن) الذي يجب أن يؤدى على وجهه العربي الصحيح، ويحكم منطقاً وإعراباً بحيث يكون الإخلال بمخرج الحرف الواحد فيه كالزيغ بالكلمة عن وجهها، وبالجملة عن مؤداها، وبحيث يستوي فيه الخفي واللحن الظاهر. ثم هذا المعنى الإسلامي (الدين) المبني على الغلبة، والمعقود على أنقاض الأمم والقيم على الفطرة الإنسانية، حيث توزعت وأين استقرت.

فالأمر أكثر من أن تؤثر فيه سورة حمق أو تأخذ منه كلمة جهل. إنما القرآن جنسية لغوية تجمع بين أطراف النسبة إلى العربية، فلا يزال أهله مستعمرين به متميزين بهذه الجنسية حقيقة أو حكماً. ولولا هذه العربية التي حفظها القرآن على الناس، وردهم إليها، وأوجبها عليهم لما

اطّرد التاريخ الإسلامي، ولا تراخت به الأيام إلى ما شاء الله، ولما تماسكت أجزاء هذه الأمة.

٥ - التحدّيات في وَجه الأدب العَربي

وكذلك واجه الأدب حملة تغريبية، لإخراجه عن خصائصه ومقوّماته، وتحكيم مناهج النقد الغربي فيه، وسيطرتها عليه. وبذلك جرى إبعاد أعظم فصوله، وأبرع قيمه في ظل المقاييس الأوروبية الوافدة، وحجزه في دائرة شعر الغزل والمجون وأدب المحسنات اللغوية من بديع وجناس، وإدارة مضامينه وتاريخه وتطوره حول هذه الفنون وحدها بعد إبعاد الأدب الرصين الأصيل من كتابات الغزالي وابن تيمية وابن حزم وابن القيم وعشرات غيرهم، ووصف هذه الآثار بأنها فقه أو فلسفة أو علم. ولقد أدخلت حركة التغريب في مجال الأدب العربي عديداً من النظريات الوافدة والمفاهيم الدخيلة غير المحررة بما يخالف طابع هذا الأدب وذاتيته ومزاجه النفسي وكان من أبرز هذه الدعوات الضالة (محاولة عزل الأدب عن الفكر العربي الإسلامي جلة وإعطائه الحرية في الحركة خارج دائرته) وذلك باسم المنهج الغربي الذي يسمح للأدب أن يقارف أساليب الكشف والإباحة دون أن يرى في ذلك حرجاً على قيم المجتمعات، وهو ما يتعارض تماماً مع منهج الأدب العربي المستمد من الفكر الإسلامي. وقد كانت نظرية (لا أخلاقية الأدب) من أخطر النظريات التي فرضت على الأدب العربي الحديث مستمدة من الأدب الأوروبي ذي المصادر اليونانية الوثنية الإباحية، مما لا يتفق مع طبيعة النفس العربية، وليس في مجتمعنا، وبالتالي في أدبنا صورة (تأسيس) مثلا في المتاجرة بالغرائز في ظل الرهبانية، أو تمجيد الوثنية والأبيقورية واللاأدرية.

ومما أدخلته أساليب الأدب الغربي الوافدة وضع القرآن الكريم تحت سلطان النقد، والقول في أساليبه في الضعف والقوة على النحو الذي عرفه الغرب بالنسبة للتوراة. وقد فشل الدعاة إلى مثل هذا اللون. فقد

كانت التوراة في نظر نقاد الأدب تراثاً شعبياً ولم تكن كتاباً منزلاً، بينما القرآن الكريم ليس كذلك، بل هو النص الموثق المنزل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والذي ليس هو بمثابة «أدب» كتبه قلم من أقلام البشر حتى يمكن أن يخضع لمناهج النقد.

ولقد كان الأدب العربي دائماً هادفاً وواقعياً وأخلاقي النظرة، وكان واضحاً في دلالاته بعيداً عن الغموض أو الرمز. فقد نشأ في آفاق مفتوحة، بعيداً عن الظلام والأضواء والغيوم والعواصف التي لوّنت الآداب الأوروبية بألوان الخيال والأساطير، وأبعدتها عن الواقعية والوضوح الذي عرف به الأدب العربي. ولقد سقطت مختلف النظريات التي حاولت أن تصور النفس العربية من خلال الكتب الزائفة التي كتبت تحت سلطان الشعوبية الفكرية التي أثارتها الباطنية الفارسية القديمة والمجوسية، ومختلف فلسفات الهند واليونان. وسقطت دعوى المدعين في جعل أمثال ألف ليلة وليلة أو الأغاني أو الشعر المنسوب إلى عمر الخيام من مصادر النفس العربية أو المجتمع الإسلامي [١].

كما سقطت فكرة عزل الأدب العربي عن الفكر الإسلامي أو محاكمته بعيداً عن الشمول والتكامل بحسبانه جزءاً من أجزاء هذا الفكر ينبع في مجموعة من القيم الأساسية، ويتجاوب معها، ولا ينفصل عنها أو ينحرف.

وقد كان العلامة محمد أحمد الغمراوي من أبرز من تصدوا لمثل هذه النظريات الوافدة، فدعا إلى أن تتحقق بين الفن والأدب وبين الدين (أي الإسلام) تلك الوحدة المتحققة بين الدين والعلم. ذلك أن العلم والدين اجتمعا على استحالة التناقض في الفطرة. فإذا كانت (الفنون والآداب) من روح الفطرة وجب ألا تخالف أو تناقض دين الفطرة: دين الإسلام في شيء، فإذا خالفته في أصوله ودعت صراحة أو ضمناً إلى رذيلة من أمهات الرذائل التي جاء الدين لمحاربتها، وعاقت الإنسان

(١) حررنا هذه الشبهات بتوسع في كتابنا (خصائص الأدب العربي).

أن يعمل بالفضائل التي جاء الدين لإيجابها على الإنسان حتى يبلغ ما قدر له من الرقي في النفس والروح، إذا خالفت الفنون الدين في شيء من هذا أو غير هذا فهي بالصورة التي تخالف بها الدين فنون باطلة، فنون جانبت الحق وأخطأت الفطرة التي فطر الله عليها الناس والخلق.

وإذا كـــان من شأن من يعمل أو يكتب باسم الفن والأدب أن يتجاوز في تأثيره ما بينّا، فيحول بين الإنسان وربه، ويدخل عليه الشك في دينه في أية صورة من الصور، ولأي حدّ من الحدود، فكان ذلك البعض المعمول أو المكتوب باسم الفن أو باسم الأدب زوراً وإفكا. ولذلك لا بد أن يكون بين الفن والأدب وبين الإسلام تمام التطابق والاتفاق.

٦ ـ التحدّيات في وجه التاريخ العربي الإسلامي

جرت المحاولات على صياغة مناهج لنقد التاريخ العربي الإسلامي تختلف عن طابعه وجوهره الأصيل. فقد حاول دعاة التغريب عرض التاريخ الإسلامي على مذاهب مادية واقتصادية بعيدة كل البعد عن التعرف إلى مضمونه ومداه. ولذلك فقد عجزت هذه المذاهب عن أن تفهم التاريخ الإسلامي العربي فهماً صحيحاً. وكانت في نفس الوقت عاملاً سيئاً في انتقاص هذا التاريخ، ووضعه موضعاً بعيداً عن حقيقته.

والواقع أن التاريخ الإسلامي يجب أن يفسر على أساس النظرة الإسلامية. وكل تفسير يقوم على غير هذا الأساس ضرب من الخطأ العلمي لا يجوز أن يرتكبه باحث جاد أو مؤرخ يبتغي وجه الحق وحده.

والواقع أن منهج البحث الغربي يقوم على أساس تجزئة الكون والطبيعة، والفصل بين العلم والدين، ويبرز ذلك في مؤلفات مشاهير الغرب من أمثال: كولن ولسن وغيره. أما منهج البحث الإسلامي

فيقوم على أساس وحدة الكون وانسجام قوى الطبيعة واتساقها. وأن الإسلام هو النظام الوحيد الذي يحقق هذا الانسجام لأنه يجمع بين الروح والجسد في نظام الدين، والسماء والأرض في نظام الكون، ويسلكها في طريق واحد هو: الطريق الى الله، وأن الإسلام وحده هو الذي يجمع بين العلم والدين في وحدة تامة غير متنافسة [1].

ويكشف الباحث الغربي المسلم (ليوبولد فابس) الفرق بين وجهة النظر الإسلامية والغربية فيقول: إن وجهة النظر الإسلامية مخالفة على كل حال لوجهة النظر الغربية الآلية. إذ إن الإسلام يعتبر وجود الإمكان الروحي لمجموع البشر بصفة كاملة. أي أنه شيء وضع في بناء الطبيعة البشرية، ولا يسلم أبداً كما يفعل الغرب بأن الطبيعة تخضع لعملية تبدل ارتقائي كالذي يحدث للشجرة في نموها، ذلك لأن أساس تلك الطبيعة (أي النفس الإنسانية) ليس كمية عضوية فحسب. والخطأ الأساسي في التفكير الأوروبي الحديث ناتج عن اعتبار التزايد من المعرفة المادية، ومن الرفاهية مرادفاً للترقي الإنساني الروحي والأدبي. وذلك يقوم على جحود الغربيين لنفس مفارقة للمادة منفصلة عنها ومخالفة لها. أما الإسلام الذي بني على أوجه من الإدراك المطلق، فإنه يعتبر وجود النفس حقيقة لا تقبل النقاش.

ويظهر أهم أوجه الخلاف بين المنهجين، في أن الفكر الغربي يبعد إبعاداً كاملاً الجانب الروحي، ويكتفي بالمادي فقط، بينما يجمع الفكر الإسلامي بين الروح والمادة، وبالإضافة إلى هذا الانحراف فإن الغربيين ينظرون إلى أنفسهم أنهم محور العالم.

ويقارن (الفرد كانتول سميث) في كتابه «الإسلام في التاريخ الحديث» بين إحساس المسيحي والهندي والماركسي والمسلم تجاه التاريخ فيقول بالنسبة للمسلم: «التاريخ في نظر المسلم هو سجل المحاولة البشرية الدائمة لتحقيق ملكوت الله في الأرض، ومن ثم فكل عمل، وكل

(١) عن بحث للأستاذ أحمد نصيف الجنابي.

شعور فردياً كان أو جماعياً ذو أهمية بالغة، لأن الحاجز هو نتيجة الماضي والمستقبل متوقف على الحاضر. فالمفهوم الإسلامي واضح الإيجابية».

ويرى أليان وايد غراي أن وجهة نظر المسلمين للتاريخ هي نظرة بناءة، وهي قائمة على التطابق بين إرادة الإنسان وإرادة الله.

ويعارض كثير من الباحثين النظرية الأوروبية في تفسير التاريخ الإسلامي، وفي مقدمتهم العلامة: تريتون في كتابه (الإسلام: عقيدته وعبادته) فيقول: «إذا صح في العقول أن التفسير المادي يمكن أن يكون صالحاً في تعليل بعض الظواهر التاريخية الكبرى، وبيان أسباب قيام الدول وسقوطها، فإن هذا التفسير المادي يفشل فشلاً ذريعاً حين يرغب في أن يعلل وحدة العرب وغلبتهم على غيرهم، وقيام حضارتهم، واتساع رقعتهم، وثبات أقدامهم، فلم يبق أمام المؤرخين إلا أن ينظروا في العلة الصحيحة لهذه الظاهرة الفريدة، فرأوا أنها تقع في هذا الشيء الجديد ألا وهو الإسلام».

والواقع أن الذين يعملون في حقل التاريخ الإسلامي في الغرب، في الأغلب هم كتاب استعماريون، أو خصوم في العقيدة، أو من الصهيونيين، وكل هؤلاء لا يرون في التاريخ الإسلامي إلا أنه شر كبير. ومن هنا تجيء محاولاتهم لإثارة الشبهات حوله وربطه بالنظريات التي لا تحقق تقديره تماماً.

ويقول الدكتور عبد العزيز الشناوي في هذا الصدد: إن من أعلام المؤرخين (الأورروبيين) من يكمن في كتاباتهم روح التعصب والحقد والكراهية لكل ما هو شرقي، ولكل ما هو غير مسيحي، وهؤلاء لا يكشفون في معظم الأحوال عن هذه الروح جهازاً، ولكنها تبدو من ثنايا السطور.

ولقد حاول جرجي زيدان في مجال تاريخ التمدن الإسلامي أن يثير

عدداً من الشبهات التي رددها المستشرقون من أجل تزييف التاريخ الإسلامي، وهدم جوانبه القوية مع الإعراض عن أسباب العظمة فيه، والتوسع في جوانب الضعف. ومن أخطر ما ردده اتهام العرب بحرق مكتبة الإسكندرية. وقد واجهت كتابات جرجي زيدان نقداً صريحاً علمياً كشف أخطاءها وأهواء صاحبها.

وكذلك جرى كثير من المؤرخين على إعلاء النزعة الإقليمية التاريخية بتمجيد صفحات التاريخ القديم الوثني كالفرعونية والفينيقية وغيرهما، ومحاولة إعلاء طابع الوطنية منعزلا عن وحدة التاريخ العربي الإسلامي. وقد كان للاستعمار والنفوذ الغربي في ذلك أبعد الأثر في محاولة تجزئة العالم الإسلامي وإثارة الخلافات بين شركاء اللغة والثقافة والجنس.

كما ذهب كثير من المؤرخين إلى إثارة النقد للجوانب القوية في التاريخ الإسلامي، وانتقاص كثير من أعلام الإسلام والعرب وبطولاتهم، وإشاعة الريبة، وتوسيع شقة الخلاف بين الصحابة والتابعين، وإنكار شخصيات تاريخية لها دورها الخطير مثل إنكار طه حسن لشخصية عبد الله بن سبأ، ودوره في تمزيق جبهة المسلمين. وكذلك الاعتماد على مصادر زائفة أو مشكوك فيها[1].

٧ - التحديات في وجه الفلسفات

منذ بدأ الغزو الاستعماري حملت الصحف لواء الدعوة إلى الفلسفة اليونانية القديمة، والفلسفة الغربية الحديثة، وحاولت أن تربط بين الإسلام وفلسفة اليونان. وعندما بدأت الدراسة في الجامعة المصرية وضع المستشرقون تعريفاً للفلسفة العربية أو الإسلامية بأنها الفلسفة اليونانية مكتوبة باللغة العربية، واستعملوا في ذلك نصوصا لرينان وغيره كان الهدف منها تصوير المسلمين والعرب، وليس لهم فلسفة خاصة أو منهج فكري معين، وإنما هم مرحلة من مراحل الفلسفة اليونانية القديمة كانوا

(١) راجع ذلك بتوسع في كتابنا (المساجلات والمعارك الأدبية).

حفظة هذه الفلسفة اليونانية حتى أسلموها للفلسفة الغربية الحديثة، فلم يزيدوا عن أن يكونوا مرحلة انتقال في العصور الوسطى التي توقفت فيها الحضارة الأوروبية بين سقوط روما سنة ٤٠٠ ميلادية، وظهور النهضة ١٥٠٠ ميلادية.

ثم جاء لطفي السيد بعد الحرب العالمية الأولى، فتصدر ترجمة الفلسفة اليونانية، وترجم لأرسطو. وردد ما قاله الغربيون عن شأن العرب والمسلمين في الفلسفة إلى أن ظهرت الحقائق الساطعة. وانكشف زيف هذه الدعوى بظهور المدرسة المنصفة التي حققت هذا الأمر، وأعلنت موقف الفكر الإسلامي من الفلسفة اليونانية، ودوره في إنشاء فلسفة خاصة تستمد وجودها وكيانها من الإسلام نفسه متصلا بالنفس العربية وقائمة على مفهوم الحضارة الاسلامية ومضمونها الذي يختلف كل الاختلاف مع الفلسفة اليونانية والغربية على السواء.

ولقد جاء ذلك أيضا رداً على ذلك الاتهام الذي روجته دوائر التغريب والغزو الثقافي بإنكار أثر الفكر الإسلامي في الحضارة الغربية، حيث لم يلبث أمثال جوستاف لوبون وتوماس كارليل، وعشرات غيرهم أن أعلنوا في صراحة ذلك الدور الضخم البارع الذي قام به الفكر الإسلامي في بناء منهج المعرفة وإنشاء المنهج العلمي التجريبي الذي صاغت عليه أوربا الحضارة الحديثة.

ولقد أوضحت الدراسات المنصفة كيف أن الفكر الإسلامي قد تشكل في طابعه الأصيل المتكامل من خلال القرآن نفسه، وأنه تعرف إلى الفلسفة اليونانية بعد أن قعدت قواعده، وأقيمت قوائمه، فهي لم تضف إليه شيئا، وإن كانت قد حاولت أن تخرجه عن مضمونه وجوهره القائم على أساس التوحيد، ولما كان القرآن هو أساس الثقافة العربية، والفكر الإسلامي، فقد رفض من الفكر الهليني الوثنية، والتماثيل والصور وتعدد الآلهة.

كما رفض الفكر الإسلامي رأي أرسطو في الله، واعتبر ما قام به

ابن سينا والفارابي والكندي مجرد محاولات للتقريب بين أصول الفكر الاسلامي، وبين الفكر اليوناني. غير أن هذه المحاولات لم تحقق شيئا ولم يلبث المفكرون المسلمون أن أقاموا مفهومهم الفكري الكامل بعيدا عن منطق أرسطو. بل لقد بلغوا أبعد من ذلك عندما هاجموا هذا المنهج الفلسفي، وعارضوه بمنطق القرآن الكريم، كما فعل ابن تيمية.

ولقد واجه الفكر الإسلامي تراث اليونان، فنظر فيه نظرة النقد والمراجعة، فقبل من نصوصه ورد، ثم شكل هذه النصوص مرة أخرى وفق جوهره ومنطقه، وفي ضوء آيات القرآن الكريم الداعية إلى النظر في الكون حتى استوى عملهم. هذا منهج جديد لم يعرفه اليونان، قام أساسا على أساس التجربة التي لم يعرفها اليونان أصلا. وقد أشار المفكرون المسلمون إلى أن الخلاف كان جذريا بين الفلسفة اليونانية والفكر الإسلامي في نقاط كثيرة أهمها أن معرفة اليونان بالنجوم كانت خرافات في الأكثر، ومحاولات في الأقل. وقد شكل المسلمون من النظر في النجوم علماً صحيحاً، وأنكروا خرافاته. وإذا كان المسلمون قد أخذوا (الجبر) من اليونان في درجته الأولى. فقد بلغوا به إلى (الدرجة الثانية) وأن المسلمين هم الذين استعملوا الأرقام الحسابية بما فيها الصفر، فتمكنوا من بناء المعادلات البسيطة والمركبة.

وقد انتقد الجاحظ أرسطو، وأنكر الغزالي على اليونان أن يكون في السماء حيوان، وأن تكون للكواكب أنفس. ولقد بلغت فتنة (الإغريقية اليونانية الهلينية) مدى بعيدا في الفكر الإسلامي والثقافة العربية، ودعا دعاتها من التغريبيين إلى تدريس اللغتين اللاتينية واليونانية في الجامعات، وحرضوا على ترجمة القصص اليونانية. وذلك في محاولة خلق علاقة ولاء تاريخية بين المسلمين والعرب، وبين الثقافات اليونانية الوثنية الملحدة. غير أن المدرسة التي بدأها مصطفى عبد الرازق، وامتدت في تلاميذه، وعلى رأسهم الدكتور سامي النشار قد استطاعت أن تحرر الثقافة العربية والفكر الإسلامي من هذا الزيف، وأن ترد

الأمور إلى أصولها.

وترى هذه المدرسة أن ما يطلق عليهم فلاسفة الإسلام (الكندي والفارابي وابن سينا وابن رشد) ليس إلا امتداداً فكرياً للمدرسة اليونانية للفلسفة، وأنهم كانوا دوائر منفصلة عن تيار الفكر الاسلامي الأصيل، لفظهم المجتمع الإسلامي، وأعلن أنهم لا يمثلونه في شيء، وأن الفلسفة الإسلامية الحقيقية إنما تتمثل في كتابات علماء أصول الدين (المتكلمين) وعلماء اصول الفقه (الاصوليين) وأن الفكر الإسلامي عامة لم يقبل المنطق اليوناني على الإطلاق، وكان له منهجه الخاص في العلوم العقلية واللغوية. بل والعلوم العلمية أيضاً هي التي تشكلت في صورة «المنهج التجريبي الإسلامي» الذي سبق المسلمون به الأوروبيين. وقد تأكد في ظل هذا التحقيق العلمي كله دور المسلمين في الحضارة والفكر الإنساني بأنهم لم يكونوا عالة على اليونان، ولم يكن فكرهم الفلسفي موصول الوشائج بالفكر اليوناني، ولم يكن المسلمون أبداً صورة من صور اليونان حقيقة أو مشوهة. بل كان لهم الكيان المستقل والينبوع الذي تفجر منه النور المشرق الذي سطع في أوروبا عبر أسبانيا وصقلية هذا النور العظيم الذي انبعث أساساً من الأصل الإلهي العظيم (القرآن) على يد الرسول الأعظم محمد بن عبد الله.

* * *

ولقد كان للثقافة العربية موقفها من تحديات التغريب في إنكار دور العرب والمسلمين في بناء الحضارة والعلم. فقد استطاعوا أن يصلوا إلى مقطع الحق في ذلك بعد أن برز علماء غربيون حملوا لواء المؤاخذة لكتابهم المتعصبين الذين أنكروا فترة الألف عام الإسلامية بين سقوط الحضارة الرومانية، وظهور الحضارة الحديثة مما أطلق عليه في الغرب «العصور الوسطى المظلمة» وفي ذلك يقول العلامة بريفولت:

«إن ما يدين به علمنا لعلم العرب ليس فيما قدموه إلينا من كشوف مدهشة لنظريات مبتكرة، بل يدين هذا العلم إلى الثقافة العربية بأكثر

من هذا».

«إنه يدين لها بوجوده نفسه»

فالعالم القديم لم يكن للعلم فيه وجود ، وعلم النجوم عند اليونان ورياضياتهم كانت علوما أجنبية استجلبوها من خارج بلادهم، وأخذوها عن سواهم، ولم تتأقلم في يوم من الأيام، فتمتزج امتزاجا كليا بالثقافة اليونانية. وقد نظم اليونان المذاهب، وعمموا الأحكام، ووضعوا النظريات. ولكن أساليب البحث وجمع المعلومات الإيجابية والمناهج التفصيلية للعلم والملاحظة الدقيقة المستمرة والبحث التجريبي، كل ذلك كان غريبا عن المزاج اليوناني، ولم يقارب البحث العلمي نشأته في العالم القديم إلا في الإسكندرية في العهد الهليني.

أما ما ندعوه العلم فقد ظهر في أوروبا نتيجة لروح من البحث جديدة، ولطرق من الاستقصاء مستحدثة لطرق التجربة أو الملاحظة والمقاييس، ولتطور الرياضيات إلى صور لم يعرفها اليونان. وهذه الروح وتلك المناهج العلمية أدخلها العرب إلى العالم الأوروبي.

«إن روجر بيكون درس اللغة والدين والعلم العربي والعلوم العربية في مدرسة اكسفورد على خلفاء معلمين في الأندلس، وليس لروجر بيكون، ولا لسميه (فرنسيس بيكون) الذي جاء بعده الحق في أن ينسب إليهما الفضل في ابتكار المنهج التجريبي، فلم يكن روجر إلا رسولاً من رسل العلم، والمنهج الإسلامي إلى أوروبا المسيحية، وهو لم يمل قط من التصريح بأنه يعلم معاصريه أن اللغة العربية وعلوم العرب هما الطريق الوحيد لمعرفة الحق». هذه الشهادة ليست الأولى، وليست هي الأخيرة فقد فتح باب الكشف عن دور المسلمين والعرب حتى لم يعد لتلك الشبهات المخزية التي رددها بعض كتابنا التابعين للفكر الغربي، والموالين للتغريب لم يعد لها إلا أن تكشف عن خديعتهم وتضليلهم.

لقد كان التعليم وكانت التربية من أخطر المناهج الثقافية التي تعرضت لخطر التغريب والتزييف، فقد كان الاستعمار يعرف أنها الباب الأول والأكبر لتركيز نفوذه. ولذلك فقد عمد إلى إنشاء المدارس الأجنبية، وسمح للإرساليات التبشيرية بأن تركز نفوذها، وتحتوي أبناء المسلمين والعرب في معاهدها التي كانت قد أعدت مناهج غاية في الخطورة، ثم انتقلت هذه المناهج بفضل النفوذ الاستعماري إلى المدارس الوطنية التي كانت تحت إشراف الاستعمار.

وكان الهدف هو القضاء على اللغة العربية والتاريخ والإسلام والقرآن وتزييف كل معالم هذه الثقافة العربية الإسلامية، والغض من قدرها وإثارة الشبهات حولها، وتغذية الشباب المتعلم العربي الإسلامي بجوانب معينة من الثقافة الغربية أعدت على نحو خاص تستهدف أمرين:

الأول: إخراج الشباب المسلم العربي من قيمه ومجتمعه، وتحقير كل صور هذا المجتمع العربي الإسلامي وتراثه ولغته.

الثاني: إعلاء شأن الدولة المحتلة وتاريخها وبطولاتها ولغتها، وخلق جو من التبعية والولاء الفكري والروحي بين أبناء الأوطان العربية الإسلامية، وبين الدول المحتلة المستعمرة، ومحاولة تصوير هذه العلاقة بأنها صداقة في ظل وحدة الفكر العالمي، أو وحدة الثقافة البشرية إلى غير ذلك من أساليب المغالطات والتمويه. وكان الهدف من وراء ذلك تذويب الثقافة العربية في بوتقة الفكر الغربي المستعمر وإزالة عوامل القوة والمقاومة والإيمان بحق الأمم في حرياتها وقيمها ومفاهيمها.

ولقد قاست الثقافة العربية نتيجة هذه التحديات التي واجهت التعليم والتربية نتائج بعيدة المدى كان أشدها خطراً اعتماد أساليب التربية الغربية والتنكر لأساليب وأصول التربية العربية الاسلامية القائمة على الدين

والخلق، وعلى الإيمان وعلى كلمة القرآن وعلى البلاغة العربية والقيم الروحية والفكرية والاجتماعية الإسلامية.

ولقد ترددت دعوة المصلحين، ورجال حركة اليقظة العربية الإسلامية، ولم تتوقف لتحرير مناهج التربية والتعليم من خطر الزيف الغربي الوافد الذي أفسد معالم النفس العربية والعقل العربي إفساداً شديداً إذ ربطه بفكر آخر له مقوماته وذاتيته وطبيعته المختلفة بل المتباينة.

ودعت هذه الصيحات إلى الاستقلال الثقافي الذي لا يعني كراهية الثقافات الأجنبية، ولكن يدعو إلى الاقتباس منها على ضوء حاجة الأمة، وشخصية الإنسان العربي ومقومات فكره. ذلك أن التقليد الغربي في مجال التربية والثقافة من شأنه أن يقضي على الشخصية والذاتية، ويفنيها في الطابع الأجنبي. ولقد أشار المصلحون إلى أن نظام التعليم في أي بلد لا يكون نظاماً قائماً بذاته يعمل بمفرده مجرداً عن النظم الاجتماعية السائدة في البيئة التي ينتسب إليها، وإنما يكون جزءاً من مجموعة النظم الاجتماعية الخاصة بتلك البيئة، وهو يعمل معها، ويؤثر فيها ويتأثر بها على الدوام.

فإذا انتقل هذا النظام التعليمي إلى بلد آخر، منفصلاً عن سائر النظم التي ترافقه في منشئه الأصلي فإنه سوف لا يعطي أية نتائج إيجابية أو مماثلة[١].

ولقد تصارع نفوذ التعليمين الفرنسي والانجلو أميركي في البلاد العربية، وأحدث انقساماً فكرياً مزعجاً بين المثقفين. بل أحدث ولاءً مزدوجاً خطيراً، فضلاً عن أنه أبعد اللغة العربية، وأحيا على حسابها اللغتين الإنجليزية والفرنسية، مما أعان دعاوى المستشرقين والمبشرين في الهجوم على اللغة العربية ومحاولة إذاعة العاميات في العالم العربي.

وكانت مدارس الإرساليات في معظم أجزاء البلاد العربية خاضعة

(١) بتصرف عن رأي بعض خبراء التربية والتعليم.

لنفوذ الاستعمار، متحررة من الرقابة بحكم سطوة الامتيازات الأجنبية. ومن هنا فقد استطاعت أن توجه خريجيها توجيهات مسمومة خاضعة للاستعمار والصهيونية.

وقد شهد هاملتون جب المستشرق الإنجليزي المعروف أن إنماء التعلم تحت الإشراف الإنجليزي في مصر والهند، جعل نصيباً من الحق للتهم التي ترمي بها المدارس الأجنبية من أنها مفسدة لقومية التلاميذ فقد ربت في التلاميذ خروجاً على الأنظمة الاجتماعية.

وأشار سير بانيكار إلى هذا الأثر في كتابه (مشكلات الدول الآسيوية والأفريقية) حين قال:

لم يكن من مصلحة الاستعمار أن تروج تربية حيوية تدعو إلى الانطلاق، كان يراد التقليل من قيمة الثقافة الوطنية، وتمجيد فضائل السيد الأجنبي، وإبراز أهداف التربية الاستعمارية، وإثارة الروح الانهزامية في نفوس المواطنين لتتمكن من التحكم بهم وبجيرانهم دون عناء كبير.

غير أن المسلمين والعرب واجهوا هذه المدارس بعمل ضخم في مجال التعليم، وهو إنشاء المدارس الأهلية والوطنية الإسلامية العربية، وكانوا قادرين على استيعاب أكبر قدر من الشباب، واستطاعت الأصالة العربية الإسلامية أن تتحكم في نفوس عدد كبير من الذين تلقوا دراساتهم في الغرب وفي هذه المعاهد ليفهموا الحقائق، ويعودوا إلى المنابع، ويلتمسوا ذاتيتهم وفكرهم الأصيل، وأن يتحرروا من سلطان الغرب وسلطان التغريب، ويعملوا على خلق فكر عربي حر قائم على الأسس العربية والأمجاد والقيم الإسلامية، وتحطمت إلى حد كبير محاولة الغزو الثقافي في تدمير الذاتية العربية الإسلامية عن طريق التربية والتعليم.

٩ - إتخاذ النظام الديمقراطي الغربي أسلوباً سياسياً للبلاد العربية

كانت دعوة التغريبيين منذ بدأ الاحتلال الغربي هي: اتخاذ النظام الليبرالي الديمقراطي الغربي أسلوباً سياسياً للبلاد العربية.

وكان لطفي السيد وسعد زغلول وعبد العزيز فهمي على رأس هذا النظام. وذلك بإنشاء الدستور والنظام البرلماني الذي أثبت فشله فشلاً ذريعاً بعد ثلاثين عاماً. وهو النظام الذي ما زالت بعض أقطار العالم العربي تأخذ به، وتسير عليه، وليس من ريب أن هذه الأنظمة الوافدة قد بدت متعارضة مع طابع النفس العربية، والمزاج الاجتماعي الإسلامي.

وكذلك بدت التحديات في مجال علم النفس والأخلاق والنظريات الاجتماعية والاقتصادية بحيث استوعبت مختلف فروع الثقافة العربية والفكر الإسلامي، واستجاشت النفس العربية بالدليل الصحيح، ووجهة النظر الصائبة في مواجهة كل هذه النظريات، فلم تدع قضية من هذه القضايا دون أن تقول فيها الرأي الصحيح، ووجهة النظر العربية الأصيلة المستمدة من مضامين الفكر الإسلامي.

وعجزت كل هذه المحاولات عن استيعاب العربية أو احتوائها أو إذابتها في أتون الفكر العالمي الذي يتطلع الاستعمار إلى إذابة الأمم فيه، وخاصة الأمة العربية الإسلامية ذات المنهج الأصيل المفرد المختلف في جوهره اختلافاً بيناً عن جميع الفلسفات البشرية المعروفة، والذي يقوم أساساً على التوحيد، ويستمد منهجه من القرآن الكريم: النص الموثق الذي لم يحرف، ولم يأته الباطل.

وسيطول الصراع بين تحديات التغريب، وبين أصالة الثقافة العربية، ولكن حركة تصحيح المفاهيم ستظل قادرة دوماً على تحرير القيم الأساسية من كل زيف.

البِنَاء عَلَى أسَاس

١ - البناء على الأساس

ما يزال الفكر العربي متميزاً بقيمه ومفاهيمه وأسسه الواضحة منذ أن استكمل هذا الفكر تكوينه، وقد كونته وصنعته: الأمة واللغة والإسلام، وسيظل كذلك واضح الشخصية، مستقلاً، تعجز كل القوى عن أن تذيبه أو تنفيه أو تقضي عليه.

وترجع هذه القدرة على البقاء إلى أصالته ومرونته وحيويته وانفتاحه على الحركة والأخذ والعطاء، وطبيعته السمحة غير المعقدة، التي تلتقي بالثقافات والحضارات، فتأخذ منها وتدع، وتتجاوب معها، دون أن تفقد مقوماتها الأصيلة أو تنحرف أو تنحاز، أو تنطوي، أو تصهرها بوتقة أية ثقافة أو حضارة. وقد أكد تاريخه الطويل هذه الظاهرة، وأصبحت بالتجارب المتعددة من لقاء الثقافات والحضارات المتوالية خلال أكثر من ألفي عام تكاد تشبه الحقائق الخالدة التي لا تختلف. ومن طبيعة الثقافات الغالبة دائماً أن تسيطر، وأن تستوعب ثقافات غيرها من الأمم في باطنها بغية أن تطوي هذه الأمم في نطاقها، ولكم انطوت ثقافات أمم مغلوبة في ثقافات غالبة، وضاعت مقومات فكر هذه الامم يوم هزمت لغتها وفكرها، إلا الفكر العربي. فقد كانت خصائصه قادرة دائماً على أن تتصل بالثقافات دون أن تفنى فيها. ولقد تزول الدولة والكيان السياسي بقدرة الغالب وسلطانه، ولكن لا تزول قيم الفكر ولا تنهار، وإن غلب عليها مع نفوذ المستعمر تحول وقتي في المفاهيم، ولكنها تظل مع ذلك تقاوم ولا تستسلم. وقد تضعف، ولكنها لا تموت.

ومن هنا سارع إلى تجديد أساليبه، وإبراز جوهره، وإعادة صياغة

قيمه على نحو جديد قوامه بعث المفاهيم الأصيلة، والكشف عن قدرتها على الالتقاء مع الحضارة والتطور والحياة.

ولقد واجه النفوذ الغربي هذا الفكر العربي في مرحلة من مراحل الضعف، ومن هنا استطاع وهو المسيطر بسلطانه السياسي والعسكري ونفوذه الفكري أن يؤثر في بعض المفاهيم، وأن يضعف بعض القيم، وأن يثير بعض الشبهات. ومن عجب أن الضربة لم تفقد الفكر العربي الوعي، بل كانت حافزاً له على الحركة ورد الفعل.

كان الغرب قد هاجم العالم العربي محتلاً مستعمراً، وفق خطة واسعة بعيدة المدى تهدف إلى السيطرة. وكانت خطته الجديدة في أوائل القرن التاسع عشر بديلاً لخطة الحروب الصليبية التي انتهت قبل ذلك بثماني قرون (١٢٩١ م) بهزيمة الغرب واندحاره. كان الباعث الظاهر هو البحث عن الخامات والأسواق، ومن وراء هذا الباعث التسلط الغربي وفق نظرية الرجل الأبيض ممدن العالم، وصاحب الحضارة، وعلى أساس نظرة الحضارة الرومانية بأن ما سوى أوروبا عبيد ومناطق استغلال.

ومن هنا كانت خطة الغزو الاستعماري تحمل طابع التفوق الحضاري واستعلاء الجنس، والتفرقة بين الشرق والغرب. وكان هناك إلى جانب مفهوم خاطىء متعصب. ذلك إيمان في أعماق النفس الغربية بإجلاء العرب والمسلمين عن مناطق كانت تابعة للغرب وللرومان ولأوروبا سيطر عليها العرب، وهي كل ما سوى الجزيرة العربية. وكان هناك إحساس عميق بأن هزيمة الحروب الصليبية، إنما كان مصدرها الفكر العربي أساساً. هذه القيم المؤمنة بالحرية والكرامة، والقادرة على المقاومة، ورد العدوان، ودحر الغاصب، والتي لا تقبل أبداً أن تذوب في غيرها من الثقافات، أو تعيش خاضعة مهما طال بها المدى. ومن هنا وضعت مخططات إخضاع العالم العربي بإخضاع فكره وتحويله عن مفاهيمه الأساسية، والقضاء على قيمه الأصيلة. وكانت هذه المعركة أشد ضخامة من المعركة في ميدان الحرب والسياسة، ذلك لأن معركة

القضاء على مقومات الفكر العربي كانت تعني بقاء النفوذ الأجنبي وسيادته، وسيطرته بعد انتهاء السلطان السياسي والعسكري جميعاً.

ومن هنا بدأت الحملة الضخمة التي شنها النفوذ الغربي ممثلاً في دعاته أمثال: كرومر، ودنلوب، ولا فيجري، وليوتي، وغورو. وعشرات غيرهم من ممثلي الاستعمار في العالم العربي، ومن ورائهم ويلكوكس ووليمور، وزويمر ممن حملوا لواء دعوات التغريب والشعوبية والتبشير، وأثاروا عشرات الشبهات حول العرب والإسلام واللغة العربية والقرآن الكريم والتاريخ والتراث.

ولقد واجه الفكر العربي ممثلاً في أقلام أعلامه ودعاته هذه الحملة البعيدة عن منهج العلم والقائمة أساساً على التعصب والتحدي وراءها ذلك الهدف البعيد الذي صورنا. واجهها الفكر العربي في سعة أفق وسماحة طبع واستعلاء عن الهجاء والحقد والتعصب، وكشف عن حقيقة موقفه من كل شبهة تثار. غير أن معركة التغريب لم تتوقف، وهي تتحول بمضي الزمن في صور مغايرة، وتصطنع أساليب جديدة، ومن حق الفكر العربي أن يواجهها دائماً، ولا يتوقف عن «تصحيح المفاهيم» التي يريد التغريب والشعوبية فرضها في ظل تطور الأمة العربية القوي الناهض المندفع اليوم إلى آفاق القوة والحرية.

ورسالة تصحيح المفاهيم في اعتقادي هي اليوم عمل أساسي، ما دام يقوم على أساس مستنير، يستهدف الغاية العليا التي ترمي إلى وحدة الأمة العربية، والتقائها في طريق فكري واضح المعالم، بعيداً عن شبهات التغريب وأهواء الشعوبية. ذلك أن من أكبر الأعمال التي تحمي نهضتنا اليوم، هي حماية الفكر العربي من حملات تحويله من «مقوماته الأساسية» في ظل اندفاعنا القوي في ركب الحضارة العالمية، أن إيماننا بالحركة والتطور والتجدد لا حدّ له، وإيماننا بثورتنا التحررية العربية التقدمية أكيد وصادق.

هذا إيمان نابع من مفاهيمنا الأصيلة، فنحن لا نتخلف ولا نتوقف في ركب الحياة. والحضارة في مفهومنا: إنسانية الأصل والطابع، وهي حظ مشترك بين الأمم، تخلفنا عنها فترة، ثم نحن نعود اليوم فنشارك فيها ونحمل أمانتها. ولقد كان لنا في ركبها دور، وفي بنائها أثر، وفي تطويرها عمل إيجابي واضح، ونحن اليوم لا ننكرها وإنما ننكر انحرافها، وحين نأخذها لا نأخذ فكرها، وإنما نأخذ ما يزيد شخصيتنا قوة وحياتنا إيجابية.

٢ - النقـل والاقتبـاس

ونحن لا نقف إزاء التطور، بل نمضي معه في وعي بكياننا ومكاننا وشخصيتنا وقيمنا. كل شيء نقبله نستطيع أن نصوغه في بوتقتنا، فنحن أولاً نفرق بين الثقافة والحضارة، فالثقافة فكر، والحضارة مادة، وليس ضرورياً أن نمارس الثقافة إذا مارسنا الحضارة. وفكر الغرب (بجزئيه الغربي والماركسي) يتسم بالمادية، ولعله اتخذ الطابع المادي نتيجة لامتزاج مفاهيم الكهنوت مع وثنية الإغريق، ووقوف الكنيسة إزاء النهضة دون فهم حقيقي لمدلول الدين، أو طبيعة المسيحية الأصيلة. أما فكرنا (العربي الإسلامي) فلم يقف أمام أي تطور. وبه استطعنا في الماضي أن نقبل ما نشاء من الثقافات العالمية ونرفض. وهذه القدرة الديناميكية الحية لم تكن لنا إلا لأن لنا «أساس فكري» نؤمن به، ويملأ أعماق نفوسنا.

القاعدة في هذا الأساس أننا أمة لها طابعها وكيانها وشخصيتها ومقوماتها، وهي لا تتوقف عن النمو والتطور. وتفتح نوافذها على كل الثقافات لتأخذ منها، ولكنها تأخذ بحكمة وبصيرة ما يزيد شخصيتها قوة لا ما يمحو هذه الشخصية. إذا لم يكن هذا إيماننا فلا أقل من أن نقلد الغرب الذي جعله الكثيرون موضع القدوة فهو عندما نقل ثقافتنا العربية حولها إلى مجال فكره ولم يتحول معها.

إن نظرتنا إلى ثقافة الغرب، يجب أن لا تكون مقدسة، بل قابلة

للنقد . إن علينا أن نؤمن بشخصيتنا في مواجهة كل ثقافة أو حضارة، فنحن نؤمن بأنفسنا أولاً، وفي ظل هذا الإيمان نقبل أو نقتبس دون حرج، ولكن بوعي وحصافة. لن نكون تابعين، أو صورة منقولة للآخرين، فإننا إذا فعلنا ذلك فقدنا شخصيتنا بطابعها الواضح، ولم نصل إلى شخصية الآخرين، سنكون (لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء).

من حق إيماننا باستقلال شخصيتنا أن نأخذ ما نريد من أية ثقافة ونحوله إلى كياننا.

إن أساس قيمنا هو ارتباط الروح بالمادة، وامتزاج الدين بالفكر، وثقافتنا منذ ثلاثة عشر قرناً هي ثقافة مزدوجة فيها الإيمان والعلم، وهذا سر عظمة شخصيتنا، وقوة حيويتها وإيجابيتها. فإن الذين فصلوا الروح عن المادة، وأسقطوا حجاباً كثيفاً بينهم وبين هذا المزيج، واكتفوا بالقيم المادية قد غلبت على مجتمعهم الحيرة والقلق والاضطراب، وما زالوا يصارعون بين المذاهب من ماركسية ووطنية وعلمية وعنصرية وفوضوية ورأسمالية وجماعية وفابية وفاشية وفردية ودولية ليجدوا نموذجاً كاملاً لمجتمع ونظام، فلم يجدوا منذ القرن الخامس عشر شيئاً إلا مزيداً من الاضطراب والتجارب التي لا تنتهي إلى شيء. ذلك لأن عنصراً أساسياً ينقص الفكر الغربي والثقافة الغربية (بجزئيها الغربي والماركسي) ذلك العنصر هو ما عبر عنه كثيرون من الفلاسفة والمفكرين أمثال: اشبنجلر وهيجل وتوينبي: الروح، الدين.

وهذه أزمة الإنسان المعاصر، وأزمة الحضارة، ولا شك أن الحيرة والاضطراب الفكري الذي يمر به الفكر في الشرق هو نتيجة لهذا الصراع بين جزئي الفكر والحضارة، ومزيج الروح والمادة.

وليس اعتمادنا على قيمنا الأساسية معناه انفصالنا عن دائرة التطور أو الحركة الحية، إنما يقوم هذا العمل على «أساس» أن مقوماتنا كاملة

عريقة ذات تاريخ وفكر وحضارة، وهي التي ستعطي النور لطريقنا في رحلة الحياة، فإن هذه القيم لم تعقنا أبداً إزاء التطور والنهضة طوال القرون الأربعة عشر، بل لعلها هي التي أعطتنا القوة على الاستمرار والحياة، فلم نمت قط. فإن ضعفنا فترة أو جمدنا عن الحركة، فإنما كان مصدر ذلك تخلينا عن «مقوماتنا الأساسية».

* * *

فإذا عرفنا مدى ما يدبر لفكرنا «العربي الإسلامي» من مؤامرة للقضاء على مقوماتنا كأساس للقضاء على كيانها، استطعنا أن نعرف حاجتنا الكبرى إلى اليقظة والوعي، فإن كانت الجيوش الأجنبية قد جلت عن معظم أجزاء وطننا الأكبر، فإن جيوشاً ما تزال حية تصارع قد خلفها الاستعمار السياسي، وأعطاها قوة الحياة خلال فترة حكمه الطويلة التي استمرت منذ ١٨٣٠ تقريباً إلى اليوم.

هذه المؤامرة التي رسمها الغرب إنما تهدف إلى استمرار بقاء نفوذه في صورة أعوانه، ولا يبقى هذا النفوذ إلا إذا تحطمت القيم الأساسية لأمتنا، وحلت محلها قيم أخرى لن تجعلنا غربيين، بل خلقاً ممسوخاً لا هو من الشرق ولا من الغرب.

وتبدو صورة هذا العمل تحت لواء حركة «الشعوبية الفكرية» الجديدة في وطننا العربي الإسلامي. وهو غزو جديد ثقافي يقيم دولة «الاستعمار الفكري» وأساسها «تغريب الشرق» وتحمل هذه الحركة دعاوى: الحرية والتجديد والتقدمية. مثل هذه الألفاظ المطاطة التي لم تتحدد بعد دلالتها، وهي تسلك طريقاً سهلاً هو: تحطيم الماضي واعتباره تراثاً يدخل المتحف. وهذا رأيها في اللغة الفصحى والكتابة بالعامية والسخرية من القيم الروحية والدين، وهذا هو التحرر. وليس من شك في أن هذه الدعوة سهلة، تجد من يستجيب لها من شبابنا الذي لم يجد تكويناً روحياً في أسرته ولا مدرسته، والذي لم تتح له مناهج

التعليم « تربية » أصيلة . ومن هنا تستطيع هذه الصيحات المغرية بكلماتها البراقة ـ وقد أتيح لها البروز، وأعطتها الصحف في بعض عواصم العالم العربي فرصة الذيوع ـ أن تصل إلى الكثيرين، بينما لم يتح مثل ذلك للكلمة الموجهة . فالصحافة قد عرفت طريقها بعد الحرب العالمية الثانية، على أنها أداة إرضاء القارىء تعطيه ما يرغب فيه من متع وتسلية، وهي تفهم أن تلك وظيفتها، وأن ليس من عملها التوجيه أو التوعية الفكرية والثقافة إلا بقدر ميسور، ربما كان هذا التحديد بالذات لعملها مخالفاً لما كانت عليه من قبل، أو نتيجة لثقافات محرريها واتجاهاتهم ومفاهيمهم المرتبطة بالفكر الغربي في الأغلب، مع حساب دقيق للتوزيع، وإغراء القارىء بشراء الصحف على اساس أنها سلعة تجارية. ولا شك أن هذا الفهم قد تحول اليوم في ظل يقظتنا الجديدة ومضى يشق طريقاً جديداً ولكن الذي يعنينا هو آثاره ونتائجه (في الفترة الماضية) فلا شك أن الصحافة اليومية إذا توفر لها عمق الوعي بهذا الخطر الجديد الذي يواجه أمتنا وفكرنا، كـان دورها هاماً، ونتائجها بعيدة المدى في تعميق « المفاهيم الأساسية » لأمتنا .

* * *

اقول هذا وأمامي فكر غربي ينظر إلى أمتنا وقيمنا، فيصدقنا القول، لست أورده إلا لأني أعرف قدر ما يفعل ذلك في نفوس ألفت إلى فترة بعيدة أن ترى في فكرها رأي الأجنبي عنها، فإذا كانت تهتدي به في جانب تدمير شخصيتها، فما أولاها، وهي بصدد تكوين طبيعة استقلالية لها، أن لا تأخذ كل شيء، ولا تترك كل شيء ، أن تفهم وجهة النظر الأخرى.

يقول جوستاف لوبون: إن تهذيب الشرق بالمعارف العصرية الأوروبية لن ينفعهم إلا إذا كان ضمن دائرة عقيدتهم وقوميتهم، وإن العلوم العصرية لا تفيدهم إلا إذا اقترنت بتربيتهم الروحية، وسارت

جنباً إلى جنب مع أوضاعهم وعقائدهم أما إذا مضت خارجة عن دائرة تقاليدهم وعقائدهم، فإنها تزيدهم انحطاطاً وفساد أخلاق. «ولا شك أن جوستاف لوبون كان يعرف تماماً تجربتنا في أوائل هذا القرن إزاء الغزو السياسي والفكري من الغرب» والطريق الذي اضطررنا إلى أن نسلكه مرغمين دون أن تتاح لنا القدرة على مقاومة التبعية للفكر الغربي إلا بعد عدة عقود من هذا القرن.

وفي نطاق هذا الرأي نرى الشيخ محمد عبده يحادث الفيلسوف البريطاني «سبنسر» فنجد أن رأي هذا الفيلسوف (المادي) في الفكر في الغرب واضح الدلالة. يقول: محي الحق من عقول أهل أوربا بالمرة، واستحوذت عليهم الأفكار المادية، فذهبت الفضيلة. وهذ الأفكار المادية ظهرت في اللاتين أولاً فأفسدت الأخلاق، وأضعفت الفضيلة، ثم سرت عدواها إلى الغربيين.

وهنا تبدو حقيقة «القلق» والحيرة التي تضطرم في الفكر الغربي كله، وهو ما اعترف به الفلاسفة من بعد وحاولوا جاهدين في سبيل الوصول إلى حل له ينقذ الحضارة من الانهيار.

وقد صور «لاسكي» أزمة الحضارة فعزاها إلى انفصال المادية عن الروحية، وهما ممتزجان في الفكر العربي امتزاجاً يحول دون الوقوع في هذه الأزمة التي يعانيها الغرب منذ عدة قرون.

يقول «لاسكي» لقد أطفأ العلم أنوار السماء، ولا طريق للخلاص إلا في ظل الحاضر العاجل. منذ قرن مضى رأى الناس بارقة أمل في الصناعة الجديدة والآن وبالرغم من مزاياها الهائلة يتضح أن الطاقة المادية التي تستطيع أن تشكل الطبيعة لخدمة أغراضنا، دون أن يساندها مبدأ ما لن يصلح لها أي معنى، إلا إذا كان لهذه الطائفة هدف معروف.

وقد التمست في بعض المذاهب الشاملة شيئاً يكون ديناً أو كالدين. ولم تستطع القومية أو الديمقراطية أو الفاشية أو الماركسية أن تسد في

قرن أو قرنين مسدّ الدين الذي أشبع العقول والقلوب من قرون وقرون. وعالجت الحضارة العربية بعض أزماتها في ميدان علم النفس محاولة أن تسد الثغرة الروحية في بناء الحضارة المادية بعلم يسير على مناهج العلوم التجريبية المادية. ونجح علم النفس حين تواضع وأخفق حين جمح ينشد فلسفة نفسية كاملة أو ديناً جديداً. وأشار في نجاحه وإخفاقه إلى الضمير الغائب (إلى الدين). هذا النموذج ونماذج كثيرة تستطيع أن تعطينا رأي الغرب في ثقافته وفكره، وتكشف عن مصدر حيرته وقلقه، وتصور أزمة الحضارة، هذه الأزمة التي لا يعرفها فكرنا العربي الإسلامي في أسسه وقيمه، والتي أخذت تتسرب إليه اليوم نتيجة لخطأ في النقل والاقتباس. خطأ مصدره القصور عن بناء التطور الفكري والثقافي على أساس المقومات الأصيلة لأمتنا وشخصيتنا وفكرنا، وستزداد هذه الحيرة كلما بعدنا عن الجذور والأصول.

والرأي أنه يتحتم علينا ألا نوغل في الرحلة وراء الفكر الغربي المستورد إلا مسلحين بقيمنا، وأن نتنبه إلى مؤامرة «الشعوبية» التي تستهدف تمييع المفاهيم، وتحويلنا إلى شخصيات ممسوخة ليست شرقية ولا غربية، فإذا وعينا مكانتنا وشخصيتنا وما يراد بها، أمكن أن ننقل ما نشاء، ونأخذ وندع، ونكون أكبر من أن يغمرنا طوفان أي فكر أو تجرفنا رياح الشعوب.

تلك هي قضية أمتنا اليوم. وأما أمتنا في هذا الجيل، فقد انفصمت فيها العقيدة التي كانت تقول «إننا نعيش على هامش الحضارة، ولذلك فنحن نتشبث بتراثنا القديم» لم يعد لهذه العقيدة مكان اليوم. فنحن نعيش في عصر الصناعة والعلم العربي، وقد وصلنا إلى أول الطريق في مجال التكنولوجيا والبناء الحضاري في عوالم الماكينة والذرة.

غير أننا نجدنا في هذا المجال أحوج ما نكون إلى أن لا يجرفنا فكر الحضارة المادية تابعاً (للآلة) فنحن نأخذ الآلة، ولكن لا نأخذ فكرها. ولكن نبدع أيديولوجيتنا النابعة من أعماق ثقافتنا وفكرناوقيمنا

وقد قطعنا على أنفسنا العهد ألا نستورد أو نكون تابعين للآخرين.

هده هي مهمة جيلنا المفكر اليوم، وهذه أمانته. أن ندفع «الشعوبية الفكرية» فلا ندعها تدمر قيمنا وشخصيتنا ومقوماتنا الأساسية. ندفعها باليقظة والفهم لجوهر فكرنا. وبعد فهذا إجمال له تفصيل.

٣ - الاستعمار الفكري

لقد تحررنا من عبودية الاحتلال الأجنبي، وبقي أن نتحرر من عبودية الفكر. جلت الجيوش عن بلادنا، ولكن بقيت قوى الغزو الفكري مقيمة. إن أقوى هذه القوى هي «الشعوبية» وإن أقسى ما نواجهه الآن أننا لم نزل غير قادرين على أن نفكر على مستوى الأمة الكبرى. ما يزال تفكيرنا في أغلب أجزاء العالم العربي إقليمياً رغم إيماننا بالوحدة. ما نزال نقدس الحدود الموهومة التي وضعناها. ما نزال نواجه أنفسنا مجردين من شعور الثقة بأنفسنا وشخصيتنا وأمتنا، وقدرتها على أن تأخذ مكانها الإنساني. مرجع هذا إلى ذلك النقص في تكويننا الفكري حين نواجه قيمنا ولغتنا وتاريخنا. هذا التراث نحن لا ننظر إليه بعين الفخر أو الغرور التي تخدرنا أو تصرفنا عن واجبنا في معركة الحياة والتطور والواقع، ولكنا ننظر إليه كعامل دافع يعطينا إيماناً بأننا أهل لأن نأخذ مكاننا الحق على وجه هذا الكوكب.

لقد خرج المستعمر من وطننا، ولكنه خلف لنا «بذوراً» لم نواجهها بعد مواجهة جادة، ربما كان لبقية من «عقدة الأجنبي» في نفوسنا أثر في الزهو باعتناق آراء الغير. وهذا هو النظر السطحي للأمور. وإذا كنا لا نمتنع عن قبول كل ما تقدمه الثقافات والحضارات العالمية، ولا نغلق أبوابنا إزاءها، فإن علينا أن نواجهها، ونحن على درجة عالية من القوة والكفاءة والرشد الفكري، فليس هناك من يرمينا بالنقص عندما نقوّم ما يقدم لنا. بل هو النقص كله أن نقبل ما يميع شخصيتنا، أو يدمر مقوماتنا. كذلك فعل الغرب عندما واجه حضارتنا وثقافتنا،

ونحن في أوج القوة، وهو على أعتاب النهضة. إنه لم يأخذ كل ما عندنا، ولكنه أخذ ما يزيده قوة ويحفظ كيانه وشخصيته، أفلا نفعل كما فعل؟ أفلا نكون أقدر وأرشد حصافة وذكاء من أن تدمر مقوماتنا؟

وقد تنبه المفكرون والكتاب منذ وقت بعيد إلى قضية الاحتلال الفكري والغزو الثقافي. غير أن هذه الصيحات كانت تتوقف كثيراً، فلا تصل إلا إلى عدد قليل. أما اليوم فقد حق أن تتصل وأن تصل إلى كل الأسماع. إن فكرة الغرب في سيطرته على الشرق تهدف أساساً إلى الإخضاع الفكري لا المادي والاقتصادي والسياسي وحده، وشعارهم في هذا (من يحتل أرضك يحتل فكرك ومن يسلب بلدك يسلب روحك). فإذا كان الاحتلال العسكري قد انتهى أو اوشك على النهاية، فإنه قد خلف الإحتلال الفكري الذي لا يمكن إجلاؤه إلا بعد فهم عميق لدقائقه وقدرة واعية على التحرر منه.

وهدفنا هو أن لا تصبح العقلية العربية عقلية قومية غربية بحال. إننا لن نغلق النوافذ ولن نوقف النظر والاقتباس من الفكر الإنساني، فنحن شركاء فيه أساساً، ولكننا لا ندعه يجتاحنا، ويفرض مقوماته علينا، فيقضي على قيمنا الأساسية.

إن مكونات فكرنا الأصيلة التي تعتمد أساساً على اللغة العربية وروح الدين وتاريخنا وشخصيتنا ذات الملامح الواضحة، يجب أن تكون أساساً لكل علاقات (الأخذ والعطاء) في دنيا الفكر والثقافة.

أما إذا انهارت هذه المقومات، فمعنى ذلك هو أن نصبح «شيئاً متميعاً غامضاً» ليس هو نحن أساساً، ولا هو غيرنا.

هذا هو مصدر الخطر، أن نقبل كل شيء دون أن يكون منسوجاً على أحجامنا. لا بد من هذا التحفظ في مواجهة الفكر الغربي، وليس هذا أمراً ينقص من قدرنا. بل إنه على العكس سيعطينا قيمة ووزناً في

نظر غيرنا. إن كل شجرة من أشجار الفكر الإنساني لنا في جذورها بذرة، ولنا في تكوينها أثر، ولكنها حين قامت في حضانة الغرب، إنما قامت على أساس مقومات تتفق مع ثقافته وبيئته وتراثه . والفكر الغربي يقوم أساساً كما أجمع على ذلك أغلب كتابه على مقومات هي:

١ - التراث الروماني واليوناني.
٢ - المسيحية الغربية (الخاصة) وهي غير المسيحية.
٣ - المفهوم المادي الصناعي.

وهذه مقومات تختلف أشد الإختلاف مع مقومات فكرنا. ولذلك فإن القول بالتقاء الفكر العربي الإسلامي مع الفكر الغربي التقاءً كاملاً أمر عسير. وإذا كان الغرب حين اتصل بالفكر العربي الإسلامي في أوائل النهضة لم يتميع أو يضع فيه، ولم يتحول إليه، وإنما أخذ منه وأعطى ما كون له بناء حياته على أساس من مقوماته الفعلية، فما أحرانا أن نقلده في هذا الأساس.

على أننا اليوم بعد أن قطعنا مرحلتين من أضخم مراحل التطور، وذلك بالتحرر من النفوذ الأجنبي العسكري والسياسي، وإنشاء العمل الصناعي والعلمي والتكنولوجي الواسع على نفس القيم التي يقف عليها الغرب، وصلنا إلى الطائرة النفاثة التي تسبق سرعة الصوت، وتفجير الذرة، وصناعة الصواريخ. فما عاد موقفنا هو موقف المغلوب والغالب بقدرما أصبح موقف دعم أسس البناء في مجال الفكر، مؤكدين لمنابعنا وقيمنا أساساً حتى لا تنهار، ونحن في طريق الثورة الصناعية.

ومن حقنا أن نأخذ حضارة الغرب دون تحفظ، وأن نأخذ فكره في تحفظ كما فعل هو من قبل، وكما فعل أسلافنا العرب في القرن الرابع الهجري. ذلك أن مقومات فكرنا الأساسية تختلف عن مقومات فكره في جوانب فعالة كانت وما تزال بعيدة الأثر في طريقنا الطويل وطريقه. فنحن نمزج الروح بالمادة والضمير بالعقل، بينما يجنح الغرب

إلى المادة وحدها، والعقل وحده، ويجعل هدفه السيطرة على العالم، وفرض سلطانه السياسي ونفوذه الفكري، ولا يقبل تقديم الحضارة إلا مغلفة بالفكرة الاستعمارية الوثنية والمادية.

وخطأ الغرب يتركز في اعتقاده أن الحضارة الغربية هي كل شيء، وأنه لا شيء هنالك غيرها، بينما نؤمن نحن بامتزاج قوى الروح والدين والضمير مع قوى المادة والعقل، ونجد من مفاهيمنا ما يعطينا من هذا المزاج حياة أكثر أمناً وإشراقاً وإيجابية. ولم يكن هذا الفهم معيقاً لنا يوماً عن العمل والإنتاج والتطور.

وإذا كان الغرب يطمع في أن يفرض فكره على الإنسانية، فإنه سيجد مقاومة كبرى مارستها أمم العالم العربي الإسلامي وهي مكبلة بالقيود، فهي أكثر استطاعة لها اليوم بعد أن انكشفت عن جيوب الاستعمار الفكري في عالمنا المتمثلة في دعوة «الشعوبية» الفكرية التي تنشر رأيها في حذر ودقة، وتتخذ من بعض القضايا الغامضة سبيلها إلى بث سمومها. ومن ورائها قوى تعينها بالأموال وتفتح لها أبواب الصحف الأنيقة التي تصدر في بعض أجزاء العالم العربي.

* * *

وإذا كنا في خلال سنوات الاحتلال الأجنبي قد فرض علينا الفكر الغربي في مناهج التعليم وبرامج البحث، وفي مجال الصحافة والتأليف، وقام من كتابنا من دافع عنه، ودعا إليه. فإن ذلك إنما كان يمثل «مرحلة الاضطرار» هذه التي دافع عنا خلالها كثير من الأبرار، ممن عرفوا الفكر الغربي، وارتادوا مناهله، وهاجوا فرضيته علينا في ظل سلطانهم ونفوذهم. وإذا كنا في فترة الاحتلال الأجنبي قد قاومنا، فما أجدرنا اليوم أن لا نستسلم للصورة الجديدة «دعوى الشعوبية» التي أحلها النفوذ الأجنبي كحلقة جديدة في عملية الغزو الثقافي والفكري.

وعلينا أن لا نستسلم في ظل اقتناع بأننا قد تحررنا من الاحتلال

والسلطان السياسي والعسكري للغرب، فإن استمرار الغزو الفكري على هذا النحو الذي يقوم به الآن، وفق مخطط شعوبي تغريبي، إنما يرمي إلى أبعد من الاحتلال. إنه يرمي إلى القضاء على مقومات هذه الأمة وفكرها وشخصيتها جميعاً وإسقاطها نهائياً.

٤ - الشعوبية الفكرية الحديثة

حلت «الشعوبية» مكان «الاحتلال» فالغزو الثقافي الذي مارسه الاستعمار خلال إقامته في وطننا في مدى قرن تقريباً، قد خلف قوى قائمة بعد جلائه العسكري والسياسي. هذه القوى تعمل ليبقى النفوذ الأجنبي، ويقضي على مقومات أمتنا حتى لا تستطيع أن تتجمع فكرياً، وتتوحد لتواجه الحياة قوة ضخمة ذات نفوذ، ولتبقى له بعد ذلك سيطرته الاقتصادية.

والشعوبية الفكرية الحديثة إنما تحاول القضاء على:

(١) - شخصيتنا (٢) - قيمنا الفكرية والروحية (٣) - تراثنا (٤) - لغتنا العربية الفصحى (٥) - تاريخنا.

وقد تشلكت هذه الشعوبية منذ الثلاثينات من هذا القرن في صورة أحزاب وهيئات وجماعات ذات طابع براق على مستويات مختلفة: قومية ضيقة، وإقليمية سياسية، وشعوبية فكرية، حاولت أن تشق طريقها وتجمع حولها الشباب الغض تصنعه وفق مخطط دقيق مدروس.

وقد مهد الاستعمار لها الطريق بدعوات مختلفة:

(أولاً) العودة إلى الثقافات والحضارات القديمة كالفينيقية، والفرعونية، والبابلية، والآشورية.

(ثانياً) التفرقة بين عناصر الأمة الواحدة والدين الواحد، فابتعث قضايا الصراع بين الأجناس والمذاهب والأديان.

(ثالثاً) الكشف عن الآثار القديمة واستغلالها في هذه الدعوات .

(رابعاً) رفع صوت الآداب الإقليمية واللهجات الإقليمية والتراث الإقليمي .

وليس كيد الشعوبية موجهاً إلى العرب وحدهم أو إلى الإسلام كدين ، ولكنه موجه أساساً للقضاء على مقومات « الفكر العربي » الذي هو المصدر الأول للحياة العقلية والروحية لهذه المنطقة في محاولة لإثارة الشكوك وخلق التفرقة والانتقاص من التاريخ والتراث ، وتشويه الماضي ، وهدم اللغة ، والإغضاء من فضل العرب ، وأعلام العرب وأبطالهم في مجال السياسة والفكر والاختراع ، والعمل على تجزئة الفكر العربي الإسلامي ، والقضاء على روح وحدته ، والفصل بين الماضي والحاضر ، وفرض النظريات الغربية في مجال القومية ودراسات التاريخ والأدب ، وتقييم التراث ، وإذاعة الفلسفات والنظريات والمذاهب العربية المتعددة المتضاربة التي انطوت في الغرب ، أو ماتزال موضع النظر والشك ، فهو يعرضها علينا كأنما هي قضايا مسلّم بها . وأبرز المذاهب والفلسفات التي يدفعها بقوة إلى فكرنا : النظريات المتصلة بالتشكيك في القيم الروحية ، والمثل الإنسانية ، والتي تحاول تعرية الإنسان ، وإبراز حيوانيته وتصويره في صورة المندفع وراء غرائزه . وذلك في سبيل تحقيق هدف خطير ، هو القضاء على القيم الأساسية للفكر العربي الأخلاقي القائم على تكريم الإنسان ، والتسامي به ، ودفعه إلى مجال « الإنسان الكامل والأعلى معاً » .

* * *

وقد اعتمدت الشعوبية الفكرية الحديثة - وهي تستهدف القضاء على المقومات الأساسية لفكرنا العربي الإسلامي - اعتمدت على تراث قديم لها محاولة إعادة بعثه من جديد . وكان الشعوبيون القدامى قد جروا في محاولة ضخمة لتزييف قيمنا ، وأثاروا عديداً من الشبهات حول مختلف القضايا ، ثم جاءت الشعوبية الحديثة المتحركة في حضانة الاستعمار

والغزو الفكري، فاستغلت هذه الآراء، وأخذت تبعثها من جديد. كما وجد المستشرقون والمبشرون - الذين يسمون باسم العلماء في آراء الشعوبية القديمة - زاداً ضخماً استعانوا به في حملتهم الضارية.

وقد ساير كثير من كتابنا ومفكرينا هذا الاتجاه على غفلة منهم، أو متابعة ورضا، لقاء نفوذ وجاه ومال. كما مكن النفوذ الأجنبي للقائمين بالحركة الشعوبية - الشعوبية الحديثة في العالم العربي - فرصة السيطرة على بعض منابر الصحافة والجامعات، ونوافذ التوجيه للرأي العام.

* * *

والرأي أننا لسنا في حاجة إلى مراجعات علمية أو قاموسية لتحديد معنى «الشعوبية». فنحن نعتقد أن كل من يهاجم مقومات فكرنا وشخصيتنا، ويزدري تاريخنا ولغتنا، أو يحاول القضاء على مقوم من هذه المقومات بالتشكيك فيه أو نقضه أو انتقاصه، إنما هو شعوبي يتحرك في فلك التغريب والغزو الثقافي.

وكل محاولة لتغليب العامية، أو هدم عمود الشعر أو انتقاص التاريخ والتراث والدين إنما تجري في هذا التيار.

ولسنا نريد أن ندخل في مجادلات حول القضايا المثارة كالعروبة والإسلام، أو الدين والعلم، أو حرية الفكر، أو تقييم التراث. فليس هناك ما يمنع أن يمارس الباحث حقه كاملاً في النظر، والبحث ما استقامت مفاهيمه أصلاً على نفس الأصول التي ارتضتها هذه الأمة أساساً لقيمها ومفاهيمها، ولا بد أن يتوفر صدق النظرة وإخلاص النية والإيمان الأكيد بقيم هذه الأمة.

ولسنا في هذا ندعو إلى تقديس تراثنا، أو المبالغة في تقدير فكرنا، أو النظر إليه نظرة الاستعلاء أو المبالغة، وإنما نحن نتطلع من خلاله إلى قدر واضح من الثقة بأمتنا وشخصيتها وقيمها. هذا القدر لا يسمح

بازدراء مواريثها ومقوماتها. وعلى هذا القدر وحده نحكم على سلامة الرأي الفاحص والرأي المثار. أما المبالغة في التقدير - فهي كالغلو في الانتقاص - كلاهما منبوذ مكروه بعيد عن مقاييسنا على أساس مفهوم «وسطية» الفكر العربي، في نظر نظرة (لا إفراط فيها ولا تفريط ولا تقديس فيها ولا ابتذال). فكلاهما بعيد عن الحق والواقع.

فإذا لم تكن النظرة على هذا النحو، اتهمت بأنها شعوبية وعدت من أعمال التغريب والغزو الثقافي، في محاولة لتدمير قيمنا وشخصيتنا، ومقومات فكرنا.

ونحن نعرف أن الدعوة «الشعوبية» تنبعث من مصدرين أكيدين:

١ - خصومة الغرب للفكر الإسلامي العربي، والأمة نفسها، في محاولة لمنعها من القوة والوحدة والغلبة.

٢ - حقد عناصر كثيرة مختلفة في داخل وطننا العربي لهذا التيار الجديد القوي محاولة لمقاومته والغض منه.

وإذا كان من المؤكد أن هذه اليقظة الفكرية التي تشرق في عقل الأمة العربية والعالم الإسلامي ستجد طريقها الأصيل عندما تؤمن بقيمها الأساسية، وتتخذها قاعدة لها، فإن الشعوبية تعمل جاهدة على التأثير في هذا الخط، وتضليل السارين إليه، وإثارة الشبهات والعقبات حوله، إبقاءً على النفوذ الأجنبي ووجودها الشخصي.

٥ - مقوّمات الفكر العربي الإسلامي

الفكر العربي فكر قومي يدخل فيه تاريخ العرب وحدهم. والفكر الإسلامي وحده يتمثل فيه فكر المسلمين وثقافتهم. أما الفكر العربي الإسلامي «فهو اصطلاح جديد يجمع في مضمونه المقومات الأساسية لروح أمتنا وضميرها» وقد اتخذناه في مقابل اصطلاح الفكر الغربي

(بشقيه) حتى لا نقع في الخلط لو أننا اكتفينا بعبارة الفكر العربي[1].

وليس أدل على أصالة مقومات فكرنا العربي الإسلامي من قدرته على الحياة خلال اربعة عشر قرناً دون أن يموت بالرغم من فقدان القوة السياسية والعسكرية، واضطهاده بهذا العنف في حملات ضارية تمثلت في:

١ - إخراجه من الأندلس.
٢ - إخراجه من شرق أوروبا وجنوبها.
٣ - حملات التتار.
٤ - الحملات الصليبية.
٥ - الغزو الغربي الحديث.
٦ - الحملة الصهيونية القائمة.

ولا شك أن لفكرنا العربي الإسلامي رسالة وهدفاً وطريقاً مفتوحاً قادراً على الحركة والتطور، ومواجهة الأحداث والأزمنة والبيئات والحضارات المختلفة.

كما أن لكل فكر مقومات واضحة تفرق بينه وبين غيره، وتكشف عن استقلاليته وطابعه المميز. وأبرز هذه المقومات في الفكر العربي الإسلامي اللغة والعقيدة والأخلاق والتاريخ والقيم والتراث والثقافة والشريعة الإسلامية.

فالفكر العربي الإسلامي يقوم على مقومات اللغة العربية، والعقيدة كمصدر إنساني «روحي ومادي» جامع. والإسلام بحسبانه فكراً وحضارة ونظام مجتمع، والتاريخ بانتصاراته وهزائمه، والقيم التي رسمتها هي عصارة اللغة والعقيدة والتاريخ والتراث الذي تستمد منه الأمة جذور حياتها، وما يتصل بذلك من الثقافة في مجالاتها المختلفة.

ومن هنا يبدو الخلاف واضحاً بين مقومات فكرنا، ومقومات الفكر

---

(١) عالجنا في الفصول الأولى من هذا البحث العلاقة بين الفكر الإسلامي والثقافة الغربية.

الغربي التي تتكون من عناصر تختلف عن هذه العناصر، وتكون طابعاً متميزاً. هذا الخلاف في الأسس ليس مانعاً من الأخذ والعطاء، والامتصاص والنقل، والتلقي لثمرات الفكر البشري، وهضمها، وتحويلها إلى كياننا ما دمنا نقيم هذا الإلتقاء على قاعدة واضحة من مقومات فكرنا وشخصية أمتنا. تتمثل هذه القاعدة الأساسية في خصائص واضحة. وأبرزها التوحيد وامتزاج المادة والروح والعقل والعاطفة، والدين والعلم وفق طابع إنساني وعالمي واضح، وفي بساطة ووضوح، مع مرونة قادرة على الحركة، ووحدة الفكر والفهم.

وفي فكرنا طابع العلم والتجربة والبرهان، مع حرية العقل وسعة الأفق والقدرة على الهضم والتمثل والامتصاص، والانفتاح أمام مختلف الثقافات والأفكار، وفي فكرنا طابع الوسط والقصد. حيث يقوم بين المحافظة والتطرف، ويجمع بين التحليل والتأليف، ويمزج بين الواقعية والقيم، ويتسم بجرأة الفكر وحرارة الشعور، مع اعتدال في الملكات المتعارضة.

وتبدو هذه الخصائص في أسس خمسة:

أولاً: طلب العلم في فكرنا فريضة، والوضوح مظهر.

ثانياً: النأي عن الإِمَّعِيَّة قانون: (لا يـكن أحدكم إمعة، يقول اذا أحسن الناس أحسنت، وإذا أساءوا أسأت).

ثالثاً: القدرة على قول كلمة الحق: (أحب ممن سامه الخسف أن يقول: «لا»).

رابعاً: مقاومة كل عدوان على أرضنا أو فكرنا، وحماية مقوّماتنا.

خامساً: امتداد الرأي بالروح (إن موتاً في الحق لهو عين البقاء، وحياة في ذلة هي عين الفناء).

* * *

في ظل هذه الأسس الواضحة الثابتة لفكرنا نتحرك ونتطور ونتلقى ونعطي دون أن نتخلى عن مقوماتنا. وبها ننظر إلى خطين واضحين: (داخلي وخارجي، قديم وحديث) ونتحاكم بها في أمرهما.

أولاً: الماضي والتراث.

ثانياً: الفكر العالمي الوافد.

فكل ما اتصل بهذه المقومات من ماضينا وتراثنا فهو خيط ممتد لا ينقطع. وكل ما يضيفه الفكر العالمي الوافد من قوة، فنحن نقبله ونمتصه ونحوله إلى كياننا.

ونحن بهذا لا نجمد. نتحرك في قوة فوق قاعدة عريضة هي: ضمير أمتنا، وملامح شخصيتها التي لا تتخلف ولا تزول، والتي امتدت على الأجيال حية نابضة بالقوة، وبقيت صامدة عندنا رغم أنه زال سلطاننا السياسي وسقطت الدولة الكبرى.

وإذا كان هناك من سبب جوهري لزوال هذا السلطان وسقوط الدولة، فإنما هو التفريط في هذه المقومات والالتقاء بالحضارة والفكر والحياة من دونها.

ولا سبيل لنا اليوم إلى أن تقوم نهضتنا وتنبعث إلا على قاعدة أساسية من فكرنا ومقوماتنا الواضحة، كذلك فعل الغرب أول نهضته. لم تبدأ من الجديد الوافد، وإنما امتدت إلى القديم، وارتبطت به حتى بلغ في ذلك حد التعصب عندما أكد الغرب أن فكره الحديث يرتبط بالفكر اليوناني والروماني على الرغم من انفصال دام ألفي عام بين أفلاطون وديكارت (٤٣٠ ق.م - ١٦٥٠ م).

لقد عاد الفكر الغربي الحديث فبعث الفكر اليوناني والروماني، وارتبط به، واتخذه مقوماً أساسياً بعد أن انفصل عنه أكثر من ألف عام. أما الفكر العربي الإسلامي فإنه لم ينفصل عن قاعدته منذ أربعة عشر قرناً،

وما تزال مقوماته هي مصدر قوته، فإذا انفصل عنها سقط وذبل. فإذا عاد إليها استيقظ من جديد، ودار في الفلك دورة جديدة.

٦ - إسلاميّة الفكر العربي

« الفكر العربي الإسلامي » الذي هو عصارة مفاهيمنا وقيمنا، ومقومات وجودنا الروحي والمعنوي هو فكر عربي اللغة، إسلامي المضمون، بما يحقق صدق القول بـ (إسلامية الفكر العربي) وهذه الكلمة لا تعني العقيدة الدينية، وإنما تعني الجوانب الأخرى في عالم الثقافة والعقل والضمير.

فالإسلام في جوهره يختلف عن الأديان التي وضعت مفاهيمها موضع المقارنة به، فهو أوسع منها أفقاً. وليس هو عقائد دينية لاهوتية فحسب، وإنما هذه العقائد جزء منه، ولكنه بالإضافة إلى ذلك فكر وحضارة ونظام مجتمع.

وإذا كان جانب العقائد الدينية هو ما يخص المسلمين وحدهم، فإن الجانب الآخر، وهو ما أطلقنا عليه كلمة « إسلامية » إنما يعني كل من عاش في هذه المنطقة ويعيش. لأنه عصارة ميراثه الحي الممتد المتصل بالحياة، النابض بالحياة. والذي لم يكن تراثاً (ligeea) بالمعنى العربي الذي يعني « المتخفية ».

فالإسلامية التي أضاءت للإنسانية طريقها في ظلمات العصور الوسطى ليست من صنع المسلمين وحدهم، وإنما هي عصارة فكر المجموعة التي عاشت في هذه المنطقة بكل ما تملك من ثقافات مسيحية ويهودية وهندية وفارسية ويونانية وحضارات فينيقية وفرعونية ورومانية. إذن فليست هذه الثقافة وهذا الفكر ملكاً للمسلمين وحدهم، وإنما هو ملك للعرب والفرس والأتراك والهنود. وكل من استظل بلواء هذه الثقافة ممثلة في الأديان والحضارات والثقافات المختلفة. وهذا الفكر كله هو الذي صور ضمير المنطقة وأعطاها سمة واضحة هي ما نطلق عليه

« الشرق الإسلامي » أو « العروبة الحنيفية » . وقد حظي العرب منها بنصيب كبير حين حفظت لغتهم هذا الميراث ، واحتضنته . فقد كانت العربية الفصحى هي لغة هذه الثقافة . ومن هنا صح ما ذهبنا إليه من « إسلامية الفكر العربي » .

وقد أعان على خلق هذا الميراث ولا أقول « التراث » حتى لا أقع في المفهوم الغربي لكلمة (legace) التي تعني بالتراث كل ما مات من آثار الفكر القديم ، والذي يتمثل أساساً في آثار اليونان والرومان الفكرية التي امتصتها الثقافة الغربية الحديثة ، وطوتها في أعماقها ، وجعلتها عنصراً أساسياً من عناصر تكوينها .

أقول : إن الذي أعان على خلق هذا الميراث هو سماحة الإسلام الذي أفسح لكل الملَل والنحل من جناحه ، وأتاح لكل العناصر أن تتعايش تحت لوائه ، وأن تتفاعل مع قيمه الأساسية . ولقد عاش في هذا النطاق أحرار في معتقداتهم مفكرون وفلاسفة كبار وفقهاء وعلماء أبدعوا خيوط هذا الميراث الذي تكوّن واكتمل وأصبح يمثل « ضمير » هذه الأمة تصويراً يتشابه فيه المسلم والمسيحي على السواء ، لأنه من صنع الأجيال كلها متضافرة مجتمعة بعقلياتها وثقافاتها . فلا ضير أن يطلق عليه « الفكر العربي الإسلامي » .

ثم هو من بعد هذا خلاصة وجداننا ، وعصارة مزاجنا الذي يختلف اختلافاً واضحاً عن الوجدان الغربي والمزاج الغربي . لقد كان قوام فكرنا دائماً مستمداً من مفهوم الإسلام الجامع بين الروح والمادة . فهو إنساني الطابع ، وليس روحياً خالصاً ولا مادياً خالصاً .

* * *

هذه هي « وحدة الفكر » الأساسية التي تقوم عليها مفاهيمنا . وبها يتميز طابع أصيل في الفكر العالمي والإنساني الحديث ، وبها ننظر إلى الفكر الغربي (بشقيه) فنأخذ منه أو ندع .

والفكر العربي الإسلامي مازال يستطيع أن يعطي، فإن آفاقه لم تنفتح بعد، وما تزال ذخائره مطوية ولم تجد من يكشف عن جوهرها، ويقدمها بصورة عصرية كما أتيح ذلك لتراث اليونان والرومان. ولذلك فهناك عدد كبير للجانحين، أو ذوي الظن السيء. هذا الظن الذي يكون لديهم في ظل شكوك وشبهات ألقيت إليهم، ووجدوها مبسوطة ومطبوعة على ورق فاخر، ومظهر حديث دون أن يجدوا من يدلهم على ما يدحض شبهاتها، أو يكشف زيفها بتقديم ذخائر فكرنا العربي الإسلامي ويبرز فيه من نظريات وآراء هي قوام «ضمير» أمتنا في مجالات الحياة والمجتمع.

والعيب في هذا أن الاستعمار الفكري هو الذي فرض علينا منهج العمل في مجال إحياء التراث عندما وجدنا نتجه إليه. فما أحببنا من التراث إنما كان بتوجيهه. وكان أبرز ما أحببنا كتاب «الأغاني» الذي أعطي أهمية ضخمة لا حدّ لها، وكتابات ابن عربي، والسهروردي، وشعر أبي نواس، وبشار بن برد. وكان لهذا قصد مدبر. فالأغاني كتاب يحاول فيه أن يعطي للمجتمع الإسلامي صورة عصر شك وفسق ومجون. وقد اعتمد عليه الدكتور طه حسين في إصدار هذا الحكم وأذاع به. ومؤلفه أبو الفرج الأصفهاني (٣٥٦ هـ) كان شعوبياً منحرف المذهب، أراد بكتابه بث روح التدمير في فكر الأمة العربية، كما عرف بأنه كان مسرفاً أشنع الإسراف في اللذات والشهوات. وكان لهذين الجانبين من تكوينه الفكري والخلقي أثر في كتابه، فقد حفل هذا الكتاب بأخبار الخلاعة والمجون، فهو لا يعني إلا الجوانب الضعيفة من أخلاق من ترجم لهم مع الإغضاء عن جوانبهم الجادة.

ولقد أثار هذا الكتاب (٢١ مجلداً) اهتمام المستشرقين، واهتم به تلاميذهم في العالم العربي، واعتمد عليه كثيرون منهم في كتابة تاريخ الإسلام، وتاريخ الأدب العربي كما فعل جرجي زيدان وطه حسين وغيرهما.

وإذا كان المؤلف قد أعلن في مقدمة كتابه أنه إنما يعني به إمتاع النفوس وأن مؤلفه ألفه كتاب أدب لا كتاب تاريخ وأنه حاول جمع ما تناثر في الأندية من الأسماء والنوادر. فإن ذلك لم يحل دون فرض هذا الكتاب كمصدر علمي في أبحاث الكتاب والعلماء.

وقد ذكر الدكتور زكي مبارك في كتابه النثر الفني كيف أن المسيو ماسينيون المستشرق الفرنسي وجهه إلى الإستفادة من كتاب الأغاني في تصويره لحياة الحجاز في القرن الأول للهجرة، وكيف تحرر هو من ذلك.

والعجب أن هذا المؤلف الشعوبي قد نقل أخبار الفسق والمجون معنعنة كالأحاديث النبوية. وساق الأخبار الماجنة المتداولة كأنها حقائق علمية تاريخية لا تقبل الشك مروية بالسند. فظن الناس أن كل ما يروى بالسند يكون علماً دقيقاً. فاطمأن الناس إلى الأغاني، وحاول المستشرقون أن يعطوه أهمية كبرى، ليس في أبحاث الأدب وحدها، بل في أبحاث التاريخ أيضاً.

* * *

وكذلك كان الاهتمام بدراسات المنحرفين في كل مجال من مجالات الفكر العربي الإسلامي. كان الاهتمام بالسهروردي وابن عربي لأنهما دعوا إلى مذهب ليس أصيلاً في فكرنا، بل مفترضاً. والاهتمام بأبي نواس وبشارهو محاولة لتصوير العقل العربي قاصراً عن إعطاء مثل هذا الفن الوافد، وإنهما بمفاهيمهما المحسوبة قد بلغا القمة. وكذلك جاء إبراز جوانب اضطراب العقيدة في المعري، ومحاولة هدم المتنبي والشك في أبوته وأصله. كل هذا من محرفات القول ومحاولات الهدم.

أبرز مميزات الفكر العربي الإسلامي: وسطيته التي أعطته طابع «وحدته» ووسطية الفكر مرتبطة بوسطية الأمة من حيث المناخ والمكان والبيئة، فضلاً عما يتسم به فكرنا من الجمع والمزاوجة بين الدين والدنيا، والمادة والروح والعقل والضمير حيث لا يجنح إلى التطرف، ولا يذهب غاية المدى في الجمود أو الطفرة، ولا في الرخاوة أو العنف.

في تلك المرونة والحيوية، والقدرة على الحركة، والملاءمة والالتقاء بالحضارات والثقافات وأفكار الأمم، فيه مرونة الحركة مع ثبات القاعدة، وهذه القاعدة الثابتة هي مصدر قوته ومدار حيويته.

فنحن لا نقف عند الماضي، وننظر دائماً إلى الخلف، ولا نندفع وراء الفكر المستورد، فنغرق فيه. وإنما نأخذ من ماضينا القوة التي تدفعنا إلى الحركة والحياة مؤمنين بشخصيتنا وقدرتنا الدائبة على العمل.

ولعل أبرز جوهر فكرنا الأساسي أننا لسنا إمّعات، ولا تابعين، ولا نسير خلف الركب، ولا نتمثل فكر الآخرين، إيماناً منا بأننا نملك خير ما تعطي الإنسانية من زاد، ولكن هذا الإيمان بذاتنا وقيمنا وتاريخنا الحافل بالبطولات لا يدفعنا إلى التوفيق، ولا يحملنا على التخلف، ولا يملأ قلوبنا بالغرور، وإنما هو يدفعنا إلى مزيد من تأكيد قدرتنا على الحركة أو التطور والحياة حتى نكون مؤثرين متفاعلين.

وإذا كانت دورة التاريخ قد وضعتنا موضع التخلف في خلال ثلاثة قرون من عمرنا الطويل، فإننا نحطم الآن أغلال القيود التي ظلت تكبل حريتنا أياً كانت هذه القيود. حطمنا قيود الاحتلال السياسي والعسكري، ومهمتنا الآن تمزيق أغشية النفوذ الفكري، والغزو الثقافي ممثلاً في الشعوبية ودعاة التقليد.

ونحن إذا كنا لا نقلد الماضي فنحن أيضاً لا نقلد الآخرين. وإذا

كنا لا نتخذ من التراث وحدة منهج حياة، فنحن لا نستورد فكر الآخرين.

إن قوة شخصيتنا واستقلالها، وقدرة فكرنا الخلاق المتحرك تجعله قادراً ما دام محتفظاً بقواه الأساسية أن يمتص عصارة كل فكر، ويصوغه ويحوله إلى كياننا. كل ما هو جدير بأن نتنبه له: هو أن نكون على وعي كامل بالمؤامرات التي تدبر لفكرنا، ومواجهة الشعوبية، وكشف خطواتها، وموالاة إيقاظ جيلنا وتنبيهه، وكشف الحقائق الخافية عنه ليعرف خصوم فكره، وخصوم أمته، وحتى لا ينخدع بأساليبهم البراقة، وكلماتهم المعسولة. ونحن إذ لا نأخذ آراء القدماء قضايا-مسلمة، فنحن لا نأخذ آراء الغرب قضايا مسلمة أيضاً.

* * *

وتبدو وسطية الفكر العربي الإسلامي في ذلك الالتقاء والامتزاج بين العناصر التي يراها الفكر الغربي متعارضة. فالمادة والروح والعقل والوجدان والإنسانية والإقليمية والعلم والدين، والواقعية والقيم، تلتقي جميعها في الفكر الإسلامي وتمتزج.

وإذا كان فكر الشرق قد اتسم بدعوة الروح المطلقة، وعرف فكر الغرب بدعوة المادية المطلقة. فقد عرف الفكر العربي الإسلامي بذلك المزاج العجيب الرائع من المادية والروحية على حرية في العقل وسعة في الأفق، ومجاراة للزمن والبيئة، وبساطة مع وضوح ومرونة، وقدرة على الحركة مع الحيوية، وانفتاح على الآفاق. والثقافات تعطي يسر الأخذ والعطاء.

وهذا معنى «الوسط» في فكرنا العربي الإسلامي.

والوسط في اللغة اسم لما بين طرفي الشيء. وإن أوسط الشيء أفضله وخياره. فوسط القلادة الدرة، وهي أنفس خرزها. وفلان أوسط نسباً

أي أرفع مجداً. ولا تتصل عبارة «الوسط هنا، بما يتردد عن اليمين واليسار في مجال السياسة» وإنما الوسط هنا لقاء بين الطرفين البعيدين. وهو ليس لقاء «هيجل» الذي ينتهي إلى التحلل والسقوط ليبدأ يمين متطرف، ويسار متطرف، وينشأ منهما وسط، وإنما هو «وسط» متجدد قائم على قاعدة أساسية يتسم بها الفكر العربي الإسلامي صادراً من مزاج الأمة وضميرها، وجهر عقائدها ومناخها.

وإذا كان هناك ما يختلف به الفكر العربي الإسلامي في أسسه عن الفكر الغربي، فإنه يتمثل في هذه المزاوجة بين الروح والجسد، والمادة والروح، والعقل والضمير.

ومن أوضح الأزمات التي تمر بالفكر المعاصر بعامة الآن أزمة هذا الفصام بين القوى المتلاقية، وغلبة المادية. ولقد كشف كثير من المفكرين جوهر هذه الأزمة في امتداد العقل، وتقلص الروح. فقد نما عقل العالم، وتقلص ضميره، نتيجة تخليه عن القيم الإنسانية والروحية التي تعد أساساً من أسس الفكر العربي الإسلامي، ومصدراً من مصادره. فأبرز معالم الفكر العربي الإسلامي هو «الوسط بين المحافظة والتطرف، والمثال والواقع، والجمع بين التحليل والتأليف وبين الجمود والطفرة».

ومن هنا جاء إيماننا بالانفتاح على الداخل والخارج معاً، وارتباطنا بالقديم والوافد معاً، دون أن نقدس الماضي أو نحرفه، ودون أن نستسلم للجديد الوافد أو نرده.

ذلك أن لنا قيمنا الأساسية، ومن فوقها نبني ونتحرك، ونأخذ وندع، وفق مفاهيم واضحة، وفي ظل شخصية لها طابعها. وفي أعماقنا تلك القوة الاستقلالية التي تؤمن بالتراث، فلا نستورد نظريات الآخرين، ولا نستسلم للماضي ولا نتوقف جامدين إزاء التطور. وهذه القيم تأخذ من القديم والجديد، والداخل والخارج في مزاج قادر على

البعث (القديم) والامتصاص للفكر الوافد، وأمامها عبرة الماضي في التخلف، وعبرة الفكر الوافد في أرضه. هذا الفكر الذي لم يعطِ أهله القدرة على الاستقرار والطمأنينة النفسية، والذي مازالَ يرسم حولهم هالات القلق والاضطراب.

ومازالت لنا قدرتنا على الحركة، وإيماننا بأننا نستطيع أن نعطي ونأخذ. وعلى حد قول جورج سارتون عنّا: إن الهزائم السياسية التي منينا بها لم تزعزع ثقتنا بأنفسنا ومكاننا ودورنا.

* * *

وإذا كنا اليوم نعود مرة أخرى لنقاوم انحرافنا عن «وسطية» فكرنا، ونبعث مقوماتنا الأساسية كمنار نهتدي به في الطريق الطويل، فليست هذه ظاهرة جديدة على فكرنا وإنما كنا هكذا دائماً، ما إن ينحرف بنا الطريق حتى يظهر من يكشفه لنا، ويرفع الرماد الكثير الذي غطى مجراه الأصيل.

وعندما نقل الفكر اليوناني في القرن الثالث جرى المسلمون طويلاً في مجاريه، فلم تلبث أن قامت الدعوة إلى المنابع الأولى، ورد الانحراف والاندفاع.

وعندما تفشت الشعوبية الفكرية، وأخذت تبلبل الفكر العربي الإسلامي برزت حركة المقاومة واضحة، فلم يلبث الرأي الأصيل أن قضى على الرأي الدخيل.

٨ - ثقافتان وحضارة واحدة

يبدو أن هناك ضرورة حتمية لتحديد مفاهيم الألفاظ التي يجري تداولها كثيراً هذه الأيام. أول هذه الألفاظ اختلاطاً على الفهم «الثقافة والحضارة» فقد جرى استعمال كلمة «الحضارة» بدلاً من كلمة

« الثقافة » عند كثير من الكتاب على أساس أنها أوسع مدى وأشمل، وأن الحضارة تضم الثقافة تحت جناحها. غير أن هذا جرى دون تعمق لمعنى اللفظين اللذين يجب التفريق بين مفهومها ومضمونها حيث تبدو اهمية لا حدّ لها لتحديد معنى كل منها توقياً للخلط بينها، واستعمال كل منها في مكانه.

ولا ضرورة لإعادة ما قاله عشرات الباحثين في التفرقة بين مفهوم الثقافة ومفهوم الحضارة وغاية ما يجمع عليه المفكرون في هذا هو أن الثقافة فكر، والحضارة مادة ومجتمع.

ولا شك أن الحضارة نتيجة الثقافة، وأن كل حضارة بدأت فكرة أولاً، ثم انبثقت منها الحضارة. غير أن تطور الحضارات على مدى العصور قد بلغ درجة من النضج البشري، فلم تعد هناك حضارات منفصلة ترتبط بإقليم دون إقليم، أو أمة دون أمة. وهذه الحضارة التي نعيشها اليوم لا يصح إطلاق لفظ الحضارة الغربية عليها، وإنما هي حضارة بشرية انصبت في بوتقتها مختلف الحضارات والثقافات القديمة والمتوسطة كحضارات مصر وبابل وآشور، وحضارات اليونان والرومان والعرب والمسلمين. ومن عصارة هذه الحضارات وتجاربها الواسعة المتعددة المراحل قامت هذه الحضارة في القرن الخامس عشر، واستمرت إلى اليوم، وشملت العالم كله. والحضارة هنا في تقديرنا هي الآلة والماكينة والعلوم التكنيكية والاختراعات والكشوف والذرة والصواريخ عابرة القارات.

أما الثقافة فهي الفكر بقطاعاته المختلفة من لغة ودين وأدب وتاريخ. وهنا تبرز أمامنا ثقافات متعددة لها طابعها المستقل المختلف في كل ثقافة عن الثقافة الأخرى.

وابرز ما يبدو هذا الاستقلال واضحاً في ثقافة الشرق والغرب، ثم

في ثقافة الشرق تبدو ثقافة الفكر العربي الإسلامي التي لها طابعها المتميز عن ثقافات الهند والصين، وإن اتسمت ثقافة الشرق بالطابع الروحي.

وتبدو ثقافات الغرب متميزة أيضاً ممثلة في ثقافة الغرب والثقافة الماركسية، والثقافة اليهودية، ولكلٍ طابعه الواضح، وإن اتسمت ثقافة الغرب بالطابع المادي.

ومن بين هذه الثقافات تبدو «الثقافة العربية الإسلامية» ولها طابع مزدوج واضح الملامح في الارتباط بين الروح والمادة، والعقل والمادة والضمير. ومن هنا يبدو أن هناك ثقافتين وحضارة واحدة.

(١) ثقافة الغرب (بشطريها الغربي والماركسي) وهما يقومان على أساس واضح، وقاعدة واضحة هي: مادية الفكر.

(٢) الثقافة العربية الإسلامية: وهي تقوم على قاعدة الربط بين الروح والمادة. ومن المعتقد أنه لا سبيل إلى تغيير الأساس أو القاعدة في كلتا الثقافتين، ولا سبيل إلى حل أية ثقافة منهما إلى تبني قيم الثقافة الأخرى. وليس معنى هذا هو التوقف عن الأخذ والعطاء، وهو بين الثقافات ظاهرة حتمية وناموس أزلي. هذا الأخذ والعطاء الذي لا يفقد كلتا الثقافتين طابعها الأصيل. ليس معناه جموداً، ولكنه يعني التحرر عن الإذابة. وفي تجربتين قديمتين تم هذا في حرية كاملة، وسلامة تامة، في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) عندما نقل الفكر العربي الإسلامي وترجم آثار اليونان والرومان، واختار منها ما وافق مضامينه وقيمه الأساسية. وفي القرن الرابع عشر الميلادي نقل الفكر الغربي آثار الفكر الإسلامي، وقد لوّنها بطابعه، وأضاف إليها وحذف منها. وفي كلتا التجربتين لم يفقد كلٌ من الفكر الغربي أو الفكر العربي الإسلامي طابعه وشخصيته.

ثم قامت الحضارة على هذه الأسس التي صنعتها الحضارة الإسلامية التي كانت في أرض الغرب (الأندلس). وفيها بدأ الامتداد الحضاري

متصلاً. أخذ العرب فكر اليونان والرومان، مضافاً إلى ثقافات الفرس والهنود والمصريين، وانصهر كله في كيان واضح، ثم أفضى إلى الغرب في عصر النهضة، فصنع الحضارة البشرية الحديثة، التي هي في الواقع جامعة التكوين، بحكم اشتراك الأمم والشعوب كلها في بناء أساسها، وإن تحولت إلى طابع لا إنساني في توجيهها مرتبطة بالاستعمار والقيم الفكرية الغربية التي آمنت:

(١) بالمادية - (٢) والعنصرية - (٣) وتمييز الرجل الأبيض - (٤) واستنزاف الشعوب والسيطرة عليها.

ومن هنا مضت الحضارة في طريق مفتوح، وامتدت إلى العالم كله الذي يعيش الآن في آلاتها وأدواتها. ولكن هل امتدت الثقافة الغربية فسيطرت على الفكر الإنساني؟ هذا هو ما نشك فيه، فإن تجربة اليابان في أوائل القرن كانت واضحة وضوحاً تاماً، حيث اقتبست الحضارة، ورفضت الثقافة الغربية. وتجربة الهند أيضاً التي مضت في طريق الحضارة، وحافظت على قيمها الثقافية وطابعها الأساسي.

ونحن في عالمنا «الشرق الإسلامي» وفي قلب الأمة العربية، نجد أن الغرب قد حاول خلال مرحلة الاحتلال لأرضنا منذ ١٨٣٠ تقريباً إلى ١٩٥٤ الجلاء عن المغرب إلى ١٩٥٦ (الجلاء عن مصر) ١٩٦٢ - الجلاء عن الجزائر أن يفرض هذا الفكر عن طريق المدرسة والصحيفة والكتاب والفيلم السينمائي.

وفي ظل قوى غاصبة وقوى حاكمة مؤيدة للاحتلال استطعنا أن نقاوم ولم نستسلم حتى إذا أتيح لنا أن نتحرر من الاحتلال العسكري والسياسي بدأت مواجهتنا لهذه القوى تأخذ طابعاً جديداً.

فقد خلف الاستعمار العسكري السياسي جيوباً في وطننا تمثل الغزو الفكري والثقافي، وتحمل أمانتها للقيم الغربية. وهي تحاول أن تخفي

اليوم هدفها، فتتأقلم في قوة متجمعة يمكن أن يطلق عليها «الشعوبية الفكرية» وتجد من بعض صحف العالم العربي ما يفسح لها إذاعة آرائها وبث سمومها.

وعندي أنه ما دمنا قد أخذنا بعض جوانب الحضارة أساساً مفروضاً علينا في ظل النفوذ الأجنبي فقد استطعنا بعد التحرر من هذا النفوذ أن نأخذ الجانب الأقوى، جانب الصناعة والآلة والذرة والصواريخ عابرة الفضاء. هذا الجانب الذي حرص الغرب أن يحول بيننا وبين بناء مصانعه، أو القدرة على السيطرة عليه.

وكان هذا التحول في واقعنا بعد التخلص من النفوذ الأجنبي بالغ الأهمية والخطورة، فلم يعد هناك ترف وملابس وعطور وإرضاء للغرائز - وهو الجانب الوحيد الذي قدمه لنا الغرب من الحضارة خلال فترة احتلاله - والرأي أننا قد حققنا بذلك استكمال موقعنا من الحضارة التي هي ملك بشري مشاع.

بقي الأمر في مجال الفكر وهو ما لا سبيل إلى نقله أو اقتباسه، وإنما يجري الأمر فيه وفق قانون أساسي، وناموس أزلي، هو أن لكل أمة مقوماتها الأساسية. هذه المقومات التي تمثل قيم فكرها، وملامح شخصيتها، وهو ما لا سبيل إلى التخلص منه، وهو ما حاول الغرب خلال أكثر من مائة عام أن يقضي عليه دون جدوى. هذا الأساس يجب أن يبرز ويتضح ويصبح أساساً معترفاً به في مواجهة الفكر الإنساني. أما النظرية التي كانت سارية ومعترفاً بها، وهي أخذ خير ما في القديم، وخير ما في الجديد، فهذا تمويه شعوبي يراد به القضاء على مقوماتنا الأساسية، أو وضعها في كفة ميزان مع الجديد الوافد.

فإذا تحدد هذا الأساس واتضح أمكن محاكمة (القديم والتراث) من ناحية (والوافد من فكر الأمم إلينا) من ناحية أخرى محاكمة واضحة للأخذ والرفض والإبقاء والحذف.

ونحن في هذا كله نؤمن بالفكر المفتوح المتطلع إلى ثمرات الفكر الإنساني من الشرق والغرب والقديم والجديد. وقد كنا ولا نزال دائماً قادرين على الحركة والتطور في مرونة وحيوية. ولسنا نخشى أن يغلب فكر على مقوماتنا المعطلة لخير ما في الفكر الإنساني أساساً، والتي عاشت عمرها كله لم تواجه أزمات القلق والاضطراب أو التجمد والتحجر أو التميع والانفراط.

ولا شك أن بين الفكر العربي الإسلامي، وبين الفكر الغربي أبعاداً واضحة واختلافاً صريحاً في أسس كل منهما. وليس معنى هذا أن التقارب والالتقاء لا يقع. فذلك أمر مقبول لدى الفكر العربي الإسلامي المنفتح المتطور المرن، القابل للثقافات الإنسانية، والفكر العالمي على أساس من قيمه ومقوماته. ولكن الأمر العسير الذي لا نعتقد أنه يقع هو امتزاج الفكر العربي الإسلامي والفكر الغربي في فكر واحد، وينسى دعاة هذا الامتزاج أنه لا بد له لكي يتحقق أن «يذوب» أحدهما في الآخر، وينصهر، وهذا أمر جد عسير.

ولقد جرت المحاولات لهذا، ودعا دعاة التغريب والشعوبية من قبل إلى أن نأخذ فكر الغرب. وجاء من يدعو إلى أن نأخذ فكر الماركسية، وفشلت كلتا الدعوتين وإن أخذنا من الفكرين على نحو معين وهو ما ندعوه «بالامتصاص» وهو غير النقل والاقتباس.

وليس من شك أن بين الفكرين والثقافتين فروقاً، ولن يلتقي الاثنان التقاء انصهار وإذابة. أما في مجال الحضارة فإن الامتزاج قائم وكائن، ويسير، ودائرة النقل والإقتباس مفتوحة وجائزة.

هذا هو الفرق بين الثقافة والحضارة. فالفكر يقوم أساساً على مقومات ثابتة، تتطور فروعها وتتحرك ويدخلها التجديد والتحول والتغيير. أما الحضارة فهي نمط من الحياة يمكن تغييره دون تحول أسس الفكر. فقد أخذت اليابان حضارة الغرب ولم تأخذ فكره، وكذلك

فعلت الهند.

ونحن لا نستطيع أن نأخذ لغة الغرب ولا مفاهيمه الروحية، ولا تاريخه، ولا مثله، ولا قيمه، وإنما نستطيع أن نأخذ حضارته في البيت والشارع، وفي الماكينة والآلة والصناعة والحضارة التكنيكية. أي أننا نلبس أثواباً عصرية، فنحن لا نستعمل الآن الجمل أو الناقة، أو نأكل أو نشرب، أو نقيم في مساكننا، أو نتحرك على النحو الذي كان يتحرك عليه القدماء، ولكنّا حين نفكر لا بد أن نعرف أن لنا أسساً أصيلة وقيماً واضحة هي قاعدتنا في تكوين شخصيتنا ومجتمعنا وفكرنا.

ومن الميسور أن يمتزج العالم كله في مجال الحضارة، ولكنه لا يمتزج في مجال الثقافة والفكر. ليس معنى هذا أن «الإنسانية» لا تستطيع أن تلتقي على «وحدة فكر». وإنما معناه أن فكر الغرب سيظل بارزاً بقيمه ومفاهيمه المستمدة من الفكر اليوناني، والثقافة الرومانية والمسيحية والمادية، وكلها أسس أكيدة لفكر الغرب الحديث لا سبيل إلى تخليه عنها. بينما يقوم الفكر العربي الإسلامي على أساس ترابط الروح والمادة، والتقاء العقل والضمير متمثلة في جوانب السياسة والاجتماع والقانون.

٩ - القاعدة قبل الاحياء والاقتباس

هل أتيح للشرق سبيل الاختيار حين واجه الحضارة الغربية، والفكر الأوروبي، أم فرض الغرب حضارته ومفاهيمه فرضاً على الشرق بقوة الاحتلال والاستعمار؟

وهل لو كانت قد أتيحت الفرصة للعرب والمسلمين، وكانت لهم القدرة التي تمكنهم من الموازنة، هل كانوا يقبلون فكر الغرب كله؟

إن للشرق الإسلامي مع الغرب تجربتين في «اقتباس» فكره: الأولى في عصر الترجمة ووقتها كان العالم الإسلامي قادراً على أن يأخذ ويدع.

وقد أقبل على تطعيم فكره بالثقافات الشرقية والغربية بمحض اختياره وبقوته الذاتية القادرة على الاستيعاب دائماً، والمدفوعة إلى امتصاص عصارات الفكر الإنساني وتحويله إلى كيانها. لم يتوقف عن ذلك إلا بعد أن أتم دورته كاملة في فلك الإنسانية في مدى (٨٦٠ عاماً). (٦٥٦ - ١٥١٨ م).

أما التجربة الثانية وهي تجربتنا التي نعيشها اليوم، فقد بدأت إثر حملة الغزو الاستعماري الحديث عام ١٨٣٠ تقريباً. حيث لم تكن عملية الاقتباس فيها بالخيار أو بالإرادة الذاتية. ومن الحق أن يقال: إن الشرق الإسلامي كان قد صحا قبل ذلك على صيحات من أعماقه بالتجدد واليقظة والعودة إلى المنابع الأولى، والتحرر من الأغشية والقشور التي أضافتها عصور التخلف. غير أن الغرب كان في انقضاضه ظالماً لم يترك له حق المفاضلة في أن يأخذ أو يدع لأنه كان حريصاً على تنفيذ مخطط معين هو أن يثير حوله عواصف وأعاصير متشابكة، ويفتح أمامه طريقاً له تيارات متعددة، ليضطرب فكره، فيعجز عن أن يختار. ثم يقف من ماضيه موقف المستهين به، فيرفض تراثه كله، ويتحول، ويتحول إلى صورة مظهرها غربي وقوامها شيء متهافت هش لا قيمة له.

غير أن هذه المؤامرة لم تفتك به لأنه رفضها. وإن اضطرب معها ثمة، غير أنه استطاع أن يواجهها ويصمد أمامها بإحياء مصادر فكره الأصيلة، وتجديد روافده. غير أن الخطة التي وضعت إذ ذاك للمقاومة كانت مبتورة، ولم تكن ناضجة كاملة. فقد كانت خطة حرب سريعة لم تقم على التدبير الواسع أو التقدير العميق، هذه الخطة التي كانت تقول:

«نأخذ من الغرب أحسن ما عنده، ونحيي من ماضينا خير ما فيه، ونخلق مزيجاً من الشرق والغرب والماضي والحاضر».

تلك كانت القاعدة التي عاش عليها فكرنا طوال مائة عام تقريباً.

غير أننا اليوم نجدنا في حاجة إلى إعادة النظر في هذه القاعدة بعد أن ثبت عدم قدرتها على الحياة مع تطور تيارات التغريب. وتوسع قاعدتها، وتحولها من « التغريب » الصريح إلى دعوات « الشعوبية » المحتجبة وراء مظاهر القيم والمفاهيم، وهي حركة أدق وأخفى من حركات التبشير والإلحاد والتغريب، لذلك كان علينا أن نكشف عن خطأ هذا المخطط وقصوره. فالواقع أنه ليس الأمر أن نأخذ من الفكر الغربي أو نحيي من الفكر العربي الإسلامي، ولكن الأمر الذي يسبق هذا أهمية هو أن « نتعارف » على « الأساس » الواضح الصريح لفكرنا وأمتنا وشخصيتنا. وأن نؤمن بقيمنا الأساسية التي نبني عليها، تطورنا الفكري وأمتنا. فإذا وحّدنا هذا الأساس - وهو موجود - إتفقنا عليه، فقد تحققت لنا « وحدة الفكر » التي تحول بيننا وبين البلبلة والاضطراب في تيه نظريات الغرب (بشقيه) فإذا وجدنا أنفسنا في مجال وحدة الفكر كان من السهل علينا مواجهة تيارات الفكر العالمي كله دون أن تقتلعنا أو تمسخنا.

ولا شك قد ثبت بعد مرور خمسة عقود على ظهور نظرية التسوية بين الإحياء والاقتباس: أنها نظرية قاصرة، وأن هناك وجوهاً كثيرة لنقضها وضعفها. وآية ذلك أنها لم تحقق النتائج المرجوة منها، فإلى أي حد يمكن الأخذ من القديم أو نقل الحديث، وما هو القانون المعترف به الذي يقرر صلاحية القديم أو الجديد أو الناموس الذي ينظم عملية المزج؟.

وعلى هذا فقد اضطربت أمور التقاء القديم بالجديد، وذهبت نظريات إلى التطرف في النظرة العامة فأنكر قوم القديم كله ودعوا إلى التخلص منه لأنه لا يوائم التطور، ودعا آخرون إلى نقل الفكر الغربي كلية دون تحفظ، ووقفت أقوام إزاء القديم موقف المحافظة أو الجمود أو الاعتدال.

بدراسة هذه النظرية ونتائجها، أمكن الحكم عليها بالسقوط لاضطرابها

أساساً، ولأنها تركت دون قانون ينظمها لها، أو يحدد لها مفهوماً واضحاً.

ولهذا أعتقد أنه آن الأوان لالقاء نظرة جديدة قوامها عمق الفهم، والانتفاع بالتجربة، واتساع الأفق. تدعونا لذلك عدة أمور:

أولاً: أننا منذ عقد كامل من الزمن نواجه مفاهيم متجددة في الفكر العربي تقوم على أساس التقاء المفاهيم، ورفع الحواجز، واتحاد الأجزاء في ظل تطور حركة اليقظة العربية. من هنا بدأت النظرة الإقليمية الضيقة التي كانت تمثل أساس الدراسات والأبحاث. بدأت هذه النظرة تتوقف وتبدو متخلفة، وبدأ حملة لوائها يوسمون بالشعوبية.

ثانياً: بدا الأفق مفتوحاً للبحث المنطلق والحر في مجالات الدراسات التاريخية والفكرية، وأصبح في استطاعتنا اليوم أن ننظر في حرية إلى تاريخ المنطقة في العصر الحديث كله نظرة النقد والتقويم دون ضغط أو قيد بعد سقوط النفوذ السياسي المحتل، والنفوذ الحاكم المرتبط به.

ثالثاً: انتهاء «عقدة النقص» التي عايشت الفكر العربي في فترة الاحتلال الطويلة منذ عام ١٨٣٠ وذلك بعد دخول الأمة العربية مرحلة البناء الحضاري بالماكينة والآلة والأسلحة والعلوم التكنيكية وكشوف الفضاء.

وإذا كنا قد فرضت علينا خلال فترة الإحتلال من ثقافة الغرب وحضارته ما شاء الغرب المحتل أن يفرض، وبنفس الأساليب والوسائل وعن طريق أجهزته الممثلة في التعليم والصحافة، وكتابات المستغربين.

وإذا كنا قد جرينا شوطاً طويلاً في هذا المجال المضطرب، فقد آن لنا أن نحرر مفاهيمنا ليس من مضمون فكر الآخرين، بل ومن وسائل وصول هذا الفكر إلينا.

وإذا كنا في الماضي قد اضطررنا إلى قبول مضامين هذا الفكر بحكم فرضها علينا. فقد أصبح من حقنا اليوم ـ وقد انتهت قوة الاحتلال الفارضة ـ أن نقف موقفاً استقلالياً واضحاً إزاء ما نقبله أو نرفضه.

ومن هنا كان لا بد من إلغاء النظرية القديمة التي وضعت في ظل النفوذ الأجنبي المسيطر بقوى الاحتلال ونفوذه، وأن يقوم مفهوم جديد للتعامل مع الفكر المستورد. وإذا كانت عقدة النقص في حياتنا الفكرية قد انتهت، هذه العقدة التي صورها ابن خلدون في قوله: «إن المغلوب دائماً مولع بتقليد الغالب». فقد حق لنا أن نتحرر في النظرة إلى كل تيارات الفكر الإنساني.

وقاعدتنا هي أننا نعيش دائماً بفكر مفتوح قابل لتلقي كل ما يقدمه الفكر الإنساني، كذلك كنا، وكذلك نحن الآن، ولنا تجربة سابقة غير أننا نقف من هذا الأمر موقف الإرادة القادرة على حرية الأخذ والعطاء وَفق نظرة استقلالية منبعثة من أعماق ذاتنا المريدة.

فنحن أولاً أمة لها شخصيتها ولها كيانها ولها مقوماتها الأساسية منذ وجدت، ولا تزال تصادم التيارات والأحداث، وتواجه الغزو العالمي ممثلاً في القوى العسكرية والحشود الحربية طوال تاريخها، ولا تستسلم. وتواجه الغزو الفكري والثقافي ممثلاً في الآراء والمذاهب والدعوات والقيم دون أن تغرقها هذه الموجات أو تقضي عليها.

ولقد كانت أمتنا دائماً قادرة على الحياة، طالما استمسكت بمقوماتها، وحافظت على شخصيتها. ولقد أكدت هذه الأمة دائماً حيويتها وذاتيتها وقدرتها على الحركة والعمل والتطور في مواجهة عوامل التجمد والتخلف والتوقف من ناحية الداخل وعوامل التطرف والغزو والسيطرة من الخارج. وكانت دائماً قادرة على المضي في موكب الحياة مزودة بقيمتها الأساسية التي لم تكن مصدر تخلف. بل كان التخلف نتيجة فعلية لانصرافها عن هذه المقومات، ومحاولتها مواجهة الحياة بدونها، وتكشف

كل الأحداث في تاريخها عن أن مصدر التخلف في حياة هذه الأمة وفكرها إنما جاء نتيجة لاندفاعها بعيدة عن مقوماتها، أو عندما خالفت ناموسها الأساسي. وقد أداها ذلك إلى العجز عن الحركة، وتوقف مقدرتها عن الأخذ والعطاء.

فالأساس الحقيقي لقيام فكر جديد هو مواجهة القديم والمستورد على أساس قاعدة أساسية تتمثل في مقوماتنا الحقيقية، وفي ظل شخصيتنا الأصيلة. هنا تصبح النظرة إلى التراث وإلى الوافد من الفكر الغربي صادقة وسليمة. فإن هذا الأساس هو الميزان الصادق والقانون الجديد لإقرار ما يبقى من التراث وما يقبل من الفكر الوافد.

١ - النظرة الى التراث

القول بأن «التراث» هو الشيء الميت اصطلاح غربي، فليس كل التراث فكراً ميتاً، وإنما يعني التراث جذور الحي، وقوائم الواقع وقواعد المنارات السامقة. فالتراث هو الأساس الذي حمل المقومات الحية التي ما تزال تتفاعل في مجتمعنا وفكرنا وحياتنا ألوف السنين، والتي لا سبيل إلى التخلي عنها.

ولو أننا تخلينا عن فكرنا كله للزم أن نستعين بتراث من ننقل منهم لنجعله قاعدة للفكر الجديد. والغربيون أنفسهم عندما أقاموا فكرهم الحديث، وثقافتهم المعاصرة التمسوا أسسها في مصادر ثلاثة هي: التراث اليوناني، والفكر الروماني، والمسيحية.

وما تزال هذه الأسس تحكم تطور الفكر الغربي، وتتصل به. وما من نظرية جديدة أو مذهب جديد إلا وله بهذه الجذور صلة.

لا يستطيع مثقف أو باحث فيلسوف أن يقدم نظرية جديدة دون أن يكون قد استوعب كل التراث، وامتصه، واتصل به اتصال الفرع بأصله. وما من نظرية في عالم الفكر الغربي، ولا فلسفة ولا مذهب إلا وهي استيعاب وتطوير للنظريات السالفة لها، الممتدة واحدة بعد أخرى

إلى الثقافات الثلاث اليونانية والرومانية والمسيحية. ولقد بلغ الغرب في تقديره للجذور مبلغاً لا حدّ له، بلغ حد التقديس حتى لقد اضطر الغربيون في سبيل الحفاظ على مقوماتهم الأساسية، والإصرار على ينابيعهم الخالصة أنهم أنكروا فضل الحضارات الشرقية القديمة على الفكر اليوناني، وعدّوا رحلة علمائهم وأدبائهم إلى الشرق ليس لها صلة مطلقة بالاقتباس من الفكر الشرقي القديم القائم على مواريث بابل وآشور والفراعنة.

والتراث العربي الإسلامي أولا ملك العقل الذي عاش في الشرق منذ بزوغ فجر هذا الفكر. شاركت فيه كل الثقافات الفارسية واليونانية والهندية، وتركت عصارتها في مضمونه بعد أن امتصها، وخلق منها على أساس من قيمه الذاتية، وملامحه الأصيلة فكراً عرف بهذه المنطقة وعرفت به.

فلا سبيل إلى التعصب في نسبة هذا التراث إلى المسلمين وحدهم، حتى يكون ذلك مصدراً لإنكاره وازدرائه. ويمكن القول بأن هذا التراث يتشكل من فصيلتين: فصيلة حية نابضة. هي كل ما يتصل بتكوين «الإنسان» وما يتصل بالاجتماع والضمير والأخلاق من دين وشرائع وقيم، في صورة نصوص يمكن الرجوع إليها، وبحثها. ولكنها إذا كان يصح القول يمكن أن تسمى بالتراث السائل المتحرك المتطور النابض بالحياة، المتفاعل مع الفكر والثقافة والمجتمع، والذي ما زال بالرغم من سقوط الشرق الإسلامي والأمة العربية تحت براثن الاستعمار حياً متفاعلاً.

أما الفصيلة الثانية المتصلة بالفنون والآداب والعلوم وما يتبعها من موسيقى وبناء ونحت وشعر وأبحاث في الفلك والكيمياء والجراحة والرياضيات. فهذه لا تمثل إلا علامة على دورنا في حلقات تطور الحضارة. ونحن إزاءها لا نطلب أكثر من الاعتراف بها وبأثرها وإيجابيتها، وبأنها لم تكن قط مرحلة نقل، وإنما كانت مرحلة بناء

وإضافة وتطور وإبداع .

ومن هنا كانت استحالة اعتبار الفصيلة الأولى من التراث ماضياً يمكن أن ينطوي ويموت وتسقط الحجب عليه، فتزيحه عن حياتنا الفكرية اليوم. إذ لا سبيل إلى ذلك عقلاً ولا جدلاً .

ونحن لا نقف من هذا التراث موقف الجمود، وإنما نتطور به، ونفتح آفاقه لكل مظهر جديد من مظاهر الحياة. لذلك إن سعينا أساساً، إنما نسعى لنواكب ركب الحضارة، ولا نتخلف عنه. غاية ما في الأمر أننا نواليه على صورتنا الأساسية، وبمقوماتنا التي لا تحول بيننا وبين الخطو الواسع إلى الآفاق المفتوحة .

ونحن ننظر إلى التراث بروح «طليقة» مرنة. وما دمنا لا نرفضه ولا نكرهه ولا نحتقره، فإننا نستطيع في حرية أن نأخذ منه وندع، وننقده، ونقول رأينا فيه صريحاً واضحاً: هذا الرأي الذي لا يتسرب إليه التحامل إذ العبرة بالرأي الأساسي في كل شيء . ذلك أن الشعوبية تحتقر تراثنا وتزدريه أساساً مهما حاولت أن تضفي على رأيها صفة العلمية، أو تداري موقفها منه بعبارة مجاملة، فهي لا تستطيع أن تخفي موقفها. أما نحن فلا ننكر تراثنا ولا نحتقره، بل نقف منه موقف الجزء الحي من كياننا. ومن هنا تكون نظرتنا له مرنة طليقة .

كذلك موقفنا من تاريخنا فهو في كثير من صفحاته مفخرة من مفاخرنا، وفي صفحات أخرى يرسم صورة فرقتنا وهزائمنا، ولكنا نقف منه جميعاً موقف التقدير والإعجاب بانتصاراته، والعبرة من هزائمه .

ونحن في هذا نرفض النظريتين: النظرية «القديمة» التي تؤمن بالتراث إيماناً أعمى. والنظرية «العصرية» التي تنكره إنكاراً تاماً، ونتخذ مذهباً وسطاً بين النظريتين، قوامها التقدير الكامل لتراثنا، والنظر إليه في طلاقة ومرونة. وليس من شيء في عالم الفكر القديم والحديث يمكن أن يؤخذ كله أو يترك كله .

والذين يدعوننا لأن نأخذ التراث كله كالذين يدعوننا أن نأخذ الفكر

الغربي كله. كلاهما مسرف في دعواه. ونحن في هذا نؤمن بالمدرسة الوسطى التي تقيم فكرها على أساس أصيل، وتأخذ من كل شيء بقدر ما يعطي شخصيتنا قوة النماء والتطور والحياة.

وليست هناك قوة تستطيع أن تنتزع أمتنا من روابطها الماضية، ومن تراثها. وليست هناك قوة تستطيع أن تفرغ أمتنا في قالب الثقافة الغربية، والفكر الغربي الخالص، فذلك أمر يخالف طبائع الأشياء ونواميس الكون. وللروابط بين القديم والجديد، وللحركة من الماضي إلى المستقبل قوانين لا تتخلف.

ونحن لا نعادي النزعة السلفية، ولا نرفض النظرة العصرية، ولكننا لا نقبلهما قبولاً أعمى، وإنما نعرضهما جميعاً على المقومات الأساسية التي ارتضيناها لفكرنا وشخصيتنا في رحابة صدر، صادقين في التقدير للسلفية والعصرية جميعاً، فهما وجهان لحقيقة واحدة.

وأمامنا في هذا تقدير كامل لتطور الإنسانية، فعجلة التاريخ ماضية لا تتوقف، وصورة الماضي لا يمكن أن تعود، ولا سبيل إلى أن يكون إعجابنا بمجتمع ما سبيلاً إلى إعادة تطبيقه. ولكن الصورة تستطيع أن تعطينا من ذخيرة التراث ما يضيف إلى حاضرنا قوة، خاصة، ونحن نقدر أن المقومات الأساسية متصلة مستمرة لم تنقطع ولم تتوقف.

ونحن لا نستطيع أن نتجاهل الماضي كلية في فكرنا العربي الإسلامي المعاصر، وإلا فإننا نفقد شهادة الميلاد وصحة النسب. والفكر الغربي المعاصر يقوم دائماً على شهادة ميلاده المتصلة باليونانية والرومانية والمسيحية.

فنحن في فكرنا المعاصر لا شك أننا نمثل حلقة من حلقات الفكر العربي الإسلامي الممتد. لم نفصل عنه، ولم نتحول عن أصوله الجوهرية. فإذا بلغنا فه النهضة، فلا يكون هذا ميلاداً جديداً، وإنما يكون مرحلة جديدة في خط متصل. وإذا امتصصنا اليوم عصارة من الفكر الغربي

(بشقيه) فإن هذا ليس غريباً عنا، فقد فعلنا ذلك من قبل، ولم يحولنا هذا عن ملامحنا الأصيلة، أو يفقدنا شخصيتنا أو مقوماتنا الأساسية .

وموقفنا من الفكر الغربي يقوم على أساس إيماننا بالأخذ والعطاء . فلقد أعطينا من قبل، فلا ضير علينا أن نأخذ، فقط نأخذ ونحن مسترشدين . لنأخذ ما نريد، لا ما يفرض علينا، وبمحض إرادتنا واختيارنا، وما نحتاج إليه وما يزيد شخصيتنا قوة، وحياتنا قدرة على الحركة والتطور .

١١ - وحدة الفكر

إن بناء أمتنا اليوم ليتطلب في الأهم الألزم تحديد مقوماتنا الأساسية، وذلك حتى نلتقي على وحدة الفكر التي هي لباب العمل وقاعدته حيث يستطيع البناء أن ينمو قوياً . إن أمتنا اليوم قد تحررت من الاحتلال العسكري والسياسي ، وتخلصت من عقدة « النقص » فانطلقت في مجال الصناعة والعلم التجريبي ، وأخذت تنظم مجتمعها على أقرب الأنظمة السياسية والاقتصادية انبعاثاً من واقعها . وقد التقى المشرق والمغرب العربيين ، وتحطمت القيود التى كانت موضوعة للتفرقة بين غرب آسيا وغرب أفريقيا . وبدا للأمة العربية صوت جهير وواقع واضح .

ومن هنا فقد جاء الوقت الذي لا بد أن تحدد هذه الأمة مقوماتها الأساسية، وتؤمن بها إذ لا بد من الالتقاء على وحدة الفكر أساساً كأمر بعيد الأهمية في بناء وحدة الأجزاء .

وليس الالتقاء على وحدة الفكر صعباً وعسيراً . بل هو يسيرٌ غاية اليسر إذا أخرجنا من تقدير تيارات الشعوبية التي تحاول أن تثير الشكوك والشبهات . فقد أثبت تاريخ الأدب العربي المعاصر منذ أوائل الاحتلال حتى الآن لمن تناوله ككل في العالم العربي من المحيط إلى

الخليج أن هناك التقاءً كاملاً على أسس واضحة، وأن الاستعمار بقواه وفكره ونفوذه، والاحتلال بسلطانه وغزواته وتياراته، ودعوة التغريب بسلطانها المبثوث في مناهج التعليم، ونفوذ الصحافة والتأليف لم تستطع أن تغير شيئاً كثيراً.

فنحن نلتقي حتماً على أسس واضحة قوامها الربط بين العروبة والإسلام بين الوحدة في مجال من يتكلمون اللغة العربية، والأخوة في مجال من يدينون بالإسلام. والإسلام هنا هو تلك القيم الفكرية والروحية، والاجتماعية التي عاشت عليها هذه الأمة بجميع عناصرها وأديانها، وتمثلت في جوهر ضميرها، ولم تكن هذه القيم مستوردة أو منقولة أساساً، ولكنها كانت نابعة من أعماق النفس والعقل العربيين معاً وهي عصارة التقاليد والعادات والقيم والمفاهيم التي تعارفت عليها هذه الأمة.

ونحن إذا تحررنا قليلاً من تلك المظاهر الغالبة، ورجعنا إلى الفطرة لوجدنا هذا الالتقاء واضحاً في عناصر فكرنا القائم على الدين والتاريخ واللغة والتراث، وعلى ذلك الامتزاج الواضح الذي يزاوج فيه بين الروح والمادة والعقل والضمير والعلم والدين.

هذه الوحدة تبدو واضحة في مضمون الفكر العربي الإسلامي، وفي الأمة العربية لا تتخلف ولا تتوقف.

وهي الأساس الأصيل لبناء وحدة الأمة، فنحن نؤمن بقيمنا الأصيلة أساساً لشخصيتنا ذات الطابع الواضح، وفكرنا ذي الملامح الصريحة القائمة على عناصر الدين والتاريخ واللغة والتراث ممتزجة متجمعة. هذا الفكر المفتوح المرن القادر على مواجهة الفكر الإنساني المعاصر في مختلف تياراته ومفاهيمه ودعواته مؤمناً بقدرته على «الامتصاص» لخير ما فيه دون أن يكون مستذلاً أو مستورداً مع رفض التبعية والولاء، متحرراً من كل سيطرة لثقافة أخرى عليه. فهو يمتص ما يزيده قوة، وما يدفعه إلى الحياة والتطور. ولقد كان فكرنا دائماً قادراً على ذلك.

متمسكاً من الحركة في ظل قاعدته الأساسية ومفاهيمه الأصيلة.

وعندي أننا لن نستطيع أن نقيم هذا البناء الوحدوي لأمتنا، إلا إذا التقينا على قاعدة أساسية نرتضيها مهما اختلفت الثقافات والمفاهيم في عملية المواجهة بالحضارات والثقافات العالمية.

ونحن إذ نحاول أن نلتقي على قاعدة وحدة الفكر نعرف تماماً اختلاف الثقافات في الوطن العربي وتضارعها، وكيف امتدت تيارات متعددة، ومذاهب مختلفة إلى أمتنا. ففي العراق ومصر والسودان غلبت الثقافة الإنجليزية، وفي المغرب كله وسوريا ولبنان غلبت الثقافة الفرنسية، وهناك كثيرون عرفوا الثقافةّ الأميركية. ثم انفتح الفكر الماركسي على الفكر العربي الإسلامي في أواخر الأربعينات، فأضاف تيارات جديدة. وقد تعلق كثير من شبابنا في العالم العربي بهذه المذاهب، وارتبطوا بها نتيجة للمعاهد الأجنبية التي تعلموا فيها، أو البعثات التي أرسلوا إليها فقد تصادف أنهم فعلوا ذلك دون أن يتزودوا بقوة قادرة تحفظ عليهم كيانهم الفكري، وذلك هو التعرف أولاً إلى المقومات الأساسية لفكرنا وأمتنا. ولو أن شبابنا تعرّف إلى هذه المقومات فآمن بها واعتنقها عقيدة فكرية وروحية ثابتة لما انزلق إلى هذا المذهب أو ذاك، أو اضطرب إزاء نظريات الفكر الغربي بشقيه. وعندي أن الذي ينقصنا أن يلتقي شبابنا منذ مطالع حياته بأصول فكرنا المستمدة من القرآن الكريم، ويؤمن بأن أمتنا لها شخصية ذاتية، خاصة، لا تمتزج بغيرها ولا تذوب، وأن يصدق الحب لها، ويؤمن بها. هنالك تقوم وحدة الفكر التي تجعلنا في حصانة إزاء التيارات والمذاهب والدعوات الغربية التي تتناوشنا من كل طريق، والتي لا نستطيع أن نغلق نوافذنا دونها، وإنما نواجهها غير متخلفين ولا تابعين، فنرى فيها على ضوء «قاعدتنا الأساسية» الرأي فنأخذ منها وندع ونحول خيرها إلى كياننا فنزداد به قوة. وبذلك نمتص ما في الفكر الإنساني من ذخائر وروائع وآيات دون أن نتحول عن قاعدتنا، هذه

القاعدة التي قامت أساساً على المقومات حية فيها قدرة على المرونة وفيها طابع الإنسانية، وفيها حيوية التطور والالتقاء من جميع البيئات وخلال كل العصور[1].

(١) بدا البحث عن علاقة الفكر الإسلامي بالثقافة العربية بهذا الفصل أساساً عام ١٩٦٤. وأوردناه هنا لتسجيل مراحل التطور في دراسة هذه القضية (١٩٧٠).

خَاتـمَة



خاتمة

قيم الفكر الإسلامي

أساس بناء الثقافة العربية

لكي تضع الأمة العربية خطة أساسية لإنشاء جيل قادر على حمل أمانة النهضة والسير بها إلى أبعد مدى، لا بد من فهم لمعاني هذه الكلمات التي يتحتم تجديد معانيها أساساً وهي:

١ - شرق وغرب ٢ - ثقافة وحضارة ٣ - تربية وثقافة وتعليم.

(أولاً)

١- (في الغرب) تقوم الثقافة على أسس ثلاثة: أدب اليونان - وحضارة الرومان - والمسيحية.

وقد كانت المسيحية بالنسبة له مستوردة «ليست من نبت بلاده. ولذلك قد صنعها على طريقته، ثم نحاها حين وقفت في وجه نهضته. وقد اعتمدت أساساً على روح «الوثنية» في الأدب والثقافة االيونانية والرومانية التي لا تؤمن بالتوحيد أساساً. وترى العلاقة بينها وبين الإله علاقة صراع، وتضع نفسها في موقف تحدي الله والطبيعة والحياة في معركة متصلة. ثم جاءت الحضارة الغربية قائمة على أساس النظرة العلمية المادية الأساس، منكرة الجانبين الروحي والغيبي إنكاراً تاماً. ومن الفكر الغربي المادي الأساس انبثقت الماركسية، فإذا كان الغرب هو مادية الفكر، فإن الماركسية هي مادية الحياة».

٢ - أما الشرق: فهناك الشرق المقابل للغرب. الشرق الروحي

الصرف في مقابل الغرب المادي الصرف. وهو شرق: الهند والصين واليابان المعتمد على مذاهب الكنفوشيوسية والبوذية والهندوسية. أما الشرق «العربي الإسلامي» فهو هذه المنطقة التي تتسم بروح الإسلام وطابع اللغة العربية. فإن فكرها عصارة مزيج الروح والمادة، والنفس والجسم، والدين والعلم، والعقل والقلب. ولذلك فإن انصهار الفكر العربي الإسلامي في الفكر الغربي أمر مستحيل لا سبيل إليه إلا في حالة واحدة. هي أن يتجاوز الفكر العربي الإسلامي عن مقوماته الأساسية.

(ثانياً)

١- من هنا تبدو ضرورة التفريق بين الثقافة والحضارة. فالثقافة هي (ضمير الأمة)، أما الحضارة فهي مظاهر حياتها. ولقد امتدت الحضارة الإنسانية منذ بابل وآشور ومصر الفرعونية في رحلة طويلة إلى اليونان والرومان، فالعالم الإسلامي من الأندلس إلى الهند. وقد شارك المسلمون والعرب في هذه الحضارة الإنسانية مشاركة فعلية بإنشاء المذهب العلمي التجريبي الذي كان أساس التطور الأخير للحضارة التي عرفت فيما بعد بالحضارة الغربية.

وقد بلغت الحضارة الآن ذروتها في الترف والرفاهية والمتاع المادي. وهي على هذا النحو ملك مشاع للأمم والشعوب والبشرية كلها تأخذ منها ما تشاء. وقد استطعنا بعد أن رفضنا الاستعمار أن نأخذ جانب القوة منها، وأن نصل إلى المدى في اقتباس الحضارة.

٢ - أما الفكر فلا سبيل لاختلاف المقومات الأساسية للأمم والشعوب. وقد اقتبست اليابان الحضارة منذ أواخر القرن الماضي دون أن تقتبس الفكر، وكذلك فعلت الهند. والواقع أن الفكر العربي الإسلامي يقوم على قيم ومقومات لها طابعها المخالف، والمتميز لوجهات النظر الغربية. وأبرز هذه المخالفات والمميزات: التوحيد وموقف الانسان بالنسبة للكون والحياة، ورعاية العرض والكرامة والشرف والفضيلة في مجال الروابط بين الرجل والمرأة.

٣ - ومن هنا تبدو روح «المادية الغربية» في التحرر من القيم الروحية، وإطلاق الغرائز، وإعلاء القيم المادية، وتعرية الإنسان، واعتبار دوافعه كلها مرتبطة على نحو مفاهيم «فرويد»، أو اعتبار أن الدين نبت من الأرض، ولم ينزل من السماء كما يقول: «دوركايم»، أو تغليب المصالح على القيم كما تقول فلسفة (الذرائع - البرجاتزم - وليم جيمس) وفصل الدين عن التربية والتعليم كما تقول فلسفة ديوي، أو أنه (لا إله والكون مادة) كما تقول فلسفة «ماركس».

٤ - كل هذه المقومات للفكر الغربي وشقه الماركسي، تختلف اختلافاً واضحاً عن مفهوم القيم الأساسية للفكر العربي الإسلامي. ومن هنا لم يكن ميسوراً أن نقتبس الفكر أو ننقله، وإنما يمكن أن ننظر فيه وندرسه ونناقشه على أساس أن تكون هناك أرضية فكرية للأمة قائمة على قاعدة من مقوماتها الأساسية في مفاهيم الدين والحياة. فإذا قامت هذه القاعدة أمكن إطلاق النظرة إلى الفكر الإنساني، والامتصاص منه بما يزيد شخصيتنا قوة، وفكرنا انطلاقاً، فنحن لا نغلق الأبواب أمام الفكر الإنساني، ولكنا نفتحها. ونحن معتمدون أساساً على قاعدتنا التي تحول دون انصهارنا في ثقافات الأمم أو تمييع هذه القاعدة بما يضعف من مقومات فكرنا وملامح شخصيتنا. وهو هدف التغريب والغزو الثقافي الذي يعمل جاهداً من أجل القضاء على هذه المقومات.

(ثالثاً)

١ - على ضوء هذه المفاهيم نستطيع أن ننظر إلى موضوع بناء الأمة العربية، وإنشاء جيل قادر على أمانة النهضة، وحماية البناء، وهنا تبرز ثلاثة مفاهيم أساسية هي: التربية، والتعليم، والثقافة بتركيبها الطبيعي.

« فالتربية » هي بناء التكوين النفسي والروحي والفكري للإنسان وتبدأ عادة من البيت.

« والتعليم » وهو بناء المفاهيم التي تؤهل هذا الإنسان للعمل العقلي أو

اليدوي أو الوظيفي في شتى مجالات الحياة: العلوم والآداب والقانون.

«والثقافة» هي توسيع مجالات الفكر والعلم والفن، وترقيتها وتعميقها بحيث تتيح له القدرة على المشاركة في تطويرها وإنمائها.

٢ - ومن هنا تتضح أهمية توجيه النشء في الميادين الثلاثة من أجل بناء جيل جديد قادر على حماية النهضة وحمل أمانتها.

ولن يتحقق هذا إلا بإتاحة الفرصة للجيل القائم الذي يشرف على الجيل الجديد بتقديم أكبر قدر من التوجيه والرعاية في هذا المجال.

(رابعاً)

وفي مجال «التربية» وهو المجال الأساسي والأعمق لبناء الإنسان تبدو الأسوة أو «القدوة» وهي الوسيلة الكبرى للعمل. فإذا لم تتوافر كانت هناك صعوبة كبرى في بناء الشخصية القوية القادرة. وإذا كانت البيئة لا تحقق صورة طيبة فيها مقومات الدين والخلق والفضائل والاستقامة والصدق كانت مراحل التعليم والثقافة أعجز عن أن تقدم ذلك.

٢ - وليس من شيء يستطيع أن يعطي الناشيء في هذا المجال، كما تعطيه «روح الدين» التي يمكن أن تقدم في صورة بسيطة يسيرة. وإذا نظرنا إلى شخصية الإنسان الذي نطمح في تشكيله، وجدنا أن أبرز ما نتطلبه فيه هو القدرة على مقاومة وسائل الإغراء حتى لا يتحول إلى الترف والمتعة، وينزلق إلى الشهوات والأهواء. وكل النهضات والحضارات التي عرفتها الأمم قد تحطمت تحت تأثير الانزلاق، فإذا أعطى الحضانة بالتربية الإسلامية لم تستطع مؤامرات الهدم أن تقضي عليه. واستطاعت شخصيته المتماسكة أن تقاوم، ولا شيء يستطيع أن يصنع هذا الجيل غير التماسك الروحي والخلقي، وأن يتم ذلك بغير الانقطاع عن الشهوات ليس قطعاً هو إلغاء جانب الرفاهية في حياة الجيل. فذلك ليس مما يمنع، بل مما يجب أن يبقى، وإنما يحميه ولا يجعله غاية وجود - روح

الدين - فالدين يعطي قوة الروح ويدفعها في سمو عن الإغراء واللذات العارضة، ويحمي من الانزلاق أو الرخاوة، ويعطي تلك الطبيعة القادرة على التماسك والصلابة.

٣ - وبناء الشخصية على أساس القيم الروحية والفكرية والاجتماعية النابعة من الفكر العربي الإسلامي يستطيع أن يعطي هذه القوة، ليس فكر الانعزال والسلبية، ولكنه الفكر الذي يجمع بين العقل والروح، والعاطفة والعقل والدين والعلم. فهو يؤمن بحقه في الحياة، ولكنه لا يجعل المادة غايته، وهو يرى له حقه في الحياة، وحفاظه على ما يملك من مقدرات، وإيمانه بأن الاستشهاد في سبيل عرضه وماله وأرضه، كل هذه دعائم تدفعه إلى حماية الأمانة وحمل لواء النهضة.

(خامساً)

والحق أنه عندما تطلعت الأمة إلى فجر اليقظة كانت تحمل أملين كبيرين:

الأول: بناؤها من جديد، وإعطاؤها قوة للحركة والاندفاع في مجال الحضارة حتى تصل إلى مستوى الأمم الراقية.

الثاني: بناء شبابها على نحو يمكنه من حمل أمانة النهضة والقدرة على مواجهة كل التحديات.

ذلك أن النفوذ الأجنبي الذي سيطر على هذه المنطقة إنما كان يهدف إلى جعل هذه الأمانة تابعة لأسواق الغرب ومصانعه واقتصادياته. ولما كان ذلك عسيراً بالدرجة الأولى لما تملك هذه الأمة من مقومات فكر وشخصية وتاريخ وتراث، فقد كانت حملته الكبرى موجهة نحو القضاء على هذا الكيان والتشكيك فيه، وإذابته وتمييعه، وإحلال قيم جديدة غربية في مكان قيمه الأساسية.

ولقد كانت هذه الأمة بمقوماتها قادرة على صد كل عدوان، والدفاع

عن نفسها ضد كل مغير، لا تقبل أبداً السيطرة أو العبودية، فقد أعطتها «قيمها الأصيلة» معيناً نابضاً بالحيوية من الحرية والقوة والكرامة. كما منحتها كل هذه المقومات القدرة على الحركة في حيوية مكنتها دائماً من تقبل الجديد فلم تقف يوماً موقف الجمود إزاء التطور، ولم تتخذ موقف التخلف أمام الفكر الإنساني الوافد من الشرق أو الغرب. بل كانت لها القدرة على مواجهة هذا الفكر وتقويمه، وامتصاص ما يزيدها قوة على الحياة والحركة دون أن تكون مستوردة أو تابعة.

وقد كانت دائماً تأخذ مكانها في الصدارة والقيادة، وتستمر فيه ما حافظت على مقوماتها الأساسية. هذه المقومات التي مزجت في دقة وقوة بين الروح والمادة والعلم والدين، والعقل والوجدان. وكان هذا طابعها الواضح الذي يعطيها «ملامح شخصيتها» المتميزة عن غيرها، فإذا ما تخلت عن مقوماتها الأساسية واجهت الأزمة والتجميد والانهيار.

ومن هنا كانت مؤامرة «التغريب» التي فرضها النفوذ الأجنبي على هذه الأمة من أجل القضاء على مقوماتها. هذه المقومات التي تحمي الأمة من الموت أو الانسحاق أو التبعية. فلقد كان الغرب يصر دائماً على أن هذه الأمة لا تستطيع أن تصبح في مصاف الدول الراقية، إلا إذا أخذت «حضارة الغرب» وكان الغرب حريصاً على ألا يعطيها هذه الحضارة إلا مرتبطة بثقافته وفكره ومفاهيمه. وكان يظن أن الحضارة ملزمة لنا بفكرها وثقافتها، وأن على الأمة أن تأخذ قيم الغرب في الفكر حين تعد نفسها لحضارته.

غير أن هذه الأمة كانت مؤمنة أساساً بأن «الحضارة» ليست ملكاً للغرب وحده، وإنما هي ملك للإنسانية كلها. وقد شاركت فيها من قبل، وبنت في كيانها حائطاً عريضاً. بل إن جذور هذه الحضارة كانت من صنعنا، وان دورنا في إنشائها كان كبيراً، فضلاً عن أنها ليست حضارة الغرب وحده، بل هي عصارة الثقافات والحضارات التي صنعتها مصر وبابل وآشور واليونان والرومان والعرب والمسلمون جميعاً.

وأن هذه الحضارة باعتبارها: تلك النهضة العلمية في مجال التكنولوجيا والآلة والكشف والصناعة والذرة، فإنها تستطيع أن تنتقل من مكان إلى مكان دون أن يترتب على ذلك استيراد المذاهب والنظريات والمقومات الفكرية، وان لكل «أمة» فكرها ومفاهيمها، وقيمها ومقوماتها الأساسية التي تستطيع بها أن تصنع نهضتها، وتقيم عليها بناء حضارتها. وقد فعلت ذلك اليابان من قبل وكذلك فعلت الهند.

(سادساً)

كان هذا الفهم القائم في ضمير أمتنا في مطالع اليقظة وفجرها. وكان ذلك تماماً هو المعنى القائم في روح فكرها، هذا الفكر القائم على ذلك المزيج المتسق من الروح والمادة، والعلم والدين، والعقل والوجدان. كان هذا هو التحدي الأول ليقظتنا، تحدي النفوذ الغربي الذي كان حريصاً على العمل للقضاء على القاعدة الأساسية لأمتنا.

وقد استطعنا بناء الحضارة الجديدة على المقومات الأساسية لفكر الأمة وروحها. وبذلك حطمنا النظرية الكاذبة التي عاشت على أقلام دعاة «التغريب» سنوات وسنوات وهي أن استيراد الحضارة لا بد أن يمتزج به استيراد الفكر والثقافة.

ونحن نرى اليوم أننا قد أصبحنا في مجال النهضة العلمية والصناعية، وفي مجال الآلة، والكشف والصناعة والذرة والصواريخ التي تسبق سرعة الصوت على قدم المساواة مع الحضارة الغربية.

ومع ذلك فقد أقمنا ذلك البناء الحضاري على مقومات «فكرنا العربي الإسلامي» الواضحة المعالم دون أن نستبدل قيمنا الروحية والفكرية والاجتماعية بقيم الغرب.

وهذه هي معجزة مقوماتنا القادرة على أن تأخذ «الحضارة» في أعلى درجاتها، ثم تبني حياتها على أساس قاعدة عريضة من فكرنا وقيمه.

ولقد حقق هذا تحررنا من «العقد النفسية». فلقد كنا ننظر إلى

الغرب نظرة الإكبار، وننظر إلى أنفسنا نظرة القلة. وكنا نجري وراء الغرب نقلده في سذاجة على قاعدة ابن خلدون التي تقول: «إن المغلوب مولع بتقليد الغالب».

أما اليوم فقد انحلت هذه العقدة. فقد أخذنا «الحضارة» وأصبحنا نقف فيها على نفس المستوى الذي تقف فيه الأمم المتحضرة، ولم يعد هناك سبيل لذلك الإحساس بالقصور الذي كان يدفعنا إلى «التقليد» ولنا من مقومات فكرنا فيض غزير من «القيم» التي تنشىء الأجيال، وتصنع الرجال وتبني القيادات في مختلف المجالات.

وليس معنى هذا أننا وقد بلغنا مكان الأمم المتحضرة أن نغلق فكرنا، فما كان ذلك شأننا أبداً خلال تاريخنا الطويل الخصب، بل كنا دائماً نأخذ ونعطي بفكر مفتوح، قادر على أن يواجه في ظل قاعدته ومقوماته الأساسية كل فكر، فيأخذ منه ما يزيده قوة وحياة، ويمده بالقدرة على الحركة والتطور.

وبذلك تبدو الصورة واضحة «أمة تبنى على أساس من قيمها ومقوماتها» لتكون مناراً عالياً يعلو فيه من جديد صوت الشرق واسمه. ومن هنا كانت المرحلة القادمة من البناء غاية في الأهمية.

(سابعاً)

ذلك هو بناء «الإنسان» الذي يعطي هذه النهضة «قوة الاستمرار» وقوة الروح الإنساني الذي سيحمي هذه الحضارة. ولطالما كان بناء «الإنسان» هو الصعب العسير. هذا الجيل الجديد، سيكون أحوج بالدرجة الأولى إلى مفاهيم أمته وقيمها الروحية والفكرية والاجتماعية لتكون أساساً وقاعدة لنظرته إلى الأمور، وتقويم المذاهب والنظريات، حتى لا يكون مستورداً أو تابعاً، أو ضائعاً في متاهات الرؤى والطوبيات، فهو إذا عرف قدر ميراثه وتراثه وقيمه أحس بكرامته، وعرف أثره في بناء الحضارة، وتطوير الإنسانية، فلا يعتوره الشعور

بالنقص ولا القصور، ولا يجده مضطراً لأن يندفع وراء بريق الفكر الوافد من الشرق أو الغرب الذي لن نغلق أمامه الأبواب، وسيظل بين أيدينا نأخذ منه وندع حسب حاجتنا، ووفق مفاهيمنا، وعلى ضوء ملامح شخصيتنا الأصيلة. إن بناء «الإنسان» سيعطي هذه النهضة قوتها على البقاء والاستمرار. هذا الجيل الجديد الذي سيحمل على أكتافه أمانة الحضارة الجديدة، لا بد أن يكون قائماً على قاعدة ضخمة عالية من الإيمان بالله ووطنه وأمته وقيمه، مفطوماً على الشهوات، محرراً من المفاهيم الخاطئة مبـرأ من شبهات الفكر وشكوك العقيدة، طامحاً مؤمناً. إن المقومات الأساسية التي اتخذناها قاعدة لبناء أمتنا، ستكون نفس المقومات التي تكون قاعدة بناء الإنسان. وإن شباب هذه الأمة في ضوء مفاهيم فكرنا العربي الإسلامي سيكون متحرراً من «أزمة الفكر». كما تحررت الأمة من «أزمة الحضارة». سيجد من مفاهيمه الأساسية ما يهديه إلى بناء كيانه قوياً حياً قادراً على حمل الأمانة وحماية النهضة. سيتحرر هذا الشباب من الانحلال والترف والمادية، ويسترد ثقته بالقيم الفكرية والروحية والاجتماعية.

(ثامناً)

والتربية أصلاً هي تنمية الكائن الحي حتى يستكمل جميع خصائصه. وذلك بتهيئة العوامل الضرورية لنموه. والتربية علم غايته النهوض بالإنسان إلى مرتبة تمكنه من الكمال من حيث سلامة جسمه، وتفتق عقله واتساع تجاربه. وفي فكرنا العربي تتميز التربية بطابع خاص أبرز ملامحه تأديب النفس، وتزكية الروح، وتثقيف العقل، وتقوية الجسم، فهي تربية دينية خلقية صحية جسدية، ممتزجة متكافئة لا يبنى نوع منها على حساب الآخر. والتربية في الفكر العربي هي تهذيب الشخصية، وتزويد قواها الفكرية، والبدنية بكل ما يصلحها للعمل والعلم، فتجمع قوة البدن إلى قوة الروح. وتقوم التربية الحقة أساساً على الاعتماد على النفس والكرامة، وحرية الإرادة، والجرأة الأدبية، والصراحة والصدق،

والاستقامة في الرأي والعمل. وتتمثل آداب المعلمين في الفكر الإسلامي في عدة مقومات:

(١) قدرة المتعلم على السؤال والبحث عن الحقيقة.

(٢) الرفق بالمتعلمين وتفهيمهم بالقدوة.

(٣) تقديس حرية الرأي وتفهم الأحكام فهماً صحيحاً.

وفي الأثر: علموا ولا تعنفوا فإن المعلم خير من المعنف.

وقد أشار عمر بن الخطاب إلى حرية الرأي في حديثه مع القاضي حين دعاه إلى الفهم لما يتلجلج في الصدور ومعرفة الأمثال والأشياء، وقياس الأمور عليها دون أن يمنع ذلك من مراجعة النفس في أي رأي إن وجد من الحق ما يرده عنه.

ونظرة الفكر العربي الإسلامي إلى التربية منطلقة غير متزمتة. فالأخلاق ليست قيوداً، ولكنها وسائل لتنظيم الحرية، وهي لا تعيق التطور بقدر ما تحفظ الشخصية الإنسانية من الانهيار والضعف والرخاوة. وليس في فكرنا العربي زهادة ولا انعزال ولا موانع تحول دون المتعة بحقها، ولكن جوهر فكرنا يؤمن بالاعتدال، فهو لا يبيح الاندفاع ولا العنف، ولا أخذ شيء بغير حقه، ووسائطه الطبيعية المشروعة.

وليس صحيحاً في قيمنا الانفصال بين العقيدة والأخلاق، فليس من المنطق أن يستجيب الناس للعقائد، ثم لا يتحقق التطبيق في مجال الالتزام الأخلاقي. والإنسان السليم في نظر فكرنا العربي مزيج متوازن من العقل والروح والعاطفة والغريزة لا يطغى فيه جانب على جانب.

لا «ميكيافيلية» في سلوكنا المستمد من مقومات فكرنا العربي، فنحن لا نخدع ولا نقول بالغاية التي تبرر الواسطة. إن نظرية «لا أخلاقية السياسة» نظرية وافدة وفكرنا لا يقبلها.

وقد أشار كتاب «التربية الإسلامية في العصور الوسطى» إلى مفهوم التربية في الفكر العربي فقال: إن التربية العربية تهدف إلى نشدان الحقيقة والخير لذاتها. وعندما ندرس سير العلماء المسلمين الذين انقطعوا للعلم نعجب بالتصوف العلمي والجلد اللذين كانا يتجليان. فلا غرض مادي، ولا هوى سياسي، ولا سعي لشهرة زائلة، بل وقف العقل والنفس للوصول إلى الحقائق والسعي إليها. وإن التربية في مفهوم الفكر العربي كانت تعنى بالأخلاق والفضائل. وقد أدرك المربون بالبداهة أن تدريب العقل، واستيعاب الحقائق إنما هي جزء من عملية تدريب الطالب، ولكن الغاية القصوى هي تهذيب النفس وتقويم الأخلاق.

وقد كان فهم العلماء والمربين في الفكر العربي أرضية لأحدث النظريات العالمية في التربية. وليس غريباً أن يقال إن الفكر الإنساني يحاول اليوم الاهتداء بالنظرية العربية والانتفاع بها بعد أن لم تحقق تجارب «ديوي» الغاية من بناء الشخصية الإنسانية. فديوي لا يرى «الدين» إلا نتاجاً للظروف السيئة من الحياة. فلا يذكر الإنسان ربه إلا في الأزمات، وحالات الضعف، وعنده لذلك أن الدين لا يصلح لأن يكون من مقومات المدنية ولا التربية.

وقد جرى في ذلك على مفهوم الإغريق الذين دعوا إلى تحرير التربية من العقيدة. وبالرغم من أن نظرية ديوي لم تحظَ بالإقرار من دوائر التعليم والتربية في مهادها وبلادها، فإنها نقلت إلى العالم العربي في ظل فترة احتلاله، وسيطرة النفوذ الأجنبي عليه. والمعروف أن شعار الجامعات في أوروبا وأمريكا «الدين والمعرفة» وأنه قلما تخلو جامعة هناك من كنيسة تقام بها صلاة الصباح، وهي ما تسمى صلاة التوجه إلى الجامعة.

وقد واجهت نظرية «ديوي» في التربية معارضة ونقداً في بيئتها الأساسية فنشرت مجلة تايم نيو مجازين في (١٩٤٨/٣/٣١) بحثاً

أشارت فيه إلى فشل نظرية ديوي القائلة بأن الله والفضيلة كلها غايات قابلة للنقاش والجدل، ومن ثم فلا جدوى من مناقشتها وفي مكانها يجب أن تحل غايةأخرى هي «الانسجام مع الحياة». وقالالكاتب إن الطلبة قد انقطعت صلاتهم بتقاليدهم، وأن هناك حاجة كبرى إلى التفكير في الأهداف السليمة للتربية، وأنه لا بد أن يكون هدف التربية الأول تزويد الفرد بثقافة صحيحة تقنعه بأن هناك تاريخاً وأهدافاً وراء هذه التربية.

(تاسعاً)

فالفصل بين التربية وأبرز مقومات الفكر العربي هي نظرية الاستعمار. ومعنى عزل مقومات فكرنا عن التربية والتعليم هو: بناء شخصية هشة طرية لا تملك القدرة على حمل أمانة النهضة، أو مقاومة الأخطار التي تراد باليقظة، أو مواجهة وسائل الإغراء، أو مؤامرات القضاء على الحريات.

ولقد كان النفوذ الغربي قادراً على أن يدمر الأمم التي يسيطر عليها عن طريق واحد هو: إباحة الترف والمتع والشهوات والأهواء دون أن يكون لهذه الأمم من مقومات ما يدفعها إلى التماسك، أو يردها عن الانزلاق. وإن مؤامرات القضاء على نهضات الأمم تأتي من طريق واحد هو: تدمير عناصر التماسك في شخصية شبابه، ودفعه إلى مغريات الغرائز والملذات. ومن هنا يعجز عن مواجهة الخطر. والأمة العربية اليوم حين تصنع نهضتها الجديدة في مواجهة تحديات الغزو الثقافي الأساسية لا تكون محتاجة إلى شيء قدر حاجتها إلى الارتباط بمقومات فكرها لتخلق ذلك التماسك الروحي والخلقي الذي يحقق الانفطام عن الشهوات. ولا يعني هذا إلغاء الرفاهية أو المتعة، وإنما الحماية من الانحراف والانحدار، وألا تكون هذه المتعة هي غاية الغايات. فجوهر القيم الأساسية لفكرنا العربي تعطي قوة الروح وتدفع النفس للسمو عن الإغراء واللذات العارضة، وتحمي من الانزلاق والرخاوة، وتعطي

الطبيعة القادرة على التماسك والصلابة، لا عن قوة البدن أو معدات المقاومة ولكن عن قوة الإيمان.

(عاشراً)

فالتربية في مفهوم الفكر العربي الأصيل على هذا النحو تعطي «الوسطية» المعتدلة دون أن تذهب النفس الإنسانية وراء الزهد والسلبية، ولا تندفع وراء المادة واللذة الخالصة، وتجمع بين العقل والروح. ولقد عاد الفكر الغربي ليلتمس من الفكر العربي مفهومنا في التربية، فتقول جريدة التايمز اللندنية في مجال إعادة النظر في أمر التربية «إن اساس تكوين المواطن الصالح هو: شخصية صحيحة متسقة، ولكن كيف تكون شخصية الفرد دون اعتبار لآرائه ومعتقداته؟ إن الدين هو أسمى أنواع المعرفة، ينبغي أن يعطى ـ في صراحة وفي غير مواربة ـ أسمى مكان في التربية».

ومن حقنا هنا أن نصحح بعض المفاهيم. فقد حاول كثير من كتاب الغرب أن يصوروا أنهم أول من دعا إلى مجانية التعليم. والواقع أن الفكر العربي الإسلامي هو الذي أعلن هذا الحق مبكراً قبل أربعة عشر قرناً، كما حاولوا أن يكونوا أصحاب القول (بالعلم من المهد إلى اللحد) وهي عبارة نبي الإسلام محمد ﷺ «اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد». وفي القرن الرابع للهجرة كتب العلامة: «أبو الحسن القابسي» دراسته في التربية والتعليم المسماة «رسالة أحوال المعلمين والمتعلمين» ونادى فيها بأمرين سبق فيهما علماء التربية في العصر الحديث وهما:

(أولاً) أن التعليم حق لكل صبي، واجب على الدولة، وهي مكلفة به، فإذا لم يكن أهل الصبي قادرين على الإنفاق عليه، ودفع أجر معلم الكتاب، كان لا بد أن ينفق عليه من بيت مال المسلمين.

(ثانياً) تعليم البنات: تمثلاً بقول الرسول محمد عليه الصلاة والسلام «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة».

وقد تناول عدد من أعلام الفكر العربي الإسلامي موضوع التربية، فوضعوا أسسها التي ما تزال مناراً يهتدي به كل باحث. وبذلك سبق الفكر العربي الإسلامي إلى «تقنين» أصول هذا الفن، وفي مقدمة هؤلاء: ابن سينا، والغزالي، والعبدري، وابن خلدون. فقد دعا ابن سينا إلى أن يكون أساس التربية مراعاة ميول الأطفال واستعدادهم، وأن يكون التأديب بطريقة يتجلى فيها الحزم الممزوج بالرفق، وأن يجنب الصبي معايب الأخلاق بالترهيب والترغيب، والإعراض والإقبال. ويرى الغزالي أن كل تربية لا ترمي إلى ترقية الخلق السامي وتقويته ليست جديرة بهذا الاسم، والعلم وحده لا يغني بدون الأخلاق، والتربية الخلقية هي في الواقع تربية اجتماعية، ويجب أن لا ينظر إلى الخلق على أنه شيء شخصي محض، لا يهم سوى صاحبه. وإذا كان الغرض من العلم كسب المعيشة وحده، فإن ذلك يضيق الأفق العقلي، ويحرم المرء الترقي الصحيح، فالمهارة في فن ما إذا كانت مقرونة بفساد الخلق وضعف في النفس لا تكسب صاحبها راحة البال، ولا تجعل الناس تقدره قدره.

(حادي عشر)

ومن هنا يبدو بوضوح أن إحداث نظريات التربية الحديثة هي من منهج الفكر العربي الذي كان له أصالة إقرار منهج «البحث العلمي الحديث».

ومنذ وقت طويل ونحن نسمع صيحة تدعونا في العالم العربي إلى اصطناع المنهج العلمي الحديث الذي اتخذه الغرب، وذلك لتطبيقه على الفكر والتاريخ والأدب العربي. وتقول هذه الصيحة: إن المنهج العلمي الحديث له قواعد أصيلة أساسها البحث والملاحظة والاستقراء ويقتضي المذهب أن تمحو من نفسك كل رأي، وكل عقيدة سابقة على البحث، وأن تبدأ بالملاحظة والتجربة بالموازنة والترتيب، ثم الاستنباط القائم على المقدمات العلمية للوصول إلى نتيجة علمية خاضعة للبحث والتمحيص.

والواقع أن الغرب لم يكن هو الذي دعا إلى هذا المنهج، وإنما كان قد اتخذ أساساً له من مذهب الفكر العربي الإسلامي في البحث الذي دعا إلى العقل والبرهان: «قل هاتوا برهانكم». والإقناع بالحجة، وتقديم العقل على ظاهر النص. وقد جرى الإمام الغزالي على هذه الطريقة. حيث أعلن في كتبه أنه جرد نفسه من جميع الآراء، ثم فكر واستدل، حتى وصل إلى ما وصل إليه من رأي على أساس الدليل والبرهان.

ولذلك فإن ما ادعاه الغرب من إيمان المسلمين والعرب بالعقلية الغيبية محض افتراء لا أساس له. فقد وصفت العقلية العربية بأنها جزئية تنتقل من الجزء إلى الجزء الآخر، دون أن تربط بين الأجزاء، ولا تبحث في المقدمات والنتائج، ولا تعنى بالتحليل. وهذا ما لا يتفق في الحق مع مقررات العقل العربي الإسلامي، ولا الفكر العربي عامة الذي أثبت على طول القرون علميته وبراعته في الشك والنقد، والبحث على البرهان للوصول إلى الحقائق على أساس المنطق والمقدمات والنتائج، ووفق أسلوب التحليل. ويصور ابن رشد منهج البحث العلمي العربي فيقول: يجب علينا إذا ألقينا ممن تقدموا من الأمم السالفة نظراً في الموجودات، واعتباراً لها بحسب ما اقتضته شرائط البرهان أن ننظر إلى هذا الذي قالوه من ذلك، وما أثبتوه في كتبهم، فما كان منها موافقاً للحق قبلناه منهم وسررنا به وشكرناهم عليه، وما كان منها غير موافق للحق نبهنا عليه، وحذرنا منه وعذرناهم. إن كل ما أدى إليه البرهان والعقل وخالفه ظاهر الشرع، فإن ذلك الظاهر يقبل التأويل.

ويقول الإمام الشافعي في تصوير منهج البحث العلمي: إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون منه. لقد أدركت سبعين ممن يقولون: قال رسول الله عند هذه الأساطين، فما أخذت منهم شيئاً. وإن أحدهم لو اؤتمن على بيت المال لكان أميناً، إلا أنهم لم يكونوا من أهل هذا الشأن[1].

---

(١) اقرأ هذا البحث بتفصيل أوسع في كتابنا (أضواء على الفكر العربي الإسلامي).

وهذا كله يعني أن يقوم البحث العلمي على أساس تقدير أهمية من يحمل العلم والقدرة على فحص النصوص ومطابقتها للحق على أساس البرهان والعقل. وبذلك وضع الفكر الإسلامي العربي قواعد البحث العلمي وأصول التفكير وحصرها في الملاحظة والاستقراء وتحكيم العقل.

(ثاني عشر)

وقد أعلن الفكر الإسلامي نظرية المعرفة قبل الفكر الغربي بسبعة قرون. هذه النظرية القائمة على أساس الاختيار المحسوس والاستقلال والتجربة دون التقليد.

قال ابن حزم: إن المعرفة تكون أولاً بشهادة الحواس. أيّ باختيار لما تقع عليه الحواس، وما يقول العقل. أي بالضرورة من غير حاجة إلى استعمال الحواس الخمس، وببرهان راجع من قرب أو بعد إلى شهادة الحواس، وأولها العقل.

وقال ابن حزم: «إن التقليد حرام» وعلى أساس نظريته التي هي من صميم الفكر العربي خالف كثيراً من الأقوال التي كانت معتمدة في زمنه. وهو القائل بأن الغرض من الفلسفة والشريعة، إنما هو «إصلاح النفس».

وفيما يتصل بهذا، يضاف ما عرف الفكر الإسلامي من أصول النظريات السياسية المستقلة عن الفكر الإغريقي والروماني. وقد سبقت ما أنتجه العقل الأوروبي.

وقد صور الغزالي في كتابه «المنقذ من الضلال» أسلوبه العلمي في فهم الإسلام فأشار إلى أنه لم يقتنع بالدين التقليدي، واتجه إلى أن يعلم حقائق الأمور، وأن يبني دينه على يقين: ولذلك بدأ بالشك في كل ذلك، حتى يقوم البرهان على صحته. وقال بالنص: كل ما أعلمه على هذا الوجه، ولا أتيقنه هذا النوع من اليقين، فهو علم لا ثقة به، ولا

أمان معه. وكل علم لا أمان معه فليس بعلم يقيني. وتطبيقاً لنظرية «المنهج العلمي الإسلامي» نقد الفيلسوف «النظام» آراء أرسطو كما نقدها «الجاحظ» أيضاً ونقد «البيروني» نظريات اليونان والهند في الرياضيات. ووقف ديكارت موقف «الغزالي» في كتابه «المنقذ من الضلال».

وقد تحدث العلامة (بريفليف) في كتابه «البحث العلمي» عن دور العرب. فأكد أن الطريقة التجريبية هي من صنع العرب وحدهم لم يسبقهم إليها باحث أو مفكر. وقال إن كل ما علمه «بيكون» أنه كان تلميذاً مخلصاً للمسلمين، فتلقى أفكارهم، كما تلقى منهم الطريقة التجريبية التي ابتكروها، ونقلها إلى أوروبا المسيحية، وظل يعترف بهذا دون ملل، وكان يؤكد أن علوم المسلمين كانت له ولمعاصريه الطريق الوحيد للثقافة الصحيحة. وقال (بريفليف) إن محاولة إسناد الطريقة التجريبية لغير العرب ليست إلا حلقة من حلقات التضليل، وليست إلا تصحيفاً في فهم المصدر الحقيقي للحضارة الأوروبية. ومن المؤكد أن (بيكون) لم يبتكر الطريقة التجريبية كما يدعي المتأخرون. وقال: إنه لا يوجد جانب واحد في الحضارة الأوروبية دون أن تكون ثقافة المسلمين واضحة التأثير فيه. وان تأثيراً أخطر وأوضح في الروح العلمية، وفي الدراسات التي تحتاج إلى التجارب لإثباتها.

(ثالث عشر)

وبعد: فهل طبق الغرب منهج البحث العلمي الحديث عندما بحث تاريخ الإسلام وفكره وأدبه ولغته؟ وهل تجرد كتاب الغرب، ومحوا من أنفسهم أحقادهم وخصوماتهم عندما نظروا إلى هذا الفكر الغني الخصيب؟ لقد عجز العلماء والكتاب الغربيون عن أن يطبقوا هذه النظرية التي نقلوها من المسلمين ثم ادعوها لأنفسهم عجزوا عن تطبيقها في كل ما يتصل بالعرب والمسلمين والقرآن، واعتمدوا على الأهواء،

وفرضوا فروضاً ثم بحثوا عن أدلة عنها.

يقول الدكتور «حسين الهراوي»: إني لأعلم أن المستشرقين ينقصهم في مباحثهم عن الإسلام الروح العلمية، وأن لهم في الاستقصاء طريقة لا تشرف العلم، وهي أنهم يفرضون فرضاً، ثم يلتمسون الدليل عليه. فإذا وجدوا في القرآن ما يهدم نظريتهم تجاهلوه، والتمسوا الآيات التي تناسب المعنى المراد. ولا مانع من بترها إذا اقتضى الحال، أو تحريف معناها حسب الرغبة، فيخرج القارىء من كلٍ منهم وهويتهم الإسلام بالتلفيق.

والحق أن الغرب كان ظالماً مرتين:

أولاً: عندما ادعى انه صاحب المنهج العلمي.

ثانياً: وعندما عجزت أهواؤه عن أن ترده إلى الحق في تطبيق المنهج العلمي على الفكر الإسلامي.

(رابع عشر)

يقودنا هذا إلى مراجعة قضية البحث عن الجذور والارتباط بأسس قيمنا ومفاهيمنا. فقد كان من أبرز الدعوات الوافدة على عالمنا العربي منذ الاحتلال الغربي في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، دعوى أن الاتصال بالماضي مذمة، وأن الأمم الناهضة قد انفصلت عن ماضيها، وأن استمرار الارتباط بالماضي يعوق التقدم، ويحول دون بلوغ الأمة المكانة المرموقة في ركب التطور.

وقد حلت هذه الفكرة أقلام دعاة التغريب، والحادين في ركبه ممن يكتبون باللغة العربية. ومضت تزين الدعوة، وتحاول أن تعززها بأكاذيب خادعة، حتى خلقت في الجيل الذي نشأ في ظلها عقدة الاتصال القديم كأنما هو شيء مزدرى.

وبذلك نشأ في الأمة العربية جيل سطحي يجري وراء البريق، ويأخذ

بالقشور ويحاول أن يقلد الغرب. فإذا قرأ لم تمتد يده إلى تلك الكلمات الساخرة بأمجاد أمتنا، المحاولة بث الشكوك والأوهام بالأديان والقيم والمثل العليا الجارية وراء الأهواء والأوهام والخرافات والأكاذيب الخادعة.

وعلا صوت موجة الانفصال عن الماضي والتنكر للقديم على كل صوت، فقد كانت تحملها صحف ضخمة الاسم، ذائعة، تدخل كل قطر من الأقطار العربية تكتب بها أقلام شهيرة. فكان للدعوة في نفوس الشباب المتطلع أثر عميق.

كان ذلك في الثلاثينات من هذا القرن. ودعوة «التغريب» التي يقوم بها مفكرو الغرب على أشدها. غير أن الوقائع كذبت هذه الدعوة وأنكرتها.

فقد تبين أن الغربيين الذين يحملون هذه الدعوة إلينا لا يؤمنون بها في بلادهم. وأنهم هم أنفسهم لم ينفصلوا عن ماضيهم، ولم يقطعوا علاقتهم به. بل إنهم حينما بدأوا حياتهم الجديدة في عصر النهضة (الرينسانس) جعلوا من التراث اليوناني في (الأدب) والروماني في (القانون) قاعدة أصيلة أكدوها، ووقفوا عندها طويلاً، وجددوا أساطيرها القديمة التي علاها الغبار فأحيوها بأسلوب حديث، وعلى نحو مثير يأخذ بالألباب في إخراج جميل، وإعداد يسير، وصور وأغلفة جميلة، وأذاعوا ذلك في الصحف والأندية، وأدخلوه كتب المدارس، وأشادوا به، وبلغوا في ذلك مبلغاً لا حدّ له. ثم جاءوا فأنشأوا أدبهم الجديد على هذا الأساس، وربطوا بين فكرهم الجديد، وبين هذا القديم برباط وثيق، حتى أنهم ليغضون الطرف عن أي أدب لا يتصل فيه الحديث بالقديم، ولا الحاضر بالماضي. وإن أي كاتب لا يفعل ذلك، فهو في نظرهم مقصر عاجز، جدير بأن يقصى عن مكان الشهرة والتبريز.

وليس هذا التراث اليوناني في حقيقته إلا بعض القصص والأساطير

القديمة التي أغضى عنها العرب حين ترجموا التراث اليوناني في الفلسفة والعلم، لأنهم لم يجدوا فيها فناً جديداً أو ثقافةً نافعة. بل مزيجاً من الخيال المغرق، ونداء الغريزة وألاعيب الحواة.

وبينما يفعل الغرب هذا نقف نحن هذا الموقف الشائن، تحت ضغط سيطرة «عقدة الأجنبي» الذي دعا بيننا دعوته الباطلة فصدقناها وأخذنا بها.

وقع هذا بالنسبة لتراثنا العربي الإسلامي الضخم الحافل بالآثار الحية النابضة بالقوة والإيجابية. هذا التراث المتصل بالحياة نفسها في جميع فنونها الروحية والعقلية والقانونية والاقتصادية والعلمية. هناك حيث تجد العشرات، بل المئات من أعلام الفكر والأدب أمثال: ابن خلدون والمتنبي وابن حزم والجاحظ والغزالي وابن تيمية وابن القيم، وعشرات لهم آثار حية باقية على الزمن مرتبطة بالحياة لا تنفصل عنها، وهي ما زالت تنبض قوة وتجري مع التطور والزمن.

(خامس عشر)

يحدث هذا بينما نجد الغرب في بدء نهضته يقوم على أساس هذا التراث فيترجمه ويبدأ به، ويأخذ منه، ثم يمضي على هواه. ويعترف بذلك أعلام منصفون من كتاب الغرب وفلاسفته أمثال: سيديو وجوستاف لوبون وتوماس أرنولد.

فنحن الذين حملنا «أمانة الحضارة» إبان العصور الوسطى المظلمة التي عاشتها أوروبا. عندما كانت تمضي في ظل ليل الجمود، كانت منارات الأندلس والمغرب والقاهرة وبغداد ودمشق تشع حضارة وثقافة، وتحمل لواء التطور والنهضة، وتنشىء المنهج العلمي التجريبي.

ومن ثم كانت دعوى الانفصال عن الماضي خدعة كبرى، أذاعها الغرب بيننا ليفصلنا عن شخصيتنا الأصيلة النابضة بالحياة، وحتى يجعلنا صورة مشوهة من الغرب. كان الهدف هو فصلنا عن اللغة العربية،

وعن القرآن الكريم، وعن الإسلام، وعن الأمة العربية، وعن تراث أربعة عشر قرناً لم تستطع أن تفنيه مؤامرات هولاكو في بغداد حين أقام بالكتب جسراً على نهر الفرات، ولا النار التي أوقدها الكردينال في ساحات الأندلس حيث حرق بها آلاف الأسفار والكتب.

وما تزال الكتب الباقية بعد هذا تكون تراثاً ضخماً حياً، ليس منعزلاً عن الحياة، وليس هو من الأساطير والخرافات، وإنما هو قوة كبرى تحمل فكراً حياً نابضاً يضع الحلول للأزمات البشرية، وقضايا الإنسان في معركة التطور، ويحمل مع ذلك القيم والمثل العليا الهادية إلى حياة أفضل. ما أجدرنا اليوم أن نجعلها أساس نهضتنا، وأن نعيد بعثها على النحو الذي صنع به الغرب أساطير اليونان المغرقة في الجنس والخيال.

(سادس عشر)

واليوم يعود الغرب ليعلن في صراحة أن حضارته المادية قد بلغت غايتها في العنف والعسف، وأنها في حاجة إلى «سند» من ثقافة غير مادية. هذه الثقافة العربية المستمدة من الإسلام والتي تميزت عن ثقافة الشرق «الهند والصين» المتسمة بالروحية الخالصة، وثقافة الغرب (أوروبا وأمريكا) المتسمة بالمادية الصرفة. هنا في هذه (الأمة الوسط) يجد الغرب ثقافة تمتزج فيها الروح بالمادة، وحاجة الدنيا بحاجة الروح والعقل والمصير، ثقافة الإنسانية والتوحيد والإلتزام الأخلاقي.
وبعد فإن القاعدة هي أن الانفصال عن الماضي هو علامة الهزيمة والانهيار. فكل حاضر لا ماضي له، ولا مستقبل له.

والحق أن بناء الشخصية العربية الجديدة في ظل اليقظة، والثورة والبناء الصناعي على أسس قيم الفكر الإسلامي العربي هو مصدر القوة التي تحمي البناء. ذلك أن قيم هذا الفكر تجمع بين المادة والروح، والدنيا والآخرة، والعقل والقلب، وتمزج بينها جميعاً، ولا تذهب وراء المادة واللذة الخالصة، كما لا تذهب وراء الزهد والانعزال والسلبية.

فهو فكر يؤمن بحق الحياة، ويدعو إلى التفوق والصدارة، وبناء على الحق والعدل، ولكنه لا يجعل المادة غايته.

* * *

وبناء الشخصية العربية وفق أصول فكرها يقوم أساساً على مفاهيم أساسية واضحة:

* نحن أمة لها فكر حي متحرك متطور قادر على التجاوب مع الحضارات في مختلف الأزمنة، وفي كل مكان على هذا الكوكب.

* ولنا «شخصية» ذات طابع مميز لا يذوب في شخصية أخرى، وهي لا تتعالى بمكانها، وإنما تحافظ على مقوماتها مع فكر مفتوح على العالم تأخذ منه وتعطي.

* ولنا «تاريخ» عريض مليء بالأمجاد أبرز صوره هي قدرتنا على مقاومة الغزوات المتتابعة، وهزيمتها وإعطاء «الإنسانية» نماذج من النوابغ والأعلام في مختلف مجالات الفلسفة والفقه والفكر والفن والعلوم.

* لنا «لغة» خصبة قادرة على مواجهة الحضارات والثقافات، عاشت متطورة قادرة على الحياة، لا تموت ولا تتجزأ، لأنها لغة الأمة ولغة القرآن الكريم.

* لنا «تراث» من الفكر العربي الإسلامي الحي، ما يزال متصلاً بالحياة تتمثل فيه مفاهيم رائدة قادرة على أن تعطي الإنسان قيمه ومثله، وتحل قضاياه ومشاكله، وترسم علاقاته بالله والكون والناس.

المصادر والمراجع

المؤلف	الكتاب
دكتور محمد البهي	الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي
محمد المبارك	ذاتية الإسلام
دكتورة بنت الشاطىء	قيم جديدة للأدب العربي
الدكتور علي سامي النشار	مناهج البحث عن مفكري الإسلام
الدكتور عمر فروخ	التبشير والاستعمار
الدكتور محمد حسين هيكل	الشرق الجديد
الدكتور محمد أحمد الغمراوي	النقد التحليلي لكتاب الشعر الجاهلي
مالك بن نبي	الصراع الفكري في البلاد المستعمرة
محمد عبده	الإسلام بين النصرانية وبين العلم والمدنية
محمد أسد	الإسلام على مفترق الطرق
دكتور محمد محمد حسين	الحضارة الغربية والفكر الإسلامي
محمد بهجت الأثري	الاتجاهات الحديثة في الإسلام
جلال مظهر	مآثر العرب على الحضارة الأوروبية
عبد المنعم خلاف	المادية الإسلامية وأبعادها
محمد الغزالي	التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام
فتحي عثمان	أضواء على التاريخ الإسلامي

محمد خليفة التونسي	الخطر اليهودي
أنور الجندي	معالم الفكر العربي المعاصر
	الإسلام وحركة التاريخ
	القيم الأساسية للفكر الإسلامي والثقافة العربية .

الفهرس

